

الضَّوْءُ الْمُنِيرُ

عَلَى

النَّفْسِ الْمُنِيرِ

المجلد الأول

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي محمد الحمد الصائلي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي النشقي

المعروف بابن قيم الجوزية

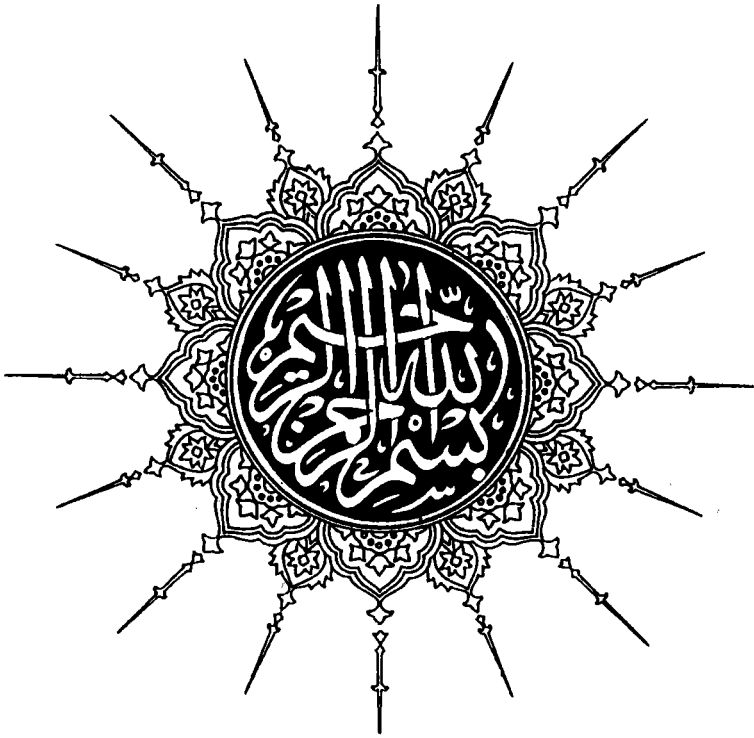
رحمة الله تعالى

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السلام



الضوء المُنِيرُ
على
النفسِ المُنِيرِ

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة - شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة- هاتف و فاكس: ٣٦٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض- شارع الضباب- هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٦٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لجامعه: علي بن حمد بن محمد الصالحي

الحمد لله حمداً كثيراً كما يحبه ويرضاه، على فضله وكرمه وجزيل عطاياه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي اختاره واصطفاه. والذي أرسله بكتابه المبين رحمة للعالمين. وعلى آله وأصحابه وأتباعه السائرين على هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد رأيت أن أذكر لك أخي سبب اعتناقي لهذا العمل وما لي فيه من الصنع؛ راجياً من الله أن ينفعني وإياك بما علمنا إنه جواد كريم.

ذلك بعد أن هداني الله لقراءة كتاب (مفتاح دار السعادة) لشمس الدين ابن القيم، رحمه الله، فراقني ما احتوى عليه من الفوائد المنوعة. وما أشبهه بجنة حوت جميع أنواع الفواكه والثمرات، ثم أعدت قراءته مرة ثانية فزادت رغبتني فيه: فرأيتني مشدوداً بالرغبة لقراءة بقية كتبه الموجودة. فكان ذلك والحمد لله.

ثم رأيت أن أكشف عن ناحية من هذا الكنز المدفون والفلك المشحون بأنواع العلوم والفنون، فأرشدني الله بهدايته إلى قسم التفسير فسررت في جمعه وقت فراغي عدة سنين، حرصاً على الإفادة والاستفادة. ولم أتمكن من استيعاب ما طرقة الشيخ من فن التفسير ولكني قاربت.

وقد صرفت النظر عن التكرار وعن مقارعة الشيخ للمبتدعة، إلا ما رأيت فيه كبير فائدة: كذلك صرفت النظر عن ترجمة الشيخ اختصاراً للوقت حيث قد تناولتها الأقلام قديماً وحديثاً.

ثم: أعلم أخي أنه بمراجعتي لكتب الشيخ، رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء، تبين لي أنه يحيل على مؤلفات لم تكن موجودة في محيطنا، وقد حاولت البحث عنها فلم أعثر على شيء منها سوى (كتاب السماع) وقد طبع والحمد لله.

وقد بحثت مع طائفة من علمائنا المعاصرين وعلى رأسهم شيخنا (عبد العزيز ابن عبد الله بن باز) فاتفق رأيهم على أن هذه الكتب لو كانت موجودة لوصلت إلينا عيناً أو خبراً.

ويقوي هذا أن فهارس مكتبات العالم وصلت إلينا ولم تذكر شيئاً عنها .
ويقوي هذا أيضاً أنه في وقت متقدم وجدت طائفة تبحث عن مؤلفات الشيخ فتشترها ؛ وتحرقها ؛ خشية انتشارها ، في وقت كان الاعتماد على المخطوطات في تدوين العلوم .

ومهما يكن فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قرائتي لكتب الشيخ ، رحمه الله ، أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بما يقارب اسمه أو موطن كتابته نسياناً منه لما سماه به ؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما بدليل ما يلي :

ذكر في (مفتاح دار السعادة) في صحيفة ٤٧ من المطبوعة ما نصه : «وسميته (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة) إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي عند بيته» إلى آخر ما ذكره مما يشير إلى مضمون (مفتاح دار السعادة) ومما يشير أيضاً إلى (روضة المحبين) في سطور . والشيخ ، رحمه الله ، أحال على أسماء كتب توحى بهذه الألفاظ لأنه ألفه بمكة .
وتوضيحاً لما ذكرته : فقد أحال في كتابه (بدائع الفوائد) ص ٦٢ ج ٢ في بحثه على قول الله تعالى : ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ . [البقرة : ١٤٦] . ثم قال : وقد بسطنا هذا في كتابنا (التحفة المكية) وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف .

وبالرجوع إلى كتاب المفتاح ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ ج ١ ؛ نجد البحث موسعاً فيه الفائدة التامة حول هذه الآية وغيرها مما يدور حول مخاطبة الله لأهل الكتاب .
ومن ذلك : أحال في كتاب (بدائع الفوائد) أيضاً ص ١١٩ ج ١ بقوله : وقد قررت هذا المعنى وبينت شواهد من القرآن . . . وكونه على الصراط المستقيم الخ . . . في كتاب (التحفة المكية) اهـ . وقد بحثه في المفتاح ص ٧٩ ج ٢ .
ومن ذلك أحال في البدائع أيضاً صحيفة ١٣٧ ج ٤ في بحثه على الحكمة في خلق الله آدم على كتابه (التحفة المكية) ، وذكر أنه ذكر من الحكم قريباً من أربعين حكمة وهي موجودة في أول المفتاح متوالية .

وبحثها أيضاً بإيجاز في (شفاء العليل) ص ٢٤١ في الوجه السابع والعشرين . وأحال في البدائع ص ٢١٥ ج ٢ على (الفوائد المكية) ، وينطبق على ما

في المفتاح ص ١٠٢ وص ١٠٣ وص ١٠٤ ج ١ وهنا سماه (الفوائد المكية) وسبق قريباً أنه سماه (التحفة المكية). **ومن** ذلك أحال في كتابه (مدارج السالكين) ص ٤٩٠ ج ٣ ولفظه: وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب (مفتاح دار السعادة) وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً تبطل قول من نفى التقبيح العقلي إلى آخر ما ذكر. وقد ذكر هذا في المفتاح ص ٦٢ ج ٢ حتى ص ١١٠ وقبلها ذكر مقدمة مطولة ثم ذكرها واحداً وستين وجهاً قال في آخرها: فهذه مجامع طرق العالم إلى آخر كلامه.

ثم إننا نجده أحال في المدارج ص ٢٣ ج ١ ولفظه: (وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً في كتابنا المسمى (تحفة النازلين)، وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك. وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب وبيننا بطلانه. والبحث في مسألة التحسين والتقبيح التي مرت بك قريباً.

وهناك إحالات كثيرة لم يتسن لي تطبيقها بوضوح لكنها في رأيي - والحقيقة يعلمها الله - أنها ترجع إلى كتاب المفتاح وهي إحالات. باسم (الفتح المكي)، و(التحفة المكية)، و(تحفة النازلين)، و(الأمال المكية)، و(الفوائد المكية).

وأيضاً فهناك إحالات باسم (الفتوحات القدسية) في مشاهد الخلق في مواجهة الذنب، وأخرى بنفس البحث باسم (سفر المهجرتين)، يترجح عندي أنها تنطبق على (سفر المهجرتين)، وعلى (مفتاح دار السعادة).

ومن ذلك أحال في (الجواب الكافي) رقم ٤٥ على كتاب (إيمان القرآن) عند قول الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾. [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وأحال فيه أيضاً رقم ٢٧٣ ولفظه: وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (أقسام القرآن). **علماً** بأن هذا الكتاب يسمى (التبيان في أقسام القرآن) وهذا الكتاب لم يُبدأ بمقدمة ولم يرتب على نسق سور القرآن، فلعله جزء من كتاب. فهذه ثلاثة أسماء الظاهر أنها على مسمى واحد.

وأيضاً ذكر في كتاب المفتاح حكم داود وسليمان عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وذكر أنه رجح الحكم السليمانى من وجوه في كتابه (الاجتهاد والتقليد). وبمراجعتي لـ (أعلام الموقعين) وجدت البحث في فصل مستقل طبقاً للعناصر التي ذكرها في المفتاح ص ٣٢٦ ج ١. ثم إني رجعت إلى مقدمة الأعلام فلم

أجد المؤلف سماه بأي اسم . فلا أدري كيف التوفيق؟ بينما ذكره في المفتاح وبين ما اشتهر بين الناس من تسميته بـ (أعلام الموقعين) . وتمر على إحالات باسم (المعالم) يظهر لي أنها تنطبق على (أعلام الموقعين) . من ذلك ما ذكره في (إغاثة اللهفان) ص ٢٢ ج ١ إحالة على كتاب (المعالم) وذلك في أسرار المثليين المائي والناري ، والشيخ قد بحث المثليين وغيرهما من أمثال القرآن في (أعلام الموقعين) بتوسع ، وبعضها في (اجتماع الجيوش الإسلامية) .

ومن الغريب أن البعض نقل هذه الأمثال حرفياً وجعلها كتاباً مستقلاً ، وتناقلها الناس ظناً منهم أنها تأليف مستقل . ونقل البعض أيضاً من (بدائع الفوائد) تفسير المعوذتين وطبعت مستقلة .

ونقل البعض أيضاً من (إغاثة اللهفان) رسالة سماها : «الزيارة الشرعية والزيارة الشريكة» وبما ذكرت كان لي شبه اقتناع أن الشيخ يحيل بما في ذاكرته أو قريباً منها دون الرجوع إلى ما كتبه . ويمكن أن يكون بعض هذه الكتب مأخوذة من كتبه التي لم تصل إلينا ، أو أن أحداً تصرف في تسميتها غيره بعد وفاته أو قبلها ، لأنه كان مسجوناً مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى توفي الشيخ ، رحمه الله .

وبما ذكرته ألفت عصا الترحال ، وأقمت للشيخ العذر لما عرفته من واقع حياته التي تغلي بالمشاكل مع خصومه وخصوم شيخه ، أضف إلى ذلك ما هو مهمتهم به من الكتابة وإيجاد البحوث ومقارنة الخصوم دون مراجعة ما يكتبه أملاً أن يمد الله في عمره ويراجع ما كتب . **يؤيد** ذلك أن له تمنيات في كتابة بحوث لم يتمكن منها أو لم تصل إلينا . وله بحوث في (زاد المعاد) وإحالات على مواضع لم توجد ، والظاهر أن هذا الكتاب من آخر ما كتب .

وأعتقد اعتقاداً قوياً أن المشاكل ومقارنة الخصوم الحاقدين والحاسدين ، حالت دون مراجعة ما كتب . وأنسته الأسماء المطابقة لواقع ما سماها به .

زد على ذلك أنه سُجن تبعاً لشيخه ولا تخفى حالة السجين . وزد على ذلك أنه كان يكتب في السفر والحضر ، وغير خاف ظروف الأسفار في وقته .

ففي هذه الأحوال يُعذر ويشكر على ما بذله من جهد في البحث والتأليف المثمر ، فجزاه الله خير الجزاء وضاعف له المثوبة والعطاء .

والذي يهمني من هذا التقديم أن محبِّي ما أثار عن الشيخ يصرفون النظر عن المفقود، ويمعنون في الموجود. ويأخذ كل واحد منهم بنصيب، لأن كتابات الشيخ كنوز تنتظر من يكشف عنها.

ففيها بحوث التوحيد والتفسير، والحديث، والفقه، وبحوث القواعد المنوعة، والطب والسلوك، وغير ذلك من الفنون.

فنرجو الله أن يهيء لها من شباب الإسلام من يعتني بها لتمام الانتفاع بها، إنه كريم جواد. ثم اعلم - أيها القارئ الكريم - أن ما جمعته ينقصه الربط في بعض المواضع. وذلك بسبب أني التزمت أن لا أدخل فيما جمعته غير كلام المؤلف، رحمه الله، إلا ما نقله هو عن غيره وهو نادر جدًا. وقد أبحت لنفسي الحذف والاختصار حسب رأيته.

وقد تلجؤني الضرورة نادرًا إلى إيضاح ضروري أضعه بين قوسين مثل إيضاح إشارة، أو ضمير يعودان إلى ما تقدم. ثم اعلم أن من سبقني من جمع تفسير الشيخ لم يف بالغرض. فحاولت رأب الصدع بجهدني ولا أدعي الإحاطة وقد تم بحمد الله ما قصدت.

ثم اعلم أيضًا أنه كان بودي أن أعود إلى مراجعة كتب الشيخ، ولكن شمس الحياة قد شارفت على الغروب، راجيًا من الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا لرضوانه وإلى جنات النعيم. ثم إنني أرجو منك دعوة صالحة بظهر الغيب تعود عليك. كما أرجو منك الإرشاد لما تراه من خلل.

كما أني أرجو منك أخي القارئ أن تنظر إليه بعين الرضا والتغاضي، لأن التسامح من شيم الكرام. وأعوذ بالله من شر كل حاسد أو مغالط أو غامط. وقد سميت هذا المجموع: «الضوء المنير على التفسير».

أخي القارئ ستجد أول البحث إن كان له سابق (. . .) وستجد في آخره (. . .) إن كان له بقية في الأصل الذي نقل منه. وستجد في الحاشية رقم الصحيفة، ورقم الجزء إن كان الكتاب ذا أجزاء.

وستجد بعض الإرشادات والإحالات على البحث، إن كان له بقية، لأنه ليس من هدي في نقل جميع ما كتبه الشيخ خشية التطويل وإملال القراء. والإحالة كفيلة برغبة القارئ.

وستجد بعض التعليقات ، فإن كانت من الأصول المأخوذ عنها فسأبقئها على ما هي عليه ، وإن كان لي شيء منها ذكرت في آخره (ج) رمزاً لي . ولا يفوتني أن أذكر لك - أخي الكريم - أن الأرقام للصفحات والأجزاء تنطبق على الطبعات التي نقلت منها ، وها أنا أذكر لك أسماء الطبعات وأسماء الكتب التي نقلت منها ، وما نقلته من غير ما ذكرته هنا أحيل عليه في موضعه .

اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
١ إغاثة اللفهان	٢	دار المعرفة - بيروت .
٢ أحكام أهل الذمة	٢	دار العلم للملايين .
٣ أعلام الموقعين	٤	مطبعة السعادة .
٤ التبيان في أقسام القرآن	١	طباعة دار الإفتاء .
٥ الجواب الكافي	١	طبعه الشيخ عبدالظاهر أبوالمسمع
٦ جلاء الإفهام	١	دار الطباعة المحمدية .
٧ تحفة المودود	١	المطبعة الهندية على نفقة علي بن ثاني .
٨ حادي الأرواح	١	طبع على نفقة الشيخ قاسم بن ثاني .
٩ شفاء العليل	١	المطبعة الحسينية .
١٠ الفوائد	١	طبع على نفقة عمر بن عبدالجبار .
١١ بدائع الفوائد	٢	المطبعة المنيرية .
١٢ الفروسية	١	مطبعة الأنوار .
١٣ زاد المعاد	٤	مطبعة السنة المحمدية .
١٤ روضة المحبين	١	طبع على نفقة الملك عبدالعزيز .
١٥ الروح	١	الطبعة الثالثة ، مطبعة الإدارة .
١٦ طريق المهجرتين	١	طبع على نفقة محمد الصالح .
١٧ كتاب الصلاة	١	الطبعة الخامسة لدار الإفتاء .
١٨ المنار المنيف	١	تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبي غدة .
١٩ مختصر الصواعق	١	طباعة دار الإفتاء .

٢٠ مفتاح دار السعادة	١ دار الكتب العلمية
٢١ مدارج السالكين	٣ مطبعة السنة المحمدية .
٢٢ عدة الصابرين	١ المطبعة السلفية بمصر .
٢٣ الطرق الحُكْمِيَّة	١ مطبعة السنة المحمدية .
٢٤ اجتماع الجيوش الإسلامية	١ مطبعة الإمام .
٢٥ تهذيب مختصر أبي داود	٨ مطبعة السنة المحمدية .
٢٦ هداية الحيارى	١ مؤسسة مكة للطباعة .

وهناك كتب أخرى ذكرها بعض المترجمين للشيخ ابن القيم .
منها: كتاب (أخبار النساء) منسوباً إلى الشيخ ابن القيم ، فالله يكافئ من نسبه إليه ، ولم يذكر أحد من المحققين أنه له .
ومنها: (أمثال القرآن) ، وقد نوهنا عنه أنه منقول من أعلام الموقعين حرفياً .
ومنها: (إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان) ، ولم آخذ منه .
وذكر بعض المترجمين أن له كتباً أخرى لم نعرف وجودها . وقد نوهنا عن رأينا عنها فيما سبق .

وختاماً نرجو الله أن ينفعنا بما علمنا وأن لا يجعله وبالاً علينا ، كما نرجو الله أن يرد المسلمين إليه رداً جميلاً ، وأن يهدي ولائهم لتحكيم كتابه وسنة نبيه .
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى من سار على هديه إلى يوم الدين .

الجامع :

علي الحمد المحمد الصالحى

مقدمة في آداب قراءة القرآن

فصل (١)

في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به، وتوابع ذلك.

كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يُخلّ به. وكانت قراءته ترتيلاً، لا هذلاً ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. وكان يُقطع قراءته آية آية. وكان يمد عند حروف المد، فيمد «الرحمن» ويمد «الرحيم».

وكان يستعيز بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وربما كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم: من همزه، ونفخه، ونفثه» وكان تعوذه قبل القراءة. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره. وأمر عبد الله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع.

وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

وكان يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً، ومتوضئاً ومُحْدثاً، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. وكان ﷺ يتغنّى به، ويرجع صوته به أحياناً، كما رجع يوم الفتح في قراءته ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. [الفتح: ١].

وحكى عبد الله بن مغفل ترجيعه «آآآ» ثلاث مرات، ذكره البخاري.

وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» وقوله: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

وقوله: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن».

علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً، لا اضطراراً لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه، ويفعله اختياراً ليؤتسى به، وهو يرى هز الراحلة له، حتى ينقطع صوته ثم يقول: «كان يرجع في قراءته» فنسب الترجيع إلى فعله. ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً.

وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري ، فلما أخبره بذلك قال : « لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبته لك تحبيراً » أي : حسنته وزينته بصوتي تريئناً .
وروى أبوداود في سننه عن عبد الجبار بن الورد قال : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبدالله بن أبي يزيد : « مر بنا أبولبابة فاتبعناه حتى دخل بيته ، فإذا رجل رث الهيئة ، فسمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد ، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ قال : يُحسّنه ما استطاع .^(١)

^(٢) **وكان** ﷺ يقطع قراءته ، ويقف عند كل آية ، فيقول : « الحمد لله رب العالمين » ويقف « الرحمن الرحيم » ويقف « مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ » .
وذكر الزهري : أن قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية ، وهذا هو الأفضل ، الوقوف على رءوس الآيات ، وإن تعلقت بها بعدها .

وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد ، والوقوف عند انتهائها .
وأتباع هدي النبي ﷺ وسنته أولى . ومن ذكر ذلك البيهقي في شعب الإيمان وغيره ، فإنه يرجح الوقوف على رءوس الآي ، وإن تعلقت بها بعدها . وكان ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها ، وقام بآية يرددها حتى الصباح^(٣) .

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة ، أو السرعة ، مع كثرة القراءة : أيها أفضل ؟ على قولين . فذهب ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها .
واحتم أبواب هذا القول بأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره ، والفقه فيه والعمل به ، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه .

كما قال بعض السلف « نزل القرآن ليُعمل به » فاتخذوا تلاوته عملاً .
ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به ، والعاملون به فيه ، وإن لم يحفظوه عن

(١) بحث المؤلف رحمه الله قراءة الألقان هنا في زاد المعاد وفصل فيها تفصيلاً كاملاً بدءاً من ص ٢٧٨ -

إلى ص ٢٨٥ ج١ فمن أراد فليرجع إليه . ج . (٢) ١٨٢ زاد المعاد ج١ .

(٣) روى النسائي عن جسة بنت دجاجة عن أبي ذر قال : قام النبي ، ﷺ ، بآية حتى أصبح ، والآية : ﴿ وَإِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَمْنَحُوا عِبَادَكَ وَلَا تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] .

ظهر قلب . وأما من حفظه ولم يفهمه ، ولم يعمل بما فيه : فليس من أهله ، وإن أقام حروفه إقامة السهم .

قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال ، وفهم القرآن وتدبره : هو الذي يثمر الإيمان .
وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر ، فيفعلها البر والفاجر ، والمؤمن والمنافق ، كما قال النبي ﷺ : «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن : كمثل الريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر» . والناس في هذا أربع طبقات : أهل القرآن والإيمان ، وهم أفضل الناس .
الثانية: من عدم القرآن والإيمان . الثالثة : من أوتي قرآنًا ولم يؤت إيمانًا .
الرابعة: من أوتي إيمانًا ولم يؤت قرآنًا .

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانًا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنًا بلا إيمان ، فكذلك من أوتي تدبراً وفهماً في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر .
قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ فإنه كان يرتل السورة ، حتى تكون أطول من أطول منها وقام بآية حتى الصباح .

وقال أصحاب الشافعي : كثرة القراءة أفضل ، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول آلم ، حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» رواه الترمذي وصححه .

قالوا: ولأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ القرآن في ركعة ، وذكروا آثاراً عن كثير من السلف في كثرة القراءة .

والصواب في المسألة أن يقال : إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا ، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا .

فالأول: كمن تصدق بجمهرة عظيمة ، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً .

والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم ، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة . **وفي** صحيح البخاري عن قتادة قال : «سألت أنساً عن قراءة النبي ﷺ ؟ فقال : كان يمد مدًا» .

وقال شعبة : حدثنا أبو جمرة قال : قلت لابن عباس «إني رجل سريع القراءة ،

وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين؟ فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً ولا بد، فاقراً قراءة تُسمع أذنك، ويعيها قلبك».

وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت، فقال «رتّل فذاك أبي وأمي، فإنه زين القرآن».

وقال ابن مسعود: «لا تهذؤا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نشر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وقال عبدالله أيضاً: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه»...

وكان رسول الله ﷺ يُسرُّ بالقرآن في صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة، ويوتر آخر الليل، وهو الأكثر وأوله تارة وأوسطه تارة.

فصل^(١)

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾. [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاذه، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع الفكر فيه على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقيرهما. وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها، ومآل أهلها، وتتل في يده^(٢) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة.

وتثبت قواعد الإيمان في قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وترى صورة الدنيا

(٢) تل الشيء في يده - بالمشاة المفتوحة - وضعه فيها.

والآخرة، والجنة والنار في قلبه **وتحضره** بين الأمم، وترىه أيام الله فيهم. وتُبصره مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله.

وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها.

وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.

وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترون فيه. . . .

(١) وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبیباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.

فصل (٢) في هديه ﷺ في سجود القرآن

كان ﷺ إذا مر بسجدة كبر، وسجد، وربما قال في سجوده «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته» وربما قال: «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» ذكرهما أهل السنن، ولم يذكر عنه: أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود. ولذلك لم يذكره الخرقى ومتقدمو الأصحاب، ولا نقل فيه عنه تشهد ولا سلام ألبته. وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي: أنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم فلا أدري ما هو؟ وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره.

وصح عنه ﷺ أنه سجد في ﴿آلم تنزيل﴾ وفي ﴿ص﴾ وفي ﴿النجم﴾ وفي ﴿إذا السماء انشقت﴾ وفي ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وذكر أبوداود عن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة: منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» وأما حديث أبي الدرداء: «سجدت مع رسول الله ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل،

وبني إسرائيل، ومريم، والحج، وسجدة الفرقان، والنمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم» فقال أبوداود: رُوي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «إحدى عشرة سجدة» وإسناده واهٍ.

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لم يسجد في الفصل منذ تحول إلى المدينة» رواه أبو داود: فهو حديث ضعيف؛ في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتاج بحديثه، قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال النسائي: صدوق عنده مناكير. وقال أبوحاتم البستي: كان شيخاً صالحاً من كثرة وهمه. وعلمه ابن القطان بمطر الوراق. وقال: كان يشبهه في سوء الحفظ محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعيب على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه. ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه؛ لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه. فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة. ومن ضعف جميع حديث سيء الحفظ. فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله. وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن. والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة «أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. [العلق: ١]. وفي ﴿إذا السماء انشقت﴾. [الانشقاق: ١]. وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع. فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة، لتعين تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة، متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه؟ والله أعلم.

^(١) **المثال الثامن والستون:** رد السنة الثابتة في إثبات سجدة الفصل، والسجدة الأخيرة من سورة الحج، كما روى أبوداود في السنن: حدثنا محمد بن عبدالرحيم البرقي: ثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا نافع بن يزيد، عن الحارث بن سعيد العتقي، عن عبدالله بن منير، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في الفصل، وفي سورة الحج سجدة» تابعه

محمد بن إسماعيل السلمي عن سعيد بن أبي مريم، وقال ابن وهب: أنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجديتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما» وحديث ابن لهيعة يحتج منه بما رواه عنه العبادلة: كعبدالله بن وهب، وعبدالله بن المبارك، وعبدالله بن يزيد المقرئ، قال أبو زرعة: ابن لهيعة كان ابن المبارك وابن وهب يتبعان أصوله، وقال عمرو بن علي: مَنْ كَتَبَ عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وابن المقرئ أصح ممن كتب عنه بعد احتراقها، وقال ابن وهب: كان ابن لهيعة صادقاً، وقد انتقى النسائي هذا الحديث من جملة حديثه، وأخرجه، واعتمده، وقال: ما أخرجت من حديث ابن لهيعة قط إلا حديثاً واحداً أخبرنا هلال بن العلاء: ثنا معاذ بن سليمان، عن موسى بن أعين، عن عمرو بن الحارث، عن ابن لهيعة، فذكره.

وقال ابن وهب: حدثني الصادق البار - والله - عبدالله بن لهيعة، وقال الإمام أحمد: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال ابن عيينة: كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع، وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ما كان يحدث مصر إلا ابن لهيعة، وقال أحمد بن صالح الحافظ: كان ابن لهيعة صحيح الكتاب طالباً للعلم.

وقال ابن حبان: كان صالحاً؛ لكنه يدلّس عن الضعفاء، ثم احترقت كتبه، وكان أصحابنا يقولون: سماع مَنْ سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العبادلة: ابن وهب، وابن المبارك والمقرئ والقعني فسماعهم صحيح، وقد صح عن أبي هريرة؛ أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. [الانشقاق: ١]. وصح عنه ﷺ أنه سجد في النجم، ذكره البخاري.

فردت هذه السنن برأي فاسد وحديث ضعيف:

أما الرأي فهو أن آخر الحج السجود فيها سجود الصلاة لاقرانه بالركوع، بخلاف الأولى؛ فإن السجود فيها مجرد عن ذكر الركوع، ولهذا لم يكن قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [آل عمران: ٤٣]. من مواضع السجودات بالاتفاق.

وأما الحديث الضعيف فما رواه أبو داود: ثنا محمد بن رافع: ثنا أزهر بن القاسم: ثنا أبو قدامة، عن مطر الوراق، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي،

ﷺ، «لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة». فأما الرأي فيدل على فساد وجهه: منها أنه مردود بالنص.

ومنها أن اقتران الركوع بالسجود في هذا الموضع لا يخرج عن كونه موضع سجدة، كما أن اقترانه بالعبادة التي هي أعم من الركوع لا يخرج عن كونه سجدة، وقد صح سجوده، ﷺ، في النجم، وقد قرن السجود فيها بالعبادة كما قرنه بالعبادة في سورة الحج، والركوع لم يزد إلا تأكيداً.

ومنها أن أكثر السجرات المذكورة في القرآن متناولة لسجود الصلاة؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. [الرعد: ١٥]. يدخل فيه سجود المصلين قطعاً، وكيف لا وهو أجل السجود وأفضله؟ وكيف لا يدخل هو. في قوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾. [النجم: ٦٢]. وفي قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. [العلق: ١٩]. وقد قال قبل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾. [العلق: ٩، ١٠]. ثم قال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. [العلق: ١٩]. فأمره بأن يفعل هذا الذي نهاه عنه عدو الله، فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدتها وتقويها.

يوضحه أن مواضع السجرات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر.

فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها، وآيات الأوامر بطريق الأولى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾. [النجم: ٦٢]. مقتضى الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾. [الحج: ٧٧]. فالساجد إما متشبه بمن أخبر

عنه، أو ممتثل لما أمر به، وعلى التقديرين يُسنُّ له السجود في آخر الحج كما يسن له السجود في أولها؛ فلما سَوَّت السنة بينهما سوى القياس الصحيح والاعتبار الحق بينهما، وهذا السجود شرعه الله ورسوله عبودية عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذللًا بين يديه، واقتران الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [آل

عمران: ٤٣]. فإنها لم يكن موضع سجدة؛ لأنه خبر خاص عن قول الملائكة لامرأة بعينها أن تُديم العبادة لربها بالقنوت وتصلي له بالركوع والسجود؛ فهو خبر عن قول الملائكة لها ذلك، وإعلام من الله تعالى لنا أن الملائكة قالت ذلك لمريم، فسياق ذلك غير سياق آيات السجدة.

وأما الحديث الضعيف فإنه من رواية أبي قدامة - واسمه الحارث بن عبيد - قال الإمام أحمد رضي الله عنه: هو مضطرب الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الأزدي: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قلت: وقد أنكر عليه هذا الحديث وهو موضع الإنكار؛ فإن أبا هريرة رضي الله عنه شهد سجوده ﷺ في الفصل في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. و ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. [العلق: ١]. ذكره مسلم في صحيحه، وسجد معه، حتى لو صح خبر أبي قدامة هذا لوجب تقديم خبر أبي هريرة عليه؛ لأنه مثبت فمعه زيادة علم، والله أعلم.

المثال التاسع والستون: رد السنة الثابتة الصحيحة في سجود الشكر، كحديث عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ خرج نحو أحد فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، ثم قال: «إن جبريل أتاني وبشَّرني فقال: إن الله تعالى يقول لك: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَسَجَدْتُ لِلَّهِ تَعَالَى شَاكِرًا» وكحديث سعد بن أبي وقاص في سجوده ﷺ شاكرًا لربه، لما أعطاه ثلث أمته، ثم سجد ثانية فأعطاه الثلث الآخر، ثم سجد ثالثة فأعطاه الثلث الباقي، وكحديث أبي بكر، أن رسول الله ﷺ «كان إذا جاءه أمر يُسرُّ به خر ساجدًا شكرًا لله تعالى، وأتاه بشير يبشره بظفر جُنْدٍ له على عدوهم، فقام وخر ساجدًا».

وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه، وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مُسَيْلَمَةَ الكذاب، وسجد علي كرم الله وجهه حين وجد ذا الثُدَيَّة في الخوارج الذين قتلهم، ولا أعلم شيئًا يدفع هذه السنن والآثار مع صحتها وكثرتها غير رأي فاسد، وهو: أن نعم الله سبحانه وتعالى لاتزال واصله إلى عبده، فلا معنى لتخصيص بعضها بالسجود، وهذا من أفسد رأي وأبطله؛ فإن النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود

الشكر؛ شكرًا لله عليها، وخضوعًا له، وذلاً في مقابلة فَرَحَةِ النعم وانبساط النفس لها، وذلك من أكبر أدوائها؛ فإن الله سبحانه لا يحب الفرحين ولا الأشرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره، ونظير هذا السجود عند الآيات التي يُخوف الله بها عباده كما في الحديث: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» وقد فزع النبي ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة، وأمر بالفزع إلى ذكره، ومعلوم أن آياته تعالى لم تزل مشاهدة معلومة بالحس والعقل، ولكن تجددتها يحدث للنفس من الرهبة والفزع إلى الله ما لا تحدثه الآيات المستمرة، فتجدد هذه النعم في اقتضاؤها لسجود الشكر كتجدد تلك الآيات في اقتضاؤها للفزع إلى السجود والصلوات، ولهذا لما بلغ فقيه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس موت ميمونة زوج النبي ﷺ خر ساجداً، ف قيل له: أتسجد لذلك؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ من بين أظهرنا؟ فلو لم تأت النصوص بالسجود عند تجدد النعم لكان هو محض القياس، ومقتضى عبودية الرغبة، كما أن السجود عند الآيات مقتضى عبودية الرهبة، وقد أنشئ الله سبحانه على الذين يُسارعون في الخيرات ويدعون رَغَباً ورَهَباً، ولهذا فرق الفقهاء بين صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء بأن هذه صلاة رهبة وهذه صلاة رغبة، فصلوات الله وسلامه على مَنْ جاءت سنته وشريعته بأكمل ما جاءت به شرائع الرسل وسنتهم وعلى آله.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **فاتحة الكتاب** : وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها، وأعطاهها حقها. وأحسن تنزيلها على دائه. وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها. والسر الذي لأجله كانت كذلك. **ولما وقع بعض الصحابة على ذلك رقى بها اللديغ. فبرأ لوقته. فقال له النبي ﷺ: «وما أدراك أنها رقية؟»**

ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية. والتوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله وييده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى.

فصل (٢)

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقتها لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم. ولا تحصل هدايته إلا بإعانتة وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها - علماً وشهوداً وحالاً ومعرفة - علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غي ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

(٣) **والعبد** إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولاً: هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة. **فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقدم عليه حتى ينظر هل هو مُعانٍ عليه أم لا؟** فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه.

وإن كان مُعَاناً عليه بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئاً.

فهذه الأمور الثلاثة أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦، ٥].

فأسعد الخلق أهل العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معدوم أو ضعيف؛ فهذا مخذول مهين محزون.

ومنهم من يكون نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قوياً ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضعيفاً أو مفقوداً؛ فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة.
ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً، كحال كثير من العباد. والزهاد الذين قلَّ علمهم بحقائق مابعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

(١) صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. [الفاتحة: ٦، ٥]. فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: من معنى ألوهيته، والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تأله القلوب: محبة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيماً، وذلاً، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً، والرب هو الذي يُربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحة. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ماسواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ماسواه...

(٢) ثم قوله ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إيها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريداً للهدى محباً له مؤثراً له عاملاً به، فهذه

الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [القصص: ٥٦]. مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾. [التوبة: ١١٥]. فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء. التي لا يضل من هداه بها. فذاك عدله فيهم وهذا حكمته فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق . . . ٣٣ . . .

والمقصود ذكر بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين ودخولها تحت قدرته ومشيتته كما دخلت تحت علمه وكتابه.

قال تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. [الزمر: ٦٢]. وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته فإنه الخالق بذاته وصفاته وماسواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخله في مسمى اسمه.

فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيتته.

^(١) **والهداية** هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد.

ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراد له عجز عن كثير منه فهو

مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل .

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه . وهل وقع على السداد؟ فيشكر الله عليه ويستديمه ، أم خرج فيه عن الحق؟ فيتوب إلى الله تعالى منه ، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود .

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق .

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراباً إليها .

وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد ، وهو: إنا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! . وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟ أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومساها ، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدملها لنا .

ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة .

لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح ، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة . ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها . فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لابد من عدم مانعه ومنافيه .

(١) الإنسان قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية .

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه ، ومعرفة أسماؤه وصفاته ، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها .

فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية . وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها .

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه - سبحانه - على

العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً لِمَنِّهِ عليه وتقديره هو في أداء حقه، فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعاونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم؛ الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾. [الفاتحة: ١-٣]. يتضمن الأصل الأول؛ وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى؛ وهي اسم الله، والرب، والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعاونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدائيته.

وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله

إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحدته الجاحدون وعدل به المشركون. **فمن** تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عواء المتعبدین، والله المستعان.

(١) فصل

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لها ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويحببنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المحرومين وطريق الضالين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق.

(٢) فصل

إذا عرفت هذه المقدمات: فالجمع الصحيح - الذي عليه أهل (الاستقامة) - هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قِيُومِيَّةُ الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة - ظاهراً وباطناً - غيره. فما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال التي لها كل الأسماء الحسنی.

ثم يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً. قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿وَيَايَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل والتفويض. فيشهد منه جمع الربوبية. ويشهد من: ﴿يَايَاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية. ويشهد من: ﴿يَايَاكَ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى. ثم يشهد من ﴿أَهْدِنَا﴾ عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية: المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له. الثانية: أن يُقدره عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له. الرابعة: أن يجعله فاعلاً له. الخامسة: أن يثبت على ذلك. ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى.

فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشْهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشْهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشْهده الطريقتين المنحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم يشهد جمع ﴿الصراط المستقيم﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فقد هدي إلى الصراط المستقيم. والله أعلم.

(١) فصل

إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التمتع بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته. فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض وكل امتناع وكف، ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين: بالدين الفاسد، والدنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنهما فيهما ضده. ففاتهم النعيم من حيث طلبوه، وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها ديناً: أو لا يتخذوها ديناً. **والذين** يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق، وإما أن يكون ديناً باطلاً. **فنقول:** النعيم التام: هو في الدين الحق علماً وعملاً، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل.

كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [البقرة: ٥]. وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [البقرة: ٣٨]. وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. [الانفطار: ١٣-١٤]. والقرآن مملوء من هذا. **فَوَعِدْ أَهْلَ الْهُدَى وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ بِالنَّعِيمِ التَّامِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَوَعِدْ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْفُجُورَ بِالشَّقَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ، مِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَتَضَمَّنَتْهُ الْكُتُبُ. وَلَكِنْ نَذَرُ هُنَا نَكْتَةً نَافِعَةً.**

وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل.

وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. [المنافقون: ٨]. وقوله: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. [الصفات: ١٧٣]. وقوله: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. [الأعراف: ١٢٨]. ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط. وقال: أما الدنيا فإننا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر. والقرآن لا يرد بخلاف الحس.

ويعتمد على هذا الظن إذا أدل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين: وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى. فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذكر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط. وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه، وأهل الحق؟

فإن كان ممن لا يعمل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾. [الأنبياء: ٢٣].

وإن كان ممن يعمل الأفعال، قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه بثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته، من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غليانا. . .

(١) وقد جاء في السنة ما هو أخص من الحمد وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد

كما في قول النبي ﷺ لأهل قبا: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟»، فإذا كان قد أثنى عليهم والثناء حمد متكرر، فما يمنع حمده لمن شاء من عباده. ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمداً أنه الذي يحمده الله وملائكته وعباده المؤمنون، وأما من قال: الذي يحمده أهل السموات وأهل الأرض فلا ينافي حمد الله تعالى،

بل حمد أهل السموات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمده الله حمده أهل السموات والأرض.

وبالجملة فإذا كان الحمد ثناء خاصاً على المحمود لم يمتنع أن يحمد الله من يشاء من خلقه كما يثني عليه، فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولما كان هذا المعنى مقارناً للحمد لا تقوم حقيقته إلا به؛ فسرّه من فسرّه بالرضى والمحبة وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء؛ ولهذا السر - والله أعلم - جاء فعله على بناء الطباع والغرائز، ف قيل: حمد لتضمنه الحب الذي هو بالطباع والسجايأ أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح؛ فإنه جاء على وزن فعل فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطباع. فتأمل هذه النكتة البديعة وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟ ولذلك لا يقال: موضعها المدح لله، ولا ربنا لك المدح، وسره ما ذكرت لك من الأخبار بمحاسن المحمود إخباراً مقترناً بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه؛ فإن الله تعالى لا يتعاضمه شيء ولا يستحق التعظيم غيره فكيف يعظم أحداً من عباده؟ قلت: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيزه وإجلاله وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبة الرب عبده فإنها تستلزم إعزازة لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحده لعبده سمي تعظيماً وإجلالاً أو لم يسم.

ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نوه بذكرهم في أهل السماء والأرض، ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم، وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم، وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم؟

أولا ترى كيف أمر عباده وأوليائه بالصلاة، التي هي تعظيم وثناء على خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيماً لهم وإعزازاً وتكريماً وإكراماً؟ **فإن قيل:** فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح واستبان صبح المعنى وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟

قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلاً للفائدة فنذكر تقسيماً جامعاً لهذه المعاني الأربعة أعني: الحمد، والمدح، والثناء، والمجد.

فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به. واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر. واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم: إلى الحمد، والمجد فإن المخبر به: إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: (أعجبد الدابة علماً) أي: أوسعها علماً، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل * إذا تهب شمال بليل

ومنه قولهم في كل شجر نار واستمجد المرخ^(١) والعفار^(٢) أي كثرت النار فيهما. **ومن** حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن؛ إما متكرر أو لا. فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن

(١) المرخ: شجر سريع الوري أي الوقود. (٢) والعفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد.

الثناء مأخوذ من الثنى وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض . ومنه ثنيت الثوب ، ومنه التثنية في الاسم ، فالمثنى مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة .

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد ، فإن المخبر عن محاسن الغير ؛ إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أولاً ، فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح ، فحصل هذه الأقسام وميزها .

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى ، فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيقول الله : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قال : أثنى علي عبدي لأنه كرر حمده فإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مجدني عبدي فإنه وصفه بالملك والعظمة والجلال .

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفواً ، لم تسهر فيها عينك ، ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه ، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك . بل هي عرائس معان تجل عليك وتزف إليك ، فلك لذة التمتع بها ومهرها على غيرك ، لك غنمها وعليه غرمها .

قاعدة شريفة عظيمة القدر^(١)

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس ؛ بل وإلى الروح التي بين جنبيه .

اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، والمنفعة للحي من جنس النعيم ، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب . فلا بد من أمرين : **أحدهما** : هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به .

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود ، والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه . فهاهنا أربعة أشياء : أمر محبوب مطلوب الوجود . والثاني : أمر مكروه مطلوب العدم ، والثالث : الوسيلة إلى حصول المحبوب . والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه . فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حي سوى الله ، لا يقوم صلاحه إلا بها .

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له ،

وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه.

والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأول من مقتضى ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته، لأن الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفسد التي بها فساده وهلاكه. وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الثاني قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. [الشورى: ١٠].

الثالث قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. [هود: ١٢٣].

الرابع قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا﴾. [المتحنة: ٤].

الخامس قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾،

[الفرقان: ٥٨]. **السادس** قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾، [الرعد: ٣٠].

السابع قوله: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. [الزمل: ٨، ٩].^(١)

ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم إليه بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم وورقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكاً، ومحشره يوم القيامة أعمى. **ولهذا** لا يغفر الله لمن يشرك به شيئاً ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(١) ذكر المؤلف هذا البحث في طريق المهجرتين ص ٢٥٥ في بحثه عن التوكل بأوسع من هذا (ج)

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات . وكان توحيد الإلهية الذي كلمته (لا إله إلا الله) رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لابد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه .

وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذته ونعيمه، فهو أيضاً محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، بعد أن فقدوها وأيس منها، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته و الشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه - وإن حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده - ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهى الذي هو عَذْبٌ في مبدئه عذاب في نهايته كما قال القائل :

مآرب كانت في الشباب لأهلها عذاباً، فصارت في المشيب عذاباً

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

[الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهاً حقاً، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سميٍّ له ولا مثل له، فلو تأهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأليه الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين .

إذا عرف هذا: فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً: في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له

ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهاها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولا بد في وقت آخر.

وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤديه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملاسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتحرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكاها من اللذة.

وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله، هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَا أَحَبُّ إِلَهِ لِقَائِهِ﴾. [الأنعام: ٧٦]. والله أعلم.

(١) الوجه السادس: أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانة بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها، وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق ، ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة في هذه المطالب. وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين، بالفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها. وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
(١) اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهي «الله، والرب، الرحمن».
وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة ف: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية. و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كما لان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسننها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيها، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قَدَرَهُ حق قَدَرِهِ من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم

تعريفهم ما ينالون به غاية كما لهم . فمن أعطى اسم «الرَّحْمَن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلاء، وإخراج الخبء، فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك .

الموضع الرابع : من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه . والحجة إنما قامت برسله وكتبه . وبهم استُحق الثواب والعقاب . وبهم قام سوق يوم الدين . وسبق الأبرار إلى النعيم . والفجار إلى الجحيم .

الموضع الخامس : من قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه . وعبادته - وهي شكره وحبه وخشيته - فطري ومعقول للعقول السليمة . لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم **وفي** هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول . يستحيل تعطيل العالم عنه ، كما يستحيل تعطيله عن الصانع . فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل . ولم يؤمن به . ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به .

الموضع السادس : من قوله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . [الفاتحة : ٦] . فالهداية : هي البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة . ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل . فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق ، وجعل الإيمان في القلب ، وتحبيبه إليه ، وتزيينه في القلب ، وجعله مؤثراً له ، راضياً به راغباً فيه .

وهما هدايتان مستقلتان ، لا يحصل الفلاح إلا بهما ، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً . وإلهامنا له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً ، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة .

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، وبطلان

قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه - مما نريده - كذلك. وما نعرف جملة ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال الثبوت والدوام. (١)

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه؛ هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه على الصراط المنسوب على متن جهنم.

وعلى قدر سيره على هذا الصراط؛ يكون سيره على ذاك الصراط.

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح.

ومنهم من يمر كشُدُّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشى مشياً.

ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار.

فليُنظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ،

جزاء وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ؟﴾. [النمل: ٩٠].

وليُنظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم.

فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن

كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى

المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيينه طريقاً للمقصود. ولا يخفى

تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل

(١) تقدم هذا البحث نقلاً عن المفتاح ص (٢٦) بأوسع من هذا.

بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعة. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعيينه طريقاً.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾. [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: صِرَاطِ اللَّهِ. [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب^(١) لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال. فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد؛ إما أن يكون عالماً بالحق، أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها البتة.

فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا﴾. [الشمس: ٩].

والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه.

والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به.

ومن ههنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في حقهم. كقوله تعالى في حقهم: ﴿بَشَرًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ: أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾. [البقرة: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ. أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ

(١) كذا ولعله «النصب» (ج).

قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾. [المائدة: ٧٧].

فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي الترمذي وصحيح ابن حبان. من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول

الله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون».

ففي ذكر المنعم عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه - والمغضوب عليهم - وهم

من عرفه واتبع هواه - والضالين - وهم من جهله -: ما يستلزم ثبوت الرسالة

والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها

ثبوت الرسالة. **وأضاف** النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه.

منها: أن النعمة هي الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعدل.

والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما.

وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعمة إليه. وحذف الفاعل في مقابلهما،

كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

رَشْدًا؟﴾. [الجن: ١٠].

ومنه: قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾. [الكهف: ٨٢].

وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. [الكهف: ٧٩]. ثم قال بعد

ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾. [الكهف: ٨٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى

نِسَائِكُمْ﴾. [البقرة: ٨٧].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾. وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ

أُمَّهَاتُكُمْ﴾. [النساء: ٢٣]. ثم قال: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾. [النساء: ٢٤].

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة؛ ما دل على أن النعمة المطلقة

هي الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق

في نعمة. وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيثار. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ [إبراهيم: ٣٤]. **والنعمة** من جنس الإحسان، بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.
الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. [النحل: ٥٣]. فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة.

وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبيأؤه ورسله وأوليأؤه يغضبون لغضبه. فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها؛ ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطى.

وتأمل سرّاً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «أنعمتَ عليهم» يتضمن الأمرين:

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين:

الجزاء بالغضب الذي موجه غاية العذاب والهوان.

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكان الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال. وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح.

فالثاني كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [البقرة: ٥]. وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. [الأنعام: ٨٢].

والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾. [القمر: ٤٧]. وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [البقرة: ٧].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾. [طه: ١٢٣]. فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾. [طه: ١٢٤-١٢٦]. فذكر الضلال والشقاء. فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

فصل

وذكر «الصراط المستقيم» مفردًا معرفًا تعريفيًا: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطأ، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ . [الأنعام: ١٥٣] . وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد . وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه . لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق . ولو أتى الناس من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة ، والأبواب عليهم مغلقة ، إلا من هذا الطريق الواحد . فإنه متصل بالله ، موصل إلى الله . قال الله تعالى : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ . [الحجر: ٤١] .

قال الحسن : معناه صراط إلى مستقيم .

وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت أداة «على» مقام «إلى» .

والثاني : أنه أراد التفسير على المعنى . وهو الأشبه بطريق السلف . أي : صراط موصل إلى .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرج على شيء . وهذا مثل قول الحسن ، وأبين منه . وهو من أصح ما قيل في الآية .

وقيل : «على» فيه للوجوب ، أي : عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه .

والقولان نظير القولين في آية النحل . وهي : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ . [النحل: ٩] . والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر : أن السبيل

القاصد - وهو المستقيم المعتدل - يرجع إلى الله ، ويوصل إليه . قال طُفَيْلُ الغَنَوِيِّ : مَضَوْا سَلَفًا ، قَصَدَ السَّبِيلَ عَلَيْهِمْ وَصَرَفُ الْمَنَايَا بِالرِّجَالِ تَشْقَلُ

أَي : مَرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَإِلَيْهِمْ وَصَلْنَا . وقال الآخر :

فَهَنَ الْمَنَايَا : أَي وَادَ سَلَكْتَهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي ، أَوْ عَلَيَّ طَرِيقَهَا

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء ، لا

أداة «على» التي هي للوجوب . ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال ﴿ إِنَّا إِلَيْنَا يَا بَنِيَّ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ . [الغاشية: ٢٥، ٢٦] . وقال : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ . [يونس: ٧٠] .

وقال ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ . [الأنعام: ١٠٨] . وقال ، لما أراد الوجوب : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ . [الغاشية: ٢٦] . وقال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ . [القيامة: ١٧] .

وقال : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ . [هود: ٦] . ونظائر ذلك ؟ .

قيل: في أداة «على» سر لطيف . وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى . وهو حق . كما قال في حق المؤمنين : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ . [البقرة: ٥٠] . وقال لرسوله ﷺ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ . [النمل: ٧٩] . والله عز وجل هو الحق ، وصراطه حق ، ودينه حق . فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمل ، فإنه سر بديع .

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً . وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق ، وعلى الهدى ؟ .

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته إليه . فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته .

وهذا بخلاف الضلال والريب . فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه ، وانقماعه وتدسسه فيه ، كقوله تعالى : ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ . [التوبة: ٤٥] . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٍ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ . [الأنعام: ٣٩] . وقوله : ﴿فَذَرُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ . [المؤمنون: ٥٤] . وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ . [هود: ١١٠] .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . [سبا: ٢٤] .

فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير ، وطريق الضلال تأخذ سفلاً ، هاوية بسالكها في أسفل سافلين .

وفي قوله تعالى : ﴿قَالَ : هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ . [الحجر: ٤١] . قول ثالث :

وهو قول الكسائي : إنه على التهديد والوعيد ، نظير قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ﴾ .

كما يقال : طريقك علي ، وعمرك علي . لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ، ولا معجز ، والسياق يأبى هذا ، ولا يناسبه لمن تأمله . فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ . [الحجر: ٣٩ ، ٤٠] . فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ، ولا طريق لي عليهم .

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير . وأخبر أن الإخلاص صراط عليه

مستقيم . فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط ، لأنه صراط

عليّ. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْصَاد﴾. [الفجر: ١٤]. فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالة. فتأمل.

ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليّ، لمن لا يسكله. وليست سبيل المهتد مستقيمة. فهو غير مهتد بصراط الله المستقيم. وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول ألبتة.

وأما من فسره بالوجوب، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه. فالمعنى صحيح. لكن في كونه هو المراد بالآية نظر. لأنه حذف في غير موضع الدلالة. ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف. بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة. فإنه حذف مألوف معروف. حتى إنه لا يذكر ألبتة.

فإذا قلت: له درهم علي. كان الحذف معروفاً مألوفاً. فلو أردت: عليّ نقده، أو عليّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ. وهو نظير: عليّ بيانه، المقدر في الآية، مع أن الذي قال السلف أليق بالسياق، وأجل المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ. وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾. [الليل: ١٢، ١٣]. قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾. إلا معنى الوجوب.

أي: علينا بيان الهدى من الضلال.

ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في «الحجر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث.

فصل

والصراط المستقيم : هو صراط الله . وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه ، كما ذكرنا .

ويخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم . وهذا في موضعين من القرآن . في هود ، والنحل .

قال في هود : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . [هود : ٥٦] .

وقال في النحل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا : رَجُلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ، أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾ . [النحل : ٧٦] .

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع . ولا تنطق ولا تعقل ، وهي كَلٌّ على عابدها ، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده ، ويضعه ويقيمه ويخدمه . فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد ؟ وهو قادر متكلم ، غني . وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله . فقوله صدق ورشد ونصح وهدى ، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة .

هذا أصح الأقوال في الآية . وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره . ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال ، ثم حكاها بعده ، كما فعل البغوي ، فإنه جزم به ، وجعله تفسير الآية . ثم قال : وقال الكلبي : يدلكم على صراط مستقيم .

قلت : ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم . فإن دلالاته بفعله وقوله ، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله . فلا يناقض قول من قال : إنه سبحانه على الصراط المستقيم .

قال : وقيل : هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم .

قلت : وهذا حق لا يناقض القول الأول فالله على الصراط المستقيم ، ورسوله عليه . فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه . وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم ، وهو الصنم الذي هو أبكم ، لا يقدر على هدى ولا خير . وإمام الأبرار ، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم .

وعلى القول الأول: يكون مضرورياً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان. فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية. **قال:** وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية، عن ابن عباس. **وقال عطاء:** الأبيكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله. ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحداً. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله ألبة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه^(١) وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام: «لييك وسعديك، والخير كله بيدك، والشر ليس إليك» ولا يلتف إلى تفسير من فسر بقوله: والشر لا يُتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدراً. فإن من أسأوه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسأائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [هود: ٥٦]

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾. [هود: ٥٦] أي هو ربي، فلا يُسلمني ولا يضيعني. وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئاً بدون

(١) لعله من خرج عنه في أفعاله وفي أقواله (ج).

مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه. (١)

فصل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزّة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. [النساء: ٦٩]

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكثر بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا. كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك. وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاماً يؤذيه. فوقف ورد عليه،

(١) سيأتي إن شاء الله البحث فيما ذكره في سورة هود والنحل والحجر اهـ ج.

وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمَز^(١) بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم. وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهديني فيمن هديت» أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكریم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم. وعلمني في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

فصل

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونبله أشرف المواهب: علّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده. ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه. والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبدالله بن بُريدة، عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى». قال الترمذي: حديث صحيح..

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالواحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد».

وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته».

وفي رواية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد».

وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» وهذه ترجمة عقيدة

أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك

بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المتان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال

والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه

بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده،

والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب -

وهو الهداية - بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل. رواه

البخاري في صحيحه، من حديث ابن عباس: «اللهم لك الحمد، أنت نور

السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن

فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار

حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وبك

آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر

لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

فصل

في اشتغال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. **ولهذا** كان الحمد كله لله حمداً لا يحصى سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصىها سواه.

ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في حاجته لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً؟﴾. [مريم: ٤٢].

فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر علي؟ لكن كان - مع شركه - أعرف بالله من الجهمية .
وكذلك كفار قريش كانوا - مع شركهم - مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلمه على خلقه .

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ . [الأعراف: ١٤٨].
 فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك. **فإن قيل:** فالله تعالى لا يكلم عباده .

قيل: بلى قد كلمهم . فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى . **ومنهم** من كلمه الله على لسان رسوله الملكي . وهم الأنبياء .

وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه . وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم .
ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم . لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده . فإذا انتفى كلامه

انتفت الرسالة .

وقال تعالى: في سورة طه عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ، فَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ، فَنَسِيَ. أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجَع إِلَيْهِمْ قَوْلًا، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟﴾ . [طه: ٨٨، ٨٩]. ورجع القول: هو التكلم والتكليم .
وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟﴾ . [النحل: ٧٥].

فجعل نفي صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية . وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد .

ولهذا سمي السلف كتبهم التي صنّفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا. لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفة كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا. وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا يُفَقِّقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه.

والناس أكثرهم مع ظاهر السكّة. ليس لهم نقد النقاد ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ. وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾. [الكهف: ١٧].

والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص؛ تتضمن إثبات أصدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. [يونس: ٦٨].

وحمده نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم.

ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته.

وحمده نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته.

وحمده نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته.

وحمده نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه.

وحمده نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا.

فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لا يرى. فليس في كون الشيء لا

يرى كمال ألبته. وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعالیه عن إدراك المخلوق له.

وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده **فعلمت** أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي حمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

فصل

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصليين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حُسنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم.

واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها.

قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١٨٠].

ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجوز أن يخبر عنها بمصادرهما ويوصف بها. لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرهما، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. [الذاريات: ٥٨]. فعلم أن «القوي» من أسائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. [فاطر: ١٠]. فالعزیز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا.

وكذلك قوله: ﴿أَنْزَلْهُ بِعِلْمِهِ﴾. [النساء: ١٦٦]. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. [هود: ١٤]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات» وفي الصحيح حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾. [الأعراف: ١٤٤]. فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائي».

وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾. [غافر: ١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماءه. وأيضا: لو لم تكن أسماءه مشتملة على معان وصفات لم يسع أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأیضا فلو لم تكن أسماءه ذوات معان، وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لسمائها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبهت بين.

فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان».

وروى عن ابن عباس: ﴿يلحدون في أسمائه﴾. [الأعراف: ١٨٠]. «يكذبون عليه» وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كاللحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم^(١): «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعاً وعرفاً، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً» تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

فصل

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دالتين أخريين بالتضمن واللزوم. **فيدل** على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. **ويدل** على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. **ويدل** على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. **ولكن** يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه.

ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال

(١) هو أبو سعيد الخراز الذي قال عن ربه: وهو المسمى بأبي سعيد الخراز.

من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح،

عن النبي ﷺ: «وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقه القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفقوق أظهر من الفائت فيها. ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله،

ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

فصل

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن

العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم

العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: «الرحمن

والرحيم، والقدوس والسلام، والعزیز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله»

من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزیز» ونحو ذلك.

فَعَلِمَ أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تأله الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفرعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله». **وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع.** والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجلود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته. **فالرحمن:** الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. [الأحزاب: ٤٣]. ﴿إِنَّهُمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. [التوبة: ١١٧]. ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعْلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به. ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلىء غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملء بذلك، فبناء فعْلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾. [الفرقان: ٥٩]. فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بال مخلوقات، قد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. [الأعراف: ٥٦]. فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ «فهو عنده على العرش».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعها عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥]. وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾. [الفرقان: ٥٩]. يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر، والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرد بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

فصل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهم وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالدين والشرع، والأمر والنهي - مظهره، وقيامه - من صفة الإلهية.

والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك.

وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأصلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. ف ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. مطابق لقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. [الفاتحة: ٢، ٣]. فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. [التغابن: ٦]. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. [التوبة: ١١٠]. ﴿وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [المتحة: ٧]. فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضاً. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً. وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾. [النساء: ١٤٩]. واقتران العلم بالحلم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. [النساء: ١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك» واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليماً، ولا كل حليم عالم. فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. [الشعراء: ٩].

ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادَكَ. وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [المائدة: ١١٨]. أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادراً حكيمًا عليهما. بل لا يكون ذلك إلا عجزاً^(١)] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. **فهذا** أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا - من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها - ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذة إلهًا من دونه. فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلْنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ. فَمَنْ تَبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقههم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

فصل

في مراتب الهداية الخاصة والعامة. وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. [النساء: ١٦٤].

(١) ما بين المربعين زدناه ليتصل الكلام. هذا كلام الطابع الأول (ج).

فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

ثم أكد به بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعاً لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم. فأكد به بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. **قال** الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققت به بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾. [الأعراف: ١٤٣]. وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول. وفيه أعطي الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة. وفيه قال الله له: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾. [الأعراف: ١٤٤]. أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه، وناجاه. فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء. أو نجاء^(١) وقال له أبوه آدم في حاجته: «أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟». وكذلك يقول له أهل الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.

وكذلك في حديث الإسراء، في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية. قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن».

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾. [الشورى: ٥١].

(١) في لسان العرب: وفي حديث الشعبي «إذا عظمت الحلقة فهي نداء ونجاء».

ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.
المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾. [النساء: ١٦٣].
وقال: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾. الآية [الشورى: ٥١].

فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة. (١)
والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى. قال رؤبة: (وحي لها القرار فاستقرت) **وهو** أقسام، كما سنذكره.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.
ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يَفْصِم عنه، أي يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فَعمر بن الخطاب».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا. وعلق وجودهم في هذه الأمة: بـ«إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبينا ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى مُحَدِّث ولا مُلْهِم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.
قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته

(١). سيأتي له بحث بأطول من هذا في سورة النساء إن شاء الله تعالى (ج)

ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول. فاستغنى به عما منه^(١).

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عَمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوّه به يوماً من الدهر. وقد أعاده الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا. آخه»، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء. وقال: في الكلالة: «أقول فيها برأئي. فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الاتحاد والخلولي والإباحي

الشطاح، والسماعي: مجاهر بالحقّة والفريّة. يقول «حدثني قلبي عن ربي».

فانظر إلى ما بين القائلين والمحدثين والقولين والخالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.
المرتبة: الخامسة: مرتبة الإلهام.

قال: الله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نفثت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾. [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال على بن أبي طالب - وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون

(١) كذا في الأصل. ولعل الصواب «لرسالة الرسول، فاستغنى بها عن التحديث» لأن الصديقية تكون أيضاً بعد موت الرسول، كما نرجو أن يكون شيخ الإسلام وتلميذه من الصديقين، وإنما كان تسليمهم لرسالة الرسول ﷺ، علماً وعقيدة وعملاً وحالاً وأدباً وخلقاً، ودعوة وحباً وكرهاً وموالاة.

الناس؟» - فقال: «لا، والذي فَلَقَ الحبة وبرأ النَّسَمَة، إلا فهماً يؤتیه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقتَلَ مسلم بكافر».

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما ادلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُذِّ ألفٌ بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نَعَى اللهُ سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهد وأعلامه. بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات. **وهذه** المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضل إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾. [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضلّه من عباده. والقرآن يصرح بهذا

في غير موضع ، كقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ . [الصف : ٥] . ﴿ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ . بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ . [النساء : ١٥٥] . فالأول : كفر عناد . والثاني : كفر طبع ، وقوله ؛ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَ مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . [الأنعام : ١١٠] . فعاقبهم على ترك الإيمان به حين يتقنوه وتحققوه ، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل . فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ . [فصلت : ١٧] . فهذا هدى بعد البيان والدلالة . وهو شرط لا موجب . فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء . وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوّة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه . ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوّة إلى التفكير في آياته المشهودة ويحضهم على التفكير في هذه وهذه . وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل . وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء .

قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء . وهو العزيز الحكيم ﴾ . [إبراهيم : ٤] .

فالرسل تبين . والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته .

المرتبة السابعة : البيان الخاص . وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة .

قال تعالى في هذه المرتبة : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ . [النحل : ٣٧] .

وقال : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . [القصص : ٥٦] . فالبيان الأول شرط . وهذا موجب .

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع . قال الله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً

لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴿٢٣﴾. [الأنفال: ٢٣]. وقد قال تعالى: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات. إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير﴾. [فاطر: ١٩-٢٣].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الأذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُخَدَّثٌ إِلَّا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾. [الأنبياء: ٢٠].

وهذا السماع لا يفيد السماع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع هو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السماع قائلاً للحاضر معه: ﴿ماذا قال آنفاً؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾. [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم. فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه. **ومرتبة الفهم** أخص من وجه آخر. وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته.

ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة. **المرتبة التاسعة:** مرتبة الإلهام. قال تعالى: ﴿ونفسٍ وما سواها. فآلهما فجورها وتقواها﴾. [الشمس: ٨، ٧]. وقال النبي ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي». **وقد جعل** صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قال: وهو فوق مقام الفراسة . لأن الفراسة ربما وقعت نادرة ، واستصعبت على صاحبها وقتاً ، أو استعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد .

قلت: التحديث أخص من الإلهام . فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشد الذي حصل له به الإيـان .

فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه : «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحي إلى غير الأنبياء .

إما من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿وَأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ . [الفصص: ٧] .

وقوله: ﴿وإذ أوحيت إلى الحوارين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ . [المائدة: ١١١] .

وإما من غير المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿وَأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون﴾ . [النحل: ٦٨] . فهذا كله وحي إلهام .

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم . والنادر لا حكم له . وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه . والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد ، يعني في مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و «الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص . وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً . ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل **وأما** الإلهام فموهبة مجردة ، لا تنال بكسب البتة .

فصل

قال: وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحياً قاطعاً مقروناً بسماع . إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن . فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم .

ويريد بالوحي والإلهام: الإعلام الذي يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة .

قلت: أما حصوله بواسطة سمع: فليس ذلك إلهاماً . بل هو من قبيل الخطاب . وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء . وهو الذي خُصَّ به موسى، إذ كان المخاطبُ هو الحق عز وجل .

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة . لا رابع لها .

أعلاها: أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً . فإن هذا يقع لغير الأنبياء . فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام . فلما اكْتَوَى تركت خطابه . فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي . وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه . وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين .

والثاني: خطاب يلقي في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور «إن للملك لمة بقلب ابن آدم . وللشيطان لمة . فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد . ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ ﴿الشيطان يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ . وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ . [البقرة: ٢٦٨] .

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ: أَنِّي مَعَكُمْ . فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . [الأنفال: ١٢] . قيل: في تفسيرها: قَوُّوا قُلُوبَهُمْ ، وبشروهم بالنصر .

وقيل: احضروا معهم القتال . والقولان حق . فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم . ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين .

كما في جامع الترمذي ومسنَد أحمد من حديث النّوَّاس بن سَمْعَانَ عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً . وعلى كَنَفَتِي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس

الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حدٍ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة. وأما وقوعه بغير واسطة: فما لم يتبين بعد. والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان. وقد يكون المخاطب جنياً مؤمناً صالحاً. وقد يكون شيطاناً. وهذا أيضاً نوعان. **أحدهما:** أن يخاطبه خطاباً يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقي في قلبه عندما يُلمُّ به. ومنه وعده وتَمَنِيته حين يَعِدُ الإنسى وَيُمنِيه، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمنِيهِمْ﴾. وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. [النساء: ١٢٠]. وقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾. [البقرة: ٢٦٨]. وللقلب من هذا الخطاب نصيب. وللاذن أيضاً منه نصيب. والعصمة منتفية إلا عن الرسل. ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحاني، أو ملكي؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه. ويلقى في السمع خطابه. فيقول المغرور المخدوع «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطب. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة - وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيهِ -: «إني لأظن الشيطان - فيما يسترق من السمع - سمع بموتك. فقذفه في نفسك» فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟ ...

^(١) **المرتبة العاشرة من مراتب الهداية:** الرؤيا الصادقة. وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وقد قيل: في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة. ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفي، صلوات الله وسلامه عليه. فنسبة مدة الوحي

في المنام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءًا. وهذا حسن. لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: «إنها جزء من سبعين جزءًا».

وقد قيل: في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين. ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطيء، كما قال النبي ﷺ؛ وذلك لبعده العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة. ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى.

وقال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام». **وقد قال النبي ﷺ:** «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تَرى له» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَحَرِّيًا فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان».

والرؤيا كالكشف، منها رحمانى. ومنها نفسانى. ومنها شيطاني.

وقال النبي ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة. فيراه في المنام».

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا

أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي ، بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه ، لم يعرف الرائي اندراجها فيه ، فیتنبه بالرؤيا على ذلك .

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحرق الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهي . ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة . ويذكر الله حتى تغلبه عيناه . فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة .

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار . فإنه وقت النزول الإلهي ، واقترب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين . وعكسه رؤيا العتمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : «رؤيا المؤمن كلام ، يكلم به الرب عبده في المنام» .^(١)

وللرؤيا ملك موكل بها ، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله . فيضربها لكل أحد بحسبه . **وقال** مالك : «الرؤيا من الوحي وحي» وزجر عن تفسيرها بلا علم . وقال «أتلاعب بوحي الله؟» .

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها ، يخرجنا ذكرها عن المقصود . والله أعلم .

فصل

في بيان اشتغال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان . **فأما** اشتغالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتغال . فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم . وفساد القصد . **ويترتب** عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب . **فالضلال** نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد .

وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها . فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد . وأوجه عليه كل يوم وليلة . في كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى

(١) مكرر تقدم قريباً .

الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . [الفاتحة: ٥] . علماً ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل . فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً .

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعي الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل . فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان . فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة^(١) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين . لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به ﴿وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض ، أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون﴾ . [النور: ٤٨ - ٥٠] .

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والخسرات . وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً ، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة . وهذا يظهر كثيراً في الدنيا . ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله . ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ . وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق . وفاز المحقون وخسر المبطلون . وعلموا أنهم كانوا كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين . فياله هناك من علم لا ينفع عالمه ، ويقين لا ينجي مستيقنه .

(١) السكة : المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود ، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته ، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور . أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهي من أعظم القواطع عنه . فحاله أيضاً كحال هذا . وكلاهما فاسد القصد . ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] .

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء : (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره .

فهذه هي أجزاء ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . فإذا ركبها الطبيب اللطيف ، العالم بالمرض ، واستعملها المريض ، حصل بها الشفاء التام . وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر .

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد . وهما الرياء ، والكبر فدواء الرياء بـ ﴿إياك نعبد﴾ ودواء الكبر بـ ﴿إياك نستعين﴾ .

وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول ﴿إياك نعبد﴾ تدفع الرياء ﴿وإياك نستعين﴾ تدفع الكبرياء .

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿إياك نعبد﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿إياك نستعين﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ . [الفاتحة: ٦] . عوفي من أمراضه وأسقامه ، ورقل في أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة . وكان من المنعم عليهم ﴿غير المغضوب عليهم﴾ . وهم أهل فساد القصد ، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿والضالين﴾ . وهم أهل فساد العلم ، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين : أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض ، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه . فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله (١) وكلامه وفهمت عنه فهماً خاصاً ، اختصها به ، من معاني هذه السورة .

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمينها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق .

(١) كذا في الأصل ، والظاهر أن الواو زائدة (ج) ..

فصل

وأما تضمنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناساً من أصحاب النبي، ﷺ، مروا بحي من العرب. فلم يَقْرُوه، ولم يُضَيِّقُوهم. فلُدغ سيد الحي. فأتوهم. فقالوا: هل عندكم من رُقِيَّة، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا. فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قَلْبَةٌ. فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي، ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك. فقال: «ما يدريك أنها رُقِيَّة؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم». فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللدغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغتنه عن الدواء. وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فصل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمَات والسموم. وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سُمِيَّة نارية، يحصل بها اللدغ. وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تَكَيَّفَتْ أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سُمِيَّة، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنا له عيش في يوم لا يؤدي فيه أحدًا من بني جنسه. ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السُمِيَّة والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره. فيبرد عند ذلك أنينه. وتسكن نفسه. ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى

الجماع . فيسوء خلقه . وتثقل نفسه حتى يقضي وطره . هذا في قوة الشهوة . وذاك في قوة الغضب .
وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعاً لهذه النفوس الغضبية . فلولا هو
 لفسدت الأرض وخربت ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ،
 ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ . [البقرة: ٢٥١] . وأباح الله - بلطفه ورحمته - لهذه
 النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها .

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها
 ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له ، وإن لم يمسه ، فمنها ما يطمس البصر ، ويسقط الحبل .
ومن هذا نظر العائن . فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية
 سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده . وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب
 قوة تلك النفس .

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له . فتتكيف نفسه وتقابله على
 البعد فيتأثر به . ومنكر هذا ليس معدوداً من بني آدم إلا بالصورة والشكل .
فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه
 النفوس الخبيثة السمية . وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها ، وماتضمنته
 من التوحيد والتوكل ، والثناء على الله ، وذكر أصول أسمائه الحسنى ، وذكر اسمه
 الذي ماذكر على شر إلا أزاله ومحقه ، ولا على خير إلا نماء وزاده . دفعت هذه النفس
 بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية ، فحصل البرء .

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده . وحفظ الشيء بمثله فالصحة
 تحفظ بالمثل . والمرض يدفع بال ضد . أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً
 وأمراً . ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة . وقبول من الطبيعة المنفعلة . فلو لم
 تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ، ولم تقو نفس الراقي على التأثير ، لم يحصل البرء .
فهنا أمور ثلاثة : موافقة الدواء للداء ، وبذل الطبيب له ، وقبول طبيعة
 العليل . فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء . وإذا اجتمعت حصل الشفاء
 ولا بد بإذن الله سبحانه وتعالى .

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى . وميز بين النافع منها وغيره .
 ورقى الداء بما يناسبه من الرقى . وتبين له أن الرقية براقبها وقبول المحل ، كما أن

السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع . وهذه إشارة مطلعة على ماوراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله . والله أعلم .

وأما شهادة التجارب بذلك : فهي أكثر من أن تذكر . وذلك في كل زمان . وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة . ولا سيما مدة المقام بمكة . فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة ، بحيث تكاد تقطع الحركة مني . وذلك في أثناء الطواف وغيره . فأبادر إلى قراءة الفاتحة ، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط . جربت ذلك مراراً عديدة . وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً . فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء ، والأمر أعظم من ذلك . ولكن بحسب قوة الإيمان ، وصحة اليقين والله المستعان .

فصل

في اشتغال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبه والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعدته ووعدته، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى. وكل ذلك مسلّم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثم خروج عن هذه الطرق الثلاث:

طريق الرسول ﷺ وما جاء به.

وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبدالله ابن عباس، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم: «الصراط المستقيم: هو الإسلام».

وقال عبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «هو القرآن». وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبدالله: «طريق السنة والجماعة». وقال بكر بن عبدالله المزني: «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره. فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين:

الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.^(١)

فصل^٣

في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. [الفاتحة: ٦]. إلى آخرها.

ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

«منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطؤوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم: هم أولى بهذه الصفة

من الروافض. فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ - ورضي الله

عنهم - جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما. فرأينا أصحاب رسول الله

ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام. وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم

والهدى. فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان. فإنه قَطُّ ما قام للمسلمين عدو

من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام. وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من

بليّة!! وهل عاثت سيوف المشركين عُباد الأصنام - من عسكر هولاء وذويه من

التتار - إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل

سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جرّائهم؟

ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين

معلومة. فأَي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال،

إن كنتم تعلمون؟.

(١) تفصيل الرد على المبطلين، وهم أنواع كثيرة من ملاحدة وجبرية وجهمية وغيرهم تركناه اختصاراً ما عدا

الرافضة، وهو موجود في الأصل من المدارج الجزء الأول لمن أراد (ج).

(٢) ٧٢ مدارج جـ ١.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله : بأبي بكر وعمر، وأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه . فإنه صراطهم الذي كانوا عليه . وهو عين صراط نبيهم . وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال .

وقال أبو العالية - رفيع الرياحي - والحسن البصري ، وهما من أجل التابعين : «الصراط المستقيم : رسول الله ﷺ وصحابه» .

وقال أبو العالية أيضاً في قوله : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ . [الفاتحة: ٧] . «هم آل رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر» . وهذا حق . فإن آلهم وأبا بكر وعمر على طريق واحدة . ولا خلاف بينهم ، وموالات بعضهم بعضاً ، وثناؤهم عليهما ، ومحاربة من حاربا ، ومسألة من سالما : معلومة عند الأمة . خاصها وعامها .

وقال زيد بن أسلم : «الذين أنعم الله عليهم : هم رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر» . ولا ريب أن المنعم عليهم : هم أتباعه ، والمغضوب عليهم : هم الخارجون عن اتباعه ، وأتبع الأمة له وأطوعهم : أصحابه وأهل بيته . وأتبع الصحابة له : السمع والبصر ، أبو بكر وعمر . وأشد الأمة مخالفة له : هم الرافضة ، فخلافتهم له معلوم عند جميع فرق الأمة . ولهذا يبغضون السنة وأهلها ، ويعادونها ويعادون أهلها . فهم أعداء سنته ﷺ . وأهل بيته وأتباعه من بنيتهم أكمل ميراثاً ؛ بل هم ورثته حقاً . **فقد** تبين أن الصراط المستقيم : طريق أصحابه وأتباعه . وطريق أهل الغضب والضلال : طريق الرافضة .

وبهذه الطريق - بعينها - يرد على الخوارج . فإن معاداتهم الصحابة معروفة .

فصل

وسر الخلق والأمم ، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين . وعليهما مدار العبودية والتوحيد . حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب . جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن . وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن . وجمع معاني القرآن في المفصل . وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين . فنصفهما له تعالى وهو

﴿إياك نعبد﴾ ونصفهما لعبده . وهو ﴿إياك نستعين﴾ .

وسياأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه .

و«العبادة» تجمع أصليين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع .

والعرب تقول : طريق معبد أي مذل . والتعبد : التذل والخضوع . فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له . ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً .

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم - ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم - : منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم . فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك .

كما قال تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله﴾ . [الزخرف : ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن

الله﴾ . [الزمر : ٣٨] . ﴿قل لمن الأرض ومن فيها؟ - إلى قوله - سيقولون لله . قل فأنى تُسْحَرُونَ؟﴾ . [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] . ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ، ولا رب سواه .

و«الاستعانة» تجمع أصليين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه . فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .

و«التوكل» معنى يلتزم من أصليين : من الثقة ، والاعتماد . وهو حقيقة ﴿إياك

نعبد وإياك نستعين﴾ . [الفاتحة : ٥] .

وهذان الأصلان - وهما التوكل ، والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ،

قرن بينهما فيها . هذا أحدها . الثاني : قول شعيب : ﴿وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب﴾ . [هود : ٨٨] . الثالث : قوله تعالى : ﴿والله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه﴾ . [هود : ١٢٣] .

الرابع : قوله تعالى : حكاية عن المؤمنين : ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

وإليك المصير ﴿[المتحنة: ٤]﴾.

الخامس: قوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تَبَتُّلاً﴾. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فاتخذهُ وكيلاً ﴿[المزمل: ٨، ٩]﴾.

السادس: قوله تعالى: ﴿قل: هو ربي﴾. لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب ﴿[الرعد: ٣٠]﴾.

فهذه^(١) ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين. وهما: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. [الفاتحة: ٥].

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. **ولأن ﴿إياك نعبد﴾** متعلق بألوهيته واسمه «الله».

و﴿إياك نستعين﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إياك نعبد﴾ على ﴿إياك نستعين﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة. **ولأن ﴿إياك نعبد﴾** قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به.

و﴿إياك نستعين﴾ قسم العبد. فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس. لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس. ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له. ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص. ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة.

وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك

(١) تقدم أنه ذكر أنها سبعة مواضع.

وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رَقَّها أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و «العبودية» مخوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى. وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نَحْبَه.

ولأن «إياك نعبد» له. و «إياك نستعين» به. وماله مقدم على ما به.

ولأن ماله متعلق بمحبته ورضاه. وما به متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصْر فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً. وسيبويه نص على الأهم، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعقت. ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضاً أعقت. ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾. [البقرة: ٤٠]. ﴿وإياي

فاتقون﴾. [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين». هو في قوة: لا نعبد غيرك. ولا نستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قل فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك. فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل. ففي: إياك قصدت، وأحببت: من

الدلالة على معنى : حقيقتك وذاتك قصدي ، ما ليس في قولك : قصدتك وأحببتك . وإياك أعني ، فيه معنى : نفسك وذاتك وحقيقتك أعني .

ومن وهنا قال من قال من النحاة : إن «إيا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل . ولم يردّ عليه بردّ شاف .

ولولا أنا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة ، وذكرنا مذاهب النحاة فيها ، ونصرنا الراجح . ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله .

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه ، فإذا قلت لملك مثلاً : إياك أحب ، وإياك أخاف . كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ما ليس في قولك : إياك أحب وأخاف .

إذا عرفت هذا ؛ فالناس في هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام :

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها . ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علّمه النبي ﷺ ، لحبّه معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقال : «يا معاذ ، والله إني لأحبك . فلا تنس أن تقول دُبْر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيت في الفاتحة في : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . [الفاتحة : ٥] .

ومقابل هؤلاء : القسم الثاني . وهم المُعْرِضُونَ عن عبادته والاستعانة به . فلا عبادة ولا استعانة . بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . **فإنه** سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله

أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء .

وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها . ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته . كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده عنه .

وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبة له . فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً ، لا بخلاً .

وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبة ، ويعامله بلطفه .

فيظن - بجهله - أن الله لا يحبه ولا يكرمه . ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه . وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيره . وعلامة هذا : حملة على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتي ، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيره وعاقبته مغيبة عنك . وإذا لم نجد من سؤاله بدءاً ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة . وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة . ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها . ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته .

ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان

عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ، فيقول: ربي أكرمن. وأما إذا ما ابْتَلَاهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فيقول: ربي أَهَانَنُ* كَلَّا﴾. [الفجر: ١٥-١٧].

أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته : فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته على . ولكنه ابتلاء مني ، وامتحان له : أيشكرني فأعطيته فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه ، وأخوّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه عليّ ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر؟ فأعطيته أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على مَنْ ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الزرق وتقديره . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويُقَسِّرُ على المؤمن لا لإهانتة . إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته . فله الحمد على هذا وعلى هذا . وهو الغني الحميد .

فَعَادَتِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . [الفاتحة: ٥].

فصل

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان :

أحدهما: القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل . فإنه قد أعانته بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها . بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة . فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان . وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه . فهم موكلون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده».

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد: ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرد الخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاء الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاء الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد.

قال الله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾. [الطلاق: ٣]. أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدْرُ مع ما يحبه ويرضاه. فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه

وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالمملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

فصل

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إياك نعبد﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿إياك نعبد﴾. **والناس** منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فالعامل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه. **فمن** عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحيه وبغضه. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم. **وكذلك** أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه. وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الملك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخْلَصُه وأصوبُه». قالوا: يا أبا علي ما أخْلَصُه وأصوبُه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً: لم يقبل. وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: ما كان لله.

والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. [الكهف: ١١٠].

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُرد عليه - أحوج ما هو إليه - هباء منثوراً.

وفي الصحيح: من حديث عائشة، عن النبي ﷺ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد».

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً. فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني^(١): من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقاً لشرع، وليس هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرأين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تُحَسِّبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا. فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمداً باتباع السنة والإخلاص. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف - من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة - عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمداً بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال

(١) هذا هو القسم الثاني من الأقسام الأربعة التي انقسم إليها الناس بحسب الإخلاص والمتابعة.

العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله. كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة. فلا تقبل ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾. [البينة: ٥].

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر. والإخلاص له في العبادة. وهم أهل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. [الفاتحة: ٥].

ثم أهل مقام ﴿إياك نعبد﴾ لهم في أفضل العبادات وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. **قالوا:** لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثاً لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمرها» أي أصعبها وأشقها وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس. **قالوا:** وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء: قسمان. فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم: يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضاً قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته. ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته. وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب. ومن أثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فأروه أفضل من ذي النفع القاصر. فأروا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله». رواه أبو يعلى. واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النّفاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. **قالوا:** وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير». **وبقوله** ﷺ: «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذي نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم . لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب . ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك نفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس . ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ، ونفع عباده ، والإحسان إليهم ، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .

الصنف الرابع : قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته .

فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .
والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل . والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .
الأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع . وإن بعد كان أفضل .
والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المنضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشيعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير . فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت . فمدار تعبده عليها . فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره .

فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم . وإن رأيت العباد . رأيتهم معهم .

وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم .

وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم . وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم . فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيد القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه .

فهذا هو المتحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ حقاً، القائم بهما صدقاً، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل مُحَقِّقٍ. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكتها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلّى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها. فواهاً له! ما أغرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

فصل

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة. وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرّف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سبباً لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

كما قالوا في الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعله، ولا لغاية هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه. وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسيباتها، ولا فيها قُوى ولا طبائع. فليست النار سبباً للإحراق، ولا الماء سبباً للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك. وحصول الإحراق والرّي ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به.

وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء. لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة . وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى «مفتاح دار السعادة . ومطلب أهل العلم والإرادة» وبيننا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا وهو كتاب بديع في معناه . وذكرناه أيضًا في كتابنا المسمى «سفر الهجرتين ، وطريق السعادتين» .

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ، ولا يتنعمون بها . وليست الصلاة قرة أعينهم . وليست الأوامر سرور قلوبهم ، وغذاء أرواحهم وحياتهم . ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها . ولو سمي مُدَّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا ، وقال : إني إنما أفعله بكلفة : لم يعده أحد محبًا له .

ولهذا أنكر هؤلاء - أو كثير منهم - محبة العبد لربه . وقالوا : إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به . لا أنه يحب ذاته . فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه . **وحقيقة** العبودية هي كمال المحبة . فأنكروا حقيقة العبودية ولَّوها .

وحقيقة الإلهية : كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب ، المقرون بغاية الذل والخضوع ، والإجلال والتعظيم . فأنكروا كونه محبوبًا . وذلك إنكار لإلهيته .

وشيخ هؤلاء : هو الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري في يوم أضحى . وقال : «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا ، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا» .

وإنما كان إنكاره : لكونه تعالى محبوبًا محبًا ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التي هي الخلة عند الجهمية ، التي يشترك فيها جميع الخلائق . فكلهم أخلاء لله عندهم .

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا في كتابنا «قرة عيون المحبين ، وروضة قلوب العارفين» وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك ألبتة ، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة ، ولا لعينه إلا بالنور الباصر ، ولا لأذنه إلا بالسمع ، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم .

الصنف الثاني : القدرية النفاة ، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة ، والتعليل . ولكن لا يقوم بالرب ، ولا يرجع إليه . بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته .

فعندهم : أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجره الأجبر .

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رَثِمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [الإعراف: ٤٩].

وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [النحل: ٣٢]. وقوله: ﴿هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [النمل: ٩٠].

وقوله ﷺ - فيما يحكي عن ربه عز وجل - : «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكُم إياها» وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. [الزمر: ١٠].

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا. لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى. **قالوا:** ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى.

وقد قال تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمُئِذٍ الْحَقُّ﴾. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾. [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين. فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح. وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها. وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتيال مئة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله: ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجره على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة . ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء ألبتة . والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب .
وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضية لهما كاقضاء سائر الأسباب لمسيباتها .

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه ، وصدقته على عبده . أن أعانه عليها ووقفه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحببها إليه ، وزينها في قلبه وكرهه إليه أضدادها . ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غايتها - إذا بذل العبد فيها نصحاً وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه - أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه . فلو طالبه بحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلذلك لو عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ .

ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل ، كما قال : «لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله» وفي لفظ : «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» .
وفي لفظ : «لن ينجي أحدًا منكم عمله» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدي الله برحمته منه وفضل» .

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما في قوله : ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ . [النحل : ٣٢] .

ولا تنافي بينهما . إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد . فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها ، ردًا على القدرية المجوسية ، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة .
وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجاباً . وحقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة .

ويكفي في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في منته ، وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه : أعرفهم

بهذه المنّة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟

﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره. فإذا مَنْ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه.

هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله، ﷺ، المنّة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أَمَنٌ» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتماها. وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم. بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم. وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. [النحل: ٣٢].

فهذه باء السببية، ردًا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له. وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر. فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشئّة.

فالنصوص مبطلّة لقول هؤلاء، كما هي مبطلّة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفترة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط. المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا.

وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾. [البقرة: ٢١٣]. و ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو

الفضل العظيم ﴿٤﴾ . [الجمعة : ٤] .

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس السُّبعية والبهيمية. فلو عُطِلَّت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة. فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها. وهذا يقوله طائفتان.

إحدهما: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة، القائلين بقدوم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسفت من صوفية الإسلام. وتقرب إلى الفلاسفة. فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسي، ونزول الواردات والمعارف عليها.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى. فإذا حصل لها بقي مخيراً في حفظه أو رده، أو الاشتغال بالوارد عنها.

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف. وعدم الإخلال بها. وهم صنفان أيضاً.

أحدهما: من يوجبونه حفظاً للقانون وضبطاً للنفوس.

والآخرون: الذين يوجبونه حفظاً للوارد، وخوفاً من تدرج النفس - بمفارقتها له - إلى حالتها الأولى من البهيمية.

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك. وغاية معرفتهم بحكم العبادة وما شرعت لأجله. ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة، على سبيل الجمع، أو على سبيل البدل.

فصل

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة، والقواعد الفاسدة. ما عندهم وراء ذلك شيء. قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من

الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.
فتركب من هذه الأمور إثارة ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف. والمعاني من عافاه الله.

فصل

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها. وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه باطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. **فمن** أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟

وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليفة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقها باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سُدىً مهملاً.

قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنها خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟﴾. [المؤمنون: ١١٥].

أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم.

وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

[الذاريات: ٥٦]. فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها.

قال الله تعالى: ﴿أيجsb الإنسان أن يترك سُدىً؟﴾. [القيامة: ٣٦]. أي مهملاً.

قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مرتبان على الأمر والنهي. والأمر

والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالها.

وقال تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقت هذا

باطلاً، سبحانه! فقنا عذاب النار﴾. [آل عمران: ١٩١].

وقال: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾. [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت﴾. [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكّد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته. فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكلال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاهها.

فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّكُمْ الله﴾. [آل عمران: ٣١]. **فجعل** اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذا ثبتت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله.

ومتى كان عنده شيء أحب إليه منها فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله .

قال الله تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ . [التوبة : ٢٤] .

فكل من قَدَّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله : فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . وإن قاله بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ما هو عليه .

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله . . فذلك المقدم عنده أحبَّ إليه من الله ورسوله ، لكن قد يشتهب الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه ، أو طاعته أو مرضاته ، ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول . فيطيعه ، ويحاكم إليه ، ويتلقى أقواله كذلك . فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك . وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقاً ، أو في بعض الأمور . ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به . فهذا الذي يخاف عليه . وهو داخل تحت الوعيد . فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله ، ولم يوافقه على اتباع شيخه . فهو من الظلمة المعتدين . وقد جعل الله لكل شيء قدراً .

فصل

وبنى ﴿إياك نعبد﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه ، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع : فأصحاب ﴿إياك نعبد﴾ حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذبُّ عنه ، وتبيين بطلان

البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالة فيه، والمعادة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها. وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

ف ﴿إياك نعبد﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿إياك نستعين﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾. [الفاتحة: ٥]. فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. **فقال نوح لقومه:** ﴿اعبدوا لله ما لكم من إله غيره﴾. [المؤمنون: ٢٣]. **وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم.**

قال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا. إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون﴾. [المؤمنون: ٥١: ٥٢].

فصل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. **فقال:** ﴿لن يَسْتَكْفِرَ المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون. ومن يستكف

عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴿١٧٢﴾. [النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾. [الأعراف: ٢٠٦]. وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿وله من في السموات والأرض﴾. [الأنبياء: ١٩]. ههنا.

ثم يتبدى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكاً. ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾. [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون عنها، ولا يتعاضمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون - يقال: حَسَرَ واستحسر، إذا تعب وأعشى - بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾. [الفرقان: ٦٣]. إلى آخر السورة. وقال: ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾. [الإنسان: ٦]. وقال: ﴿واذكر عبدنا داود﴾. [ص: ١٧]. وقال: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾. [ص: ٤١].

وقال: ﴿واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾. [ص: ٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾. [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾. [الزخرف: ٥٩]. فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾. [البقرة: ٢٣]. وقال تبارك وتعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾. [الفرقان: ١]. وقال: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾. [الكهف: ١]. فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله.

وقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. [الجن: ١٩].
فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه.

وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾. [الإسراء: ١]. فذكره بالعبودية في
مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن
مريم فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله».

وفي الحديث: «أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وفي صحيح البخاري: عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة
محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا
غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر».
وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا
أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه
وأشرك به. فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْغَاوِينَ﴾. [الحجر: ٤٢].

وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ
عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبي ﷺ، إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال
في حديث جبريل - وقد سأله عن الإحسان -: «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم
تكن تراه فإنه يراك».

فصل

في لزوم ﴿إياك نعبد﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ . [الحجر: ٩٩] . وقال أهل النار : ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ . [المدثر: ٤٦، ٤٧] . واليقين ههنا : هو الموت بإجماع أهل التفسير .

وفي الصحيح - في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه - : أن النبي ﷺ قال : «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» . أي الموت وما فيه . فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف .

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان : «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟» ويلتمسان منه الجواب .

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود . فيسجد المؤمنون . ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود .

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد ، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله . وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله ، والانسلاخ من دينه . بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه .

ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أمهم . والواجب على أولى العزم : أعظم من الواجب على من دونهم . والواجب على أولى العلم : أعظم من الواجب على من دونهم . وكل أحد بحسب مرتبته .

فصل

في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان : عامة ، وخاصة . فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، برّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك . قال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًّا. وما يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. [مريم: ٨٨-٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ؟﴾. [الفرقان: ١٧]. فسأهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله. وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. [الزمر: ٤٦]. وقال: ﴿وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾. [غافر: ٣١]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾. [غافر: ٤٨]. فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. [الفرقان: ٦٣]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾. [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. [الحجر: ٤٢].

فأخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُنْكَرًا. كقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾. [طه: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿وما الله يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾. [غافر: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾. [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾. [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. إنما يقال «طريق مُعَبَّد» إذا كان مُذَلَّلًا بوطء الأقدام، و«فلان عَبْدُهُ الحُب» إذا ذلله، لكن أولياؤه خضعوا له وَذَلُّوا طَوْعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهْرًا ورغْمًا.

ونظير إنقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك.

قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا؟ يَمْحَرُّ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. [الزمر: ٩]. وقال في حق مريم: ﴿وَكَاثَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. [التحریم: ١٢]. وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾. [الروم: ٢٦]. أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾. [الأعراف: ٢٠٦].

وقال: ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. [مريم: ٥٨]. وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكَرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾. [الحج: ١٨]. فخص بالسجود هنا كثيرًا من

الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ﴾. [النحل: ٤٩]. وهو سجد الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

فصل

في مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان: إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين؛ فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية. فليس في حقهم مباح متساوى الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومن دونهم يترك المباحات مشغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

فصل

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة. مَنْ كَمَّلَهَا كمل مراتب العبودية. وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح. (١)
 قوله (٢) تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. فيها عشرون مسألة:

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول؟.

الثانية: ما فائدة تعريف (الصراط المستقيم) باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط: ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول صراط النبيين والصديقين فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم وهو أخصر كما قال: ﴿الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. وما الفرق؟
السادسة: لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت وفي أهل الغضب: المغضوب بحذف الفاعل؟

السابعة: لم قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بإلى كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٨٧].

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

(١) بقية البحث في الأصل بتفصيل في الجزء الأول من مدارج السالكين ص ١٠٩ لمن أرادته (ج).

(٢) ٩ بدائع الفوائد ج ٢.

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ (غير)؟ وهلا قال تعالى: لا المغضوب عليهم، كما قال: ولا الضالين. وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت (غير) صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان إذ بابه الإعلام ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغابرتهم نوعي الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه، وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والنصارى بأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل، ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بلا هنا. ولو قيل: المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز؟

السادسة عشرة: إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ما قام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾. [التوبة: ٩١]. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾. [التوبة: ٩٢]. وأما بدون الواو فبأبواب الإيجاب نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ستة عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق

والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمراً لازماً، لا يقوم غيره مقامه ولا بد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته، فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع ولهذا يقول: «رب اغفر لي وارحمني وتب علي».

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر. فالجواب بعون الله وتعليمه فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ولا قوة له إلا بإعانتة أما المسألة الأولى: وهي ما فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة والمخ لا يكون إلا في عظم والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوباً بالخبر؛ تصريحاً من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحدهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية: فائدة لازم الخبر، فأما فائدة الخبر فهي

الإخبار عنه بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته.

وأما فائدة لازم الخبر فأقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه.

فهذه أربع فوائد. الدعاء بالهداية إليه. والخبر عنه بذلك، والإقرار والتصديق

لشأنه. والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق، وفيه فائدة خامسة، وهي أن

الداعي إنها أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلباً له وأعظم رغبة فيه وأحرص على دوام الطلب والسؤال له فتأمل هذه النكت البديعة. **وأما المسألة الثانية** وهي تعريف الصراط باللام هنا. فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالماً، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم ولا قولك: أكلت طيباً، كقولك: الطيب، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق» ثم قال: «ولقاؤك حقٌ والجنة حق والنار حق» فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثه وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعدته وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطاً مستقيماً لكان الداعي إنها يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر^(١) معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. [الفتح: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿وَأَجْتِيبَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ١٦١]

فالجواب: عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفاً لهم فلم يجئ معروفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ، معهود تكون اللام مصروفة إليه وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين

(١) كذا في الأصل ولعله إلى (صراط معهود) وفي المخطوطة (إلى معهود) أ. هـ (ج).

الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتكدير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن الله صراطاً مستقيماً هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول عن هدايته عالماً به دخلت اللام عليه فقال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦].

وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. [الفتح: ٢]. نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين، وإنما أراد صراطاً في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن: إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر والضلال حظاً من الاستقامة إذ الألف واللام تنبيء أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن.

أما قوله: إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ، أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطاً مستقيماً؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك.

بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ثم فسر بقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ونصب ديناً هنا على البذل من الجار والمجرور أي هداني ديناً قيماً، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول: إنه الحرب والمكيدة؟ فهذا جواب فاسد جداً.

وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين، والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالث: هدايته الصراط المستقيم، والرابع: إتمام نعمته عليه، والخامس: إعطاءه النصر العزيز وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، بالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد قهر قلوب المخالفين بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقروا. تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]. في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف^(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا الهدى ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾. [آل عمران: ١-٤]. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمي تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقاناً كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾. [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان؛ وهو يوم بدر وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وأن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة.

وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظاً من الاستقامة فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى؟ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم، أفترى قوله تعالى: ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. [الصافات: ١١٧، ١١٨]. يفهم منه أن لغيره حظاً من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال: إنه يفهم منه أن لغيره حظاً من الاستقامة بل يقال: تعريفه ينبيء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل الذي لا صراط مستقيم سواه وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة. فتأمل هنا وفي نظائره.

وأما المسألة الثالثة وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعاً سهلاً، فسمى الطريق صراطاً لأنه يسترط المارة فيه.

والصراط: ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوکاً واسعاً، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطاً، ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل.

ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وبنوا الصراط على زنة فعال لأنه مشتمل على سالكه اشتغال الخلق على الشيء المسروط.

وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معان:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب، والبناء، والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل ويقع بها كالخمار والغطاء والسداد لما يخرم به ويغطي ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم: ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾. [الأحاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، وأن الكتاب الذي سمعوه مصداقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره فكان فيه كالنبا عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصداقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان فقال مؤمنو الجن: ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق، مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم، أن يؤمن به ويصدق به. فذكر الطريق ههنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم.

ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي فوافق فيه الخاطر الخاطر. وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد:

أحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا؛ فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدایتهم إلى هذا الصراط؛ فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. [البقرة: ٢٧٤]. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. [الزمر: ٣٣]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾. [الأحاف: ١٣].

وهذا الباب مطرد لإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص. **الفائدة الثانية:** فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن

من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه . فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه .

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله ، أن الأول : يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه ، والثاني : يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه .

الفائدة الثالثة : أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم ، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم ؛ فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول .

ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراً وقرنه بأنفاسه ، فإنه لم يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه . ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضاً متكرراً في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه ، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها .

وأما المسألة الخامسة : وهي أنه قال : ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ ولم يقل : المنعم عليهم كما قال : المغضوب عليهم .

فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد وفيه فوائد عديدة :

أحدها : أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن ، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب ، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول فقال : ﴿المغضوب عليهم﴾ وقال في الإحسان : ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ .

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : ﴿الذي خلقتني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾ . [الشعراء ، ٧٨ - ٨٠]

فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى ولما جاء إلى ذكر

المرض قال: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.
ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. [الجن: ١٠]. فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب،
وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنو الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَارَدْتُ أَنْ
أَعْيِيَهَا﴾. [الكهف: ٧٩]. فأضاف العيب إلى نفسه.

وقال في الغلامين: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾. [الكهف: ٨٢].
ومنه قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى
نِسَائِكُمْ﴾. [البقرة: ١٨٧]. فحذف الفاعل وبناه للمفعول.

وقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. [البقرة: ٢٧٥]. لأن في ذكر الرفث ما
يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل ومنه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ
الْخَنَازِيرِ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. [الأنعام: ١٥١]. إلى آخرها.

ومنه وهو اللطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ﴾. [النساء: ٢٤]. إلى آخرها ثم قال: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ
ذَلِكَ﴾. [النساء: ٢٤].

وتأمل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ﴾. [النساء: ١٩٠]. كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق
المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾. [المائدة: ٣].

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر
ذكر المنعم والعمل بطاعته وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي
هو أساس الشكر وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. من ذكره وإضافة
النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله فضمن هذا اللفظ الأصلي وهما
الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا
تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية
دون أن يشركه أحد في نعمته؛ فافتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف

الإفراد فيقال: أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة. وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه؛ ويرضى عمن رضي عنه؛ فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية.

واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام؛ فإنه لله وحده. فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم.

وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب، وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك. فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم؛ فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

وأما المسألة: السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى.

فجوابها: أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة، وبحرف إلى تارة، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدي بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. [الفتح: ٢].

ومن المعدي بإلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ١٦١].

ومن المعدي باللام قوله قول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.

[الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًا عن أفهام العلماء ولكن نذكر قاعدة تشير إلى

الفرق. وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا.

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾. [الإنسان: ٦]. فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار. وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن، وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروي بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل بالزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بحرف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ﴾. [الحج: ٢٥]. وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء، ولكن ضمن معنى: يهم فيه بكذا وهو أبلغ من الإرادة فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية، متى عُذِّي بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين.

فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنى: ذكرته له وجعلته له وهياته ونحو هذا. **وإذا تعدى** بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعريف والبيان والإلهام. **فالقائل إذا قال:** ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجرداً معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عُذِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف. فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة^(١) بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟.

فمن ناف محتج بهذه بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾. [النساء: ٦٩]. فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه. وبقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾. [البقرة: ١٥٠].

وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟ **ومن** مثبت محتج بقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. [إبراهيم: ٣٤]. وقوله لليهود: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم.

وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. [النحل: ٨١-٨٣]. وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيثار لا يشركهم

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم.

فيها سواهم. ومطلق النعمة عام للخلقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب والله الموفق للصواب.

(١) وأما قوله: تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة: بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته.

وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم والله أعلم.

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم.

فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل.

وأما غير فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجها مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف.

فنقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف، وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم؛ لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل؛

لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم.

وأما الإتيان بلفظ غير فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين: **أحدهما**: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعمًا عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيهما فائدة أخرى، وهي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمل.

وتأمل كيف قال: ﴿المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال.

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان غير صفة على المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن غير هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن باب البدل المقصود فيه الثاني، والأول توطئة له ومهاد أمامه، وهو المقصود بالذكر. فقوله: تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. [آل عمران: ٩٧]. المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة وذكر الناس قبلهم توطئة. وقولك: أعجبنى زيد علمه، إنما وقع الإعجاب على علمه وذكر صاحب توطئة لذكره. وكذا قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. [البقرة: ٢١٧]. المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر. وهذا ظاهر

جداً في بدل البعض وبدل الاشتغال، ويراعى في بدل الكل من الكل ولهذا سمي بدلاً إذناً بأنه المقصود.

فقوله: ﴿لَنَسْفَعَنَ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةً كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. [العلق: ١٥، ١٦]. المقصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة، وذكر المبدل منه توطئة لها.

وإذا عرف هذا؛ فالمقصود هنا ذكر النعم عليهم وإضافة الصراط إليهم. ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغاييرتهم للمغضوب عليهم، فجاء ذكر غير المغضوب مكملاً لهذا المعنى وتماماً ومحققاً؛ لأن أصحاب الصراط المسؤول هدايته هم أهل النعمة، فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له وهذا واضح.

الوجه الثاني: أن البدل يجري مجرى تأكيد المبدل وتكريره وتثنيته^(١) ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم، فهو الأول بعينه ذاتاً ووصفاً، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ولا يكون مخلاً بالكلام، ألا ترى أنك لو قلت في غير القرآن: لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكان كاملاً مستقيماً لا خلل فيه؟ ولو قلت في دعائك: رب اهديني صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيماً؟

وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على (غير) وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم، بل أتى بلفظ (غير) زيادة في وصفهم والثناء عليهم، فتأمل.

الوجه الثالث: أن (غير) لا يعقل ورودها بدلاً وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً.

وسرّ ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو. والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود.

ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه قد جعلت الأول

(١) في نسخة وتبينه بدل تثنيته.

سَلماً ومِرْقاةً إليه، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك. وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته. فاجعل هذه النكته معياراً على باب البدل والوصف، ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفاً؟

الجواب الثاني: أن (غير) ههنا صح جريانه صفة على المعرفة؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين، ففيه رائحة من النكرة لإيهامه؛ فإنه غير دال على معين فصلح وصفه بغير لقربه من النكرة. وهذا جواب صاحب الكشف قال: (فإن قلت): كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يَسْبِي فمضيتُ ثمتَ قلتُ لا يعنيني

ومعنى قوله: لا توقيت فيه، أي: لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة^(١) باللام؛ لكونه غير معين فهو في قوة النكرة، فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لئيم يسبني. وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: يسبني، حال منه لا وصف والعامل فيه فعل المرور والمعنى: أمرُّ على اللئيم ساباً لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزته ولا أحتفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة؛ فإن المانع لها من تعريفها شدة إيهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين ولهذا تجري صفة على النكرة فتقول: رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا، فتجري صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإيهام يزول لوقوعها بين متضادين بذكر أحدهما، ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإيهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراهم أجرى (غير المنكر) صفة على النسب، كما أجرى عليه (المعروف) لأنها صفتان معيتتان فلا إيهام في (غير) لأن مقابلها (المعروف) وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف، أعني تعين الجنس.

(١) في نسخة المعروف.

وهكذا قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٦]. فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسبت منه التعريف.

وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في (غير) تكشف لك حقيقة أمرها: فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة؟ وهي أن غيراً هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه، فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه فإن (المعروف) هو تفسير (غير المنكر) والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم هذا حقيقة اللفظة.

فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا.

وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظم عند الناس، والبر غير الفاجر مهيب، والعاقل غير الظالم مجاب الدعوة، فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة. ومن ادعى فيها التنكير هنا غلط وقال مالا دليل عليه؛ إذ لا إبهام فيها بحال فتأمل.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي: أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير، كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه. وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة؛ إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو: هذا ضارب زيد غداً، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات. ألا ترى أن قولك: غيرك بمنزلة قولك: سواك، ولا فرق بينهما. والله أعلم.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾. [الفاتحة: ٧]. مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

فالجواب: أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه. بل البدل نوعان:

نوع يكون الأول فيه في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتغال، لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم.

ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه فإنه لما قال: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصاً بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله؟ فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧].

وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها، وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيداً وتقوية فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين، قدرًا زائدًا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقرية سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة على التأسى والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله.

وأما المسألة الثانية عشرة وهي: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

فالجواب: أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليها، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. [البقرة: ٩٠]. وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرار كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه، ومحاربتة فاستحقوا بكفرهم غضباً، وبالبغي والحرب والصد عنه غضباً آخر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾. [النحل: ٨٨]. فالعذاب الأول بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه بصددهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية: أن التكرار هنا ليس المراد به التشية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب، بحسب تكرار كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسول الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضباً على حدته.

وهذا كما في قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾. [الملك: ٤٣]. أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط. وقصد التعدد في قوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾. [البقرة: ٩٠]. أظهر.

ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضباً آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضباً آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضباً، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضباً، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضباً، وصددهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضباً، فهم الأمة الغضبية أعادنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب^(١) المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى.

وقال تعالى: في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾. [المائدة: ٦٠].

فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسح، وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

(١) في نسخة بغضب الله.

يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَمَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾. [المائدة: ٧٨: ٨٠].

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. [المائدة: ٧٧].

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. [المائدة: ٧٢]. إلى قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. [المائدة: ٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً ثم أضلوا كثيراً وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم، هذا قول طائفة منهم الزنخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع، فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: قد ضلوا من قبلهم. **والثاني:** أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم. . الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفاً للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهون أنفسهم لا المنهي عنهم. فتأمل.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود.

ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبد. وقد يصيب مقصوداً حقاً لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه.

فالأول ضلال في الغاية. **والثاني** ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قتل وصلب وصنع،

فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به . وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتمدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيراً فكانوا أدخل في الضلال من اليهود ، فوصفوا بأخص الوصفين .

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم ؛ من السُّحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام ، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم .
ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة ؛ من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء .

ووبخ النصارى بالضللال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق ؛ فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها^(١) .
فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به ، وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضاً .

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه ، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه ؛ أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين .

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق ، والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً ، وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريدًا له قاصداً لاتباعه ، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال .

وكان السلف يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى ، وهذا كما قالوا ؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه ، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه ، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من

(١) في المخطوطة : (ويتركب منها) .

الأخلاق التي ذم بها اليهود: من الكبر والي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر. فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد.

ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق، علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه؛ ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتها موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين. إنه قريب مجيب.

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم على الضالين فلجوه عديدة. **أحدها:** أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يكون النبي ﷺ من أهل الكتابين فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

الثالث: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم؛ فالتحذير من سيئهم والبعذ منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند.

الرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكأن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول وفي الضالين باسم الفاعل فجوابهما ظاهر.

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم.

وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا

استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنياً للمفعول؛ لما في رائيحه من إقامة عذرهم وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم.

ولا حجة في هذا للقدرة فإننا نقول: إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم، بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة. **فتضمنت الآية الرد عليهم** كما تضمن قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. الرد على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهادة لأهل الحق أنهم هم المصيبون، وهم المثبتون للقدرة توحيداً وخلقاً، والقدرة^(١) لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسباً، وهو متعلق الأمر والعمل. كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة.

فاقتضت الآية إثبات الشرع والقدّر والمعاد والنبوة، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا، وهدى أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب طريق وأبينها وأدناها على عموم الحاجة وشدة الضرورة إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي.

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها. والله الهادي إلى سواء السبيل. وهو أعلم.

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة (لا) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو: غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين أوهم أن المراد ما غير المجموع المركب من النوعين، لا ما غير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحاً في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء.

(١) نص المخطوطة: وهم المثبتون للقدرة توحيداً وخلقاً وإضافة أفعال العباد إليهم.

وبيان ذلك أنك إذا قلت : ما قام زيد وعمرو ، فإنما نفيت القيام عنها ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده .

الفائدة الثالثة : رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنها صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ، ودخل العطف بينهما كما دخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . [المؤمنون : ١ : ٣] . إلى آخرها فإن هذه صفات المؤمنين ومثل قوله : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ . [الأعلى : ١ : ٣] . ونظائره .

فلما دخلت لا أعلم أنها صنفان متغايران مقصودان بالذكر ، وكانت (لا) أولى بهذا المعنى من (غير) لوجوه :

أحدها : أنها أقل حروفاً . الثاني : التفادي من تكرار اللفظ . الثالث : الثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة ، ولا ريب أنه ثقل على اللسان .

الرابع : أن (لا) إنما يعطف بها بعد النفي ، فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال ، و (غير) - وإن أفهمت هذا - (فلا) أدخل في النفي منها .

وقد عرف بهذا جواب المسألة السادسة عشرة : وهي أن (لا) إنما يعطف بها في النفي .
وأما المسألة السابعة عشر : وهي : أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات ؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة :

أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ . [طه : ٥٠] . أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيأته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال .

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته ؛ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره .
وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به ، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به ، وإن اختلفت أنواعها وصورها^(١) .

وكذلك كل عضو له هداية تليق به ، فهدى الرُّجُلين للمشي واليدين للبطش والعمل ، واللسان للكلام ، والأذن للاستماع ، والعين لكشف المرئيات ، وكل عضو لما خلق له ، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد ، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه .

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين . وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية ، ثم تسلك سبل ربها مذلة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها ، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والالتزام به أين توجه بها ، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء .

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة ، بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة .

فإن لم يهمل هذه الحيوانات سُدى ، ولم يتركها معطلة ؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها ، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني ، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه ؛ مهملًا وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته ؛ بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهيه ولا يعاقبه ؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته إلى ما لا يليق بجلاله ؟ ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ، ونزه نفسه عنه وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه ، وأنه يتعالى عنه فقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ . [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] . فنزه نفسه عن هذا الحسبان فدل على أنه مستقرٌّ بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل ، وأنه مما تظاهر^(١) عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقتين في ذلك .

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ . [الأنعام : ٣٨] . بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . [الأنعام : ٣٧] . وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة ، وأن من لم يهمل أمر كل

دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ؛ بل جعلها أمماً وهداها إلى غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لِنَجْدِي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا انتفى الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. [فصلت: ١٧]. أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.

ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢].
النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [النحل: ٩٣].

وفي قوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾. [النحل: ٣٧].
وفي قول النبي ﷺ: «من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له».
وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. [القصص: ٥٦]. فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما.
قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. [يونس: ٩]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾. [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَأَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾. [الصفات: ٢٢، ٢٣].

إذا عُرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿الصراط المستقيم﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟
قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة، وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية. **ولقد** أجاب وما أجاب، وذكر فرعاً لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها.

ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به، وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يجب الله منه أن يفعله، عازماً عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عنه عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكما لها: **أحدها:** أمور هُدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هُدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها.

وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد الثبوت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فيحنئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، ومالا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية وتثبيتاً له على

ذلك ، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علماً وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات .

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره ، أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً ، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية . فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يثبت قلوبنا على دينه .

أما المسألة التاسعة عشرة : وهي الإتيان بالضمير في قوله : ﴿اهدنا الصراط﴾ ضمير جمع ، فقد قال بعض الناس في جوابه : إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به ، فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه .

وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ؛ فاستركه واستضعفه جداً .

وهو كما قال فإن الإنسان اسم للجملة ، لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه .

والقائل إذا قال : اغفر لي وأرحمني واجبرني وأصلحني واهدني ، سائل من الله ما يحصل لجملة ظاهره وباطنه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة .

فالصواب : أن يقال : هذا مطابق لقوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . [الفاتحة : هـ] . والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم ، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى ، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانتة وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مَقْرُون لك بالعبودية .

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه : نحن عبيدك وممالكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك ؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول : أنا عبدك ومملوكك ولهذا لو قال : أنا وحدي مملوكك ، استدعى مقتته ، فإذا قال : أنا وكل من في البلد ممالكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم ؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جداً وأنا واحد منهم ، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك . فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الأفراد ، فتأمله .

وإذا تأملت أدعية القرآن، رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [البقرة: ٢٠١].
ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.
وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟
فنذكر فيه قولاً وجيزاً، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته.

وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه؛ بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا. **وهو** إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحداً في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول.
وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأى شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.
ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمداً رسول الله.

وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به. وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ماشئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة.
ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهراً وباطناً علماً وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس.
وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.

فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع، لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم. والله أعلم.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الْبَقَرَةِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **تكرر** في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسيبه والمؤثر لأثره. وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد.

وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضاً فإنه البر، ويحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور. **فمن** الأصل الأول، قوله تعالى: ﴿الْم: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ١، ٢]. وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم، أن الله - سبحانه - يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان، والجود والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثاب - سبحانه - أهل البر، بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم، بأن حال بينهم وبين الاهتداء به...

(٢) **وكما** يقرن - سبحانه - بين الهدى والتقوى والضلال والغنى، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء. فمن الأول قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [البقرة: ٥]. وقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، [البقرة: ١٥٧]. وقال عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، [آل عمران: ٨]. وقال أهل الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، [الكهف: ١٠]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾. [يوسف: ١١١].

...^(١) والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملًا، وقبل أوامره، وصدق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية.

فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

وكلما قَوَّتْ حُظًّا من التقوى، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداية، وكلما اهتدى زادت تقواه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، [المائدة: ١٥، ١٦]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَكِّرُ مَن يَخْشَى﴾، [الأعلى: ١٠]. وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، [غافر: ١٣]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾. [يونس: ٩]. فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾. [مريم: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾. [الأنفال: ٢٩].

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل. فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾. [سبا: ٩]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ [الشورى: ٣٣]. في سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبا، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه - سبحانه - كما قال:

﴿طه. ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾، [طه: ١-٣]. وقال في الساعة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾. [النازعات: ٤٥]. وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاهها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر- سبحانه - في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسول، وما حل بهم في الدنيا من الخزي. قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. [هود: ١٠٣]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها. فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك، قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركاً متبّعاً هواه لم يكن صابراً ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيماناً. ^(١).

فصل^(٢)

ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين وختم عليها وأنه أصمّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾. [البقرة: ٧، ٦]. والوقف التام هنا.

ثم قال: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. [البقرة: ٧]. كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾. [الحجّة: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. [الأعراف: ١٠١].
﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾. [يونس: ٧٤]. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

(١) الأصل الثاني يأتي على قوله: ﴿يضل به كثيراً

ويهدي به كثيراً﴾. [البقرة: ٢٦]. إن شاء الله. ج. (٢) ٨٢ شفاء العليل.

لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾. [الأعراف: ١٠٠]. وَأَخْبِرْ سُبْحَانَهُ أَنْ عَلَى بَعْضِ الْقُلُوبِ أَقْفَالًا، تَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَنْفَتَحَ لِدُخُولِ الْهُدَى إِلَيْهَا.

وَقَالَ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. [فصلت: ٤٤]. فهذا الوقْر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾. [الكهف: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾. [غافر: ٣٧]. قرأها الكوفيون وَصُدَّ بضم الصاد حملاً على زَيْنَ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. [غافر: ٢٨]. وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. [الصف: ٧]. ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى التشابه وتجعله من متشابه القرآن وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتدياً وضالاً، فجعلوا هداة وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعاً أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه.

وأنت إذا تأملت ما وجدت لا تحتل ما ذكره ألبتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: هداة بمعنى: سماء مهتدياً، وأضله: سماء ضالاً وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماء عالماً، وفهمه: إذا سماء فهماً.

وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [البقرة: ٢٧٢].

فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمى من يشاء مهتدياً؟.

وهل فهم أحد قط من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦]: لا تسميه مهتدياً ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقوله: اللهم اهْدني من عندك ونحوه. اللهم سمني

مهتدياً؟ وهذا من جنابة القدرية على القرآن ومعناه، نظير جنابة إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملاحدة جنابيتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم. وسنفرد إن شاء الله كتاباً نذكر فيه جنابة المتأولين على الدنيا والدين. وأنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية والرافضة، لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة والباطنية وأمثالهم كبير فرق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى؛ فتتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى مالا يليق به من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

(١) فصل

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل، حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل، ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. [محمد: ٢٤]. وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيراً، وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيّاً فاحني واكتبني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه، والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدراً أو علم شيئاً فإنه لا يغيره بعد هذا

ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه ، والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلاً ، وجميع خلقه تحت حجره شرعاً وقدرًا وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر ، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها .

والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع ، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه ، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له كما أن شرب الدواء مقدور له ، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور ، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء ، وإن كان غير مقدور له ولكن لما ألفت العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا أثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت ، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية .

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى ، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبه وملائمته لنفسه ، فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وأثر عليه الضلال ، مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره ومضرة هذا وشره ، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية .

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه ، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه وأنه إن لم يهده الله فهو ضال ، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه ، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه ، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية ، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق ، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره ، لكان هداه أقرب شيء إليه لكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه .

فصل^(١)

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل، عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسماؤه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبد من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له؛ وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَعَذَّرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [البقرة: ٦، ٧]. ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا، بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك^(٢).

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا

(١) ٢٤ شفاء العليل.

(٢) بعد هذا ذكر فصلاً مطولاً مجموعاً فيه فائدة كبيرة جداً لمن أرادته وسنذكره مفرقاً في محاله إن شاء الله.

(٣) ٣٤٠ إغاثة الجاهل.

هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٨﴾ . [البقرة: ٩٨، ٩٩] . وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ . [النساء: ١٤٢] . وقال في أهل العهد: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يُخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ . [الأنفال: ٦٢] .

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة: بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة. فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع، إذا كان مخالفاً للقصد لا يُشعر به، ولا يُفطن له، ويقال للسراب: الخَيْدَع. لأنه يَغْزُ من يراه، وضَبُّ خَدَع، أي: مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضَبَّ، ومنه: «الحرب خدعة»^(١) وسوق خادعة، أي: متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعاً.

فلما كان القائل: «آمنت» مظهرًا لهذه الكلمة، غير مرید حقيقتها المرعية المطلوبة شرعاً، بل مرید لحكمها وثمرتها فقط؛ مخادعاً، كان المتكلم بلفظ «بعث» و«اشترت» و«طلقت» و«نكحت» و«خالعت» و«آجرت» و«ساقيت»، و«أوصيت» غير مرید لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعاً، بل مرید لأمر أخرى غير ما شرعت له، أو ضد ما شرعت له؛ مخادعاً. ذلك مخادع في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه.

قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده. كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ «أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طَلَّقَ امرأته ثلاثاً، أَيْحِلُّها له رجل؟ فقال: «مَنْ يُخَادِعُ اللَّهَ يُخَادِعْهُ».

(١) مثلثة الخاء، وكهْمَزَة، وروى بهن جميعاً، أي: تنقض بخدعة. رواه أحمد ومسلم والبخاري عن

﴿فصل﴾^(١)

وأما المرض فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠].
 وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢].
 وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. [المدثر: ٣١]. ومرض القلب خروج عن
 صحته واعتداله فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له، مؤثراً له على غيره،
 فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك
 وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمي الله سبحانه كلاهما
 مرضاً. قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة الفساد، مرض فلان فسد حسمه
 وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض تغيرت وفسدت قالت ليلي الأخيلية:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها
 وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد الحسين والبلاد اقشعرت
والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف، ونقصان، وظلمة، ومنه مرض
 الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة،
 وريح مريضة إذا هب هبوماً كما قال: * راحت لأربعك الرياح مريضة *
 أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان ومنه بدن مريض أي: ناقص القوة
 وقلب مريض ناقص الدين، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته.
وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة
 واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض الظلمة، وأنشد:

ولسيلة مرضت من كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر
هذا أصله في اللغة. ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي
 وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب
 المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها:

...^(١) **المرض** نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان. وهما مذكوران في القرآن. و**مرض** القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغى. وكلاهما في القرآن. قال تعالى: في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. [المدثر: ٣١].

وقال تعالى في حق من دُعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمْ ارْتَابُوا؟ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [النور: ٤٨ - ٥٠]. فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنْ اتَّقَيْتُنَّ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢]. فهذا مرض شهوة الزنا. والله أعلم.

^(٢) **الوجه** السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما: مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله. وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه. أما مرض الشبهات وهو أصعبها وأقربها للقلب ففي قوله في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾. [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢]. أي: لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه وتكسره؛ فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها. وللقلب أمراض أخرى: من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء

وحب الرياسة والعلو في الأرض ، وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة ؛ فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة ، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمتة وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم ، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما .

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم ، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة الذي أفتوه بالغسل فمات : « قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال » فجعل العي وهو عي القلب عن العلم ، واللسان عن النطق به مرضاً وشفاءه سؤال العلماء ، فأمرض القلوب أصعب من أمراض الأبدان ؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي ، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ، ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [يونس: ٥٧] . ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان ، وما يقال للعلماء : أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم ، فإن كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد ، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب .

وأما العلماء بالله وأمره ، فهم حياة الوجود وروحه ولا يستغني عنهم طرفة عين ؛ فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم .

وبالجمل فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقدته مات ، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن ، وكنسبة كلام اللسان إليه ، فإذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس .

ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم ، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع ، فبقيت على عماها وصممها وبكمها . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمًى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمًى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . [الإسراء: ٧٢] . والمراد عمى القلب في الدنيا

فصل^(١)

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفي على الناس. وكثيراً ما يخفي على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلّى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. **يخرجون** عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فله كم من معقل للإسلام قد هدموه!! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه!! وكم من علم له قد طمسوه!! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها!! وكم عمّوا عيون موارد بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليّة. ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * [البقرة: ١٢]. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. [الصف: ٨].

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ

إِلَى بَعْضِ زُخْرُفِ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾. [الأنعام: ١١٢]. وَلَاجِلَ ذَلِكَ ﴿١١٣﴾ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿١١٤﴾. [الفرقان: ٣٠].

دَرَسْتُ معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودَثَرَتْ معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وَأَقَلَّتْ كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها. وَكَسَفَتْ شمسُه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأسًا. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا. خلَعُوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشَنُوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لثام. فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز. وقالوا: مالِكِ عندنا من عبور - وإن كان لا بد - فعلى سبيل الاجتياز. أعدُّوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا - لما حَلَّتْ بساحتهم -: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وعوامُّهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا همَّهم إلى فعل المأمور وترك المحذور. فطريقة المتأخرين؛ أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين؛ أجهل، لكنها أسلم.

أَنْزَلُوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السَّكَّة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع. لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيَّزَتْ إلى الكفار. فألستهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحارِبين. ويقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. [البقرة: ٨].

رَأْسُ مَالِهِمُ الخديعة والمكر. وبضاعتهم الكذب والختر. وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ٩].

قَدْ نَهَكَتْ أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصد السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. [البقرة: ١٠].

مَنْ عَلَقَتْ مَخَالِبُ شُكُوكِهِمْ بِأَدِيمِ إِيْمَانِهِ مَزَّقَتْهُ كُلُّ تَمْزِيقٍ. وَمَنْ تَعَلَّقَ شَرُّهُ فَتَنَتَهُمْ بِقَلْبِهِ أَلْقَاهُ فِي عَذَابِ الْحَرِيقِ. وَمَنْ دَخَلَتْ شَبَهَاتُ تَلْبِيسِهِمْ فِي مَسَامِعِهِ حَالَ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ التَّصَدِيقِ. فَفَسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَثِيرٌ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ١١، ١٢]. المْتَمَسِكُ عَنْهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ صَاحِبُ ظَوَاهِرٍ، مَبْخُوسُ حَظِّهِ مِنَ الْمَعْقُولِ، وَالدَّائِرُ مَعَ النُّصُوصِ عَنْدهُمْ كَحِمَارٍ يَحْمِلُ أَسْفَارًا. فَهَمُّهُ فِي حَمْلِ الْمَنْقُولِ. وَبُضَاعَةُ تَاجِرِ الْوَحْيِ لَدَيْهِمْ كَاسِدَةٌ، وَمَا هُوَ عَنْدهُمْ بِمَقْبُولٍ. وَأَهْلُ الْإِتْبَاعِ عَنْدهُمْ سَفَهَاءُ فَهَمُّ فِي خُلُوتِهِمْ وَمَجَالَسِهِمْ بِهِمْ يَتَطَيَّرُونَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ. قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٣].

لِكُلِّ مِنْهُمْ وَجْهَانِ. وَجْهٌ يَلْقَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَجْهٌ يَنْقَلِبُ بِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْمَلْحَدِينَ. وَلَهُ لِسَانَانِ: أَحَدُهُمَا يَقْبَلُهُ بِظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَالْآخَرُ يَرْجُمُ بِهِ عَنْ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا. وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. [البقرة: ١٤].

قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اسْتِهْزَاءً بِأَهْلِهَا وَاسْتِحْقَارًا، وَأَبَوْا أَنْ يَنْقَادُوا لِحُكْمِ الْوَحْيِينَ؛ فَرَحًا بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ الْاسْتِكْثَارَ مِنْهُ أَشْرًا وَاسْتِكْبَارًا. فَتَرَاهُمْ أَبَدًا بِالْمَتَمَسِّكِينَ بِصَرِيحِ الْوَحْيِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. [البقرة: ١٥].

خَرَجُوا فِي طَلَبِ التَّجَارَةِ الْبَائِثَةِ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ، فَرَكَبُوا مَرَاقِبَ الشُّبْهِ وَالشُّكُوكِ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ الْخَيَالَاتِ، فَلَعِبَتْ بِسُفْنِهِمُ الرِّيحُ الْعَاصِفُ، فَأَلْقَتْهَا بَيْنَ سُفْنِ الْهَالِكِينَ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ. فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفيء ذلك النور، وبقيت ناراً تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ دَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر؛ فهي لا تسمع منادي الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى؛ فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألستهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. [البقرة: ١٨].

صاب عليهم صيب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح؛ فلم يسمعوها منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وُظِّفت عليهم في المساء والصباح؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدّوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصباح، فنودي عليهم على رعوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلاً بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين. ف قيل: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ. يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه. وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيهِ. فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه. لا ينتفع بسمعه السامع. ولا يهتدي ببصره البصير ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ. وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يُعرفون بها مبينة في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثِقَلًا ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى. يُرَاءُونَ النَّاسَ. وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تَيعَرُ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين. فهم واقفون بين الجمعيتين. ينظرون أيهم أقوى وأعرّ قِبَلًا.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].
 يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ، قَالُوا: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ، قَالُوا: أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه. ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه^(١). فتراه عند الحق ناثماً. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه. ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

^(٢) وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكراً وإفياً أطلعت فيه من: أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض

(١) المين: الكذب. راجع لسان العرب ج ١٣

(٢) ١٣٠ بدائع ج ٤.

ص (٤٢٥) طبعة دار صادر. المراجع.

والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه .
فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ . [البقرة: ١٢] .

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون : لا تفسدوا في الأرض فأجابهم المنافقون بقولهم : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ . فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين ، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيثار من كونهم مفسدين ، وأن ما نسبوههم إليه إنما هو صلاح لا فساد ، فحكّم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجلات :

أحدها : تكذيبهم ، **والثاني :** الإخبار بأنهم مفسدون . . **والثالث :** حصر الفساد فيهم بقوله : ﴿هم المفسدون﴾ **والرابع :** وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم ألّبتة بكونهم مفسدين .

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع ، ثم نفى عنهم العلم في قولهم : ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ . فقال : ﴿أَلَا أَنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . [البقرة: ١٣] .

فنفي علمهم بسفاههم وشعورهم بفسادهم ، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل ؛ أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده ألّبتة ، مع أن أثر فساد مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به ، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه .

وكذلك كونه سفيهاً ، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاذه وإرادته بخلافه ، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني ، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه ، فتضمنت الآيتان : الإسجال عليهم بالجهل ، وفساد آلات الإدراك ؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحاً والشر خيراً .

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضاً فإن المؤمنين قالوا لهم : ﴿آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ . فأجابهم المنافقون بقولهم : ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ .

وتقرير المناظرة من الجانبين ، أن المؤمنين دعوهم إلى الإيثار الصادر من

العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولا سيما إذا قامت أدلته وصحت شواهدهم، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: إنا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم. فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع: أحدها: تسفيهم^(١). الثاني: حصر السفه فيهم. الثالث: نفي العلم عنهم. الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان. وخامس أيضاً وهو: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه. ...^(٢) ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون؛ فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾. إلى قوله: ﴿إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. [البقرة: ١٧-٢٠].

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً نارياً، ومثلاً مائياً، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمّاه روحاً ونوراً، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأساً أسوأاً في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له ويتنفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وأمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبته مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفيء عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل: ينادهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بها فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من

(١) في نسخة: الحكم بسفهمهم.

(٢) ١٥٠ أعلام جـ ١.

أبصر ثم عمي ، وعَرَفَ ثم أنكر ، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه ، فهو لا يرجع إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . [البقرة: ١٨] .

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي ، فشبههم بأصحاب صَيِّب - وهو المطر الذي يصبُّ أي : ينزل من السماء - فيه ظلمات ورعد وبرق ، فلضعف بصائرهم وعقولهم ؛ اشتدَّت عليهم زَوَاجِرُ القرآن ووعيدُه وتهديده وأوامره ونواهيهِ وخطابه الذي يُشَبِّه الصواعق ، فحالهم كحال مَنْ أصابه مطرٌ فيه ظلمة ورعد وبرق ، فلضعفه وخَوَّرَه جعل أصبعيه في أذنيه ، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه . وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة ، إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين ، كأنهم حُمْرٌ مستنفرة ، فرَّتْ من قسورة ؛ ويقول مُخَنَّثهم : سُدُّوا عَنَّا هذا الباب ، واقربوا شيئاً غير هذا ، وترى قلوبهم مولية وهم يَجْمَحُونَ ؛ لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم .

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم ، إذا جُرِّدَ لهم التوحيد وتليت عليهم النصوصُ المبطلَة لشركهم اشمأزَّت قلوبهم ، وثقلت عليهم ، ولو جَدَّوا السبيل إلى سَدِّ أذانهم لفعلوا .

ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا نصوصُ الثناء على الخلفاء الراشدين ، وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًّا ، وأنكرته قلوبهم ؛ وهذا كله شبه ظاهر ، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء ؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم .

^(١) يذكر سبحانه هذين المثليين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه ، كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمُّ بُكْمٌ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . [البقرة: ١٧، ١٨] .

شبهه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم وينتفعوا بها ، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين ، فهم كقوم سفلوا عن الطريق فأوقدوا النار لتضيء لهم

الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفتت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سُدَّت عليهم أبواب الهدى الثلاث.

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئاً ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل. والقولان متلازمان، وقال في صفتهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النار وأبصروا الهدى، فلما طفتت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سرٌ بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. فذهب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أوليائه، فقطعهما بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. [التوبة: ٤٠]. ولا من ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾. كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوءها به ولا به لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملازمة ومخالطة، وكأن الضوء عارضاً والظلمة أصلية فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منها إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرّف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾. لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته.

وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم. وأيضاً فإن الله تعالى سمى كتابه نوراً ورسوله ﷺ نوراً، ودينه نوراً، وهداه نوراً؛ ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله. وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. [البقرة: ١٦]. كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة، والرضى بها، وبدل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلاً من النور الذي هو الهدى والنور، فبدّلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيالها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. فوحّده ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾. فجمعها فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِيَّاهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾. [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. [المائدة: ١٦]. فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صح عن النبي ﷺ، أنه خطَّ خطاً مستقيماً وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [الأنعام: ١٥٣].

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام. ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. مطابقاً لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. ويكون تخييرهم وإبطال ما راموه، هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلاً بل هم صم بكم عمي. وهذا التقدير - وإن كان حقاً - ففي كونه مراداً بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره. **ويأباه** قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾. وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبداً.

ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له. **ويأباه** قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر.

قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقه. وقال تعالى في حق الكفار: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. فسلب العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً آخر مائياً فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائراً تائهاً لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقاً، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصبوب أي: ينزل من علو إلى أسفل.

فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود

بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب : من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك : من برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب .

وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد : من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المَهْجَة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون .

وكذلك مَنْ عَزَمَ على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه .

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفتطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود .

وقال الزمخشري : «لقاتل أن يقول : شُبّه دين الإسلام بالصيّب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأقراع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق» .

والمعنى : أو كمثل ذوي صيب، والمراد : كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا .

قال: والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه، أن التمثيلين جميعاً من جهة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه، وهذا القول الفصل والمذهب الجزل.

بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، ثم تأخذ هذا بحجة ذاك فتشبهها بنظائرها كما جاء في القرآن؛ حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾. [الجمعة: ٥]. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة، وحمل ما سواها من الأحمال ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

وكقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾. [الكهف: ٤٥]. المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض وتصيرها شيئاً واحداً فلا.

كذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ.

قلت: قال شيخنا: الناس في الهدى الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ أربعة أقسام، قد اشتملت عليهم هذه الآيات من أول السورة إلى ههنا:

القسم الأول: قبلوه باطناً وظاهراً وهم نوعان:

أحدهما: أهل الفقه فيه والفهم والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالى كتابه وفهموا مراده، وبلغوه إلى الأمة واستنبطوا أسرارهم وكنوزهم، فهؤلاء مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير، فرعى الناس فيه ورعت

أنعامهم ، وأخذوا من ذلك الكلاً الغذاء والقوت والدواء وسائر ما يصلح لهم .

النوع الثاني : حفظوه وضبطوه وبلغوا ألفاظه إلى الأمة فحفظوا عليهم النصوص ، وليسوا من أهل الاستنباط والتفقه في مراد الشارع ، فهم أهل حفظ وضبط وأداء لما سمعوه ، والأولون أهل فهم وفقه واستنباط وإثارة لدفائنه وكنوزه ، وها النوع الثاني بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فوردوه وشربوا منه وسقوا منه أنعامهم وزرعوا به .

القسم الثاني : من رده ظاهراً وباطناً وكفر به ولم يرفع به رأساً ، وهؤلاء أيضاً نوعان : **أحدهما :** عرفه وتيقن صحته ، وأنه حق ولكن حمله الحسد والكبر وحب الرياسة والملك والتقدم بين قومه ؛ على جحده ودفعه بعد البصيرة واليقين .

النوع الثاني : أتباع هؤلاء الذين يقولون : هؤلاء ساداتنا وكبرائنا وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه ، ولنا أسوة بهم ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم ، ولو كان حقاً لكانوا هم أهله وأولى بقبوله ، وهؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام يساقون حيث يسوقهم راعيهم ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ، وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَّنَا كَرَّةٌ فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا . كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ . [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] .

وقال تعالى فيهم : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَافُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾ . [الأحزاب : ٦٦ ، ٦٨] .

وقال تعالى فيهم : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ . [غافر : ٤٧ ، ٤٨] .

وقال فيهم : ﴿ هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ، قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَبئس القرارُ ﴾ . [ص : ٥٧ ، ٦٠] . أي : سننتمونه لنا وشرعتموه ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ . [ص : ٦١] . فقولهم : لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار أي : داخلوها كما دخلناها ، ومقاسون عذابها كما نقاسيه ، فأجابهم

الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان: أحدهما: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتونا إليه وحسبتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله سبحانه وتعالى، أي: بدأتهم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾. [ص: ٦٠]. ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾. [ص: ٦١]. فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على ساداتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه.

ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سنّ لهم الشرك وتكذيب الرسل، صلى الله عليهم وسلم، ضعفاً وهم الشياطين. (١)

القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهراً، وجحدوه وكفروا به باطناً، وهم المنافقون الذين ضرب لهم هذا المثلان بمستوقد النار وبالصيب، وهم أيضاً نوعان:

أحدهما: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رءوس أهل النفاق وساداتهم وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد ناراً ثم حصل بعدها على الظلمة.

والنوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق؛ فكاد أن يخطفها لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، ولا يقربون من سماع القرآن والإيمان بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنه، وهذه حال كثير من خفافيش البصائر في كثير من نصوص الوحي، وإذا

(١) سيأتي هذا البحث في سورة ص إن شاء الله (ج).

وردت عليه مخالفة لما تلقاه عن أسلافه وذوي مذهبه ومن يحسن به الظن، ورآها مخالفة لما عنده عنهم، هرب من النصوص وكره من يسمعه إياها، ولو أمكنه لسد أذنيه عند سماعها، ويقول: دعنا من هذه، ولو قدر لعاقب من يتلوها ويحفظها وينشرها ويعلمها، فإذا ظهر له منها ما يوافق ما عنده مشى فيها وانطلق، فإذا جاءت بخلاف ما عنده أظلمت عليه، فقام حائرًا لا يدري أين يذهب، ثم يعزم له التقليد وحسن الظن برؤسائه وسادته على اتباع ما قالوه دونها، ويقول مسكين الحال: هم أخبر بها مني وأعرف.

في الله العجب: أو ليس أهلها والذابون عنها والمنتصرون لها والمعظمون لها والمخالفون لأجلها آراء الرجال المقدمون لها على ما خالفها، أعرف بها أيضًا منك ومن اتبعته، فلم كان من خالفها وعزلها عن اليقين، وزعم أن الهدى والعلم لا يستفاد منها، وأنها أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ولا يجوز أن يحتج بها على مسألة واحدة من مسائل التوحيد والصفات ويسميها الظواهر العقلية، ويسمي ما خالفها القواطع العقلية، فلم كان هؤلاء أحق بها وأهلها، وكان أنصارها والذابون عنها والحافظون لها، هم أعداؤها ومحاربوها؟

ولكن هذه سنة الله في أهل الباطل، أنهم يعادون الحق وأهله، وينسبونهم إلى معاداته ومحاربه، كالرافضة الذين عادوا أصحاب محمد ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنته إلى معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه إن أوليائه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

والمقصود: أن هؤلاء المنافقين قسمان: أئمة وسادة يدعون إلى النار، وقد مردوا على النفاق. **وأتباع** لهم بمنزلة الأنعام والبهائم، فأولئك زنادقة مستبصرون، وهؤلاء زنادقة مقلدون، فهؤلاء أصناف بني آدم في العلم والإيمان.

ولا يجاوز هذه الستة - اللهم - إلا من أظهر الكفر وأبطن الإيمان، كحال المستضعف بين الكفار الذي تبين له الإسلام ولم يمكنه المجاهرة بخلاف قومه، ولم يزل هذا الضرب في الناس على عهد رسول الله ﷺ، وبعده.

وهؤلاء عكس المنافقين من كل وجه. وعلى هذا فالناس: إما مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإما كافر ظاهرًا وباطنًا، أو مؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، أو كافر ظاهرًا مؤمن باطنًا، والأقسام الأربعة قد اشتمل عليها الوجود، وقد بين القرآن أحكامها.

فالأقسام الثلاثة الأولى ظاهرة، وقد اشتمل عليها أول سورة البقرة.

وأما القسم الرابع ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾. [الفتح: ٢٥]. فهؤلاء كانوا يكتمون إيمانهم في قومهم ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون كان يكتُم إيمانه، ومن هؤلاء النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ، فإنه كان ملك النصارى بالحبشة، وكان في الباطن مؤمناً، وقد قيل: إنه وأمثاله الذين عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [آل عمران: ١٩٩]. وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعد محمد، ﷺ، قطعاً فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر وأوجب لهم النار، فلا يثنى عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه، فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ماكانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمنين، وإنما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب، هذا هو المعروف في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٠]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿وَإِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ونظائره.

ولهذا قال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن وقتادة: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]: إنها نزلت في النجاشي، زاد الحسن وقتادة: وأصحابه.

وذكر ابن جرير في تفسيره من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن ابن المسيب، عن جابر رضي الله عنه أن النبي، ﷺ، قال: «اخرجوا فصلوا على أخيك» فصلى بنا فكبّر أربع تكبيرات، فقال: «هذا النجاشي أصحمة» فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على عليج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ

من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴿١﴾ الآية.

والمقصود أن الأقسام الأربعة قد ذكرها الله تعالى في كتابه وبين أحكامها في الدنيا وأحكامها في الآخرة، وقد تبين أن أحد الأقسام من آمن ظاهراً وكفر باطناً، وأنهم نوعان: رؤساؤهم وساداتهم، وأتباعهم ومقلدوهم.

وعلى هذا فأصحاب المثل الأول الناري شر من أصحاب المثل الثاني المائي، كما يدل السياق عليه، وقد يقال - وهو أولى - إن المثليين لسائر النوع وإنهم قد جمعوا بين مقتضى المثل الأول من الإنكار بعد الإقرار، والحصول في الظلمات بعد النور، وبين مقتضى المثل الثاني من ضعف البصيرة في القرآن، وسد الآذان عند سماعه والإعراض عنه، فإن المنافقين فيهم هذا وهذا، وقد يكون الغالب على فريق منهم المثل الأول، وعلى فريق منهم المثل الثاني.

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة:

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهب تلك النار بقي في ظلمة، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضيء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهب مادة الإيمان طفيء كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور، وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المتسوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذاناً وتنبيهاً على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نوراً ظاهراً كما كان نورهم في الدنيا ظاهراً، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه؛ إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ويبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحداً عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار،

وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم ، ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى : ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل : أذهب الله نورهم .

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح ، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وقد سئل عن الورود فقال : «نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس ، قال : فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك فيقول : من تنتظرون؟ فيقولون : نتنظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك ، قال : فينطلق بهم فيتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم - منافق أو مؤمن - نوراً ، ثم يتبعونه ، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله تعالى ، ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون فينجو أول زمرة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضواء نجم في السماء ، ثم كذلك ، ثم تحمل الشفاعة ، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء» وذكر باقي الحديث .

فتأمل قوله : فينطلق فيتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم نوراً المنافق والمؤمن . ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ . [البقرة: ١٧] .
وتأمل حالهم إذا طفت أنوارهم فبقوا في الظلمة ، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل .

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة : «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبد» ، والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق ، الذي كل معبود سواه باطل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ . [القلم: ٤٢] . وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع ، وقوله في الحديث : «فيكشف عن ساقه» وهذه^(١) الإضافة تبيين المراد بالساق المذكور في الآية .

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه بعد هذا ، وذلك يفتح لك باباً من أسرار

(١) في النسخة المعتمدة : هذه . والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى . المراجع .

التوحيد وفهم القرآن، ومعاملة الله سبحانه وتعالى لأهل توحيد الذين عبدوه وحده ولم يشركوا به شيئاً، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك؛ حيث ذهبت كل أمة مع معبودها فانطلق بها واتبعته إلى النار، وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه.

فسبحان الله رب العالمين الذي قرّت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال، والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. [الأنعام: ٨٢]. قال ابن عباس وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، آمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

قال مجاهد: إضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة.

وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بالبرزخ، وفسرت بيوم القيامة.

والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلاً له في الدنيا، ولهذا يسمى يوم الجزاء ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. [الإسراء: ٧٢]. ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾. [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ، ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرّت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرّت عينه به يوم القيامة، وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه فينعم به ظاهراً وباطناً، فيورثه من

الفرح والسرور واللذة والبهجة وقرة العين، والنعيم وقوة القلب، واستبشاره وحياته وانشراحه، واغبطاه ما هو من أفضل النعيم وأجله، وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه واستبشاره؟!

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذذ عينه من سائر المشتبهات التي تشتهيها الأنفس وتلذذها الأعين، ويكون تنوع تلك المشتبهات وكمالها وبلوغها، مرتبة الحسن والموافقة: بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار. وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخرودة، أثراً وجزاء ولذة وألماً يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزائه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار. وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كآلم من ضرب بسهم واحد في مسأخطه، وقد أشار النبي ﷺ، إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا، فرأى قنواً^(١) من حشف معلقاً في المسجد للصدقة فقال: «إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة» فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله؛ فيجزي على تلك الصدقة بحشف من جنسها.

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله، وما يجري فيه من الأمور.

فمنها: خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله، إن خف خف وإن ثقل ثقل.

ومنها: استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه^(٢) للحر والشمس، إن كان له من

(١) القنوا: العذق الكبير (السباطة).

(٢) أي: بروزه.

الأعمال الصالحة الخالصة والإيمان مما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم، استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن، وإن كان ضاحياً هنا للمعاصي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد.

ومنها: طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه، وتهوينه عليه إن طال وقوفه في الصلاة ليلاً ونهاراً لله، وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه، وإن أثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة؛ طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً، واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقیلاً﴾. [الإنسان: ٢٣-٢٧]. فمن سبَّح الله ليلاً طويلاً، لم يكن ذلك اليوم ثقیلاً عليه بل كان أخف شيء عليه.

ومنها: أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما: «واعلم أن الله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار وله حق بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقل ذلك عليهم، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره».

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر، غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أعطي في الآخرة نوراً ظاهراً، لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبيئته على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه

هاهنا، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومخدول أي مقطوع بالكلاليب مُكْرَدَس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاء وفاقاً ﴿وماربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

والمقصود أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثليين: المائي والناري في سورة البقرة، وفي سورة الرعد، وفي سورة النور لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة، فالْمُؤْمِن حي القلب مستنيره، والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾. [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾. [فاطر: ١٩-٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيراً حياً في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك، مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتاً في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات.

وقال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. [الشورى: ٥٢].

وقد اختلفوا في مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾. فقيل: هو الإيمان لكونه أقرب المذكورين، وقيل: هو الكتاب فإنه النور الذي هدى به عباده.

قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾. [الشورى: ٥٢]، فسمى وحيه رُوحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله، ﷺ، فمن لم يُحْيَ به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها فيها ولا يحيى.

وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء، أعظمهم نصيباً من الحياة بهذا الروح.

وسماه رُوحاً في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

[غافر: ١٥] . وقال تعالى : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ . [النحل: ١٢] .
وسماه نوراً لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها .

وكمال الروح بهاتين الصفتين : بالحياة والنور ، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم ، وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث ، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله ، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها ، وحققها من باطلها ، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال ، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله عز وجل ثمناً لجنته سواء ، من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة . وكل من اتخذ لنفسه سكة وضرباً ونقداً يروجه بين العالم .

فهذه الأثمان كلها زيف لا يقبل الله سبحانه وتعالى في ثمن جنته شيئاً منها ، بل ترد على عاملها أحوج ما يكون إليها ، وتكون من الأعمال التي قدم الله تعالى عليها فجعلها هباءً منثوراً .

^(١) **قوله تعالى :** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . [البقرة: ٢١] . إلى قوله : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ . [البقرة: ٢٤] .

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين ؛ من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم ، وإثبات نوعي توحيده تعالى : توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر ، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له .

ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ ، أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض ، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله ، وقد أخبر عن

المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم.

ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿اعبدوا ربكم﴾ ولم يقل: إلهكم.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبار كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿الذي خلقكم﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. [الزخرف: ٨٧].

فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف تجعلون معه شريكًا في العبادة وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخلق، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿والذين من قبلكم﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقته تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك مستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبهة له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ويذكرونه فلا ينسونه ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى: خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها : أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني : أن نظيره قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الثالث : أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ من الأمر.

ولن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ تعليلاً

للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فهذا تعليل لكتب الصيام، ولا يمتنع أن يكون

تعليلاً للأمرين معاً، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. فذكر تعالى دليلاً آخر

متضمناً للاستدلال بحكمته في مخلوقاته.

فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحكم المشهودة في خلقه، ويسمى دليل العناية والحكمة،

وهو تعالى كثيراً ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن.

ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. فذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر منافع المخلوقات

وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْزِمْ اللَّهُ بِكُمْ قَوْمٌ

يَعْدِلُونَ. أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦٠، ٦١]. إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات

من الأسرار والحكم ما يحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر

بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء

من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴿١٦٤﴾. [البقرة: ١٦٤]. وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم، وهو الأرض وسقفه وهو السماء وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن، والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشاً ومهاداً وبساطاً وقراراً وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب. ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢٢]. فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وأن كل متكلم ومستدل ومحاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه فغايتة؛ إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن.

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة: ٢٣]. إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم إنه مفتعل فاتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك حتى إن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ويحكمون بسماحته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيباً لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة متنة خبيثة وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهاناً وعظمة وجلالة؟

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به. فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً، إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي ﷺ، يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول: «لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبداً» فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالاتاً عاماً إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك، مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه. وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضوع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها.

وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته.

وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام.

وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة، التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول

في خبره وطاعة أمره.

(١) **التاسعة** «التعبد» وهو فوق التيم. فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رِقَّهُ، فلم يبق له شيء من نفسه ألبته؛ بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته: مقام الإسرائاء، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾. [الإسراء: ١].

ومقام الدعوة. كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. [الجن: ٩].

ومقام التحدى كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

[البقرة: ٢٣]. وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة - بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -: «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: فحصلت له تلك المرتبة: بتكميل عبوديته الله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحسوب. تقول العرب: «طريق معبد» أي: قد ذللت الأقدام وسهلت.

(٢) **وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقيناً، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. الآية.**

فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين: من إثبات خالق العالم، وصفاته ووحدانيته، ورسالة رسوله والمعاد الأكبر.

(٣) **قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة﴾، وقولهم: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟.**

قيل فيه قولان: ففي تفسير السدى، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس. وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي، ﷺ: ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا. قال مجاهد: ما أشبهه به! وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهاً يعرفونه.

وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً في اللون والطعم.

واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

الحجة الثانية: ما حكاه ابن جرير عنهم قال: ومن علة قائل هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله، كما كان حدثنا ابن بشار: حدثنا ابن مهدي: حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رآوها، ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه.

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين أن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزْقًا﴾. [البقرة: ٢٥]. يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل ولم يخص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه،

فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب، دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال.

فقد تبين أن معنى الآية: كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولا بد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيراً من ثمار الجنة وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيراً من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً ليس أوله خيراً من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله وهو خيار كله يشبه بعضه بعضاً، فهذا وجه قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله سبحانه وتعالى، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه والله أعلم.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَأَتُوا بِهِ مِثْلَهَا﴾ قال الحسن خيار كله لا رذل ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه وأن ذلك ليس فيه رذل وقال قتادة: خيار لا رذل فيه فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها وكذلك قال ابن جريج وجماعة، وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق

والتماثل. قالت طائفة أخرى منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله، **عليه السلام**، متشابهة في اللون والرأى وليس يشبه الطعم قال مجاهد متشابهة لونه مختلفا طعمه وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال يحيى بن أبي كثير «عشب الجنة الزعفران وكتبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون هذا الذي جئتمونا به أنفا، فيقول لهم الخدم كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف فهو قوله عز وجل: ﴿كُلُوا رِزْقًا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رِزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ وقالت طائفة وناس معنى الآية أن يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب قال ابن وهب قال عبد الرحمن بن زيد يعرفون أسماءهم كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهة يعرفونه وليس هو مثله في الطعم واختار ابن جرير هذا القول قال ودليلنا على فساد قول من قال إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله وأتوا به متشابهة أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهة.

قلت وهذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فتأمل جلالة الم بشر ومنزلته وصدقه وعظمته أن أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنان وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرّة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها هذا هو الأنصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

ومن العرب من يقول: زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه! وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد؛ فيجري صفة على جمع التكسير؛ إجراء له مجرى جماعة

كقوله تعالى: ﴿مَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾. [الصف: ١٢]. ﴿وَقَرَىٰ ظَاهِرَةً﴾. [سبا: ١٨]. ونظائره.

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قدر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

قال عبدالله بن المبارك: ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نظرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبصاق».

وقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾: لا يحضن ولا يُحْدِثُن ولا يتنخمن.

وقال ابن عباس أيضاً: مطهرة من القدر والأذى.

وقال مجاهد: لا يُلْن ولا يتغوطن ولا يُمْدِن ولا يُمْنِن ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن.

وقال قتادة: مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقدر ومأثم.

وقال عبدالرحمن بن زيد: المطهرة التي لا تحيض، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام؟ قال: وكذلك خلقت حواء حتى عصت، فلما عصت قال الله: إني خلقتك مطهرة وسأدميك كما دमित هذه الشجرة.

ذكر من يستحق هذه البشارة

^(١) **قال** الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾. [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. [يونس: ٦٢: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] الآية .
 وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ . [المؤمنون: ١] . إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ
 الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . [المؤمنون: ١١] .
 وفي المسند وغيره: أن النبي ﷺ، قال: «قد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن
 دخل الجنة» ثم تلا ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر آيات .
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ . إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
 وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ . [الأحزاب: ٣٥] .

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
 الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
 [التوبة: ١١٢] .

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ . [مريم: ٦٣] .
 وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
 وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ
 وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ . [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . [الصف: ١٠ - ١٣] .

وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ . [الرحمن: ٤٦] .

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
 الْمَأْوَىٰ﴾ . [النازعات: ٤٠] وهذا في القرآن كثير، مداره على ثلاث قواعد: إيمان،
 وتقوى، وعمل خالص لله على موافقة السنة .

فأهل هذه الأصول الثلاثة، هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر
 الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها .

وهي تجتمع في أصليْن: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلقه . وضدها

يجتمع في الذين يراءون ويمنعون الماعون .

وترجع إلى خصلة واحدة وهي موافقة الرب تبارك وتعالى في محابه، ولا طريق إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهراً وباطناً برسول الله ﷺ .

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجاباً واستحباباً: كالإيمان بأسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وآياته؛ من غير تحريف لها ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] . الآية .

وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد ﷺ، كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة .

فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] .

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه؛ كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض .

فكان معترضاً اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء . ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضل به بذلك .

فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ . [البقرة: ٢٧] . فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سبباً لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى .

(١) **ولا ريب أن القلب إذا طُبع عليه أظلمت صورة العلم فيه ، وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سبباً لضلال هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . [البقرة: ٢٦، ٢٧] .**

فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس ، وهو هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين ، ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ . [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] .

ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من صيرورته ؛ بحيث يضل بها يهتدي به ، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المارة إلى الماء العذب كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزلالا وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين .

(٢) **وأما الأصل (٣) الثاني وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب والضللال ، فكثير أيضاً في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . [البقرة: ٢٦، ٢٧] .**

وقال تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ . [إبراهيم: ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ . [النساء: ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ . بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ . [البقرة: ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

[الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان، لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. [الأنفال: ٢٤]. فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة، الذي يكون سبباً لأن يحول بينهم وبين قلوبهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [المطففين: ١٤].

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: أساطير الأولين.

وقال تعالى: في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، [التوبة: ٦٧]. فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم، فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كما لها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدى، ودين الحق. فأنساهم طلب ذلك ومحبة ومعرفته، والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له.

وقال تعالى في حقهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. [محمد: ١٦، ١٧].

فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [البقرة: ٢٨]. فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به ألبتة، فذكر تعالى أربعة أمور ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم، بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

فما بال العاقل يشهد الثلاثة أطوار الأول ويكذب بالرابع؟! وهل الرابع إلاَّ طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتاً، ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟! فكيف يقع منكم بعدما شاهدتموه؟.

ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٠-٣٣﴾.

فهذه كالمناظرة من الملائكة، والجواب عن سؤالهم كأنهم قالوا: إن استخلفت

في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدم لك، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالى عن هذا السؤال؛ بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحكماً لا تعلمونها أنتم. وقد ذكرنا منها قريباً من أربعين حكمة^(١) في كتاب (التحفة المكيّة). فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين وعمرهم الجنة، وميّز الخبيث من ذريته من الطيب فعمرهم بهم النار. وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم تكن الملائكة تعلمه.

(١) يظهر أنها هي الموجودة في أول (مفتاح دار السعادة). (ج).

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكرّياً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله. وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؛ فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم؛ لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض؛ فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خلقته وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتدأه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبليّة والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته مخوفة بإنعامين: إنعام قبلها، وإنعام بعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداءً، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي مخوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجة تعالى ما كان كامناً في نفس عدوه إبليس؛ من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرود والإبعاد على ما كان كامناً في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلمه منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامناً فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه، وكان خافياً عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكرّياً لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبراً له وتأييداً للملائكة وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس، وكان ذلك سبباً لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جواباً لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض؛ فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(١) **الوجه التاسع والعشرون** : أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ . [البقرة: ٣٠-٣٢] . إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء .

بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . [البقرة: ٣٠] . فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم .

فظهر من هذا الخليفة: من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه، وصالحى عبادته، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان؛ من هو خير من الملائكة .

وظهر من إبليس؛ من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله؛ ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة؛ أقروا بالعجز والجهل ما لم يعلموه فقالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ . [البقرة: ٣٢] . فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ . [البقرة: ٣٣] . أقروا له بالفضل .

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

كنتم تكتُمون ﴿٣٣﴾. [البقرة: ٣٣]. فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علماً بظواهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفاً للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه؛ فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام؛ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه ومكَّنه وسلم إليه خزائن الأرض. وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه في الأرض؛ فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة.

١) قول الملائكة: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ [البقرة: ٣٠] فقيل: المعنى: ونقدس أنفسنا لك فعُدِّي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك قال: وقال بعضهم: نعظمك ونمجدك قاله أبو صالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن سوء فلا تنسبه إليك. واللام فيه على حدها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]. لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك؛ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحانه الله: كلمة يعظم بها الرب، ويحاشى بها من سوء. **وقال ابن عباس:** هي تنزيه لله من كل سوء، وأصل اللفظة من المباحة من قولهم: سَبَحْتُ في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

[يس: ٤٠]. فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء، فقد سبحه. ويقال: سبح الله وسبح له وقده وقده له.

^(١) **الوجه السادس والعشرون:** قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام!

فمنها: أنه سبحانه لما جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه؛ اقتضت حكمته إبقاءه؛ ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته؛ لفات ذلك الغرض.

كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم ألبتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة جزاء بها في الدنيا؛ بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء. كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومنها: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيراً له وأخف لعذابه وأقل لشراً، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدر في حكمته والخلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى في الدنيا، وأملى له ليزداد هذا إثماً على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

ولما كان مادة كل شر فعنه ينشأ جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة.

ومنها: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، [الإسراء: ٦٢]. وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث

أبقاه له وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم يرى رسولا بعد رسول، وإماتتهم أصلح لهم وللأمة. أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولا سيما وقد خيروهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به. وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمم!!

هذا وهم بشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضائق بهم الأرض فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الوجه السابع والعشرون: قوله: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان؟.

فالجواب أن يقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة! وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك!

وهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان سبيل^(١) كماله ليعود إليها على أحسن أحواله، وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنة دار

(١) في النسخة: (كان يعسر كماله) والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى. المراجع.

ابتلاء وتكليف، فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها وفيها؛ ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشئوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لأمره ونهيه لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك، لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة، والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الولدان والخور العين بما لا تشابه بينهما بوجه من الوجوه.

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلاً وأنبياء وشهداء، يحبهم ويحبونه وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه؛ فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه، وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يوالوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

ومن الحكمة في إخراجهم من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنی لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث. ولا بد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة؛ ليظهر مقتضي أسمائه وصفاته فيها وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويشيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

وأيضاً فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاماً، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره: أن أعمال

الرسول والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة.

قالوا: لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات وقراءة القرآن والجهد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها؟ فالإيمان متعلق به سبحانه، وهو حقه عليهم ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فهم إنما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضاً فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قَدَّرَ سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة، يترتب على خروجه من الجنة، ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة، فما قَدَّرَ أحكم الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبره عبثاً ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضاً فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوى وتعاوضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا

ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل .
وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه
 ويجلّونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر
 كامن في نفوس لا يعلمونها، فلا بد من إخراجهم وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم
 الحاكمين في مقابلة كل منها بما يليق به .

وأيضاً فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطواراً وأصنافاً، وسبق في حكمه وحكمته
 تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلاً، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية
 غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية
 التي يأتون بها طوعاً واختياراً لا كرهاً واضطراًراً .

ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني، يخبره بين أن يكون عبداً
 رسولاً أو ملكاً نبياً، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبداً رسولاً، وذكره سبحانه
 بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله : كمقام الدعوة والتحدي والإسراء
 وإنزال القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، [الجن: ١٩] . ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا
 نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، [البقرة: ٢٣] . ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، [الإسراء: ١] .
 ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، [الفرقان: ١] . فأثنى عليه ونوه به لعبوديته
 التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: «اذهبوا إلى محمد عبد
 غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(١)

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب
 مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم
 فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة
 تكميلاً لهم وإتماماً لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه
 يجب: إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات وتكفير
 السيئات ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز وإذلال من يستحق الذل، ونصر
 المظلوم وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر
 فضله وتخصيصه، فاقضى ملكه التام وحده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل
 فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على

(١) سبق ص ١٨٢ أن قائل هذا هو عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام، ولا معارضة هنا؛
 لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، من أهل الموقف. المراجع .

الشيء لابد منه^(١)، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل، كما ستقف عليه في فصل إيلام الأطفال، إن شاء الله .

(٢) ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم

وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها: أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه .

وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعصره النار، وأصل آدم وعصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

أحدها: أن دعواه كونه خيراً من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلالة عليها بكونه مخلوقاً من نار وآدم من طين استدلال باطل، وليست النار خيراً من الطين والتراب؛ بل التراب خير من النار وأفضل عنصراً من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلق به بخلاف التراب .

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات .

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه: أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزيتهم وآلات معاشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك .

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه ألبته، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان؟ .

الخامس: أن التراب إذا وُضع فيه القوت أخرجته أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفاً، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر .

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها .

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكوناً من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال. ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الأدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب قهرهواه وأسره ورجع إلى ربه، فاجتبه واصطفاه، فكان الهوى الذي مع المادة الأدمية عارضاً سريع الزوال، فزال وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره: آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع؛ فالشر كامن فيها لا يصددها عنه إلا قسرها وجبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثر وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر؟.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهاداً وفرشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكير فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعاً أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمؤمنين: تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالقواء وهي: الأرض الخالية إذا نزها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً، وأخبر أنه بارك فيها عموماً فقال: ﴿أَتُنْكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾. [فصلت: ١٠، ٩]. فهذه بركة عامة.

وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا

فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ . [الأنبياء : ٧١] .

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ . [سبأ: ١٨] . وقوله: ﴿وَلُسَلْيَانِ الرَّيْحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ . [سبأ: ٨١] .

وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مُذهبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها؟ .

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغُدُوِّ والأصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً فيه وهدى للعالمين خصوصاً، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض: من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يُودع في النار شيئاً منه، فأَي روضة وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيدة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟! .

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدم لخادمه ومن يقضي حوائجه .

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين تراباً ممتزجاً بهاء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين: الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكما يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة! فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل .

وإذا استقرت الوجوه التي تدل على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جداً، وإنما أشرنا إليها إشارة. ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفصولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة،

والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نقطة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خُلِقًا وَخُلِقًا؟.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدل على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم؛ فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًّا وعقلًا.

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء، الذي مارمي العبد بشر منه، ولأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه؛ إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه؟ والله يعلم أن شُبّه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شُبّه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس، وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله من عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيهِ. وأخبر أنه من تمسك به صار إلى رضوانه ودار كرامته.

قال تعالى عقب إخراجه منها: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ . [البقرة: ٣٨].

وفي الآية الأخرى قال: ﴿أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ . [طه: ١٢٣: ١٢٦]. فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم . فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ . [طه: ١٢٣]. وهذه هي إن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان .

والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهي قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ . [طه: ١٢٣].

^(١) **ومتابعة** هدي الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدر في تصديقه، وأمثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله .
وعلى هذين الأصلين مدار الإيثار وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر . ويتبعها أمران آخران: وهما نفى شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمس بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال . فهنا أربعة أمور:
أحدها: تصديق الخبر .

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحىها شياطين الجن والإنس في معارضته .
الثالث: طاعة الأمر .

والرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني: الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده .

وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر

فساداً في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فساداً في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه، يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾. [النجم: ٢٠، ٢١]. فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وأنه على الحق المبين، وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله.

^(١) وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾. [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. [البقرة: ١٢١].

والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾. [النمل: ٩١، ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع يقال: اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى: تبعت خلفه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا﴾. [الشمس: ٢٠، ٢١]. أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها.

ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً أي: يتبع، وسمي تالي الكلام تالياً؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضاً لا يخرجها جملة واحدة؛ بل يتبع بعضها بعضاً مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى.

وهذه التلاوة وسيلة وطريقة. والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقاً بخبره، واثباتاً بأمره، وانتهاءً بنهيه واثباتاً به، حيث ما قaddock انقادت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الشاء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً.

^(١) وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿أهبطاً منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾. ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بُعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئتهم مستحق العقاب.

إنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة، فالجمهور على أن مُحسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أن مؤمنهم لا يعاقبون. . . لأننا نقول: لو لم تدل الآية إلا على أمر عديم فقط لم يكن مدحاً للمؤمنين الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عديم وهو عدم الخوف والحزن، ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به: أن من اتبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

فَأَخْبِرْنَا سبحانه عن نذيرهم إخباراً^(١) بقوله: **إِنْ مِنْ أَجَابٍ دَاعِيهِ غَفَرَ لَهُ أَجَارَهُ مِنَ الْعَذَابِ**، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله: **﴿وَيُجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**. [الأحقاف: ٣١]. بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: **﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾**. [الرحمن: ٧٤]. فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدل على أن مؤمنيهن يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: **﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾**. فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولى.

الخامس: قوله عن صالحيهـم: **﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾**. [الجن: ١٤]. والرشد هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد؛ بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالى: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**. [الحديد: ٢١]. ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسوله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**. [يونس: ٢٥].

عم سبحانه بالدعوة، وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها، فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

(١) لعلها: (إخباراً مقررًا له أن). ج.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾. [الأنعام: ١٢٨-١٣٢].

وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله فاقضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. [فصلت: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ربنا الله﴾ مع الاستقامة: والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتباً على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأحقاف: ١٣، ١٤]. فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار، وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط؛ بل

ينشئ لها أقوامًا يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه، بخلاف أهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم، كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

^(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا، نَحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾. [طه: ١٣٢].

وفي السنن: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة» وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها، والصلاة مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب. حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنها. وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية، إلا كان حظ المصلي منها أقل. وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما اسْتُدْفِعَتْ شرور الدنيا والآخرة، ولا اسْتُجْلِبَتْ مصالحها بمثل الصلاة.

وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله عز وجل، وعلى قدر صلة العبد بربه عز

وجل، تفتح عليه من الخيرات أبوابها. وتقطع عنه من الشرور أسبابها. وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل، والعافية والصحة والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه.

^(١) وهو ^(٢) أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ. وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. [البقرة: ٤٥].

^(٣) ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد - وإن كان مركباً - فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

وتنازع الناس: أيها أفضل؟ والصواب: أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى، لمن طلب البقل والقشء والفوم والعدس والبصل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟﴾. [البقرة: ٦١].

وكثير من السلف على أن الفوم: الحنطة. وعلى هذا: فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة. اهـ.

^(٤) ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم

أنهم قيل لهم ^(٥)، وهم مع نبيهم، والوحي ينزل عليه من الله تعالى: ﴿ادخلوا هذه القرية﴾. [البقرة: ٥٨].

قال قتادة، وابن زيد، والسدي، وابن جرير وغيرهم: هي قرية بيت المقدس ﴿فكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾. أي: هنيئاً واسعاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس. وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى

(١) ٣١٧ مدارج جـ ٢. وقد بحث الشيخ في زاد المعاد بحثاً واسعاً ذكر فوائده الدينية والدنيوية

ص ٣٦٧ جـ ٣.

(٢) ٣٧٧ زاد المعاد جـ ٣.

(٣) وهو، أي: الصبر.

(٤) هم، أي: اليهود.

(٥) ٣٠٨ إغاثة جـ ٢.

عنها قال: والسجود بمعنى الركوع. وأصل السجود: الانحناء لمن تعظمه. فكل منحن لشيء تعظيماً له فهو ساجدٌ. قاله ابن جرير وغيره.

قُلْتُ: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرّم. وفيه نهْيٌ صريحٌ عن النبي ﷺ.

ثم قيل لهم: ﴿قُولُوا حِطَّةً﴾ أي: حُطَّ عَنْنا خطايانا. هذا قول الحسن، وقتادة، وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: «لا إله إلا الله» وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحطُّ بها الخطايا. وهي كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أمرُوا بالاستغفار».

وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم. فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلوا غير الذي أمرُوا به.

فروى البخاري في صحيحه، ومسلم أيضاً: من حديث هَمَّام بن منبّه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطَّةً، نغفر لكم خطاياكم، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة. فبدلوا القول والفعل معاً. فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء»^(١)

قال أبو العالية: هو الغضبُ. وقال ابن زيد: هو الطاعون^(٢).

وعلى هذا، فالطاعونُ بالرصدِ لمن بدّل دين الله قولاً وعملاً.

(١) رواه البخاري في قصة موسى من أحاديث الأنبياء. وفي تفسير سورة البقرة. وتفسير سورة الأعراف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية من سورة البقرة. وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك، وأساسه بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم» وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث جيب بن أبي ثابت «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» - الحديث.

فصل ومن تلاعب الشيطان بهم

أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملؤا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء. فسألوه موسى عليه السلام.

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها. ولهذا قال لهم موسى عليه السلام ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ اهْبُطُوا مِصْرًا﴾. أي: مصرًا من الأمصار^(١) ﴿فَإِنْ لَكُمْ مَسْأَلَتُمْ﴾. [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلمهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى: وشرابهم: المن.

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى ﴿اهْبُطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف واللام في المصاحف الأئمة العثمانية. وهو قراءة الجمهور بالصرف. قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس «اهْبُطُوا مِصْرًا» رواه ابن أبي حاتم. قال: وروي عن السدي وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿اهْبُطُوا مِصْرًا﴾ من غير إجراء، يعني من غير صرف. ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنها فسرنا ذلك بمصر فرعون. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضًا. قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون، على قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد: ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذي قاله فيه نظر. والحق أن المراد مصر من الأمصار. هـ. وقال الزمخشري: وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه - وهما التعريف والتأنيث - لسكون وسطه. كقوله: (ونوحًا ولوطًا) وفيهما العجمة والتعريف. وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وأنه يريد مصرًا من الأمصار. هـ. ورجح ابن جرير في تفسيره أن يكون مصر المعروفة. لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]. يعني مصر. وهو الظاهر؛ لأن تلك الأطعمة إنما كان يعرفها بنو إسرائيل في مصر التي كانوا فيها في مصر ليطعموا بألوان الأطعمة. وأن ذلك أعظم نقیصة وعيب في الإنسان أن يهتم ببطنه وإن باع لها عزته وشرفه وحرية. والأمة التي تصاب بذلك أولى بها الموت، بل الموت خير من حياة هذه الأمة الحقيرة الذليلة التي لا تهتم إلا لبهيميتها. فالأولى أن يكون المراد مصر المعروفة التي كانوا بها يسومهم فرعون فيها العذاب، قبل أن ينقذهم الله بموسى منها.

شرابهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن. وطعامهم طيراً، يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل. لم يكن لهم خبز ولا غيره. **ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة. وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عيناً من الماء. فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير. فذموا على ذلك. فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغيّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والبدعة بالسنة^(١)، وخدمة المخلوق بخدمة الخالق، والعيش النكد الفاني في هذه الدار بحظه من العيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى !؟**

(٢) فصل في الصابئة

وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم، فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم صنف من النصارى. وقال في موضع: يُنظر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين، ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية؛ وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يُقروا على دينهم ببذل الجزية. واختلف أصحابه؛ فقال أبوسعيد الأصبخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم. قال: لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وإن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عبدة الأوثان. واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم، فأفتاه أبوسعيد أنهم لا يُقرون، فأمر بقتلهم، فبذلوا مالاً عظيماً فتركهم. وأما أقوال السلف فيهم، فذكر سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين.

وفي تفسير شيبان، عن قتادة قال: الصابئة قوم يعبدون الملائكة.

قال محمد بن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل

(١) بالنسخة: (والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار). والصواب: ما أثبتناه؛ لأن الصحيح في اللغة هو دخول الباء على المتروك كما قال من قبل: الضلال بالهدى، والغيّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد. والمفهوم: بل المراد: أنهم تركوا السنة، وخدمة الخالق، والعيش الطيب. كما تركوا الهدى، والرشاد، والتوحيد. المراجع.

(٢) ١٩٢ أحكام جـ١.

الملل، فقال بعضهم: يلزم كل من خرج من دين إلى دين غير دينه. وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم، ثم ذكر عن عبدالرزاق، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: الصابئون قوم ليسوا يهود ولا نصارى ولا دين لهم. **وحكى عن حجاج، عن مجاهد قال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.**

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: الصابئون زعموا أنهم ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى، قال: قد سمعنا ذلك.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول: لا إله إلا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول الله عز وجل، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ، وأصحابه: هؤلاء الصابئون! يشبهونهم بهم.

وقال سعيد، عن قتادة: هم يعبدون الملائكة ويصلون [إلى] القبلة ويقرءون الزبور.

وقال سفيان، عن السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

وقال ابن جرير: الصابىء المستحدث سوى دينه ديناً، كالمترد من أهل الإسلام عن دينه؛ وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئاً، يقال منه: صباء فلان يصبأ صبأ، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع.

قلت: الصابئة أمة كبيرة، فيهم السعيد والشقي، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ، نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس.

ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارى والصابئة.

وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [البقرة: ٦٢]. وكذلك قال في المائدة.

وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شهِيدٌ﴾. [الحج: ١٧].

فلم يقل هاهنا: من آمن منهم^(١) بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم: منهم اثنتان شقيتان، وأربع منهم منقسمة إلى شقي وسعيد، وحيث وعد أهل الإيوان والعمل الصالح منهم بالأجر؛ ذكرهم أربع أمم ليس إلا. ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين، وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلهما^(٢) معهم، فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارى، وهم أنواع: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون.

وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتب وتآليف وعلوم.
وكان في بغداد منهم طائفة كبيرة: منهم إبراهيم بن هلال الصابي صاحب «الرسائل»، وكان على دينهم، ويصوم رمضان مع المسلمين. وأكثرهم فلاسفة، ولهم مقالات مشهورة ذكرها أصحاب المقالات.

وجملة أمرهم أنهم لا يكذبون الأنبياء ولا يوجبون اتباعهم.
وعندهم أن من اتبعهم فهو سعيد ناج، وأن من أدرك بعقله ما دعوا إليه فوافقهم فيه وعمل بوصاياهم، فهو سعيد وإن لم يتقيد بهم.

ف عندهم: دعوة الأنبياء حق، ولا تتعين طريقا للنجاة، وهم يقولون أن للعالم صانعاً مدبراً حكيماً منزهاً عن ماثلة المصنوعات، ولكن كثيراً منهم أو أكثرهم قالوا: نحن عاجزون عن الوصول إلى جلاله بدون الوسائط، والواجب التقرب إليه بتوسط الروحانيين المقدسين المطهرين عن المواد الجسمانية، المبرئين عن القوى الجسدية، المنزهين عن الحركات المكانية والتغيرات الزمانية، بل قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس.

قالوا: وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول «هرمس» فنحن نتقرب إليهم وبهم. وهم آلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشبهات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوة العصبية، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا

(١) ما ذكره الشيخ ابن القيم يلفت النظر؛ حيث لم يكن في الآيات الأولى ذكر (منهم) فلا أدري كيف هذا؟ ج.

(٢) بالنسخة (يدخلها) والصواب ما أثبتناه؛ لأنه يتحدث عن أمتين هما: المجوس، والذين أشركوا. المراجع.

عليهم ، ونصبو في جميع أمورنا إليهم ، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا برياضتنا وغطام أنفسنا عن دنيات الشهوات : وذلك إنما يتم بالاستمداد من جهة الروحانيات . والاستمداد هو التضرع والابتغال بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وإيتاء الزكاة ، والصيام عن المطعومات والمشروبات .

^(١) وأما الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم ، وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها ، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة ، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم ألبتة ، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان .

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الأديان ستة : واحد للرحمن وخمسة للشيطان . وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . [الحج : ١٧] .

فلما بعث الله رسوله ﷺ ، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً ، ولم يكره أحداً قط على الدين ، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله ، وأما من سألهم وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ . [البقرة : ٢٥٦] .

وهذا نفي في معنى النهي ، أي : لا تكرهوا أحداً على الدين ، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين ، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام .

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر ، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار ، فلا يكرهون على الدخول في الدين ، بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة ، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان .

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾. [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدعوه بالقتال قاتلهم، فمن على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم. **وكذلك** لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدعواهم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونهم قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم. **والمقصود** أنه ﷺ، لم يكره أحدًا على الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية، أو أكثرهم. كما قال النبي ﷺ، لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله» وذكر الحديث.

ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام، مذكورون في كتب السير والمغازي...

(١) **أمر** الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. [الأعراف: ١١٧]. وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ. فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾. [الأعراف: ١٤٥]. وقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾. [مريم: ١٢]. أي: بجِد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفطور.

(١) ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا

ما قصه الله تعالى علينا (٢: ٦٥، ٦٦ و ٤: ٤٧، ١٥٤ و ٧: ١٦٣ - ١٦٧ و ١٢٤) من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قردةً لما تحيلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج والحرام، والدم الحرام. وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردةً. وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيها يبدأ.

فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية. ومن ههنا قيل: من طلبه كله فاته كله.

(٢) **قال** الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾. [البقرة: ٦٥]. قال: رَمَوْا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها - والله - وأوحَمَ أكلة، أسرع في الدنيا عقوبة وأسرع عذاباً في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا إنه عَجَّلَ لهؤلاء وأخر لهؤلاء.

وقوله: «رموها في السبت». يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضاً ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت؛ إذ لو اجتروا على ذلك لاستخرجوها.

قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلاً

واحتمالاً، ظاهرة ظاهرة الالتقاء وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قرده؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مَسَخَ أولئك المعتدون دين الله؛ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قرده تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة، جزاء وفاقاً.

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب؛ بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالماً بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وخشيته لله واستغفاره وتوبته يوماً ما، واعترافه بأنه مذنب عاصٍ، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه، ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يُفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حَذَّرَ النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل فقال: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن الله يوماً تكع فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطن فيه ظاهراً، والسر علانية، والمستور مكشوفاً، والمجهول معروفاً، ويُحْصَل ويبدو ما في الصدور، كما يبعر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصد والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تَبَيَّنُ وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال، وتسود وجوه بما في

قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضاً ما قصّه الله سبحانه وتعالى: في كتابه ﴿٢٧: ٦٧ - ٧٤﴾ من قصة القتل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها. وفي هذه القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكيناً، وصم يوماً، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشدّدوا شدّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: «لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنهم شدّدوا

على أنفسهم فشدد الله عليهم» .

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. [البقرة: ٦٧]. قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا؟﴾. فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سأله عنه، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا؟﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الأمر به لم يجوز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عيناها ولونها. فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عيناها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون^(١).

(١) قال أبو جعفر بن جرير: وهذه الأقوال التي ذكرناها عن ذكرناها عنه من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم؛ من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمه ظاهر التنزيل كتاب من الله أو رسول الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم خلاف ما دل عليه الظاهر. فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم، على نحو ما قد بيناه في كتابنا «كتاب الرسالة من لطيف القول في البيان عن أصول الأحكام» - في قولنا في العموم والخصوص - وموافقة قولهم في ذلك قولنا ومذهبهم مذهنا، ونخطئهم قول القائلين بالخصوص في الأحكام وشهادتهم على فساد قول من قال: حكم الآية الجائية مجيء العموم على العموم مالم يختص منها بعض ماعتمه الآية. فإن خص منها بعض فحكم الآية حينئذ على الخصوص فيها خص منها وسائر ذلك على العموم وذلك أن جميع من ذكرنا قوله أنفاً ممن عاب على بني إسرائيل مسألتهم نبيهم عن صفة البقرة التي أمروا بذبحها وسنها وحليتها؛ رأوا أنهم كانوا في مألتهم رسول الله موسى ذلك مخطئين، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر إذ أمروا بذبحها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. [البقرة: ٦٧]. فذبحوها كانوا للواجب عليهم من أمر الله في ذلك مؤدين، وللحق مطيعين. إذ لم يكن القوم حصروا على نوع من البقر دون نوع وسن دون سن. ورأوا مع ذلك أنهم إذا سألو موسى عن سنها فأخبرهم عنها وحصروهم منها على سن دون سن، ونوع دون نوع، وخص من جميع أنواع البقر نوعاً منها، كانوا في مسألتهم إياه في المسألة الثانية بعد الذي خص لهم من أنواع البقر من الخطأ على مثل الذي كانوا عليه من الخطأ في مسألتهم إياه المسألة الأولى. وكذلك رأوا أنهم في المسألة الثالثة - على مثل الذي كانوا عليه من ذلك في الأولى والثانية. وأن اللازم كان لهم -

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم : قولهم لنبيهم : ﴿الآن جئت بالحق﴾ فإن أرادوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة ، فتلك ردّة وكفر ظاهر . وإن أرادوا : أنك الآن بيّنت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها . فذلك جهل ظاهر . فإن البيان قد حصل بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ . [البقرة: ٦٧] . فإنه لا إجمال في الأمر ، ولا في الفعل . ولا في المذبح . فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة .

قال محمد بن جرير : وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم ، وكفروا بقولهم لموسى : ﴿الآن جئت بالحق﴾ وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك كفر منهم ، قال : وليس الأمر كما قال عندنا ، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها ، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم ، وهفوة من هفواتهم .

== في الحالة الأولى استعمال ظاهر الأمر وذبح أي بهيمة شاءوا عما وقع عليه اسم بقرة عوان لا فارض ولا بكر ، ولم يروا أن حكمهم إذ خص لهم بعض البقر دون البعض في الحال الثانية انتقل عن اللازم الذي كان لهم في الحال الأولى من استعمال ظاهر الأمر إلى الخصوص .
ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك مع الرواية التي رويناها عن رسول الله ﷺ بالموافقة لقولهم ؛ دليل واضح على صحة قولنا في العموم والخصوص ، وأن أحكام الله جل ثناؤه في أي كتابه فيها أمر ونهي على العموم ، ما لم يخص ذلك ما يجب التسليم له ، وأنه إذا خص منه شيء فالمخصوص منه خارج حكمه من حكم الآية العامة الظاهر ، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام . ويؤيد حقيقة ما قلنا في ذلك ، وشاهد عدل على فساد قول من خالف قولنا فيه .

وقد زعم بعض من عظمت جهالته ، واشتدت حيرته ؛ أن القوم إنما سألو موسى ما سألو بعد أمر الله إياهم بذبح بقرة من البقر لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خصت بذلك ، كما خصت عصا موسى في معناها . فسألوه ليجليها لهم ليعرفوها . ولو كان الجاهل تدبر قوله هذا لسهل عليه ما استصعب من القول . وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبيهم ما سأله تشدداً منهم في دينهم ، ثم أضاف إليهم من الأمر ما هو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم . فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله عليهم فرضاً ، ويتعبدون بعبادة ثم لا يبين لهم ما يفرض عليهم ويتعبدون به ، حتى يسألوا بيان ذلك لهم . فأضاف إلى الله تعالى ذكره ما لا يجوز إضافته إليه ، ونسب القوم من الجهل إلى ما لا ينسب المجانين إليه . فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفراض . فنعوذ بالله من الحيرة . ونسأله التوفيق والهداية .

(١) قال تعالى في أصحاب الطريقين: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٧٥].

ثم قال في أهل الطريق الثاني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. [البقرة: ٧٨].

ثم قال في المصنفين الذين يصنفون ما لا يعلم أن الرسول قاله وجاء به؛ بل يعلم أن الرسول جاء بخلافه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. الآية. [البقرة: ٧٩]. فهذه الطريق المذمومة التي سلكها علماء اليهود، وقد سلكها أشباههم من هذه الأمة تحقيقاً لقول الصادق المصدوق: «لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع».

وفي لفظ آخر: «التركن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» وكثير من هؤلاء الأشباه يحرفون كلام الله ويكتمونه لئلا يحتج به عليهم في خلاف أهوائهم. فتارة يغفل كتب الآثار التي فيها كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه والتابعين وأئمة السنة ويمنع من إظهارها، وربما أعدها وربما عاقب من كتبها أو وجدها عنده كما شاهدناه منهم عياناً.

وكثير من هؤلاء يمنع من تبليغ الأحاديث النبوية وتفسير القرآن بالآثار والأخبار، حتى إذا جاءت تفاسير الجهمية والمعتزلة ونحوهم بالغ في مدحها، وقال: إن التحقيق فيها.

وما لم يمكنهم منعه من الكتاب والسنة وكتنانه سطوا عليه بالتحريف وتأولوه على غير تأويله، ثم يعتمدون على آثار موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ وأصحابه موافقة لأهوائهم وبدعهم، فيقولون: هذا من عند الله، ويحتجون به ويضعون قواعد ابتدعوها وآراء اخترعوها ويسمونها: أصل الدين، وهي أضرب شيء على الدين.

(٢) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَّا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٨٠].

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم ، وترديد هذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما . وقد تعين بطلان أحدهما ؛ فلزم ثبوت الآخر ، فإن قولهم : ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي . فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً ، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر ، وهذا منتفٍ قطعاً فتعين أن يكون خبراً كاذباً ، فائله كاذب على الله تعالى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسُكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥] .

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب ؛ فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق : أن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يجليه عن دياره ، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر ، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين ، وأخذوا بالثالث ؛ فقتل بعضهم بعضاً وأخرجوه من دياره ثم فادوا أسراهم ، لأن الله أمرهم بذلك ، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلم تقتلتم بعضهم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم والله قد نهاكم عن ذلك ؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعة فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ؟ ﴿فَمَا جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وما اللَّهُ بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٨٥] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] . فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم فيقول أحدهم لصاحبه : لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته . وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك ، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما ألبتة ؛ فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ

بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقد اختلف في معنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك؟، وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف.

والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول؛ وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وأحمر.

قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال: سيف أغلف وقوس أغلف ورجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة فهي في أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]. ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة؛ فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف أي: أوعية للعلم؟، والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء فلا يلزم من كون القلب غلافاً؛ أن يكون داخله العلم والحكمة وهذا ظاهر جداً.

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه.

وأما على القول الآخر فظاهر أي : ليست قلوبكم محلاً للعلم والحكمة بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته ؛ بل جعل قلوبهم داخلية في غلف فلا تفقهه ، فكيف تقوم به عليهم الحجة ؟ ، وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذرون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥] . وفي الآية الأخرى : ﴿ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨] . فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله ؛ إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان ؛ فعاقبهم عليه بالطبع واللعة والمعنى لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه ؛ ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه ؛ بل اكتسبوا أعمالاً عاقبتهم عليها بالطبع على القلوب واختم عليها .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] . فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون ، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته . فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان ، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالاً ، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقاً كان استفتاحهم به باطلاً ، فإن كان استفتاحهم به حقاً فنبوته حق ، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلاً فاستفتاحهم به باطل ، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتة ويمكن تقريرها على صور عديدة :

منها: أن يقال : قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره .

الثانية: أن يقال : كنتم تستفتحون به ، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره

استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره؛ فلما شاهدتموه وصار المعلوم معانياً بالرؤية؛ فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيباً لم تكمل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأى تناقض وعناد أبلغ من هذا؟! (١)

التاسعة: أن يقال: الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته، وتكذيبه جحد وكفر بها، والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها، مستلزم للكفر ولا بد فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما التصديق بنبوة من ليس بنبي، وإما جحد نبوة من هو نبي، وأيهما كان فهو كفر وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولا بد، فلعنة الله على الكافرين.

العاشرة: تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم: ألسنتم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون: بلى، فيقال: أليس الاستفتاح به إيمان به؟ فلا بد من الاعتراف بذلك. فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده موجباً عليكم الإيمان به؟ فلا بد من الاعتراف أو العناد الصريح، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض ألينة سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد؛ فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه، فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحداً للحق وإنكاراً له باللسان والقلب يعرفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٨٩]. فأغنى عن هذه الوجوه والتقاريرات كلها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. [البقرة: ٨٩]. والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين.

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾. [البقرة: ١٠١]. كيف تجدد تحتته برهاناً عظيماً على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه، مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة، ولو كان ذلك؛ لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذاً عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول؛ من غير مواطاة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا من أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معاً.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقاً لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه؛ إذا تجرد الإخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق، أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم.

^(١) **وقال تعالى عن اليهود:** ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿بَشَرًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم؛ دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من

عصاك عمداً: كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهيي إياك، ومنه على أحد القولين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٢، ٨٣].

قال السدي: يعني محمداً ﷺ واختاره الزجاج. فقال: يعرفون أن أمر محمد ﷺ حق ثم ينكرون ذلك، وأول الآية يشهد لهذا القول.

(١) ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهما بُخْتَنَصْرٌ، وسَنْجَارِيبٌ وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه. ثم ما (٢) كان منهم في شأن المسيح ورَمِيَهُ وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم فكفروا به بَغْيًا وعناداً، وراموا قتله وصلّبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفعاه إليه، وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصلب على شَبْهِهِ، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى ﷺ؛ فانتقم الله تعالى منهم، ودَمَّرَ عليهم أعظم تدمير، وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح؛ كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سِفَالٍ ونَقْصٍ إلى أن قَطَعَهُمُ الله تعالى في الأرض أَمْمًا، وَمَزَّقَهُمْ كُلَّ مَزْزَقٍ، وَسَلَبَهُمْ عَزَّهُمْ وملَكَهُمْ، فلم يَقُمْ لهم بعد ذلك مُلْكٌ إلى أن بَعَثَ الله تعالى محمداً ﷺ. صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فكفروا به وكذبوه، فَأَتَمَّ عليهم غَضَبَهُ، ودَمَّرَهُمْ غاية التدمير، وألزمهم ذُلًّا وصغاراً لا يُرْفَعُ عنهم إلى أن يَنْزِلَ أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شَأْفَتَهُمْ، وَيُطَهِّرُ الأرض منهم، ومن عُبَادِ الصَّلِيبِ.

قال تعالى: ﴿يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا إِنَّ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

فَالْغَضَبُ الأول: بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني: بسبب كفرهم

(١) ٣١٩ إغاثة جـ٢.

(٢) بالنسخة: (ثم كان منهم) بدون (ما) وقد أثبتناها لتمام المعنى. المراجع.

بمحمده صلوات الله وسلامه عليهما.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]. هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قال لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ فأجابوه بأن قالوا: ﴿نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيـمان به أين كان ومع من كان؛ فلزمكم الإيـمان بالحقين جميعاً أو الكفر الصراح.

وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جداً، وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيـمان. ففي ضمن هذه؛ الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني؛ وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض؛ لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يردُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي؛ فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض. فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له؛ فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذراً له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها. وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم؛ فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله.

فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم ، يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الوجه الثاني من النقض قوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . [البقرة: ٩١] .

وجه النقض : أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبيا الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل ، وفيما أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم ، ولا بما أنزل على محمد ﷺ ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب : بأننا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به ، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم ؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات ومالا ريب معه في صحة نبوته ، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم وأشركتكم بالله وكفرتم به ، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . [البقرة: ٩٢] . فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . [البقرة: ٩٤] . كانوا يقولون : نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس ، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة ، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له ، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم : إن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، بالمطالبة وتقسيم الأمر : بين أن يكون لهم عند الله عهد عهده إليهم ، وبين أن يكونوا قد قالوه عليه بما لا يعلمون . ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد ، فتعين الثاني وقد تقدم .

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه ، والابن لا يكره لقاء أبيه ، لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به ؛ بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه ؛ فحيث لم يجب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه .

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردًا عليهم قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ . [المائدة: ١٨] . يعني : أن الأب لا يعذب ابنه ، والحبيب لا يعذب حبيبه .

وههنا نكتة لطيفة جداً قلّ من ينتبه لها، ونحن نقررها بسؤال وجواب.
فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب. فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب: من المسخ قردة وخنازير، وتسلب أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم وَيَسْبُون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه. ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم. فالتأديب شيء، والتعذيب شيء. والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح فهذا لون وهذا لون.
وفي ضمن هذه المناظرة معجزة بالنبى ﷺ وهي: أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبراً جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقاً إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله: من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.
فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين! فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضاً معجزة أخرى، وهي: أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألستهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألستهم تصديقاً لقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ [البقرة: ٩٥]

قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة للنبى ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت. وأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً. وهذا علم من أعلام نبوته ﷺ، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب. ولم ينطق الله ألستهم بتمنيه أبداً.

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة من دون

الناس، وأنهم أبناؤه وأحبائه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم. وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت؛ لتصلوا إلى الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه.

ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه. فقال: ﴿ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم﴾ [البقرة: ٩٥]

وقالت طائفة - منهم محمد بن إسحاق وغيره -: هذه من جنس آية المباهلة، وأنهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عيانًا. وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه. وهو أن يدعوا بالموت على الكاذب المفترى. و«التمني» سؤال ودعاء، فتمنوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفترى.

وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة. كما قاله أصحاب القولين الأولين. بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل. وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنوه أنتم أيضًا. إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة. لتقدموا على ثواب الله وكرامته. وكانوا أحرص شيء على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضًا فإننا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به. وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة. فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ ألبتة؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا. فلا يتمنوه أبدًا. لعلمهم أنهم هم الكاذبون. وهذا القول هو الذي نختاره. والله أعلم بما أراد من كتابه.

(١) قال ابن سعد: وأخبرنا علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحق، عن سالم مولى عبد الله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس، فقال: «أخرجوا إليّ أعلمكم»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام: «أتعلم أي رسول الله؟» قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك، قال: «فما يمنعك أنت؟» قال: أكره خلاف قومي عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم.

وقال أبو الشيخ الأصبهاني: حدثنا أبو يحيى الرازي: حدثنا سهل بن عثمان:

حدثنا علي بن مسهر، عن دواد، عن الشعبي، قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة للقرآن وموافقة القرآن للتوراة، فقالوا: يا عمر ما أحد أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً، فبينما أنا عندهم ذات يوم إذ مر رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبروه، فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله، قلت: فأني أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله لم لم تتبعوه؟! قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملك الفظة والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة واللين. قلت: فأني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل ولا أن يسلم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: «ألا أقرئك آيات نزلت علي قبل؟» فتلا ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. [البقرة: ٩٧]. الآية، فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر.

وذكر أبو نعيم، من حديث عمرو بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، وعرفت أنها على الباطل يعبدون الحجارة، وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين؟ فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا، فأنصرف إلى أهلي، وأعرض الركبان فأسألهم فيقولون: لا، فأني لقاعد إذ مر بي راكب فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة. قلت: هل حَدَّثَ حَدَّثٌ فيها؟ قال: نعم. رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها. قلت: صاحبي الذي أريد فشددت راحلتي وجئت فأسلمت.

(١١) فصل

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة

أن ألقى إليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه

أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية تُرسًا لهم في جحد نبوة رسول الله، محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء^(١) وهو على الله تعالى محال.

وقد أكذبهم الله تعالى في نص التوراة، كما أكذبهم في القرآن. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ. قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرّم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المأكّل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل. وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [آل عمران: ٩٣]. هل تجدون فيها أن إسرائيل حرّم على نفسه ما حرّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصّه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة. وإذا كان إنما حرّم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه، ظهر كذبكم وافترائكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه.

(٢) الفائدة السابعة: إذا كان الحكم مستغرباً جداً مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يوطئ قلبه ما يكون مؤذناً به كالدليل عليه

(١) أي ابتداء علم جديد لم يكن.

(٢) ١٦٣ أعلام ج٤.

والمقدمة بين يديه ، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة ، وبلوغه السن الذي لا يُولد فيه لمثله في العادة ، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب ؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة ؛ سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب .
وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح ، مُوافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إِبَّانه ، وهذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إِبَّانه .

وتأمل قصة نسخ القِبلَة لما كانت شديدة على النفوس جدًّا ، كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات ؟

منها: ذكر النسخ ، ومنها : أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله .

ومنها: أنه على كل شيء قدير ، وأنه بكل شيء عليم ؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني كما كان صالحاً للأول .

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله كما اعترض مَنْ قبلهم على موسى ، بل أمرهم بالتسليم والانقياد .

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود ، وأن لا تستخفهم شبههم ، فإنهم يودون أن يردوهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق .

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر ، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره .

ومنها: إخباره سبحانه عن سَعَتِهِ ، وأنه حيث ولى المصلّي وجهه فثمّ وجهه تعالى ، فإنه واسع عليم ، فذكر الإحاطتين : الذاتية والعلمية ، فلا يتوهمون أنهم في القبلَة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية ؛ بل حيثما توجهوا فثمّ وجهه تعالى .

ومنها: أنه سبحانه وتعالى حَذَّر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، بل أمر أن يتبع هو وأُمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده .

ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام ، وعظمة بانيه وملته ، وَسَفَّهُ مَنْ يرغب عنها ، وأمر باتباعها ، فنوّه بالبيت وبانيه وملته ، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل ، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية .

ثم ذكر فضل هذه الأمة وأنهم الأمة الوَسَط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبينهم ﷺ، أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابتهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعاً وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى.

والمقصود أن المفتي جديرٌ أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه، وبالله التوفيق.

(١) فصل

في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو ولاهم أو ولأهم أمور المسلمين.

قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ [البقرة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى لرسوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ. قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً؛ وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورهم أكبرُ،

(١) ٢٣٨ أحكام جـ ١.

(٢) يأتي البحث على هذه الآية، وما شاكلها عند البحث في الحسد والمنافسة والغبطة في سورة المطففين - إن

شاء الله تعالى. ويأتي أيضاً في سورة الفلق ج.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ . [آل عمران: ١١٨] .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ . [النساء: ٤٤، ٤٥] .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ . [النساء: ٥١، ٥٢] .

وقال تعالى مبشراً لمن والا هم بالعذاب الأليم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَيْبَتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ . [النساء: ١٣٨، ١٣٩] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا؟﴾ . [النساء: ١٤٤] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَأُضْبِحُوا خَاسِرِينَ﴾ . [المائدة: ٥١، ٥٣] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . [المائدة: ٥٧، ٥٨] .

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

[المائدة: ٨٠، ٨١] .

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً؟ يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا

قليلاً، فصدوا عن سبيله: إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون ﴿. [التوبة: ٨ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾. [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ، وَيَجْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [المجادلة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ، تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾. إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾. [المتحنة: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾. [المتحنة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. [التوبة: ٢٨].
وقال تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ، وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا، وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب، أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ، إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ

الْكَذِبَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾. [آل عمران: ٧٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية.

فصل

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليهم. وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية صلة، فلا تجتمع معاداة الكافر أبداً.

ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج وأعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان، لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليد هم الأعمال. وهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكن منه. وكان المذكور قذاةً في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. ومثالبه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية؛ ولم يزل يكتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها. وكان مجلسه معموراً برسل الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات؛ وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. فاجتمع به بعض أكابر الكتاب فلامه على ذلك وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزد ذلك إلا تمرداً، فلم يمض على ذلك إلا يسير حتى اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء. فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرونه على الحقيقة، لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. [المائدة: ٧٣]. وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له: كيف يدري الحساب من جعل الواحداً رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان ديناراً، وأخذ لنفسه اثنين، ولا سيما وهو يعتقد ذلك قرينة وديانة؟

وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانتته، فأريق دمه: **وسُلِّطَ على وجوده عدمه، وفيه يقول عمارة اليميني:**

قل لابن دخان إذا جئته	ووجهه يندى من القَرْقَفِ
لم تكفك الدنيا ولو أنها	أضعاف ما في سورة الزخرفِ
فاصفع قفا الذل ولو أنه	بين قفا القسيس والأسقفِ
ملكك الدهر سُبَالِ الورى	فاحلق لحاهم آمناً وانتفِ
خلا لك الديوان من ناظر	مستيقظ العزم ومن مُشرفِ
فاكسب وحصل وادخر واكتنزُ	واسرق وخُنْ وابطش ولا تضعف
وابك وقل ما صح في درهم	فردُّ، وصلِّب وابتهل واحلف
واغتنم الفرصة من قبل أن	تقضي على الإنجيل والمصحف

^(١) **وقوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة: ١١١]. هذه دعوى كل واحدة من الطائفتين: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه، مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة: ١١١]. وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقاً فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي للدليل، كما يلزم المثبت.

وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب، ثالثها يلزمه في الشرعيات دون العقلية، واستدلّاهم بالآية لا يصح؛ لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد؛ بل

ادعوا دعوى مضمونها: إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن^(١) يدخلها فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوة المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد.

ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾. [البقرة: ٨٠]. لكان أقرب مع كونه متضمنًا للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام: أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام؛ بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية.

وبعد فالتحقيق في مسألة النافي: هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان: **نوع:** مستلزم لإثبات ضد المنفي فهذا يلزم النافي فيه الدليل، كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعاً؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولا بد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم ولا بد له من دليل.

النوع الثاني: نفي لا يستلزم ثبوتاً كنفى صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلا بد له من دليل.

(٣) المثال الخامس: وجه الرب جلّ جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجاز بل على حقيقته واختلف المعطلون: في جهة التجوز في هذا فقالت طائفة: لفظ الوجه زائد والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى ويريدون ربهم. **وقالت** فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه جزاؤه فجعله هؤلاء مخلوقاً منفصلاً، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب وهذه أقوال، نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

(١) بالنسخة (لم) والصواب ما أثبتناه (لن). المراجع.

(٢) ١٧٤ مختصر الصواعق جـ ٢.

قال عثمان بن سعيد الدارمي ، وقد حكى قول بشر المريسي ، أنه قال في قول النبي ﷺ : «إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه» : «يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله وما أوجب للمصلي من الثواب فقوله : ﴿ويبقى وجه ربك﴾ [الرحمن: ٢٧] . أي ما توجه به إلى ربك من الأعمال الصالحة وقوله : ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ . [البقرة: ١١٥] . أي : قبله الله .

قال الدارمي : لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله ، أقبل قبل وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه كما نفى عنه اليدين ، فلم يدع غاية في إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به ، حتى ادعى أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق ، لأنه ادعى أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه ، وثواب وإنعام مخلوق يثيب به العامل ، وزعم أنه قبله الله وقبله الله لا شك مخلوقة ، ثم ساق الكلام في الرد عليه .

والقول بأن : لفظ الوجه مجاز ، باطل من وجوه :

أحدها : أن المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لا يمتنع أن يقال : ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه ، وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ .

الثاني : أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب .

الثالث : أن ذلك يستلزم كون حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازاً لا حقيقة كما تقدم تقريره .

الرابع : أن دعوى المعطل أن الوجه صلة ، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة ، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها .

الخامس : أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله : أعوذ بعزة الله وقدرته ، ويكون التقدير أعوذ بالله ، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك .

السادس : أن هذا يتضمن إلغاء وجهه الكريم لفظاً ومعنى ، وأن لفظه زائد ومعناه مُنتف .

الوجه السادس والعشرون : أنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدت مفسرة للآية مشتقة منها كقوله ﷺ : «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه» .

وقوله: «فَاللهُ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ مَا لَمْ يَصْرِفْ وَجْهَهُ عَنْهُ» .

وقوله: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ» .

وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ» .

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ إِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ

لَوَجْهِهِ عَبْدَهُ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ» . رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي .

وقال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ أَقْبَلَ اللَّهَ عَلَيْهِ

بِوَجْهِهِ فَلَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثُ حَدَثَ سَوَاءً» .

وقال: جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِذَا قَامَ الْعَبْدُ يَصْلِي أَقْبَلَ اللَّهَ عَلَيْهِ

بِوَجْهِهِ، إِذَا التَفَتَ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا خَيْرُ مَنْ تَلْتَفَتَ إِلَيْهِ إِذَا

أَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ أَقْبَلَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِذَا التَفَتَ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ» .

وقال ابن عمر: عن النبي ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَخَّمَنَّ تَجَاوِزَ وَجْهِ الرَّحْمَنِ» .

وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنِي

الرَّحْمَنِ إِذَا التَفَتَ قَالَ لَهُ: ابْنَ آدَمَ إِلَى مَنْ تَلْتَفَتَ؟ إِلَى خَيْرٍ لَكَ مِنِّي تَلْتَفَتَ» .

...^(١) **بقي النظر في ترجيح أحد قولي الاجتهاد والتخير في مسألة القبلة على**

الآخر، فمن نصر التخير احتج بما في الترمذي وسنن ابن ماجة، عن عامر بن

ربيع، عن أبيه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ الْقِبْلَةُ

فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا

فَتَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] . قال الترمذي: هذا حديث حسن إلا إنه من حديث

أشعث السمان وفيه ضعف .

وروى الدارقطني، من حديث عطاء، عن جابر قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

مَسِيرٍ فَأَصَابَنَا غَيْمٌ فَتَحِيرْنَا فَاخْتَلَفْنَا فِي الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مَنَا عَلَى حِدَةٍ،

وَجَعَلَ أَحَدُنَا يَخْطُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِنَعْلَمَ أَمَكُنْتَنَا فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَأْمُرْنَا

بِالْإِعَادَةِ فَقَالَ: «قَدْ أَجْزَأَتْكُمْ صَلَاتُكُمْ» . قال الدارقطني: رواه محمد بن سالم،

عن عطاء .

قال: ويروى أيضاً، عن محمد بن عبد الله العزمي، عن عطاء، وكلاهما

ضعيف . وقال العقيلي: لا يروى متن هذا الحديث من وجه يثبت .

واحتجوا أيضاً بما تقدم حكايته أن الله لم يأمر بالاستقبال إلا من كان عالماً به وقادراً عليه، وأما العاجز الجاهل فساقط عنه فرض الاستقبال فلا يكلف به. **ومن** نصر الاجتهاد احتج بأن الله تعالى أوجب على العبد أن يتقيه ما استطاع، وهذا مقتضى وجوب الاجتهاد عليه في تقوى ربه تعالى، والتقوى هي: فعل ما أمر وترك ما نهى.

قالوا: وأيضاً فإنه من المعلوم أنه إذا قام إلى الصلاة، لم يجز له أن يستقبل أي جهة شاء ابتداءً؛ بل ينظر إلى مطالع الكواكب ومساقطها وسمت جهة القبلة، حتى إذا علم جهتها استقبلها وهذا نوع اجتهاد، وأدلة الجهة متفاوتة الخفاء والظهور، فيجب على كل أحد فعل مقدوره من ذلك فإن لم يصبها قطعاً أصابها ظناً، وهو الذي يقدر عليه، فمتى ترك مقدوره لم يكن قد اتقى الله بحسب استطاعته.

وقولكم: إن الله إنما أوجب الاستقبال على القادر عليه العالم به. **قلنا:** الله سبحانه وتعالى أوجب على كل عبد ما تؤديه إليه استطاعته من طاعته، فإذا عجز عن هذا اليقين وأدلة الجهة سقط عنه؛ ولكن من أين يسقط عنه بذل وسعه ومقدوره اللائق به؟.

^(١) **قوله** تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]. إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه نفسه عنه. ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذ الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكاً له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه فلا يكون مخلوقاً له مملوكاً له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره. فهذا من أبطل الباطل.

وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كُلْ لَه قَانْتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. فهذا تقرير لعبوديتهم له وأنهم مملوكون مربوبون، ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكاً من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك،

كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكاً له عبداً مخلوقاً.

والنصارى جعلوا له شريكاً هو نظيره، وجزء من أجزائه.

كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ . [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن الله ما في السموات وما في الأرض؛ لزمه أن يقر له بالتوحيد ولا بد.

ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ . [المؤمنون: ٨٤، ٨٥].

وسياتي إن شاء تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . [البقرة: ١١٧].

وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه؛ ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟

ووجه تقرير هذه الحجة: أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما وفطرهما وابتدعهما، فهو قادر على اختراع ما هو دونهما ولا نسبة له إليهما ألبتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه ويجعلونه نظيراً وشريكاً وجزءاً؛ مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفطره ومخترعه وبارئه؟ فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويّه وسفليّه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟.

فمن نسب الولد لله، فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده.

فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيها إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع؛ أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة؛ وقدرته على

اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك . وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول : النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة ، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض . وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . [يونس: ٦٨] . فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه ، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته ، وكمال غناه وكمال قدرته . ولذلك كان نسبة الولد إليه مسببة له تبارك وتعالى .

كما ثبت في الصحيحين ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « يقول الله تعالى : شتني عبدي ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك ، وكذبي ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك ، أما شتُّه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً وأنا الأحدُ الصمدُ الذي لم ألدْ ولم أُولَدْ ولم يكن لي كفْواً أحد . وأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يُعبدني كما بدأي وليس أولُ الخلقِ بأهْوَنَ علي من إعادته » . وقال عمر بن الخطاب في النصارى : « أذلّوهم ولا تظلموهم ؛ فلقد سبوا الله مسبّةً ما سبّه إياها أحد من البشر » .

وقال تعالى : ﴿ وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ . [الكهف: ٥٤] . الآية . وأخبر تعالى أَنَّ السَّمَاوَاتِ كَادَتْ تَنْفَطِرُ مِنْ قَوْلِهِمْ هَذَا ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ مِنْهُ ، وَتُخْرِ الْجِبَالُ هَذَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتُضْمِنَهُ شَتْمُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَالتَّنْقِصُ بِهِ ، وَنِسْبَةُ مَا يَمْنَعُ كَمَالِ رَبُوبِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَغَنَاهُ إِلَيْهِ .

الحجة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . [البقرة: ١١٧]

وتقرير هذه الحجة : أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاداً بمجرد أمره وقوله : ﴿ كُنْ ﴾ فأى حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثّر به من قلة ولا يتعزز به ، ولا يستعين به ، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه ؟ ! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ، ولا إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، وهذا المخلوق^(١) العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد .

وقد ذكر تعالى حججاً أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في

(١) هذه الكلمة (المخلوق) معطوفة على مَنْ الموصولة السابقة التي هي في محل رفع فاعل . المراجع .

هذا الموضع:

منها: كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء، واستحالة نسبة صاحبة إليه فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾. [الأنعام: ١٠١]. الآية.

فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقاً، بل جزءاً وهذا ينافي كونه خالق كل شيء.

وبهذا يُعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة؛ شرٌّ من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقاً لله، وقوله: أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصاً واحداً أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقاً لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم صاحبة للولد فظاهر أيضاً؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل، ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصاً، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؛ ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم صاحبة، لم يستكفوا من دعوى كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب.

ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم، فخواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص.

وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالى لا يعلم له ولداً فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن. **ونظير** هذا قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

[يونس: ١٨]. الآية. فهذا نفى لما ادعوه من الشفعاء بنفى علم الرب تعالى بهم، المستلزم لنفي المعلوم ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاداً فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد. وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعاً؛ إذ لو عَلِمَهُ واقعاً لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال.

فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان مانسبه إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يُسَمِّن ولا يُغني من جوع.

فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيناته عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فلقد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. [العنكبوت: ٥١].

...^(١) **ولا** خلاف بين أهل اللغة أن الذرية يقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضاً قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾. [آل عمران: ٣٣، ٣٤]. وقال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا. ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. [الإسراء: ٢، ٣]. **وهل** تقال الذرية على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما أنهم يسمون ذرية أيضاً.

واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾. [يس: ٤١].

وأنكر ذلك جماعة من أهل اللغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللغة، والذرية كالنسل، والعقب لا يكون إلا للعمود الأسفل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾. [الأنعام: ٨٧]. فذكر جهات النسب الثلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف.

قالوا: وأما الآية التي استشهدتم بها فلا دليل لكم فيها، لأن الذرية فيها لم تضاف إليهم بوجه ما، والإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص. وإذا كان الشاعر قد أضاف الكوكب في قوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره سهيل أذاعت غزلها في القرائب
فأضاف إليها الكوكب؛ لأنها كانت تغزل إذا لاح وظهر. والاسم قد يضاف بوجهين مختلفين إلى شيئين، وجهة إضافته إلى أحدهما غير جهة إضافته إلى الآخر.
قال أبو طالب في النبي ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعزي لقول الأباطل

فأضاف بنوته بجهة غير جهة إضافته إلى أبيه عبدالله.

وهكذا لفظة رسول الله، فإن الله سبحانه يضيفه إليه تارة كقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾. [المائدة: ١٥]. وتارة إلى المرسل إليهم كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾. [المؤمنون: ٦٩]. فإضافته سبحانه إليه إضافة رسول إلى مرسله. وإضافته إليهم إضافة رسول إلى مرسل إليهم.

وكذا لفظ «كتابه» فإنه يضاف إليه تارة. فيقال كتاب الله. ويضاف إلى العباد تارة فيقال: كتابنا القرآن، وكتابنا خير الكتب، وهذا كثير، فهكذا لفظ الذرية أضيف إليهم بجهة غير الجهة التي أضيف بها إلى آبائهم.

وقالت طائفة: بل المراد جنس بني آدم ولم يقصد الإضافة إلى الموجود في زمن النبي ﷺ، وإنما أريد ذرية الجنس.

وقالت طائفة: بل المراد بالذرية نفسها. وهذا أبلغ في قدرته وتعدد نعمه عليهم. أن حمل ذريتهم في الفلك في أصلاب آبائهم، والمعنى: أنا حملنا الذين هم ذرية هؤلاء وهم نطف في أصلاب الآباء. وقد أشبعنا الكلام على ذلك في

كتاب الروح والنفس .

إذا ثبت هذا فالذرية : الأولاد ، وأولادهم .

وهل يدخل فيها أولاد البنات ؟ فيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد :

أحدهما : يدخلون وهو مذهب الشافعي .

والثاني : لا يدخلون وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى .

واحتج من قال بدخولهم : بأن المسلمين مجمعون على دخول أولاد فاطمة رضي

الله عنها في ذرية النبي ﷺ ، المطلوب لهم من الله الصلاة ؛ لأن أحدًا من بناته لم

يعقب غيرها ، فمن انتسب إليه ﷺ ، من أولاد ابنته ، فإنها هو من جهة فاطمة رضي

الله عنها خاصة . ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته : «إن ابني هذا سيد»

فسماه ابنه .

ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ . [آل عمران: ٦١] . الآية ؛ دعا النبي ﷺ فاطمة

رضي الله عنها ، وحسنًا رضي الله عنه ، وحسينًا رضي الله عنه وخرج للمباهلة .

قالوا : وأيضًا فقد قال تعالى في حق إبراهيم : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ

يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى

وَإِلْيَاسَ﴾ . [الأنعام: ٨٤ ، ٨٥] . ومعلوم أن عيسى لم ينتسب إلى إبراهيم إلا من جهة

أمه مريم .

وأما من قال بعدم دخولهم : فحجته أن ولد البنات إنما ينتسبون إلى آبائهم

حقيقة ، ولهذا إذا ولد الهذلي أو التيمي أو العدوي هاشمية لم يكن ولدها هاشميًا ،

فإن الولد في النسب يتبع أباه وفي الحرية والرق أمه ، وفي الدين خيرهما دينًا ؛ ولهذا

قال الشاعر :

بنونا بنو أبائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

ولو وصى أو وقف على قبيلة لم يدخل فيها أولاد بناتها من غيرها .

قالوا : وأما دخول فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ ، فلشرف هذا الأصل

العظيم والوالد الكريم ، الذي لا يدانيه أحد من العالمين . سرى ونفذ إلى أولاد

البنات لقوته وجلالته وعظم قدره ، ونحن نرى من لا نسبة له إلى هذا الجنب

العظيم من العظماء والملوك وغيرهم تسري حرمة إيلادهم وأبوتهم إلى أولاد بناتهم ،

فتلحظهم العيون بلحظ آبائهم ويكادون يضربون عن ذكر آبائهم صفحاً، فما الظن بهذا الإيلاد العظيم قدره الجليل خطره؟.

قالوا: وأما تمسككم بدخول المسيح في ذرية إبراهيم فلا حجة لكم فيه. فإن المسيح لم يكن له أب، فنسبه من جهة الأب مستحيل فقامت أمه مقام أبيه.

وهكذا كل من انقطع نسبه من جهة الأب: إما بلعان، أو غيره، قامت أمه في النسب مقام أبيه وأمه، ولهذا تكون في هذه الحال عصبته في أصح الأقوال. وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله. وهو مقتضى النصوص، وقول ابن مسعود وغيره. والقياس يشهد له بالصحة. لأن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته عاد إلى الأم فلو قدر عوده من جهة الأب رجع من الأم إليه وهكذا.

كما اتفق الناس عليه في الولاء أنه لموالي الأب. فإن تعذر رجوعه إليهم صار لموالي الأم. فإن أمكن عوده إليهم رجع من موالي الأم إلى معدنه وقراره.

ومعلوم أن الولاء فرع على النسب يحتذي فيه حذوه، فإذا كان عصبات الأم من الولاء، عصبات لهذا المولى الذي انقطع تعصبيه من جهة موالي أبيه؛ فلأن تكون عصبات الأم من النسب، عصبات لهذا الولد الذي انقطع تعصبيه من جهة أبيه بطريق الأولى. وإلا فكيف يثبت هذا الحكم في الولاء ولا يثبت في النسب الذي غايته أن يكون شبيهاً به ومفرعاً عليه، وهذا مما يدل على أن القياس الصحيح لا يفارق النص أصلاً، ويدلك على عمق علم الصحابة رضي الله عنهم، وبلوغهم في العلم إلى غاية يقصر عن نيلها السباق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. (١)

(٢) **وتأمل** كيف جاء في القرآن: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾. [الصفات: ١٣٠] ولم يذكر إسماعيل، وجاء في التوراة ذكر البركة على إسماعيل ولم يذكر إسحاق، كما تقدم حكايته وعن إسماعيل: «سمعتك هانا بركته». فجاء في التوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذاناً بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لاسيما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلها برسول الله ﷺ، فنبههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك ﷺ، وذكر لنا في القرآن بركته على إسحاق منبهاً لنا على ما حصل

(١) سيأتي ذكر خليل الله إبراهيم في سورة الصفات وذكر فضائله وأهل بيته بأوسع من هذا إن شاء الله

في أولاده من نبوة موسى وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك والتصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم؛ بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولما كان هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله سبحانه منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم ويدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدًا ﷺ، وقال تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. [النساء: ١٢٥]. وقال النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا» وهذا من خواص هذا البيت.

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس وقبلة لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التي لم تخرج من أهل بيت غيرهم. وهم: أمة موسى، وأمة محمد. وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله.

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. [الصافات: ١٠٨-١١٠].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن تولاهم، والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم. فالجنة لهم

ولأتباعهم ، والنار لأعدائهم ومخالفيهم .

ومنها: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقروناً بذكره . فيقال : إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه . ومحمد رسول الله وخليله ونبيه . وموسى كليم الله ورسوله . قال تعالى لنبيه يذكره بنعمته عليه : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ . [الشرح: ٤] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا ذكرتُ ذكرتُ معي . فيقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله في كلمة الإسلام ، وفي الأذان ، وفي الخطب . وفي الشهادات وغير ذلك .

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت . فلهم على الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها ، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة ، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله عز وجل عليها .

ومنها: أن كل ضرر^(١) ونفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم ، فلهم من الأجر مثل أجور عامليها . فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده .

ومنها: أنه سبحانه وتعالى سد جميع الطرق بينه وبين العالمين وأغلق دونهم الأبواب ، فلم يفتح لأحد قط إلا من طريقهم وبابهم .

قال الجنيد رضي الله عنه : يقول الله عز وجل لرسوله ﷺ : « وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » .

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين ، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته ، وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه وشرعه ، ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم ، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين .

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبه وقربه والاختصاص به ، بما لم يخص به أهل بيت سواهم .

ومنها: أنه سبحانه مكن لهم في الأرض واستخلفهم فيها ، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم .

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم .

(١) قلت : [هكذا في المطبوعة ، والصواب حذفها إذ المقام مقام مدح . وإثباتها تستلزم الذم] ا. هـ المراجع .

ومنها: أنه سبحانه محابهم من آثار أهل الضلال والشرك، ومن الآثار التي ييغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين، ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سبباً لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقياً ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم. قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض» وقال: «لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا» وأخبر النبي ﷺ، أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض وكلامه من المصاحف وصدور الرجال، فلا يبق له في الأرض بيت يحج ولا كلام يتلى، فحينئذ يقرب خراب العالم.

وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم. وقيام أمورهم وحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم؛ بحسب ظهورها بينهم وقيامها وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم، عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه من سلطه على البلاد والعباد من الأعداء؛ علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه؛ فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ، وسننه وشرائعه فيها ظهور دفع عنها، بحسب ظهور ذلك بينهم.

وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت. فلهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة، ما لم يظهره على أيدي أهل بيت غيرهم.

ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم، ما لم يعط غيرهم **فمنهم:** من اتخذ خليلاً، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليماً وقربه نجياً.

ومنهم: من آتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه .

ومنهم: من آتاه ملكاً لم يؤته أحدًا غيره ، ومنهم من رفعه مكاناً علياً .

ولما ذكر سبحانه هذا البيت وذريتهم أخبر أن كلهم فضله على العالمين .

ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض ، أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وبيعثهم ، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كذبوا أنبياءهم ورسلمهم أهلكهم بعذاب يعمهم كما فعل بقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ؛ فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن ، رفع بها العذاب العام عن أهل الأرض وأمر بجهاد من كذبهم وخالفهم . فكان بذلك نصرة لهم بأيديهم ، وشفاء لصدورهم ، واتخاذ الشهداء منهم وإهلاك عدوهم بأيديهم لتحصيل محابه سبحانه على أيديهم .

وحق لأهل بيت هذا بعض فضائلهم وخصائصهم ؛ أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام والثناء والتعظيم ، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم ، وأن يعرف المصلي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلها في الصلاة عليهم ما وفى القليل من حقهم ، فجزاهم الله عن بريته أفضل الجزاء ، وزادهم في الملاء الأعلى تعظيماً وتشريفاً وتكريماً ، وصلى الله عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ . [البقرة : ١٣٥] . فأجيبوا عن هذه الدعوة بقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة :

أما المنع فما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي : ليس الأمر كما قالوا . وأما المعارضة ففي قوله : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي : يتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً . وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب ، مما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية ، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك ، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد ، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية ، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده ، فمن كان عليها فهو المهتدي لا من كان يهودياً أو نصرانياً .

فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل .
والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره ؛ فَيُعْبَدُ وحده ويحِبُّ وحده ويطاع وحده ، ولا يجعل معه إلهاً آخر ، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟

ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد . وهو أن يقولوا : فنحن على ملته أيضاً لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى .

فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه ، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ . [البقرة: ١٤٠] . الآية وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ . إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [آل عمران: ٦٧، ٦٨] .

فإن قالوا : فهب أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم .

فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . [البقرة: ١٣٦] . فهذه للمؤمنين .

ثم قال : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ [البقرة: ١٣٧] . وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به ، فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون ، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء ، وإنما هم في شقاق وعداوة فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم ، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم مشاق لمن هو على ملته .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ﴾ . [البقرة: ١٤٠] . أي : الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل ، وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى فالله تعالى يعلم ذلك ، فلو كانوا يهوداً أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم ، هذا مع أن عندكم شهادة وبيّنة من الله بما كان عليه إبراهيم ، وبأن هذا النبي على ملته ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم ؛ فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها ، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله ؛ إلا أنه كتمها من الله فالمجرور

متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

^(١) **قوله تعالى: ﴿يُمِثِّلُ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾** وليس له مثل والجواب من أوجه:

الأول: أن المراد به التبيكيت والمعنى: حصلوا ديناً آخر مثله وهو لا يمكن.

الثاني: أن المثل صلة.

الثالث: أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

الرابع: أن المراد: إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به. قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة.

(٢) الفصل السابع في حكمة الختان وفوائده

الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله عز وجل لما عاهد إبراهيم ووعدته أن يجعله للناس إماماً، وعده أن يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. على الختان.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانياً، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية، وجعل ميسمها الختان، فقال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

وقد جعل الله سبحانه السمات علامات لمن يضاف إليه المعلم بها، ولهذا الناس يسمون دوابهم ومواشيهم بأنواع السمات، حتى ما يكون مضاف منها إلى كل إنسان معروفاً بسمته، ثم قد تكون هذه السمة متوارثة في أمة بعد أمة.

فجعل الله سبحانه الختان علماً لمن يضاف إليه وإلى دينه وملته، وينسب إليه

بنسبة العبودية والحنيفية، حتى إذا جهلت حال إنسان في دينه عرف بسمة الختان ودينه، وكانت العرب تدعى بأمة الختان.

ولهذا في حديث هرقل: إني أجد ملك الختان قد ظهر، فقال له أصحابه: لا يهمنك هذا، فإنما تحتن اليهود فاقتلهم، فبينما هم على ذلك، وإذا برسول رسول الله ﷺ، قد جاء بكتابه، فأمر به أن يكشف وينظر هل هو مختون؟ فوجد مختوناً، فلما أخبره أن العرب تحتن، قال هذا ملك هذه الأمة.

ولما كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والروم جعل هشام بن العاص يقول: يا معشر المسلمين! إن هؤلاء القلف لا صبر لهم على السيف، فذكرهم بشعار عباد الصليب ودينهم، وجعله مما يوجب إقدام الحنفاء عليهم وتطهير الأرض منهم.

والمقصود أن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته والإخلاص له وعبادته وحده لا شريك له.

وصبغة الأبدان بخصال الفطرة: من الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط والمضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم.

قال محمد بن جرير في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾. [البقرة: ١٣٨]. يعني بالصبغة: صبغة الإسلام، وذلك أن النصراني إذا أراد أن تنصّر أطفالها جعلتهم في مبالغهم، وتزعم أن ذلك مما يقدر بمنزلة الختان لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ، لما قال اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - إلى قوله - صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً. [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله: الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أظهر.

وقال مجاهد: صبغة الله: فطرة الله، وقال غيره: دين الله.

هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة، التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن علمت بالكلية ألحقتها بالجملادات، فالختان يعدلها. ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع.

ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء - إشارة إلى غلمتها - وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد: من جلدة القلفة، وشعر العانة، وشعر الإبط، وشعر الشارب، وما طال من الظفر؛ فإن الشيطان يختبئ تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه، حتى أنه ينفخ في إحليل الأقف وفرج القلفاء ما لا يُنفخ في المختون، ويختبئ في شعر العانة وتحت الأظفار، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل، والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول، ولا يخفى على ذي الحس السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلى الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فآثمهن جعله إماماً للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه. وفي تركه من الكسفة التي ترى عليه.

^(١) وإنما كانت هذه الخصال من الفطرة؛ لأن الفطرة، هي الخيفية ملة إبراهيم، وهذه الخصال أمر بها إبراهيم، وهي من الكلمات التي ابتلاه ربه بهن، كما ذكر عبدالرزاق عن معمر، عن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: «ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، التي في الرأس: ١ - قص الشارب، ٢ - والمضمضة، ٣ - والاستنشاق، ٤ - والسواك، ٥ - وفرق الرأس. وفي الجسد: ١ - تقليم الأظفار، ٢ - وحلق العانة، ٣ - والختان، ٤ - ونتف الإبط، ٥ - وغسل أثر الغائط والبول بالماء».

والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبه وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال: فالأولى: تزكّي الروح وتطهّر القلب، والثانية: تطهّر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن: الختان، لما سذكروه في الفصل السابع إن شاء الله.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «من الفطرة - أو الفطرة: ١ - المضمضة، ٢ - والاستنشاق، ٣ - وقص الشارب، ٤ - والسواك، ٥ - وتقليم الأظفار، ٦ - وغسل البراجم، ٧ - ونتف الإبط، ٨ - والاستحدا، ٩ - والاختان، ١٠ - والانتطاق»، [نسخة: الانتضاح] وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقدرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص ستقف عليه،

في الفصل السابع إن شاء الله .

وقال غير واحد من السلف: من صلى وحج واختتن فهو حنيف، فالحج والختان: شعار الحنيفة، وهي ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ . [الروم: ٣٠].
قال الراعي: يخاطب أبا بكر رضي الله عنه:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرباً نرى الله في أموالنا حق الزكاة مُنْزَلُ تنزيلاً

(١) **قوله** تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾ إلى قوله: ﴿صراط مستقيم﴾ . [البقرة: ١٤٢]
هذا سؤال من السفهاء أوردوه على المؤمنين .

ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقاً فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا؛ فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه .

والسؤال من جهة الكفار أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدم .
وقالوا: لو كان نبياً ما ترك قبلة الأنبياء قبله .

وقالوا: لو كان نبياً ما كان يفعل اليوم شيئاً وغداً خلافه .

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم .

وقال أهل الكتاب: لو كان نبياً ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت

المحنة على بعض الناس كما قال تعالى:

﴿وإن كانت لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ . [البقرة: ١٤٣].

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة؛ لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهده وذللّه بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئاً أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعتاً كما جرى لموسى مع قومه .
ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمة وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاتة والموافقة .

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت.

ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾. [البقرة: ١٢٥].

وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها؛ فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ، كان كثيراً ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة، وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس: فلا تعبؤوا بقولهم فإنه قول سفيه.

ثم قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [البقرة: ١٤٢].

فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك، فأينما تعبد له عباده بأمره إلى أي جهة كانت، فهم مطيعون له.

كما قال: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. [البقرة: ١١٥]. فلم يصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها، فما صليتم إلا له أولاً وآخرًا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

ثم نبه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانياً، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولاً لحكمة له في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع

الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء؛ ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عياناً مشاهداً فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سُدًى ولا عبثاً.

ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطاً، فاختر القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم. ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم، فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون: من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾. [البقرة: ١٤٣]. وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منته على رسوله وإطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى فقال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. [البقرة: ١٤٤].

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، ولم يذكر للضمير مفسراً غير ما في السياق وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته. ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ماتبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾. [البقرة: ١٤٥].

ثم ذكر اختلافهم في القبلة وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى؛

لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عنادًا وتقليدًا لأبائهم، وإنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فهم مختلفون في باطلهم فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول، ﷺ، وللمؤمنين على لزوم قبلتهم وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ماتبعوا قبلك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضًا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر، فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته؛ بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها.

وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلك وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وأصح القولين أن المعنى: هو متوجه إليها أي: موليتها وجهه، فالضمير راجع إلى كل.

وقيل: إلى الله أي الله موليتها إياه وليس بشيء؛ لأنه الله لم يولَّ القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط؛ بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] مشعر بصحة هذا القول أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات،

وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تأمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق .

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ . [المائدة: ٤٨] .

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم . فقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ . [البقرة: ١٤٨] .

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة .

فاذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفوراً وذهاباً في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر .

فتأمل هذا السر البديع في السورتين، وفي قوله: ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ . [المائدة: ٤٨، الأنعام: ١٦٤] سر آخر أيضاً، وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويبين^(١) لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث .

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ . بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ . [النحل: ٣٨، ٣٩] .

فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم .

(١) في النسخة (بين) والصواب ما أثبتناه . المراجع .

إحدهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً وأنه كان على باطل، وأن نسبته أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فتأمل أسرار كلام الرب تعالى، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً بل خلقه خلقاً صادراً عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتغال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين؛ يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة حقاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾. [النمل: ٦]. فأخبر أن مصدر التلقى عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقاً وعدلاً وهدى وإرشاداً.

وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿عجوز عقيم﴾ قالوا: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. [الذاريات: ٣٠]. وهذا راجع إلى قوله وخلقها، وهو خلق الولد لها على الكبر.

وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه. **ومن** نظر في الموجودات ببصيرة قلبه؛ رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذباً، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده دالاً على فطرته وبارئته وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات

وأحوالها على إثبات الصانع ، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات .

فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثاً ، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق .

ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله ، حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه وبما لو تأملوه ؛ لرأوه مركزاً في فطرتهم مستقراً في عقولهم ، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه : من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته ، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة ، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار .

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها ، فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية .

وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح : أن الروح مركز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركزاً في نفس روحه وذاته وفطرتة .

فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط ، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه : لا إله إلا هو ، والإيمان برسوله وملائكته ولقائه ، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه ، وأنجابت عنه سحائب غيّه وانكشف عن قلبه حجاب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

[الزخرف : ٢٣] .

فهناك يبدو له سرُّ طال عنه اكتتاه ، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه .

فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . [الجمانية : ٣ - ٥] .

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية ؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة ؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط كآخر آل عمران .

وقوله في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ . [الروم: ٢٠-٢٥] . إلى آخرها .
وقوله في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ .
 [النمل: ٥٩-٦٤] . إلى آخر الآيات وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن . وكقوله في
 سورة الذاريات: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .
 [الذاريات: ٢٠، ٢١] .

﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .
 [يوسف: ١٠٥] .

فهذا كله من الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق
مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها يقرؤه كل موفق: كاتب، وغير
كاتب كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
 وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
 وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تُراد من العباد وغاية تراد بهم .

فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا
يشركوا به شيئاً؛ فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم .
قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ . [الطلاق: ١٢] .
فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم
معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده .

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ . [الذاريات: ٥٦] . فهذه
 الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده .
وأما الغاية المرادة بهم، فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب .
قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ . [النجم: ٣١] .
وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ .

وقال تعالى: ﴿لَيُبَيِّنَنَّ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ . [النحل: ٣٩] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . [يونس: ٤، ٣] .

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق .
وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١) . [المؤمنون: ١١٥] .

^(٢) ولنرجع إلى ما كنا بصددده من الكلام في ذكر حاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم .
وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه :

قال في قول النبي ﷺ، للبراء بن معرور: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً .

قلت: ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة؛ لما ربط الخيطين في رجله وأكل حتى تبيّن له لأجل التأويل .

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة؛ إذ لم يعرف شرع التيمم للجنب، فقال: يا رسول الله إني تصيبي الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي يعني في البادية - فقال: «أين أنت عن التيمم؟» .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المستحاضة بالإعادة، وقد قالت: إني أستحاض حيضة شديدة، وقد منعتني الصوم والصلاة فأمرها أن تجلس أيام الحيض، ثم

تصلي ولم يأمرها بإعادة ما تركت .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المسيء في صلاته بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة، وإنما أمره بالإعادة في الوقت؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المتمك في التراب كما تتمك الدابة لأجل التيمم بالإعادة؛ مع أنه لم يصب فرض التيمم .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة، وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها .

ونظيره أيضاً أنه لم يضمن أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة . ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع .

فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق، منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمنين .

وقاعدة هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه .

فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو؛ فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه .

وهذا مجمع عليه في الحدود أنها لا تقام إلا على من بلغه تحريم أسبابها .

وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود . .

ويدل عليه أيضاً في المعاملات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . [البقرة: ٢٧٨] . فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا

وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه .

بل أهل قبا صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها، ولم يعيدوا ما صلوا؛ بل

استداروا في صلاتهم وأتموها؛ لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم .

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد، هذا أحدها وهو

أصحها وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه .

والثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من

بلغه، وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم .

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعم

ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه .

والفرق بين الخطابين: أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به

بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلى في بعض كتبه، ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة وإنما أشرنا إليها إشارة.

قال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء: «لقد كنت على قبة».

وقال طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً. فعلى هذا يكون في القبة نسخان: نسخ سنة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة.

فروي عنه من طرق صحاح؛ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس.

فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعاً، لم يُبَنّ توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك - والله أعلم - قال الله تعالى في الآية الناسخة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. [البقرة: ١٥٠]. أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها فاستقبل الكعبة؛ كنت مستدبراً بيت المقدس أو لم تكن؛ لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس؛ أن تكون الكعبة بين يديه.

قال: وتدبر قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾. [البقرة: ١٥٠]. وقال لأمته: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾. [البقرة: ١٥٠]. ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ، كان إمام المسلمين فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجباً عليه؛ إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولا سيما النساء ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر وهو أن قوله: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خطاب عام له ﷺ، ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض.

وقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. [البقرة: ١٥٠]. خطاب بصيغة الإفراد، والمراد هو والأمة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

[الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه .
وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية؛ بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان: من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة، وفي أي بقعة كانوا من الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها: في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد .
فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كدّ أفهام أمثالنا من القاصرين . فقوله: ﴿ومن حيث خرجت﴾ . [البقرة: ١٥٠]. يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة . وكان أولى بهذا الخطاب؛ لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل .

وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ﴾ . [البقرة: ١٥٠]. يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها؛ بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقاً وغرباً ويمناً وعراقاً، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ﴾ أي: من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ .

فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم .
قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم .

وأهل الرب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل .

وكفار قريش قالوا: نَدِم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا .

وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم

وإسماعيل، وقد فارق قبله إبراهيم وإسماعيل وأثر عليها قبله اليهود .

فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾

إلا الذين ظلموا منهم ﴿ على الاستثناء المنقطع أي : لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون .

وقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ . [البقرة : ١٤٧] . أي : من الذين شكوا وامتروا .

ومعنى الحق من ربك : أي : الذي أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام ، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك فلا تتر في ذلك فقال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ . [البقرة : ١٤٤] .
وقال : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . [البقرة : ١٤٦] . أي : يكتُمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء .

ثم ساق : من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ . قال : حدثنا أحمد بن صالح : حدثنا عنبة ، عن يونس ، عن ابن شهاب قال : كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته ، قال : فسرت معه وهو ولي عهد ، قال : ومعه خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال سليمان ، وهو جالس فيه : والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجبا - كذا رأيته . والصواب : اليهود - قال خالد بن يزيد : أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم ، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة ، فلما غضب الله عز وجل على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم .

وروى أبو داود أيضا أن يهوديا خاصم أبا العالية في القبلة فقال أبو العالية : إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام ، فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه . وقال اليهودي : بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ ، فقال أبو العالية : فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة . انتهى .

قلت : وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة ، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله ، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد .

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبداً ، وهم مقرون بذلك ، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل

وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم، بأن المسيح فوّض إليهم التحليل والتحرير وشرع الأحكام، وأن ما حلّوه وحرّموه فقد حلّله هو وحرّمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبداً والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة ألبتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رُفِعَ صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه ويحجون إليه، ورأيت أنه أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة، فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة. واليهود أخطئوها لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً، ثم ذكر نصّاً بزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعاً على التوراة؛ لأنها إنما أنزلت على بنى إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها، وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم، وأنا رأيته وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت إنما هو في توراتنا خاصة.

قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه وبدّلوا القبلة التي أمروا بها وحفظتموها أنتم، وحفظتم النص بها فلم يرجع إليّ الجواب.

قلت: وهذا كله مما يقوّي أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا﴾. [البقرة: ١٤٨]. راجعاً إلى كل أي هو موليتها وجهه ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه هذا أحدها.

الثاني: أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكوراً فيما قبلها؛ ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون كل، رد الضمير إلى غير من هو أولى به ومنعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها. هذا وجه الكلام كما قال تعالى: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾. [النساء: ١١٥]. فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولي القبلة إياه فتأمل.

وقول أبي القاسم: أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً رداً على الطوائف الثلاث؛ ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك. والذي يظهر فيه، أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه:

فذكره أول مرة؛ ابتداء للحكم ونسخاً للاستقبال الأول فقال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. [البقرة: ١٤٤].

ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم؛ حيث يجدونه في كتبهم كذلك.

ثم أخبر عن عنادهم وكفرهم، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته ولا هو أيضاً بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبله بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم وأنهم ليكتُمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكررًا محضًا؛ بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيث كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيث كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيث كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد الحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمل. والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. [البقرة: ١٥٠]. منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناءه مما ذكر قبله منقطع. **وسمعتُ** شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق.

والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان: **أحدهما:** الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى

قَوْمِهِ ﴿[الأنعام: ٨٣]. وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾. [الأنعام: ١٤٩]. ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾. [آل عمران: ٢٠]. وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [الحج: ٢٥]. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾. [البقرة: ٢٥٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. [الشورى: ١٦].

وإذا كانت الحجة اسماً لما يحتاج به من حق أو باطل، صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾. [البقرة: ١٥٠]. وهذا في غاية التحقيق. والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، فلا تخشوهم واخشوني.

^(١) قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣]. وقوله: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. [الحج: ٧٨].

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولاً خياراً ليشهدوا على الناس: بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ، أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه؛ بأن حجة الله بالرسول قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله ﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه.

^(٢) قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣]. ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم

وأعد لها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم .

وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسول على أهمهم يوم القيامة .

والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم ، فهم شهداؤه ، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم ؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء ، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم .

والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق ؛ فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به كما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . [الزخرف: ٨٦] . فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقاً من غير علمه به ، وقد يعلمه ولا يخبر به ؛ فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم ؛ فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما : مع اشتها فتوى الأول ، أو بدون اشتهاها ، كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق .

بل انقسموا قسمين : قسماً أفتى بالباطل ، وقسماً سكت عن الحق ، وهذا من المستحيل ، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعاً ، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

(١) فصل

وكان يصلي إلى قبله بيت المقدس ، ويحب أن يُصرف إلى الكعبة . وقال الجبرائيل «وَدِدْتُ أَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ وَجْهِي عَنْ قِبَلَةِ الْيَهُودِ» ، فقال : إنما أنا عبد ، فادع ربك واسأله . فجعل يُقلب وجهه في السماء يرجو ذلك ، حتى أنزل الله عليه : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ . [البقرة: ١٤٤] .

وذلك بعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة ، قبل وقعة بدر بشهرين .

قال محمد بن سعد : أنبأنا هاشم بن القاسم قال : حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : ما خالف نبي نبياً قط في قبله ولا في سنة ، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهراً ، ثم قرأ :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. [الشورى: ١٣]. الآية .
وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم في تحويلها إلى الكعبة حِكْمٌ
عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركون واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا .
وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم .
وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع
إليها إلا أنه الحق .

وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله . ولو كان نبياً لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء .
وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً فقد
تركها، وإن كانت الثانية هي الحق : فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء
من الناس . وكانت كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى
اللَّهُ﴾. [البقرة: ١٤٣] . وكانت محنة من الله ، امتحن بها عباده ، ليرى من يتبع الرسول
منهم ممن ينقلب على عقبيه .

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأً سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه
يأتي بخير من المنسوخ أو مثله .

ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت مع رسول الله ﷺ ، ولم يَنَقِذْ له .
ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا
على شيء ، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم .
ثم ذكر كفرهم وشركهم به ، وقولهم : إن له ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقولون .
ثم أخبر : أن له المشرق والمغرب ، وأينما يُؤتَى عبادهُ وجوههم فثَمَّ وجهه وهو
الواسع العليم ، لعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجَّه العبد فثم وجه الله .
ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا
يصدقونه .

ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتَّبِعَ
مِلَّتَهُم ، وأنه إن فعل - وقد أعاده الله من ذلك - فما له من الله من ولي ولا نصير .
ثم ذكَّرَ أهل الكتاب بنعمته عليهم ، وخوَّفَهُم من بأسه يوم القيامة .
ثم ذكر خليله إبراهيم باني بيته الحرام ، وأثنى عليه ومدحه ، وأخبر أنه جعله

للناس إماماً يأتهم به أهل الأرض.

ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا: أن باني البيت كما هو إمام للناس، فكَذلك البيت الذي بناه: إمام لهم.

ثم أخبر: أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس.

ثم أمر عباده أن يأتوا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين.

ثم ردَّ على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هُودًا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئةً ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله: فقد كبر ذلك على الناس، إلا من هدى الله منهم. وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد الثالثة، وأمر به رسوله ﷺ حيثما كان، ومن حيث خرج.

وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها. لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم. فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل. وموقفهم في القيامة خير المواقف. فهم على تل عالٍ، والناس تحتهم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون محتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت. ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة. وكل من قَدَّم على أقوال الرسول سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء. وأخبر سبحانه: أنه فعل ذلك ليتَّ نعمته عليهم، وليهديهم.

ثم ذكَّروهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، لِيُزَكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم.

ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة. وأخبرهم أنه مع الصابرين.

(١) فصل

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾. [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ لمعاذ: «والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني. وذكره يتضمن ذكر أسمائه، وصفاته، وذكر أمره، ونبيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً؛ وهذان الأمران هما جماع الدين.

فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، [ص: ٢٧]. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. [الدخان: ٣٨، ٣٩]

(٢) والله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك منهما:

أحدهما: أمره ونهيه الذي هو محض حقه عليه .

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره ، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه ، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ، فإن لم يتداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله ؛ كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم ، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ؛ بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله ، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس .

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعبادة ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه ، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم ، فضلاً عن أن يريدوا فعلها ، فضلاً عن أن يفعلوها . وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات ؛ وإن زهد في الدنيا جميعها .

وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره الله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصره دينه ، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء .

وقد ذكر أبو عمر وغيره : أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية فقال : يارب إن فيهم فلاناً الزاهد العابد قال : « به فابدأ وأسمعي صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط » .

... « وفي كل جارة من الجوارح عبودية مؤقتة . و« الذكر » عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة . بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال : قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم . فكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها . فكذلك القلوب بور خراب . وهو عمارتها ، وأساسها .

وهو جلاء القلوب وصقالتها ، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها . وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً : ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً . وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه : نسي في جنب ذكره كل شيء ، وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضاً من كل شيء .

به يزول الوقر عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظلمة عن

الأبصار. زين الله به السنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته. **قال** الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق. **وبالذكر:** يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي. **وهو** روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكورهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب

دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت

كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هو الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ. لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. [الأحزاب: ٤١، ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً﴾. [الأعراف: ٢٠٥]. وفيه قولان:

أحدهما: في شرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك،

وأما النهي عن ضده: فكقوله ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾. [الأعراف: ٢٠٥].

وقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ. وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ. إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تمَّ

الذكر: مَحَقَّ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحدهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتغالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر^(١).

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿وَلْتَكْمِلُوا

الْعِدَّةَ، وَلْتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾. [النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ. وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا؛ وإذا كان آخر كلام العبد؛ أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾. [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقتترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه:

قرنه بالصلاة. كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. [طه: ١٤].

وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه. بل هو روح الحج، ولُّبه ومقصوده. كما

قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا جَعَلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمِي الْجِمَارِ؛ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ».

(١) ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وهي أكبر وأقوى وأشد ناه عن الفحشاء والمنكر.

وقرّنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [الأنفال: ٤٥]. وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «إن عبدي - كل عبدي - الذي يذكرني وهو ملاق قرّنه».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به. وسمعه يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال، كما قال عنتره: ولقد ذكرتُك والرماحُ كأنها أشطان بئر في لبانِ الأدهم وقال الآخر:

ذكرتُك والخطيئُ يخطُرُ بيننا وقد نهَلتُ منا المثقفة السُّمر
وقال آخر:

ولقد ذكرتُك والرماحُ شواجر نحوي. وبيضُ الهند تقطُر من دمي وهذا كثير في أشعارهم. وهو مما يدل على قوة المحبة. فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء غير نفسه - يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها. وهذا دليل على صدق المحبة والله أعلم.

فصل^(١)

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. [الفاتحة: ٥]. منزلة «الصبر». قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً. وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [البقرة: ٤٥]. وقوله: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾. [آل عمران: ٢٠٠]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده. كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿وَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. [الأنفال: ١٥]. فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. [محمد: ٣٣]. فإن إبطاها ترك الصبر على إتمامها.

وقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. [آل عمران: ١٣٩]. فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ الآية. [آل عمران: ١٧]. وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾. أولئك الذين صدقوا. وأولئك هم الْمُتَّقُونَ. [البقرة: ١٧٧]. وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله: ﴿وَاصْبِرُوا. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهَوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. [النحل: ١٢٦]. وقوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾. [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿وَلَنبَلِّغُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿بَلَى، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا، وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾. [آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقي الأعمال الصالحة جزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيُلْكَمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾. [القصص: ٨٠]. وقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿أَن أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَذَكَرَهُمْ بِآيَامِ اللَّهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [إبراهيم: ٥].

وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ. وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [سبأ: ١٩].

وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [الشورى: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة. ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر

له . كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «خير عيش أدركناه بالصبر» .
وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال : «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللهُ» .
وفي الحديث الصحيح : «عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيراً له . وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيراً له» .

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع . فسألتها : أن يدعوا لها : «إن شئت صبرت؛ ولك الجنة . وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» . فقالت : إني أتكشف فادع الله : أن لا أتكشف . فدعا لها .

وأمر الأنصار - رضي الله تعالى عنهم - بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض .

وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر . وأمر بالصبر عند المصيبة . وأخبر : أنه إنما يكون «عند الصدمة الأولى» .

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب . فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره . والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر .
وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال :
«وما أعطي أحد عطاءً خيراً له وأوسع؛ من الصبر» .

فصل

«الصبر» في اللغة : الحبس والكف . ومنه : قُتل فلان صبراً . إذا أمسك وحبس .
ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ . [الكهف: ٢٨] . أي : احبس نفسك معهم .

فالصبر : حبس النفس عن الجزع والتسخط . وحبس اللسان عن الشكوى . وحبس الجوارح عن التشويش .

وهو ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله . وصبر عن معصية الله . وصبر على امتحان الله .

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه. **وسمعتُ** شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الحب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس. ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية. وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته. وغريباً. والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة. وذات منصب. وهي سيدة. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها؛ صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الحب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول^(١): الصبر على أداء الطاعات؛ أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل. فإن مصلحة الطاعة؛ أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة؛ أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. **وله** - رحمه الله - في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً. ليس هذا موضع ذكرها. انتهى.

(٢) فصل

في هديه ﷺ في علاج حر المعصية وحزنها

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ. وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. [البقرة: ١٥٥، ١٥٧].

(٢) (٢) ٢٦٤ زاد المعاد ج-٣.

(١) أي: ابن تيمية.

وفي المسند وصحيح مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: عن أم سلمة، عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها». وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصائب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنها تتضمن أصليين عظيمين. وإذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك الله عز وجل حقيقة. وقد جعله عند العبد عارية. فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

وأيضاً: فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده. وملك العبد له نعمة معارة في زمن يسير.

وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضاً: فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي لا تصرف الملاك؛ ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكة الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق. ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويحيى ربه فرداً، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة. ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّلَه ونهايته فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَفَاتِكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به. فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له - إن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب.

(١) **وقد** وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. [البقرة: ١٥٧] وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم.

وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه.

وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

(٢) **وقال** عبدالله بن المبارك: أخبرنا عبدالله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار: أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر.

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكة بما يريد.

وقوله: راجياً به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة.

وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أي: ليس الصبر بالتجلد، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر، فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]. قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو.

وكان شمر إذا عزي مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك.

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبدالله بن عمر بيده سوط، وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر، لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش: أما والذي لا خلد إلا لوجهه، ومن ليس في العز المنيع له كفؤاً، لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه، لقد يجني من غبه الثمر الحلو، قال: وانشدني عمرو بن بكير:

صبرت فكان الصبر خير مغبة وهل جزع يجدي علي فأجزع
ملكتم دموع العين حتى رددتها إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

(١) فائدة

قوله: الصلاة من الله بمعنى الرحمة؛ باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾.

[البقرة: ١٥٧]

الثاني: أن سؤال الرحمة تشريع لكل مسلم، والصلاة تختص بالنبى ﷺ، وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن دعوت تعدى باللام وصليت لا تعدى إلا بعلی، ودعا المعدى بعلی ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعواً ومدعواً له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك، لا تقول: صليت الله عليك ولا لك؛ فدل على أنه ليس بمعناه. فأی تباین أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق فأياك والإخلاد إلى أرضه.

ورأيت لأبي القاسم السهيلي كلاماً حسناً في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه قال:

(معنى الصلاة) اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف؛ إلا أن الحنو والعطف يكون محسوساً ومعقولاً، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله وينفي عنه ما يتقدس عنه. كما أن العلو محسوس ومعقول.

فالمحسوس منه صفات الأجسام.

والمعقول منه صفة ذي الجلال والإكرام. وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدس عن مشابهة الأجسام ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة.

وإذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا. قال الشاعر:

وما زلت في لينى له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه؛ انعطف على المرحوم وانثنى عليه.

ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم، وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد؛ فهي متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد؛ إلا أنها في معنى الدعاء. والرحمة صلاة معقولة أي انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة، ولذلك تعدت كلها بعلى واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجوز صليت على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعاً إليه إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم ولا ينعطف عليه.

الله^(١) سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه

من الوزر مثل أوزار من اتبعه ؛ لأن اتباعهم له تولد عن فعله ؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة ، وقد قال تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ . [النحل : ٢٥] . وقال تعالى : ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ . [العنكبوت : ١٣] .

فإن قيل : فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله ، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره ؟ .

قيل : التوبة منه بالندم عليه ، وعدم إجابة دواعيه وموجباته ، وحبس النفس عن ذلك .

فإن كان المتولد متعلقاً بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان ؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة ، وأن الهدى في ضده ، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى ؛ ليضلوا الناس بذلك ؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمونهم إياه فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . [البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠] .

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم ؛ إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين ، وتحيزهم ، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول ، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة ؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم ، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين ، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة . فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان .

^(١) قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ . [البقرة : ١٦٥] .

وأصح القولين أن المعنى : يحبونهم كما يحبون الله . وسوا بين الله وبين أندادهم في الحب .

ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ . فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره ، وأما المشركون فلم يخلصوه لله .

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهي أول دعوة الرسل. وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة؛ اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحسينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحي السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام؛ ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد؛ فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره؛ ولأجلها خلقت الجنة والنار: فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لأهلتهم ﴿تَاللَّهِ إِنَّا كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة: أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها...

^(١) **فإذا** عُرف ذلك، فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوه الذي يكمل بحصوله له. فتحرك محب الرحمن، ومحب القرآن، ومحب العلم والإيمان، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصُّلبان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان. فتثير من كل قلب حركة إلى محبوه من هذه الأشياء. فيتحرك عند ذكر محبوه منها دون غيره. ولهذا تجد محب النسوان والصبيان، ومحب قرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتى إذا ذكر له محبوه اهتز له ورباً، وتحرك باطنه وظاهره شوقاً إليه وطرباً لذكره.

فكل هذه المحاب باطلة مُضْمَحَلَّة سوى محبة الله وما والاها: من محبة رسوله،

وكتابه، ودينه، وأوليائه. فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به، وفضلها على سائر المحاب كفضل من تعلقت به على ما سواه. وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم؛ لم تنقطع أسبابها. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦].

قال عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المودة». وقال مجاهد: «تواصلهم في الدنيا» وقال الضحاك: «يعني تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار». وقال أبو صالح: «الأعمال».

والكل حق. فإن الأسباب؛ هي الوصل التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها.

وأما أسباب الموحدين المخلصين لله؛ فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم. فإن السبب تبع لغايته في البقاء والانقطاع.

(١) قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦]. فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها. وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها.

وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا: من اضمحلال السعي والعلم والكد والخدمة، التي يفعلها العبد: لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا» فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتشرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، [البقرة: ١٦٧]. ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده؛ فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم، والموحد حوالته على الملىء الكريم، فيابعد ما بين الحالتين.

^(١)والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك به، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل. وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الآية. [البقرة: ١٣٠]. ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله الإشراف مع الله في المحبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه؛ فيتخذ الأنداد من دونه. يحبهم كحب الله.

وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له؛ كانت أشد من محبة أولئك. والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفعياً غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، بالإنكار فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. [السجدة: ٤].

وقال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ . [الأنعام : ٥١] .

وقال في الأفراد : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ؟ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ . [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . [الجاثية : ١٠] .

فإذا وإلى العبد ربه وحده واتخذ له ولياً من دون أن يتخذ أولئك الذين يسمون شفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله ؛ بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله ؛ فهذا لون وذاك لون . والشفاعة الشركية الباطلة لون . والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون . وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة ؛ بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها . فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء ؛ لا يتم الإيمان إلا بها ؛ إذ محبته من محبة الله . وكذلك كل حُب في الله والله .

كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» . **وفي** لفظ في الصحيحين : «لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» .

وفي الحديث الذي في السنن : «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله ؛ فقد استكمل الإيمان» .

وفي حديث آخر : «ما تحابَّ رجلان في الله ؛ إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه» . فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

فصل

وهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها. وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله . ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه . فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني: محبة ما يحب الله . وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر . وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدّهم فيها .

الثالث: الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب الله ، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله .

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشريكية ، وكل من أحب شيئاً مع الله : لا لله ، ولا من أجله ؛ ولا فيه ؛ فقد اتخذ نداءً من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية . وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه : كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تُذم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ . [المنافقون : ٩] .

وقال تعالى : ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ . [النور : ٣٧] .
(١) ثم الخلّة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها ؛ بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوه ، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد كما قال ﷺ : «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» .

وفي الصحيح عنه ﷺ : «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صاحبكم خليل الله» .

وفي حديث آخر : «إني أبرأ إلى كل خليل من خلتي» .

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة ؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ،

(١) الخلّة : بضم الخاء المحبة ، والصداقة التي تخللت القلب .

ولكن المقصود ذبحه من قلبه ؛ ليخلص القلب للرب . فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال ، وقدم محبة الله على محبة ولده ؛ حصل المقصود فرفع الذبيح وفدي بذبح عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقي شريعة الفداء . وكما أبقي استحباب الصدقة عند المناجاة^(١) . وكما أبقي الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال : « لا يبدل القول لدي خمس في الفعل وخمسون في الأجر » .

(٢) **المحبة** ثلاثة أقسام : محبة الله ، والمحبة له وفيه ، والمحبة معه . فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها ، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه ، ويوصل إلى رضاه وقربه ، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه ويتوصل به إلى حبه وقربه ؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشريكية ، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ . [البقرة : ١٦٥] .

وأصل الشرك الذي لا يغفره الله ؛ هو الشرك في هذه المحبة ، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض ، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله ، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألهوها وقالوا : هذه آلهة صغاراً تقربنا إلى الإله الأعظم . ففرق بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعاً والمحبة [معه] شركاً . وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك .

ويحكي أن الفضيل دخل على ابنته في مرضها ، فقالت له : يا أبت هل تحبني ؟ قال : نعم . قالت : لا إله إلا الله ! والله ما كنت أظن فيك هذا ، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً ، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لي منك الرحمة ، أي : يكون حبك لي حباً رحمة جعلها الله في قلب الوالد لولده لا محبة مع الله . فله حق من المحبة لا يشركه

(١) التي كان مأموراً بها في قوله تعالى في سورة المجادلة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ . ﴾ الآية [المجادلة : ١٢] .

فيه غيره، وأظلم الظلم وضع تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب؛ فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥]. فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا نذ في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥]. وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥]. فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله؛ ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُوموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نَسْوِيكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووههم برب العالمين في الخلق والربوبية؛ وإنما سووههم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

يَعْدِلُونَ ﴿١﴾. [الأنعام: ١]. أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء . بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي. إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال. نحو: سألت بكذا، أي: عنه. كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت. ونحو ذلك.

فصل^(١)

في خاتمة لهذا الباب، هي الغاية المطلوبة، وجميع ما تقدم كالوسيلة إليها. وهي: أن محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه؛ أصل الدين وأصل أعماله وإراداته.

كما أن معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أجل علوم الدين كلها، فمعرفة أجل المعارف.

وإرادة وجهه أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً، وما كان المشركون».

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين. وليس لله دين سواه. ولا يقبل من أحد ديناً غيره.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [آل عمران: ٨٥].

فمحبة تعالى، بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقاً مثل

ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل.
قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ،
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان؛ حتى يكون عبد الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظنُّ بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجنَّ والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ وخافة.

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه. والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة. فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله؛ فهي عذاب للمحب ووبال عليه. **وما** يحصل له بها من التآلم؛ أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعد عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكرهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك. وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورزقها، ومميتها ومحيتها. فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألد، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك؛ فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك؛ أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله؛ أعلى من كل لذة.

كما أخبر بعض الواجدین عن حاله بقوله : «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب» .

وقال آخر : «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طرباً بأنسه بالله وحبه له» .

وقال آخر : «مساكينُ أهل الغفلة ، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها» .

وقال آخر : «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف» .

وَوُجِدَانُ هذه الأمور وذوقها ؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه . وكلما كانت المحبة أكمل ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر ؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى .

فَمَنْ كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته ؛ أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب ؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه . . .

(١) قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ . [البقرة : ١٧٠] . فهذه مناظرة

حكاهها الله بين المسلمين والكفار ، فإن الكفار لجؤوا إلى تقليد الآباء وظنوا أنه

منجيهم ، لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا

يعقلون شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ . [البقرة : ١٧٠] .

وفي موضع آخر : ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ . [الفان : ٢١] .

وفي موضع آخر : ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ

آبَاءَكُمْ﴾ . [الزخرف : ٢٤] .

فَأخْبِر عن بطلان هذه الحجة وأنها لا تنجي من عذاب الله ؛ لأن تقليد من

ليس عنده علم ولا هدى من الله ضلالة وسفه .

والمعنى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم ، ولو كانوا لا

علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضاً . وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا

في اتباع الحق ، إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته ؛ لأنه لو كان

مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له ، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، فلو

كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئكم به . فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئكم بأهدى مما وجدتموهم عليه ، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئكم به .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . [البقرة : ١٧١] . فتضمن هذا المثل ناعقاً ، أي : مُصَوِّتاً بالغنم وغيرها ، ومنعوقاً به وهو الدواب ، ف قيل : الناعق : العابد ، وهو الداعي للصنم ، والصنم هو المنعوق به المدعو ، وإن حال الكافر في دعائه ، كحال من ينعق بما لا يسمعه ، هذا قول طائفة منهم عبدالرحمن بن زيد وغيره .
واستشكل صاحب الكشاف وجماعة معه هذا القول ، وقالوا : قوله : ﴿ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً ﴾ لا يساعد عليه ؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء .

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة :

أحدها : أن «إلا» زائدة ، والمعنى : بما لا يسمع دُعاء ونداء ؛ قالوا : وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر :

* حَرَّاجِيحُ مَا تَنْفَكُ إِلَّا مُنَاخَةً (٢) *

أي ما تنفك مُنَاخَةً ، وهذا جواب فاسد ، فإن «إلا» لا تزداد في الكلام .

الجواب الثاني : أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو .

الجواب الثالث : أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه

دعاءهم كمثل الناعق بغنمه ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه هو في دعاء ونداء ، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء .

وقيل : المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من

الصوت ؛ فالراعي هو داعي الكفار ، والكفار هم البهائم المنعوق بها .

قال سيبويه : المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق

والمنعوق به ؛ وعلى قوله فيكون المعنى : ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها .

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق ، فإن

(١) ١٨٢ أعلام جـ ١ .

(٢) هذا صدر بيت لذي الرمة يصف إبلاً ، وعجزه قوله : * على الخسف أو نرمي بها بلداً قفراً * .

جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي يَنْعُقُ بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المَفْرَق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعائهم إلى الهدى بمنزلة النَعَق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق، والله أعلم.

(١) وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنَدَاءً صَمُّ بِكُمْ عَمِي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى، ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان. (٢) قد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾. إلى قوله - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة. ثم أخبر سبحانه عن هذه إنها هي خصال التقوى بعينها فقال ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

(٣) **قوله: «كَيْفَ تَرَدُّعُونَ عَنْ سَفْكِ الدَّمِ بِسَفْكِهِ، وَإِنْ ذَلِكَ كَازَالَةِ النِّجَاسَةِ بِالنِّجَاسَةِ»** سؤال في غاية الوهن والفساد، وأول ما يقال لسائله: هل ترى رَدْعَ المفسدين والجناة عن فسادهم وجنایاتهم وكَفَّ عُدْوَانِهِمْ مُسْتَحْسَنًا في العقول موافقا لمصالح العباد أو لا تراه كذلك؟

فإن قال «لا أراه كذلك» كفانا مؤنة جوابه بإقراره على نفسه بمخالفة جميع

طوائف بني آدم على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وآرائهم، ولولا عقوبة الجناة والمفسدين لأهلك الناس بعضهم بعضاً، وفسد نظام العالم، وصارت حال الدوابّ والأنعام والوحوش أحسن من حال بني آدم. **وإن قال:** «بل لا تتم المصلحة إلا بذلك».

قيل له: من المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمؤلم يردعهم، ويجعل الجاني نكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، وعند هذا فلا بد من إفساد شيء منه بحسب جريمته: في الكبر والصغر، والقلة والكثرة.

ومن المعلوم ببذائه العقول: أن التسوية في العقوبات مع تفاوت الجرائم غير مستحسن؛ بل منافع للحكمة والمصلحة؛ فإنه إن ساوى بينهم في أدنى العقوبات لم تحصل مصلحة الزجر. وإن ساوى بينها في أعظمها كان خلاف الرحمة والحكمة؛ إذ لا يليق أن يُقتل بالنظرة والقبلة ويُقطع بسرقة الحبة والدينار.

وكذلك التفاوت بين العقوبات مع استواء الجرائم قبيح في الفطر والعقول، وكلاهما تأباه حكمة الرب تعالى وعذله وإحسانه إلى خلقه، فأوقع العقوبة تارة بإتلاف النفس إذا انتهت الجناية في عظمها إلى غاية القبح: كالجناية على النفس أو الدين، أو الجناية التي ضررها عام؛ فالمفسدة التي في هذه العقوبة خاصة، والمصلحة الحاصلة بها أضعاف أضعاف تلك المفسدة، كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ١٧٩].

فلولا القصاص لفسد العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضاً ابتداء واستيفاء، فكأن في القصاص دفعا لمفسدة التجري على الدماء بالجناية وبالإستيفاء. وقد قالت العرب في جاهليتها:

«القتل أنفى للقتل» «وبسفك الدماء تحقن الدماء».

أفلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طهارة، وإذا لم يكن بد من موت القاتل ومن استحق القتل، فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وأجلته، والموت به أسرع الموتات وأوحاها وأقلها ألماً، فموته به مصلحة له ولأولياء القتل ولعموم الناس، وجرى ذلك مجرى إتلاف الحيوان بذبحه لمصلحة الأدمي، فإنه حسن، وإن كان في ذبحه إضرار بالحيوان؛ فالمصالح المربوطة على ذبحه أضعاف

أضعاف مفسدة إتلافه .

ثم هذا السؤال الفاسد؛ يظهر فسادُه وبطلانه بالموت الذي حتمه الله على عباده وساوى فيه بين جميعهم، ولولاهُ لما هُنا العيش، ولا وسعتهم الأرزاق، ولضاقَت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطرقات، وفي مفارقة البغيض من اللذة والراحة ما في مُواصلة الحبيب، والموت مخلص للحَي، والموت مريح لكل منهما من صاحبه، ومخرج من دار الابتلاء والامتحان [و] بابٌ للدخول في دار الحيوان^(١)

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه أبر بنا من كل بر وأعطف يعجل تخلص النفوس من الأذى ويدني إلى الدار التي هي أشرف فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طهرة للمقتول، وحياة للنوع الإنساني، وتشفٌ للمظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول؛ فسبحان من تنزهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه من اقتراح العقول الفاسدة والآراء الضالة الجائرة.

وأما قوله: «لو كان ذلك مستحسنًا في العقول؛ لاستحسن في تحريق ثوبه وتخريب داره وذبح حيوانه مقابلته بمثله» .

فالجواب عن هذا أن مفسدة تلك الجنايات تندفع بتغريمه نظير ما أتلفه عليه؛ فإن المثل يسدُّ مسد المثل من كل وجه؛ فتصير المقابلة مفسدة محضة، كما ليس له أن يقتل ابنه أو غلامه مقابلة لقتله هو ابنه أو غلامه، فإن هذا شرعُ الظالمين المعتدين الذي تنزه عنه شريعة أحكم الحاكمين.

على أن للمقابلة في إتلاف المال بمثل فعله مساعًا في الاجتهاد.

وقد ذهب إليه بعض أهل العلم كما تقدم الإشارة إليه في عقوبة الكفار بإفساد أموالهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، أو كان يغيظهم، وهذا بخلاف قتل عبده إذا قتل عبده أو قتل فرسه أو عقر فرسه، فإن ذلك ظلم لغير مستحق.

ولكن السنة اقتضت التضمين بالمثل، لا إتلاف النظير، كما غرم النبي ﷺ إحدى زوجتيه التي كسرت إناء صاحبته إناءً بدله، وقال: «إناء بإناء» ولا ريب أن هذا أقل فسادًا، وأصلح للجهتين؛ لأن المتلف اله إذا أخذ نظيره صار كمن

(١) الحيوان هنا: الحياة. ومنه قوله: ﴿وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لم يَفُتْ عليه شيء، وانتفع بما أخذه عوض ماله، فإذا مكناه من إتلافه كان زيادة في إضاعة المال، وما يراد من التَّشْفِي وإذاقة الجاني ألم الإِتْلَاف فحاصل بِالْغَرَم غالباً، ولا التفات إلى الصور النادرة التي لا يتضرر الجاني فيها بالغرم، ولا شك أن هذا أليق بالعقل، وأبلغ في الصلاح، وأوفق للحكمة.

وأيضاً فإنه لو شرع القصاص في الأموال ردعاً للجاني؛ لبقى جانب المجنى عليه غير مراعى، بل يبقى متألماً موتوراً غير مجبور، والشرية إنما جاءت بجبر هذا وردع هذا. **فإن قيل:** فخيروا المجنى عليه بين أن يغرم الجاني أو يتلف عليه نظير ما أتلفه هو، كما خيرتموه في الجناية على طرفه، وخيرتم أولياء القتل بين إتلاف الجاني النظر وبين أخذ الدية.

قيل: لا مصلحة في ذلك للجاني ولا للمجنى عليه ولا لسائر الناس، وإنما هو زيادة فساد، لا مصلحة فيه بمجرد التشفي، ويكفي تغريمه وتعزيره في التشفي، والفرق بين الأموال والدماء في ذلك ظاهر.

فإن الجناية على النفوس والأعضاء؛ تُدْخِل من الغيظ والحقد والعداوة على المجنى عليه وأوليائه ما لا تدخله جناية المال، ويدخل عليهم من الغضاضة والعار واحتمال الضيم والحمية والتحرق لأخذ الثأر؛ ما لا يجبره المال أبداً.

حتى إن أولادهم وأعقابهم ليعتروا بذلك، ولأولياء القتل من القصد في القصاص وإذاقة الجاني وأوليائه ما أذاقه للمجنى عليه وأوليائه؛ ما ليس لمن حرق ثوبه أو عُقِرَت فرسه، والمجنى عليه موتور هو وأوليائه، فإن لم يوتر الجاني وأوليائه ويجرعوا من الألم والغيظ ما تجرعه الأول لم يكن عدلاً.

وقد كانت العرب في جاهليتها؛ تعيب على مَنْ يأخذ الدية ويرضى بها من دَرَك ثأره وشفاء غيظه، كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل: **وإن الذي أصبَحْتُمْ تحلبونه دَمٌ، غَيْرَ أن اللَوْنَ ليس بأشقرا**

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلاً: **ألا أبلغ بني حجر بن وهب بأن التمر حُلُوٌّ في الشتاء**

وقال آخر: **إذا صُبَّ ما في الوطْب فاعلم بأنه دَمُ الشيخ فاشرب من دم الشيخ أودع**

وقال آخر:

خليلان مختلف شَكَلنا أريدُ العلاء ويبغي السمن
أريد دماء بني مالك ورأيي المعلى بياض اللبن
وهذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بها هو خير منه وأصلح في المعاش
والمعاد: من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي، وبين أخذ الدية؛ فإن
القصد به أن العرب لم تكن تعير مَنْ أخذ بدل ماله، ولم تعده ضعفاً ولا عجزاً
ألبته، بخلاف مَنْ أخذ بدل دم وليه، فما سَوَّى الله بين الأمرين في طبع ولا عقل
ولا شرع، والإنسان قد يخرق ثوبه عند الغيظ، ويذبح ماشيته، ويتلف ماله، فلا
يلحقه في ذلك من المشقة والغيظ والازدراء به؛ ما يلحق من قتل نفسه أو جَدَع
أنفه أو قَلَعَ عينه.

(١) الوجه الرابع والخمسون: أن قولكم إذا قتل إنسان إنساناً عرض للعقل
ها هنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوِّي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه
لمصلحة الجاني، فبهت للعقل وكذب عليه؛ فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن
الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل، وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يعلم عقل
صحيح يسوى بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين
الجنة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجنة
والبغاة والمعتدين؟!

فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود. وقد نبه تعالى على ذلك بقوله:
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن إعدام هذه البنية
الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثير لمفسدة
القتل، فلاية حكمة صدر هذا من وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته

العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصاً بمن قتله؛ كف عن القتل وارتدع وأثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته.

فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه، ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل؛ بل من حيث كونه قصاصاً يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غير، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم.

فصدر الآية بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضرره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل.

والقصاص في اللغة: المائلة. وحقيقته راجعة إلى الاتباع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِيهِ﴾. [القصص: ١١]. أي: اتبعي أثره.

ومنه قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. [الكهف: ٦٤]. أي: يقصان الأثر

ويتبعانه.

ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصاً؛ لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص.

وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر

والمعقول في كتاب تهذيب السنن.

ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخيماً لشأنها، وليس المراد حياة ما؛ بل المعنى:

أن في القصاص؛ حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل، والتذكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾. [آل عمران: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. [التوبة: ٧٢]. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. [النجم: ٤].

ثم خص أولى الألباب وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل» ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته.

الوجه الخامس والخمسون: قولكم: إن القصاص إتلاف، بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان، ولا يحيا الأول بقتل الثاني؛ ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين، وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم، وفي القصاص استهلاك محقق.

فيقال: هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلاناً؛ فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن، ونفي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به، وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلماً وعدواناً بغير حق، والقتل قصاصاً وجزاء بحق؟!.

ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع؛ لاستوائهما في صورة العقد، ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة، ومدعي ذلك في غاية المكابرة.

وهل يدل استواء السجود لله، والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض؛ على أنها سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه؟! ويكفي في فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان، وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر.

والفرق بين هذين؛ مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأطهر، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها. فما تعارض في عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثر ويختاره؟

وقولكم: إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو، لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم، في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه

وخراب للعالم فأنى يستويان؟! أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإلتلاف الحسن وتركه؟!

وقولكم: «لا يحيا الأول بقتل الثاني» قلنا: يحيا به عدد كثير من الناس؛ إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضاً، فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾. [البقرة: ١٧٩]

لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب.

فأين هذه الشريعة، وهذه الحكمة وهذه المصلحة؛ من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال: قتل الجاني إلتلاف بأزاء إلتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحاً، لولا الشرع؟! فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به.

وقولكم: فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين.

فيقال: لو أعطيتم رتب المصالح والمفاسد حقها؛ لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد، فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة، وعلى ذلك قام العالم وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إلتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة، فمن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه.

والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إلتلاف جزء لسلامة كل: كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه، كقطع العروق وبط الخراج ونحوه.

فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا: هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم، لفسد الجسد جملة، ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد.

الوجه السادس والخمسون: قولكم: إن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر متوهم، كلام بين فساده؛ بل هو أمر متحقق وقوعه عادة، ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم، والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهمه العدو فقال: لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم: إنه مفسدة متحققة وأما استيلائهم على بلادنا وسيبهم

ذرائرنا وقتل مقاتلتنا فموهوم . فياليت شعري من الواهم المخطيء في وهمه؟! **ونظيره** أيضاً: أن الرجل إذا تبيغ به الدم وتضرر إلى إخراجهِ، لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه؛ لأنه ألم محقق لا موهوم، ولو اطرده هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع. والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفسادهما مبني على هذا الذي سميتموه أُنتم موهوماً، فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة، وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يتحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم، فلو اطرده هذا القياس الفاسد وقال: السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية.

وكذلك عمال الآخرة لو قالوا: تعب العمل ومشقته أمر متحقق، وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة؛ لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر.

ومن ها هنا قيل: إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة.

الوجه السابع والخمسون: قولكم: ويعارضه معنى ثالث وراءهما، فيفكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراء مجرد الإنسانية: من العقل والبلوغ، والعلم والجهل، والكمال والنقص، والقراية والأجنبية فيتحير العقل كل التحير. فلا بد إذاً من شارع: يفصل هذه الخطة، ويعين قانوناً يطرد عليه أمر الأمة، ويستقيم عليه مصالحهم.

فيقال: لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه، فإذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ إلى وجه حسن مأموره وقبح منهيهِ؛ فسرتة الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه، فهذا مما لا ينكر، وهذا الذي قلنا فيه: «إن الشرائع تأتي بمجارات العقول لا بمحالات العقول».

ونحن لم ندع ولا عاقل قط: أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة؛ بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به.

إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم: أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب

القصاص شروطاً لا يهتدي العقل إليها، وأي شيء يلزم من هذا، وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم؟ .

وقولكم: إن هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم: إما غفلة عن الشروط المعارضة، وإما اصطلاح طارٍ سيم فيه ما لا يهتدي العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة .

فيا لله العجب! أي معارضة ها هنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القتل قصاصاً، وانتظامه للعالم؟ وتوقفاً في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره، أم يكفي بمجردة؟ وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه، وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتى اهتدى إليه بنور الشريعة . . .

(١) فصل

وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه؛ ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف على كل جانٍ كل عضو عَصَاهُ به، فيشرع: قَلَعَ عَيْنَ مَنْ نَظَرَ إِلَى الْمُحْرَمِ، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، وَيَدَ مَنْ لَطَمَ غَيْرَهُ عُذْوَانًا. ولا خفاء بما في هذا من الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها.

وأسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة؛ تأبى ذلك. وليس مقصود الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتل صاحب الجريمة فقط، وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كَفِّ عُدْوَانِهِ أَقْرَبَ، وأن يعتبر به غيره، وأن يُجَدِّثَ لَهُ مَا يَذُوقُهُ مِنَ الْأَلَمِ تَوْبَةً نَصُوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح.

ثم إن في حَدِّ السَّرْقَةِ معنى آخر، وهو: أن السَّرْقَةَ إنما تقع من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمها، ولهذا يقولون: «فلان ينظر إلى فلان مُسَارِقَةً» إذا كان ينظر إليه نظرًا خفيًا لا يريد أن يفطن له، والعازم على السَّرْقَةِ مُحْتَفٍ كَاتِمٍ خَائِفٍ أَنْ يَشْعُرَ بِمَكَانِهِ فَيُؤْخَذَ بِهِ، ثم هو مستعد للهَرَبِ والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء، وَالْيَدَانِ لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحَيْنِ لِلطَّائِرِ، ولهذا يقال: «وَصَلَّتْ جَنَاحَ فُلَانٍ»، إذا رأيته يسير منفردًا فانضممت إليه لتصبحه، فعوقب السارق بقطع اليد؛ قَصًّا لْجَنَاحِهِ، وتسهيلًا لأخذه إن عاود السَّرْقَةَ، فإذا فعل به هذا في أول مرة؛ بقي مقصوص أحد الجناحين ضعيفًا في العَدُوِّ، ثم يقطع في الثانية رجله؛ فيزداد ضعفًا في عدوه فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع يده الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحما على وَضَمٍ؛ فيستريح ويريح.

وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب،

فعوقب بما يعم بدنه : من الجلد مرةً ، والقتل بالحجارة مرة .

ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي ؛ لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يَبْطُل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين ، وفي هذا هلاك الحرث والنسل ، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك ؛ فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله مَنْ يَهْمُ به ؛ فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة .

ثم إن للزاني حالتين :

أحدهما : أن يكون مُحْصَنًا قد تزوج ، فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة ، واستغنى به عنها ، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنى ، فزال عذره من جميع الوجوه في تحطي ذلك إلى مُواقعة الحرام .

الثانية : أن يكون بكرًا ، لم يعلم ما علمه المُحْصَنُ ولا عمل ما عمله ؛ فحصل له من العذر بعض ما أوجب له التخفيف ؛ فحقن دمه ، وزجر بإيلاام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد ؛ ردعًا عن المعاودة للاستمتاع بالحرام ، وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال . وهذا في غاية الحكمة والمصلحة ، جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه . وأين هذا مع قَطْع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان ؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النسل وقطعه ؛ عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم ، وفيه من المفساد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر ، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة ، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه ؛ فكان من العدل أن تعمه العقوبة ، ثم إنه غير متصور في حق المرأة ، وكلاهما زان ؛ فلا بد أن يستويا في العقوبة ، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين .

وتأمل كيف جاء إتلاف النفوس ؛ في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا وأشدّها فسادًا للعالم ، وهي : الكفر الأصلي والطارئ ، والقتل ، وزنى المحصن .
وإذا تأمل العاقل فساد الوجود رآه من هذه الجهات الثلاث ، وهذه هي الثلاث التي أجاب النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود بها حيث قال له : يا رسول الله ، أيُّ الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلْقَكَ » ، قال : قلت : ثم أيُّ ؟ قال :

«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك» فأَنْزَلَ اللهُ عز وجل تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية. [الفرقان: ٦٨].

ثم لما كان سرقة الأموال تلى ذلك في الضرر وهو دونه، جعل عقوبته قطع الطرف.

ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد.

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك، جعل حده دون جد هذه الجنايات كلها.

ثم لما كانت مفسدات الجرائم بعد متفاوتة غير منضبطة: في الشدة والضعف، والقلة والكثرة، وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة، جعلت عقوباتها راجعة إلى اجتهد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سَوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ لم يفقه حكمة الشرع، واختلفت عليه أقوال الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين وكثير من النصوص، ورأى عمر قد زاد في حد الخمر على أربعين، والنبي ﷺ إنما جلد أربعين، وعَزَّزَ بأمور لم يعزرها النبي ﷺ، وأنفذ على الناس أشياء عفا عنها النبي ﷺ؛ فيظن ذلك تعارضًا وتناقضًا، وإنما أتى من قصور علمه وفهمه، وبالله التوفيق.

وأما قوله: «وجعل حد الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا ريب أن الشارع فَرَّقَ بين الحرِّ والعبد في أحكام، وسَوَّى بينهما في أحكام فسوَّى بينهما في الإيمان والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم لاستوائهما في سببهما، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج والزكاة والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببهما، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبح من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن جعله مالكًا لا مملوكًا، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عَوَّضَ الله عنها من المباحات، فقابل

النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية؛ فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه مَنْ هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء مَنْ عَصَاهُمْ مِنْ خَوَاصِّهِمْ وَحَشَمَهُمْ وَمَنْ هُوَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ، وَمِنْ عَصَاهُمْ مِنَ الْأَطْرَافِ وَالْبُعْدَاءِ؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعاً بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في النكاح والطلاق والعدة، إظهاراً لشرف الحرية وخطورها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاهها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيدته فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجراً، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

...^(١) ومن ذلك الماثلة في القصاص في الجنايات الثلاث: على النفوس والأموال

والأعراض؛ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: هل يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه؟

فإن كان الفعل محرماً لحق الله: كاللواط وتجريعه الخمر لم يفعل به كما فعل اتفاقاً.

وإن كان غير ذلك: كتحريقه بالنار وإلقائه في الماء، ورَضُّ رأسه بالحجر، ومنعه من الطعام والشراب؛ حتى يموت، فهالك والشافعي وأحمد في إحدى

الروايات عنه ؛ يفعلون به كما فعل ، ولا فرق بين الجرح المزهق وغيره .

وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه يقولان : لا يقتل إلا بالسيف في العنق خاصة .
وأحمد في رواية ثالثة يقول : إن كان الجرح مزهقاً فعل به كما فعل ، وإلا قتل بالسيف .

وفي رواية رابعة يقول : إن كان مُزْهَقاً أو مُوجِباً لِلْقَوْدِ بنفسه لو انفرد فعل به كما فعل ، وإن كان غير ذلك قتل بالسيف .

والكتاب والميزان مع القول الأول ، وبه جاءت السنة ، فإن النبي ﷺ ، رَضَّ رأس اليهودي بين حجرين كما فعل بالجارية ، وليس هذا قتلاً لنقضه العهد ، لأن ناقض العهد إنما يقتل بالسيف في العنق .

وفي أثر مرفوع : « مَنْ حَرَّقَ حَرَقْنَاهُ ، وَمَنْ غَرَّقَ غَرَقْنَا » .

وحديث : « لَا قَوْدَ إِلَّا بِالسَّيْفِ » قال الإمام أحمد : ليس إسناده بجيد ، والثابت عن الصحابة أنه يفعل به كما فعل ، فقد اتفق على ذلك : الكتاب والسنة والقياس وآثار الصحابة ، واسمُ القصاص يقتضيه لأنه يستلزم المماثلة .

المسألة الثانية : إتلاف المال ؛ فإن كان ماله حرمة كالحيوان والعبيد ؛ فليس له أن يتلف ماله كما أتلف ماله ، وإن لم تكن له حرمة كالثوب يشقه والإناء يكسره ؛ فالمشهور أنه ليس له أن يُتْلَفَ عليه نظير ما أتلفه ، بل له القيمة أو المثل كما تقدم .

والقياس يقتضي أن له أن يفعل بنظير ما أتلفه عليه كما فعله الجاني به ؛ فيشق ثوبه كما شق ثوبه ، ويكسر عصاه كما كسر عصاه إذا كانا متساويين ، وهذا من العدل ، وليس مع من منعه نص قياس ولا إجماع ! فإن هذا ليس بحرام لحق الله ، وليست حرمة المال أعظم من حرمة النفوس والأطراف ، وإذا مكَّنه الشارعُ أن يُتْلَفَ طرفه بطرفه فتمكينه من إتلاف ماله في مقابلة ماله ؛ هو أولى وأحرى ، وإن حكمة القصاص من التشفي ودرك الغيظ ؛ لا تحصل إلا بذلك ، ولأنه قد يكون له غرض في أذاه وإتلاف ثيابه ويعطيه قيمتها ، ولا يشق ذلك عليه ؛ لكثرة ماله فيشفي نفسه منه بذلك ، ويبقى المجني عليه بغبنه وغيظه ، فكيف يقع إعطاؤه القيمة من شفاء غيظه ودرك ثأره وبرد قلبه وإذاقة الجاني من الأذى ما ذاق هو ؟ فحكمة هذه الشريعة الكاملة الباهرة وقياسها معاً ؛ أبى ذلك وقوله : ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ ، [البقرة : ١٩٤] . وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، [البقرة : ١٩٤] . وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، [البقرة : ١٩٤] .

مِثْلَهَا [الشورى: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. يقتضي جواز ذلك، وقد صرح الفقهاء بجواز إحراق زروع الكفار وقطع أشجارهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، وهذا عين المسألة، وقد أقر الله سبحانه الصحابة على قَطْع نخل اليهود؛ لما فيه من خزيهم، وهذا يدل على أنه سبحانه يحب خزي الجاني الظالم ويشرعه.

وإذا جاز تحريق متاع الغالِّ لكونه تعدى على المسلمين في خيانتهم في شيء من الغنيمة؛ فلأن يحرق ماله إذا حرق مال المسلم المعصوم؛ أولى وأحرى.

وإذا شرعت العقوبة المالية في حق الله الذي مسامحته به أكثر من استيفائه؛ فلأن تشرع في حق العبد الشحيح؛ أولى وأحرى.

ولأن الله سبحانه شرع القصاص؛ زَجْرًا للنفوس عن العدوان، وكان من الممكن أن يوجب الدية استدراكًا لظلامة المجني عليه بالمال، ولكن ما شرَّعه أكمل وأصلح للعباد، وأشفى لغيظ المجني عليه، وأحفظ للنفوس والأطراف، وإلا فَمَنْ كان في نفسه من الآخر من قتله أو قطع طرفه؛ قَتَلَهُ أو قَطَعَ طَرَفَهُ وأعطى ديته، والحكمة والرحمة والمصلحة تأبى ذلك، وهذا بعينه موجود في العدوان على المال.

فإن قيل: فهذا ينجر بأن يعطيه نظير ما أتلفه عليه.

قيل: إذا رضي المجنى عليه بذلك فهو كما لورضي بدية طرفه، فهذا هو محض القياس، وبه قال الأحمدان: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية، قال في رواية موسى بن سعيد: وصاحب الشيء يخير، إن شاء شق الثوب، وإن شاء أخذ مثله.

المسألة الثالثة: الجناية على العرض، فإن كان حراماً في نفسه كالكذب عليه وقذفه وسَبُّ والديه؛ فليس له أن يفعل به كما فعل به اتفاقاً.

وإن سَبَّهُ في نفسه أو سَخِرَ به أو هزأ به أو بال عليه أو بَصَقَ عليه أو دعا عليه؛ فله أن يفعل به نظير ما فعل به متحرراً للعدل.

وكذلك إذا كسعه أو صفعه؛ فله أن يستوفي منه نظير ما فعل به سواء، وهذا أقرب إلى الكتاب والميزان وآثار الصحابة؛ من التعزير المخالف للجنابة جنساً ونوعاً وقدراً وصفة، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على ذلك، فلا عبرة بخلاف مَنْ خالفها.

ففي صحيح البخاري: أن نساء النبي ﷺ، أرسلن زينب بنت جحش إلى

رسول الله ﷺ تكلمه في شأن عائشة، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبّتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم، فتكلمت عائشة ترُدُّ على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: «إنها بنت أبي بكر».

وفي الصحيحين هذه القصة: قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ، زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ - فذكرت الحديث، وقالت: ثم وقعت في، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ، لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشئها حتى أثخت عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ، وتبسم: «إنها ابنة أبي بكر».

وفي لفظ فيهما: «لم أنشئها أن أثختها غلبة».

وقد حكى الله سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. لما قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾. [يوسف: ٧٧]. ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال.

ومن تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيراً جداً، وبالله التوفيق.

وقد سمي الله سبحانه المال خيراً في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله: ﴿إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وأخبر رسول الله ﷺ، أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لانفسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يؤتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ، بقوله: «نعم المال الصالح مع المرء الصالح».

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله؛ يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه ويعطي حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.

وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى.

وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وقال يوسف بن أسباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا؛ أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سبباً لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس، التي هي محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبه والإجابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة؛ وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول قال النبي ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار تعس عبد الدرهم» فذم عبدهما دونهما.

(١) وقاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها: أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات.

فالقصد والنية والاعتقاد؛ يجعل الشيء: حلالاً أو حراماً، وصحيحاً أو فاسداً، وطاعة أو معصية.

كما أن القصد في العبادة؛ يجعلها: واجبة أو مستحبة أو محرمة، أو صحيحة أو فاسدة. ودلائل هذه القاعدة تفوت الحصر.

فمنها قوله تعالى في حق الأزواج إذا طلقوا أزواجهم طلاقاً رجعيّاً: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾. [البقرة: ٢٣١]. وذلك نص في أن الرجعة؛ إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون قصد الضرر.

وقوله في الخلع: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ

به ﴿[البقرة: ٢٢٩]﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ

الله﴾. [البقرة: ٢٣٠].

فبين تعالى أن الخلع المأذون فيه والنكاح المأذون فيه، إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله.

وقال تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَارٍّ﴾. [النساء: ١٢]. فإنما قدم الله الوصية على الميراث إذا لم يقصد بها الموصي الضرار؛ فإن قصده فللورثة إبطالها وعدم تنفيذها.

وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَصَّرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. [البقرة: ١٨٢]. فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته.

وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحًا، وما كان فيه جنف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام، بل قد قال إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: «كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةً شَرْطٍ، كِتَابُ اللَّهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللَّهِ أَثَقُّ» فإنما ينفذ من شروط الواقفين ما كان لله طاعة، وللمكلف مصلحة.

وأما ما كان بضد ذلك فلا حرمة له: كشرط التعزب والترهب المضاد لشرع الله ودينه؛ فإنه تعالى فتح للأمة باب النكاح بكل طريق، وسد عنهم باب السفاح بكل طريق، وهذا الشرط باطلٌ مضادٌ لذلك؛ فإنه يسدُّ على من التزمه باب النكاح، ويفتح له باب الفجور، فإن لوازم البشرية تتقاضاها الطباع أتم تقاضٍ، فإذا سد عنها مشروعها فتحت له ممنوعها ولا بد.

والمقصود: أن الله تعالى رفع الإثم عمن أبطل الوصية الجانفة الآثمة.

وكذلك هو مرفوع عمن أبطل شروط الواقفين التي هي كذلك، فإذا شَرَطَ الواقف القراءة على القبر، كانت القراءة في المسجد؛ أولى وأحب إلى الله ورسوله وأنفع للميت، فلا يجوز تعطيل الأحب إلى الله الأنفع لعبده واعتبار ضده.

وقد رآهم بعضهم الانفصال عن هذا بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر

له باستماعه للقرآن في قبره، وهذا غلط؛ فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته.

ومن ذلك اشتراطه أن يصلي الصلوات الخمس في المسجد الذي بناه على قبره، فإنه شرط باطل لا يجب بل لا يحل الوفاء به، وصلاته في المسجد الذي لم يوضع على قبره أحب إلى الله ورسوله، فكيف يفتي أو يقضي بتعطيل الأحب إلى الله والقيام بالأكره إليه؛ اتباعاً لشرط الواقف الجانف الآثم؟

ومن ذلك أن يشترط عليه إيقاد قنديل على قبره أو بناء مسجد عليه؛ فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله؟ وبالجملته فشروط الواقفين أربعة أقسام:

شروط محرمة في الشرع.

وشروط مكروهة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وشروط تتضمن ترك ما هو أحب إلى الله ورسوله.

وشروط تتضمن فعل ما هو أحب إلى الله تعالى ورسوله.

فالأقسام الثلاثة الأول لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط المتبع

الواجب الاعتبار، وبالله التوفيق.

وقد أبطل النبي ﷺ، هذه الشروط كلها بقوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وما رده رسول الله ﷺ لم يجوز لأحد اعتباره ولا الإلزام به وتنفيذه. ومن تفتن لتفاصيل هذه الجملة التي هي من لوازم الإيمان تخلص بها من آصار وأغلال في الدنيا، وإثم وعقوبة ونقص ثواب في الآخرة. وبالله التوفيق.

...^(١) **والضرار** نوعان: جنف، وإثم. فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد

يضرار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية. وإن أوصى بالثلث فما دون، ولم يعلم أنه قصد الضرار، وجب إمضاؤها.

فإن علم الموصي له أن الموصي إنما أوصى ضراراً؛ لم يحل له الأخذ، ولو اعترف

الموصي أنه إنما أوصى ضراراً؛ لم تجز إعانتة على إمضاء هذه الوصية. **وقد جَوَّزَ سبحانه وتعالى إبطال وصية الجَنَفِ والإِثْمِ، وأن يُصْلِحَ الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.** [البقرة: ١٨٢].

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصي الجَنَفُ أو الإِثْمُ في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه، فأبطل ذلك؛ كان مُصْلِحًا، لا مفسدًا. وليس له أن يُعَيِّنَ الواقف على إمضاء الجنف والإِثْمِ، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به، فإن الشارع قد رَدَّه، وأبطله، فليس له أن يصحح ما رَدَّه الشارع وحرَّمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة. ^(١) **والذي يقضي منه العجب؛ التحيل على مخالفة شرط الواقف وقصده، الذي يقطع بأنه قصده مع ظهور المفسدة. والوقوف مع ظاهر شرطه ولفظه المخالف لقصده والكتاب والسنة ومصلحة الموقوف عليه، بحيث يكون مرضاة الله ورسوله ومصلحة الواقف وزيادة أجره، ومصلحة الموقوف عليه وحصول الفرق به مع كون العمل أحبَّ إلى الله ورسوله، لا يغير شرط الواقف، ويجري مع ظاهر لفظه، وإن ظهر قصده بخلافه، وهل هذا إلا من قلة الفقه؟ بل من عدمه، فإذا تحيلتم على إبطال مقصود الواقف؛ حيث يتضمن المفساد العظيمة، فهلاً تحيلتم على مقصوده ومقصود الشارع؛ حيث يتضمن المصالح الراجحة: بتخصيص لفظه، أو تقييده، أو تقديم شرط الله عليه؟ فإن شرط الله أحق وأوثق.**

بل يقولون ههنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع.

وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبداً؛ بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها، ولا حرمة لها حينئذ ألبتة، ويجوز - بل يترجح - مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه، ويجوز اعتبارها والعدول عنها مع تساوي الأمرين، ولا يتعين الوقوف معها، وسنذكر إن شاء الله فيما بعد، ونبين ما يحل الإفتاء به وما لا يحل من شروط الواقفين؛ إذ القصد

بيان بطلان هذه الحيلة شرعاً وعرفاً ولغة.

(١) **والله تعالى** إنما أمر بالتعاون على البر والتقوى، وهو ما شرعه على لسان رسول الله ﷺ، دون ما لم يشرعه، فكيف بما شرع خلافه، والوقف إنما يصح على القرب والطاعات، ولا فرق في ذلك بين مصرفه وجهته وشرطه؛ فإن الشرط صفة وحال في الجهة والمصرف، فإذا اشترط أن يكون المصرف قرينة وطاعة فالشرط كذلك، ولا يقتضي الفقه إلا هذا، ولا يمكن أحدًا أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق ما يخالف ذلك ألبتة.

بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعادهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم. كما وقع لبعض من نصب نفسه للفتوى من أهل عصرنا: ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقف وقفًا على أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟
فأجاب بصحة الوقف، وتقيد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف على أهل الذمة.

فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك: أن كونه من أهل الذمة ليس مانعًا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم: أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب وقولهم: إن المسيح ابن الله؛ شرطًا لاستحقاق الوقف، حتى إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام لم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، فيكون حل تناوله مشروطًا بتكذيب الله ورسوله والكفر بدين الإسلام، ففرق بين كون وصف الذمة مانعًا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيًا؛ فغلظ طبع هذا المفتي وكثف فهمه، وغلظ حجابيه عن ذلك ولم يميز.

ونظير هذا أن يقف على الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيًا، أو ذا قرابة فلا يكون الغنى مانعًا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغنى فيستحق مادام غنيًا، فإذا افتقر واضطر إلى ما يقيم أودّه حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا من حرم التوفيق وصحبه الخذلان، ولورأى رسول الله ﷺ، أحدًا من الأئمة يفعل ذلك؛ لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره ألبتة.

وكذلك لو رأى رجلاً من أمتة قد وقف على من يكون من الرجال عَزَباً غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف؛ لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العزب حظاً، وأعطى الأهل حظين، وأخبر أن ثلاثة حق على الله عونهم، فذكر منهم: «الناكح يريد العفاف» وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط.

وقد صرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى، بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان العقود بالشروط الفاسدة.

وطرذ هذا أن المفتي متى شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط.

وطرذه أيضاً أن الواقف متى شرط على الفقيه أن لا ينظر ولا يشتغل إلا بمذهب معين؛ بحيث يهجر له كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفتاوى الصحابة ومذاهب العلماء؛ لم يصح هذا الشرط قطعاً، ولا يجب التزامه، بل ولا يسوغ.

وعقد هذا الباب وضابطه، أن المقصود: إنما هو التعاون على البر والتقوى، وأن يطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، وأن يقدم مَنْ قدمه الله ورسوله، ويؤخر مَنْ أخره الله ورسوله، ويعتبر ما اعتبره الله ورسوله، ويلغي ما ألغاه الله ورسوله.

وشروط الواقفين لا تزيد على نذر الناظرين، فكما أنه لا يوفى من النذور إلا بما كان طاعة لله ورسوله، فلا يلزم من شروط الواقفين إلا ما كان طاعة لله ورسوله.

فإن قيل: الواقف إنما نقل ماله لمن قام بهذه الصفة، فهو الذي رضي بنقل ماله إليه، ولم يرض بنقله إلى غيره، وإن كان أفضل منه، فالوقف يجري مجرى الجعالة، فإذا بذل الجاعل ماله لمن يعمل عملاً؛ لم يستحقه مَنْ عمل غيره، وإن كان بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

قيل: هذا منشأ الوهم والإيهام في هذه المسألة، وهو الذي قام بقلوب ضعفة المتفقهين، فالتمزوا وألزموا من الشروط؛ بما غيره أحب إلى الله وأرضى له منه بإجماع

الأمة بالضرورة المعلومة من الدين .

وجواب هذا الوهم : أن الجاعل يبذل ماله في غرضه الذي يريده ، إما : مُحَرَّمًا أو مَكْرُوهًا ، أو مُبَاحًا أو مُسْتَحَبًّا أو وَاجِبًا ؛ لينال غرضه الذي بذل فيه ماله .
وأما الواقف فإنما يبذل ماله فيما يقربه إلى الله وثوابه ، فهو لما علم أنه لم يبق له تمكن من بذل ماله في أغراضه ؛ أَحَبُّ أن يبذله فيما يقربه إلى الله وما هو أنفع له في الدار الآخرة ، ولا يشك عاقل أن هذا غرض الواقفين ، بل ولا يشك واقف أن هذا غرضه .

والله سبحانه وتعالى مَلِكُهُ المَالُ ليتنفع به في حياته ، وأذن له أن يحبسه ليتنفع به بعد وفاته ، فلم يملكه أن يفعل به بعد موته ما كان يفعل به في حياته .
بل حَجَرَ عليه فيه وملكه ثلثه يوصي به بما يجوز ويسوغ أن يوصي به ، حتى إن حاف أو جار أو أثم في وصيته ؛ جاز ؛ بل وجب على الوصي والورثة ردُّ ذلك الجور والحيف والإثم ، ورفع سبحانه الإثم عمن يرد ذلك الحيف والإثم ، من الورثة والأوصياء ، فهو سبحانه لم يملكه أن يتصرف في تحبيس ماله بعده ؛ إلا على وجه يقربه إليه ويُدنيه من رضاه ، لا على أي وجه أراد .

ولم يأذن الله ولا رسوله للمكلف أن يتصرف في تحبيس ماله بعده على أي وجه أرادَه أَبَدًا ، فأين في كلام الله ورسوله أو أحد من الصحابة ؛ ما يدل على أن لصاحب المال أن يقف ما أراد على من أراد ، ويشترط ما أراد ، ويجب على الحكام والمفتين أن ينفذوا وقفه ويلزموا بشروطه ؟ .

وأما ما قد لهجَ به بعضهم من قوله : « شروط الواقف كنصوص الشارع » فهذا يُراد به معنى صحيح ومعنى باطل ، فإن أريد أنها كنصوص الشارع : في الفهم والدلالة ، وتقيد مطلقها بمقيدها ، وتقديم خاصها على عامها ، والأخذ فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فهذا حق من حيث الجملة .

وإن أريد أنها كنصوص الشارع : في وجوب مراعاتها والتزامها وتنفيذها ؛ فهذا من أبطل الباطل ، بل يبطل منها ما لم يكن طاعة لله ورسوله ، وما غيره أَحَبُّ إلى الله وأرضى له ولرسوله منه ، وينفذ منها ما كان قربة وطاعة كما تقدم .

ولما نذر أبو إسرائيل أن يصوم ويقوم في الشمس ، ولا يجلس ، ولا يتكلم ؛ أمره النبي ﷺ ، أن يجلس في الظل ويتكلم ويتم صومه ، فألزمه بالوفاء بالطاعة ، ونهاه

عن الوفاء بما ليس بطاعة .

وهكذا أخت عقبة بن عامر لما نذرت الحج ماشية مكشوفة الرأس ؛ أمرها أن تختمر وتركب وتحج وتهدي بدنة .

فهكذا الواجب على أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن يعتمدوا في شروط الواقفين ، وبالله التوفيق .

(١) فصل

في هديه ﷺ في الصيام

لما كان المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكوبه مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حداثها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد ؛ بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها مع حكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها ، وليسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ؛ فهو لجام المتقين ، وجنة المحاريين ، ورياضة الأبرار والمقربين . وهو لرب العالمين من سائر الأعمال . فإن الصائم لا يفعل شيئاً ، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده ، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها ؛ إثارةً لمحبة الله ومرضاته .

وهو سر بين العبد وربّه لا يطلع عليه سواه ، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة . وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده ؛ فهو أمر لا يطلع عليه بشر . وذلك حقيقة الصوم .

واللصوم تأثير عظيم في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة ، وحمتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات . فهو من أكبر العون على التقوى ، كما

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «الصوم جُنة»، وأمر من اشتدت به شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده: رحمة بهم وإحساناً إليهم، وحماية لهم وجُنة. وكان هدي رسول الله ﷺ، فيه أكمل الهدى. وأعظم تحصيلاً للمقصود. وأسهله على النفوس.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن. فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ، وقد صام تسع رمضان.

وفرض أولاً على وجه التخيير: بينه، وبين أن يطعم عن كل يوم مسكيناً، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحميم الصوم. وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطبقا الصيام؛ فإنها يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكيناً. ورخص للمريض والمسافر؛ أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك. فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم؛ فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة؛ فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحميمه؛ لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم؛ حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة. فنسخ ذلك.

بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة.

فصل

وكان من هديه ﷺ، في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات. فكان

جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان . وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .

وكان أجود الناس . وأجود ما يكون في رمضان ؛ لما يكثر فيه من الصدقة والإحسان ، وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف .

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور ، حتى إنه كان ليواصل فيه أحياناً ؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة . وكان ينهى أصحابه عن الوصال . فيقولون له : إنك تواصل فيقول : «لست كهيتكم إني أبيتُ - وفي رواية : إني أظل - عند ربي يُطعمني ويسقيني» .

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين : **أحدهما** : أنه طعام وشراب حسي للهم . قالوا : وهذه حقيقة اللفظ . ولا موجب للعدول عنها .

الثاني : أن المراد به : ما يغذيه الله به من معارفه ، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرّة عينه بقربه ، وتنعمه بحبه والشوق إليه ، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح . وقرّة العين ، وبهجة النفوس والروح والقلب ؛ بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه . . .

(١) الصوم جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن . منافعه تفوت الإحصاء . وله تأثير عجيب في حفظ الصحة ، وإذابة الفضلات ، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ؛ ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً ، وحاجة البدن إليه طبعاً . ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ؛ ما يحفظ عليها قواها .

وفيه خاصية تقتضي إيثاره . وهي : تفرجه للقلب عاجلاً وآجلاً . وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطوبة . وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم . وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية . وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعاً وشرعاً عظم انتفاع قلبه وبدنه به ، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها . وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه ، وبمحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه . وقيامه بمقصود الصوم . وسره وعلته الغائية . فإن القصد

منه؛ أمر آخر، وراء ترك الطعام والشراب. وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه.

ولما كان وقاية وجنة بين العبد، وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام؛ الجنة والوقاية. وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهـم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته. وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هـديه ﷺ فيه.

...^(١) قال النبي ﷺ: لمن سألـه عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له» ولما كان الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم؛ فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع؛ فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [البقرة: ٤٥]. أنه الصوم، وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر، وذلك أن الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ، في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحد سابه أو شاتمه فليقلل إني صائم» فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه: فهذه تفسد صومه وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. [المؤمنون: ١١١]. فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . [البقرة: ٢٤٩] .

لا شيء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين : ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله .

وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ . [الطور: ٤٨] . وهذا يتضمن الحراسة والكلاية والحفظ للصابر لحكمه .

(١) **شهد** في لسانهم لها معانٍ : أحدها : الحضور ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ . [البقرة: ١٨٥] . وفيه قولان : أحدهما : من شهد المصر في الشهر . والثاني : من شهد الشهر في المصر وهما متلازمان .

والثاني : الخبر ، ومنه : «شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله ﷺ نهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح» .

والثالث : الاطلاع على الشيء ، ومنه : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . [البروج: ٩] . وإذا كان كل خبر شهادة ؛ فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل : من كتاب ولا سنة ، ولا إجماع ولا قياس صحيح .

وعن أحمد فيها ثلاث روايات :

إحداهن : اشترط لفظ الشهادة .

والثانية : الاكتفاء بمجرد الإخبار ، اختارها شيخنا .

والثالثة : الفرق بين الشهادة على الأقوال وبين الشهادة على الأفعال ، فالشهادة

على الأقوال لا يشترط فيها لفظ الشهادة ، وعلى الأفعال يشترط ؛ لأنه إذا قال : سمعته يقول ؛ فهو بمنزلة الشاهد على رسول الله ﷺ ، فيما يخبر عنه .

(٢) فصل

وأما مرض الأبدان فقال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ

حَرْجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ . [النور: ٦١ ، الفتح: ١٧] . وذكر مرض البدن في

الحج والصوم والوضوء ؛ لسر بديع يبين لك عظمة القرآن ، والاستغناء به - لمن فهمه وعقله - عن سواه .

وذلك: أن قواعد طبّ الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحِمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة. فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة، فقال في آية الصوم: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ: فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه الصوم من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ: فَعِدَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما؛ أن يخلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة، التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر. فإذا حلق رأسه تفتحت المسام، فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤدي انحباسه.

والأشياء التي يؤدي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا اجتمع، والبول، والغائط، والريح، والقئ، والعطاس، والنوم، والجوع، والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدوية بحبسه.

وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها - وهو البخار المحتقن في الرأس - على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحِمية: فقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً: فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. [المائدة: ٦]. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب؛ حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه. وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده... (١)

(١) بحث المؤلف هنا طب القلوب، وطب الأبدان بتوسع مفيد جدًا اهـ ج.

(١) وأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة. وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء؛ خشية من الضرر.

فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. [البقرة: ٦]. فأباح التيمم للمريض حمية له، كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. [البقرة: ١٨٤]. فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظاً لصحته؛ لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم؛ أن يخلق رأسه، ويستفرغ المواد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عُجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئاً وصورة؛ تنبيهاً بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ مواد أذاهم: رحمة لعباده ولطفاً بهم ورأفة بهم، وهو الرءوف الرحيم.

(٢) وأما مَنْ أكل في صومه ناسياً فمن قال: «عَدُمُ فِطْرِهِ وَمُضِيهِ فِي صَوْمِهِ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ» ظن أنه من باب ترك المأمور ناسياً، والقياس أنه يلزمه الإتيان بما تركه، كما لو أحدث ونسي حتى صلى.

والذين قالوا: «بل هو على وفق القياس» حُجَّتُهُمْ أَقْوَى؛ لأن قاعدة الشريعة: **أَنْ مَنْ فَعَلَ مُحْظُورًا نَاسِيًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. [البقرة: ٢٨٦].

وثبت عن النبي ﷺ أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت.

وإذا ثبت أنه غير آثم فلم يفعل في صومه محرماً فلم يبطل صومه، وهذا محض القياس؛ فإن العبادة إنما تبطل بفعل محذور أو ترك مأمور.

وطرد هذا القياس أن من تكلم في صلاته ناسياً؛ لم تبطل صلاته.

وطرده أيضاً أن من جامع في إحرامه أو صيامه ناسياً؛ لم يبطل صيامه ولا إحرامه. وكذلك من تطيب أو لبس أو غطى رأسه أو حلق رأسه أو قلم ظفره ناسياً فلا فدية عليه، بخلاف قتل الصيد، فإنه من باب ضمان المتلفات فهو كدية القتل. وأما اللباس والطيب فمن باب الترفه، وكذلك الحلق والتقليم ليس من باب الإتلاف؛ فإنه لا قيمة له في الشرع ولا في العرف.

وطرد هذا القياس أن من فعل المحلوف عليه ناسياً لم يحنث، سواء حلف بالله أو بالطلاق أو بالعاق أو غير ذلك؛ لأن القاعدة أن من فعل المنهي عنه ناسياً؛ لم يعد عاصياً، والحنث في الأيمان كالمعصية في الإيمان. فلا يعد حاثاً من فعل المحلوف عليه ناسياً.

^(١) وذكر أحمد أن شاباً سألَه فقال: أقبل وأنا صائم؟ قال: «لا» وسألَه شيخ: أقبل وأنا صائم؟ قال: «نعم» ثم قال: «إن الشيخ يملك نفسه».

وسألَه ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله أكلتُ وشربت ناسياً وأنا صائم، فقال: «أطعمك الله وسقاك» ذكره أبوداود، وعند الدارقطني فيه بإسناد صحيح: «أتم صومك، فإن الله أطعمك وسقاك، ولا قضاء عليك» وكان أول يوم من رمضان.

وسألته ﷺ عن ذلك امرأة أكلت معه فأمسكت، فقال: «مالك؟» فقالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليمين: الآن بعد ما شبعْت؟ فقال ﷺ: «أتم صومك؛ فإنها هو رزق ساقه الله إليك» ذكره أحمد.

وسئل ﷺ، عن الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال: «هو بياض النهار وسواد الليل» ذكره النسائي.

ونهاهم عن الوصال وواصل، فسألوه عن ذلك، فقال: «إني لست كهيتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني» متفق عليه.

وسأله ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جُنُبُ أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تُدرِكُنِي الصلاة وأنا جنب فأصوم» فقال: لَسْتُ مثَلُنَا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي» ذكره مسلم.

وسئل ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «إن شئت صمت وإن شئت أفطرت» وسأله ﷺ، حمزة بن عمرو فقال: إني أجد في قوة على الصيام في السفر، فهل على جناح؟ فقال: «هي رخصة الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه» ذكرهما مسلم.

(١) فصل

وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي، وكان فطره على رطبات؛ إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره: «اللهم لك صمتٌ وعلى رزقك أفطرت، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم» ولا يثبت.

وروي عنه أيضاً أنه كان يقول: «اللهم لك صمتٌ، وعلى رزقك أفطرت» ذكره أبوداود: عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه: أن النبي ﷺ، كان يقول ذلك.

وروي عنه، أنه كان يقول إذا أفطر: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى». ذكره أبوداود، من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقنع، عن ابن عمر.

ويذكر عنه ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد» رواه ابن ماجه.

وصح عنه أنه قال: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا؛ فقد أفطر الصائم» وفسر بأنه قد أفطر حُكْمًا وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسي.

ونهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب، وجواب السباب.

وأمره أن يقول لمن ساءه: «إني صائم» ف قيل: يقول بلسانه. وهو أظهر. وقيل: بقلبه، تذكيراً لنفسه بالصوم. وقيل: يقول في الفرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

فصل

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخير الصحابة بين الأمرين. وكان يأمرهم بالفطر إذا دَنَوْا من عدوهم ليتقوا على قتاله.

فلو اتفق مثل هذا في الحضر، وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان: أصحهما دليلاً: أن لهم ذلك. وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى العساكر الإسلامية لما لقوا العدو بظاهر دمشق.

ولا ريب أن الفطر لنيلك لأولى من الفطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحق بجوازه:

لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا: له وللمسلمين.

ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر.

ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد، أعظم من المصلحة بفطر المسافر.

ولأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. [الأنفال: ٦٠]

والفطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة، والنبي ﷺ قد فسر القوة بالرمي.

وهو لا يتم ولا يحصل به مقصوده إلا بما يقوي ويعين عليه: من الفطر، والغذاء.

ولأن النبي ﷺ، قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: «إنكم قد دَنَوْتُمْ مِنْ

عدوكم والفطر أقوى لكم» وكانت رخصة. ثم نزلوا منزلاً آخر فقال: «إنكم

مُضَبِّحُو عَدُوْكُمْ، والفطر أقوى لكم فأفطروا». فكانت عزمة. فعزل بدئهم من

عدوهم، واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو. وهذا سبب آخر غير السفر،

والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكره في تعليقه، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتباراً لما

ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، وإلغاء وصف القوة التي يقاوم بها العدو،

واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبيه الشارع وحكمته؛ يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر. فكيف وقد أشار إلى العلة ونبه عليها. وصرح بحكمها. وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها؟

ويدل عليه؛ ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة: «إنه يوم قتال فأفطروا» تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة. فعلل بالقتال. ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء.

وكل أحد يفهم من هذا اللفظ، أن الفطر لأجل القتال.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد: فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: «هي رخصة من الله. فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه».

^(١) **إذا رأى إنساناً يغرق فلا يمكنه تخليصه إلا بأن يفطر هل يجوز له الفطر؟**
أجاب أبو الخطاب: يجوز له الفطر إذا تيقن تخليصه من الغرق، ولم يمكنه الصوم من التخليص.

وأجاب ابن الزاغوني عنها: إذا كان يقدر على تخليصه وغلب على ظنه ذلك لزمه الإفطار وتخليصه.

ولا فرق بين أن يفطر بدخول الماء في حلقه وقت السباحة، أو كان يجد من نفسه ضعفاً عن تخليصه لأجل الجوع حتى يأكل لأنه يفطر للسفر المباح؛ فلا أن يفطر للواجب أولى.

قلت: أسباب الفطر أربعة: السفر، والمرض، والحيض، والخوف على هلاك من يخشى عليه بصوم: كالمرضع والحامل إذا خافتا على ولديهما، ومثله مسألة الغريق.

وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نازل العدو دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهين وقال: ليس هذا سفر طويل. فقال الشيخ: هذا فطر للتقوي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين: سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكايه فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال؛ فاستباح العدو بيضة

الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر ههنا أولى من فطر المسافر؟ وقد أمرهم النبي ﷺ، في غزوة الفتح بالإفطار ليتقوا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر. والله أعلم.

قلت: إذا جاز فطر الحامل والمرضع لخوفهما على ولديهما، وفطر من يخلص الغريق؛ ففطر المقاتلين أولى بالجواز، ومن جعل هذا من المصالح المرسلة فقد غلط؛ بل هذا أمر من: باب قياس الأولى، ومن باب دلالة النص وإيمائه.

(١) فصل

تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها. وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد. فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم^(١).

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس.

وأما آيات الصفات؛ فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. حتى بين لهم بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾. [البقرة: ١٨٧]. ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]. وغيرها من آيات الصفات.

وأيضاً فإن آيات الأحكام؛ مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. [البقرة: ١٩٦]. فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة. ونظائره كثيرة: كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج. وليس في آيات الصفات وأحاديثها

(١) ٢١ مختصر الصواعق ج١.

(٢) كذا بالأصل، ولعله: (يقع للراسخين في العلم) أو نحوه فتأمل

جمل لا يحتاج إلى بيان من خارج؛ بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

(١) قال الله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. [البقرة: ١٨٧].
فروى شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة
والحسن البصري والسدي والضحاك. وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد، عن
أبيه: حدثني عمي، عن أبيه: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: هو
الولد.

وقال ابن زيد: هو الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.
وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع
الفجر، وكان الجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه
غير ذلك؛ أرشداهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها
بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر.

والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ويبتغون ما أباح
الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه
كما يكره أن تؤق معصيته.

ومما كتب لهم ليلة القدر فأمرُوا أن يبتغوها.

لكن يبقى أن يقال: فما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم؟

فيقال: فيه إرشاد إلى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة؛ عن طلب هذه
الليلة التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من
نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة
التي فضلكم بها. والله أعلم.

(١) فصل في هديه ﷺ في الاعتكاف

لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى؛ متوقفاً على جمعيته على الله، وَلَمْ شَعَثْهُ بِإِقْبَالِهِ بِالْكَلِيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ شَعَثَ الْقَلْبَ لَا يَلْمُهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثاً، وَيُشْتَتُّهُ فِي كُلِّ وَادٍ وَيَقْطَعُهُ عَنْ سِيرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ويضعفه، أو يَعُوقُهُ وَيُوقِفُهُ؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده؛ أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات الموقوفة عن سيره إلى الله تعالى.

وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف، الذي مقصوده وروحه عُكُوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبّه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهَمُّ كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مرضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه. فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم؛ شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان.

ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطراً قط، بل قالت عائشة: «لا اعتكاف إلا بصوم» (٢) ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله النبي ﷺ إلا مع الصوم. فالقول الراجح الدليل، الذي عليه جمهور السلف؛ أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه.

(١) ٣٥٥ زاد المعاد ج ١.

(٢) هو طرف من حديث رواه أبوداود، عن عائشة. وانظر الكلام على علته، وعلى اشتراط الصوم في الاعتكاف وعدمه في تهذيب السنن للشيخ ابن القيم (ج ٣ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ - حديث ٢٢٦٣).

وأما الكلام: فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.
وأما فضول المنام: فإنه شرع لهم من قيام الليل؛ ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد. ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك؛ على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها؛ من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

وقد ذكرنا هديه ﷺ، في صيامه وقيامه وكلامه. فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، وتركه مرة فقصاه في شوال. واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الآخر؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير؛ فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد؛ يخلو فيه بربه عز وجل.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله، فأمر به مرة فضرب، فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت، فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقوَّض.

وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال^(١).

وكان ﷺ، يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قبض فيه: اعتكف عشرين يوماً.

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

وكان يعرض عليه القرآن أيضاً في كل سنة مرة، فعرض عليه تلك السنة مرتين. وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده.

وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا الحاجة للإنسان.

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة.

وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجّله وتغسله وهو في المسجد، وهي حائض.

وكان بعض أزواجه يزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب: قام معها يقلبها - وكان ذلك ليلاً^(١).

ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكفه.

وكان إذا خرج لحاجته مرّاً بالمريض وهو على طريقه، فلا يُعرج عليه، ولا يسأل عنه.

واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سُدَّتْها حصيراً.

كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال: من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم. فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله الموفق.

^(٢) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَامِ﴾ [البقرة: ١٨٨] أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقال: «وتدّلوا بالحكام إليها» وأما الإدلاء بها إلى الحكام فهو: التوصل بالبرطيل بها إليهم؛ فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين: فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً. ا. هـ.

وقد: ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والثانية قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن صفية أنها زارته وهو معتكف.. الحديث.

(٢) ٨٨ أعلام جـ ١.

والثالثة قوله : ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوءها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وإفطارهم بعد غروب الشمس.

قيل : هذا وإن كان ممكناً إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس.

ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها بالقمر؛ أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطراباً واختلافاً ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه، فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهله بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم.

مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتديره. شهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغير، ولا يمكن عدمها

^(١) **قوله** تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا

فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ . [البقرة: ١٩٣]. فمدّ قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهر بالسب

والعدوان على الإسلام غير مُنتهِ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حَتْمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال. وهذا بحمد الله في غاية الوضوح.

^(١) «وقد فهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. [البقرة: ١٩٥]. انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو: ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها.

وقال الصديق رضي الله عنه: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده» فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

^(٢) وذكر أحمد عنه: أن رجلاً قال له: أوصني. فقال: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام. وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكر لك في الأرض».

وقال: «ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ: الجهاد» ^(٣) وقال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله. والمكاتب الذي يريد الأداء. والناكح الذي يريد العفاف» ^(٤).

وقال: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق» ^(٥). وذكر أبو داود عنه: «من لم يغز، أو يجهز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير؛ أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة» ^(٦).

وقال: «إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب

(٢) (١٦٠) زاد المعاد ج٢.

(١) ٢٢٣ أعلام ج١.

(٣) رواه بهذا اللفظ الطبراني من حديث أبي أمامة، وزاد «لا يناله إلا أفضلهم» ورواه أحمد والنسائي والترمذي - وقال: حسن صحيح - وابن ماجه من حديث معاذ بن جبل - الطويل «كنت في سفر مع رسول الله، فأصبحت يوماً قريباً منه - الحديث». (٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة. (٥) رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة. (٦) رواه أبو داود وابن ماجه عن القاسم عن أبي أمامة. قال المنذري في مختصر السنن: والقاسم أبو عبد الرحمن فيه مقال.

البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعهم عنهم حتى يُراجعوا دينهم»^(١).

وذكر ابن ماجة عنه: «من لقي الله عز وجل، وليس له أثر في سبيل الله؛ لقي الله وفيه ثلثة»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. [البقرة: ١٩٥]. وفسر أبو أيوب الأنصاري «الإلقاء باليد إلى التهلكة: بترك الجهاد»^(٣).

وصح عنه ﷺ «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»^(٤).

وصح عنه «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٥).

^(٦) ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ، إلى الحج من غير تأخير. فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾. [البقرة: ١٩٦]. فإنها - وإن نزلت سنة ست، عام الحديبية - فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة.

(١) رواه أبو داود وغيره من طريق إسحاق بن أسيد - نزيل مصر - عن ابن عمر.

(٢) رواه الترمذي. وقال: حديث غريب. وابن ماجة وهو من رواية إسماعيل بن رافع عن سمى عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في حديث طويل في غزو المسلمين القسطنطينية، ومعهم أبو أيوب الأنصاري قال «وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي موسى.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث أبي موسى.

(٦) ٣٦٥ زاد المعاد جـ ١.

ويدل عليه: أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين، لما أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. [التوبة: ٢٨]. فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية. ونزول هذه الآيات والمناداة بها؛ إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق رضي الله عنه بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي رضي الله عنه، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

(١) فصل

في هديه ﷺ، في حجه وعمره

اعتمر ﷺ، بعد الهجرة أربع عمر، كلهن في ذي القعدة:
الأولى: عمرة الحديبية، وهي أولاهن: سنة ست، فصَدَّه المشركون عن البيت، فنحر البُذُن حيث صُدَّ بالحديبية، وحلق هو وأصحابه رءوسهم، وحلُّوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلى المدينة.
الثانية: عمرة القُصِيَّة في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثاً، ثم خرج بعد إكمال عمرته.

واختلف هل كانت قضاء للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟ على قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:
إحدهما: أنها قضاء. وهو مذهب أبي حنيفة.
والثانية: ليست بقضاء. وهو قول مالك.
والذين قالوا: كانت قضاء احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء. وهذا الاسم تابع للحكم.

قال آخرون: القضاء هنا من المقاضاة، لأنه قاضى أهل مكة عليها، لا أنه مِنْ قَضَى يَقْضِي قَضَاءً. قالوا: ولهذا سميت عمرة القضية. قالوا: والذين صُدُّوا عن البيت كانوا ألفاً وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلف منهم أحد. وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء.

فصل^(١)

واختلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء: هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صُدُّوا عنها، أو من المقاضاة؟ على قولين تقدما.

قال الواقدي: حدثني عبدالله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: «لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطاً على المسلمين أن يَعْتَمِرُوا في الشهر الذي حَاصَرَهُم فيه المشركون».

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّ مَنْ أُحْصِرَ عن العمرة: يلزمه الهدى والقضاء، وهذا إحدى الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدى، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه. وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه ولا هدي، وهو إحدى الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدى؛ احتجَّ بأن النبي ﷺ، وأصحابه نَحَرُوا الهدى حين صُدُّوا، ثم قَضَوْا من قابل. قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها، ونَحَرُ الهدى لأجل التحلل قبل تمامها.

قالوا: وظاهر الآية يوجب الهدى، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومن لم يوجبها؛ قالوا: لم يأمر النبي ﷺ، الذين أُحْصِرُوا معه بالقضاء، ولا أحداً منهم، ولا وَقَفَ الحُلُّ على نحرهم الهدى؛ بل أمرهم أن يَحْلُقُوا رءوسهم، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه.

ومن أوجب الهدى دون القضاء؛ احتج بقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومن أوجب القضاء دون الهدى؛ احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أُحْصِرَ

جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئاً. **وظاهر القرآن** يرد هذا القول، ويوجب الهدى دون القضاء؛ لأنه جعل الهدى هو جميع ما على المُحصَر، فدل على أنه يكتفي به منه. والله أعلم.

فصل

وفي نحره ﷺ - لما أحصر بالحديبية - دليل على أن المُحصَر ينحر هديه وقت حصره، وهذا لا خلاف فيه إذا كان مُحْرِمًا بعمرة، وإن كان مُفْرَدًا أو قارنًا ففيه قولان:

أحدهما: أن الأمر كذلك. وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحلُّ منه، ونَحَرَ هديه وقت حصره كالعمرة. لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وَقْتُ لها. فإذا جاز الحل منها ونحر هديها من غير خشية فواتها، فالحج الذي يُخشى فواته أولى. وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يُحَلُّ ولا ينحر الهدى إلى يوم النحر. **ووجه هذا:** أن للهدى محل زمان ومحل مكان، فإذا عجز عن محل المكان؛ لم يسقط عنه محل الزمان؛ لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني.

وعلى هذا القول لا يجوز له التحلل قبل يوم النحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾. [البقرة: ١٩٦].

فصل

وفي نحره ﷺ وحلّه: دليل على أن المحصر بالعمرة يتحلل. وهذا قول الجمهور. وقد روي عن مالك: أن المعتمر لا يتحلل؛ لأنه لا يخاف الفوت، وهذا تبعد صحته عن مالك؛ لأن الآية إنما نزلت في الحديبية. وكان النبي ﷺ، وأصحابه كلهم محرمين بعمرة، وحلُّوا كلهم. وهذا مما لا يشك فيه أحد من أهل العلم.

فصل

وفي ذبحه ﷺ بالحديبية - وهي من الحل بالاتفاق - دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حلٍّ أو حرم. وهذا قول الجمهور وأحمد...

(١) الثالثة: عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارناً لبضعة عشر دليلاً، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله.

الرابعة: عمرته من الجعرانة، لما خرج إلى حُنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمرٍ، كلهن في ذي القعدة - إلا التي كانت مع حجته - : عمرة من الحديبية - أو زمن الحديبية - في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ وعمرة من الجعرانة، حيث قَسَمَ غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته».

ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين»؛ لأنه أراد العمر المفردة المستقلة التي تمت. ولا ريب أنها اثنتان. فإن عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية: صُد عنها، وحيلَ بينه وبين إتمامها. ولذلك قال ابن عباس: «اعتمر النبي ﷺ، أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة مع حجته» ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بين حديث أنس: «أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته» وبين قول عائشة وابن عباس: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة»؛ لأن مبدأ عمرة القران؛ كان في ذي القعدة، ونهايتها؛ كانت في ذي الحجة. مع انقضاء الحج. فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها. وأنس أخبر عن انقضائها.

وأما قول عبدالله بن عمر: «إن النبي ﷺ اعتمر أربعاً. إحداهن في رجب» فوهمٌ منه رضي الله عنه. قالت عائشة -: لما بلغها ذلك عنه - «يرحم الله أبا عبد الرحمن». ما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد. وما اعتمر في رجب قط».

وأما ما رواه الدار قطني، عن عائشة قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة في رمضان، فأفطر وصمْتُ. وقصر وأتممت. فقلت: بأبي وأمي، أفطرت

(١) ٣٥٨ زاد المعاد جـ ١.

(٢) سبق الكلام عن العمرة الأولى والثانية ص ٣٤٩ أي قبل الصفحة السابقة.

وصمتُ. وقصرت وأتممت؟ فقال: أَحَسَنْتَ يا عائشة! فهذا الحديث غلط؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يعتمر في رمضان قط. وعُمَرُهُ مضبوطة العدد والزمان. ونحن نقول: يرحم الله أم المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة» رواه ابن ماجة وغيره.

ولا خلاف أن عُمَرَهُ لم تزد على أربع، فلو كان قد اعتمر في رجب لكانت خمساً، ولو كان قد اعتمر في رمضان لكانت ستاً، إلا أن يقال: بعضهن في رجب، وبعضهن في رمضان، وبعضهن في ذي القعدة. وهذا لم يقع. وإنما الواقع اعتماؤه في ذي القعدة، كما قال أنس وابن عباس وعائشة.

وقد روى أبو داود في سننه، عن عائشة «أن النبي ﷺ اعتمر في شوال» وهذا - إن كان محفوظاً - فلعله في عمرة الجِعْرانة، حيث خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

(١) فصل

ولم يكن في عُمَرِهِ عمرة واحدة خارجاً من مكة، كما يفعل كثير من الناس اليوم. وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة.

وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه: أنه اعتمر خارجاً من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمره التي فعلها رسول الله ﷺ، وشرعها؛ عمرة الداخل إلى مكة، لا عمرة من كان بها فيخرج إلى الحِلِّ ليعتمر.

ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها، من بين سائر من كان معه؛ لأنها كانت قد أَهَلَّتْ بالعمره؛ فحاضت، فأمرها فأدخلت الحج على العمره، وصارت قارئة، وأخبرها: أن «طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها» فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلين. فإنهن كنَّ متمتعات. ولم يحضن ولم يقرن. وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها. فأمر أخاها أن يُعِمِّرَها من التمتع. تطيباً لقلبها.

ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة . ولا أحد ممن كان معه وسيأتي مزيد تقرير لهذا وبسط عن قريب . إن شاء الله تعالى .

فصل

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات ، سوى المرة الأولى ؛ فإنه وصل إلى الحديبية وصدَّ عن الدخول إليها ، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله ، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة .

ثم دخلها المرة الثانية ، فقضى عمرته وأقام بها ثلاثاً . ثم خرج .

ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام .

ثم خرج منها إلى حنين ، ثم دخلها بعمره من الجعرانة ، ودخلها في هذه العمرة ليلاً ، وخرج ليلاً ، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر ، كما يفعل أهل مكة اليوم ؛ وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة . ولما قضى عمرته ليلاً رجع من فورِهِ إلى الجعرانة ، فبات بها . فلما أصبح وزالت الشمس خرج من بطن سَرَف ، حتى جامع الطريق ؛ ولهذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس .

والمقصود: أن عمره كلها كانت في أشهر الحج ، مخالفة لهدي المشركين ، فإنهم

كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج ، ويقولون : هي من أفجر الفجور . وهذا دليل على أن الاعتبار في أشهر الحج ؛ أفضل منه في رجب بلا شك .

وأما المفاضلة بينه وبين الاعتبار في رمضان ؛ فموضع نظر ، فقد صح عنه ؛ أنه

أمر أمَّ مَعْقِل - لما فاتها الحج معه - أن تعتمر في رمضان ، وأخبرها : أن «عمرة في رمضان تعدل حجة» .

وأيضاً: فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان ، وأفضل البقاع ، ولكن لم

يكن الله ليختار لنبيه ﷺ ، في عمره إلا أولى الأوقات ، وأحقها بها ، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره . وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتاً لها ، والعمرة حج أصغر ، فأولى الأزمنة بها ؛ أشهر الحج ، وذو القعدة ؛ أوسطها . وهذا مما نستخير الله فيه ، فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه .

وقد يقال : إن رسول الله ﷺ ، كان يشتغل في رمضان من العبادات ؛ بما هو

أهمُّ من العمرة ، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة ، فأخّر

العمرة إلى أشهر الحج ، ووفّر نفسه على تلك العبادات في رمضان ، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته ، والرأفة بهم . فإنه لو اعتمر في رمضان ؛ لبادت الأمة إلى ذلك ، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم ، وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفطر في هذه العبادة ؛ حرصاً على تحصيل العمرة وصوم رمضان ، فتحصل المشقة . فأخّرها إلى أشهر الحج . وقد كان يترك كثيراً من العمل - وهو يجب أن يعمل - خشية المشقة عليهم .

ولما دخل الكعبة خرج حزينا ، فقالت له عائشة في ذلك ، فقال : «إني أخاف أن أكون قد شَقَقْتُ على أمتي» ، وَهَمَّ أن ينزل يستقي مع سُقاة زمزم للحجاج ، فخاف أن يُغلب أهلها على سقايتهم بعده . والله أعلم .

...^(١) **وحلق الرأس ثلاثة أنواع :**

أحدها : نُسْكٌ وقربة .

والثاني : بدعة وشرك .

والثالث : حاجة ودواء .

فالأول : الحلق في أحد النسكين : الحج ، أو العمرة .

والثاني : حلق الرأس لغير الله سبحانه . كما يحلقها المريدون لشيخوخهم الأحياء والموتى . فيقول أحدهم : أنا حلقت رأسي لفلان ، وأنت حلقتك لفلان . وهذا بمنزلة أن يقول : سجدت لفلان . فإن حلق الرأس : خضوع ، وعبودية ، وذل ؛ ولهذا كان من تمام الحج ؛ حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه . لا يتم إلا به . فإنه وضع النواصي بين يدي ربه ؛ خضوعاً لعظمته ، وتذلاً لعزته ، وهو من أبلغ أنواع العبودية .

ولهذا كانت العرب إذا رأت إذلال الأسير منهم وعنته : حلقوا رأسه ، وأطلقوه . فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية ، الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة ، فشرعوا لمريديهم أن يتعبدوا لهم ، فزينوا لهم حلق رؤسهم لهم ، كما زينوا السجود لهم ، وسموه بغير اسمه ، وقالوا : هو وضع الرأس بين يدي الشيخ ، ولعمر الله ، إن السجود لله : هو وضع الرأس بين يديه سبحانه . وزينوا لهم أن ينذروا لهم ، وينوبوا لهم ، ويحلفوا بأسمائهم ، وهذا هو اتخاذهم أرباباً وآلهة من دون الله .

قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ، ثُمَّ يَقُولَ

لِّلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا .
أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ﴿٨٠﴾ . [آل عمران: ٧٩، ٨٠] .

وأشرف العبودية : عبودية الصلاة . وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء
والجبابرة .

فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها ، وهو السجود .

وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع . فإذا لقي بعضهم بعضاً ركع له ، كما
يركع المصلي لربه سواء .

وأخذ الجبابرة منها : القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رءوسهم عبودية لهم ؛
وهم جلوس .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل . فتعاطيها مخالفة
صريحة له . فنهى عن السجود لغير الله . وقال : « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد » .
وأنكر على معاذ بن جبل لما سجد له وقال : « مَهْ » وتحريم هذا معلوم من دينه
بالضرورة .

وتجوز من جَوَّزه لغير الله مُراغمة لله ورسوله ، وهو من أبلغ أنواع العبودية .
فإذا جَوَّزَ هذا المشرك هذا النوع للبشر : فقد جوز العبودية لغير الله . وقد صح أنه
قيل لرسول الله : الرجل يلقي أخاه . أينحني له ؟ قال : « لا » . قيل : أيلتزمه
ويقبله ؟ قال : « لا » . قيل : أيصافحه ؟ قال : « نعم » .

وأيضاً : فالانحناء عند التحية سجد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وادخلوا البابَ
سُجَّدًا ﴾ . [البقرة: ٥٨] . أي : منحنين . وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه .
وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس ، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضاً . حتى
منع من ذلك في الصلاة وأمرهم « إذا صلى جالساً : أن يصلوا جلوساً » وهم أصحاب
لا عذر لهم ؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس ، مع أن قيامهم لله . فكيف إذا كان
القيام : تعظيماً ، وعبودية لغيره سبحانه ؟

والمقصود : أن النفوس الجاهلة الضالة : أسقطت عبودية الله سبحانه ،
وأشركت فيها من تعظمه من الخلق ؛ فسجدت لغير الله ، وركعت له ، وقامت بين
يديه قيامها في الصلاة ، وحلفت بغير الله ، ونذرت لغيره ، وحلقت لغيره ، وذبحت

لغيره، وطافت بغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة، كما يعظم الخالق؛ بل أشد، وَسَوَّتْ مَنْ تَعْبَدُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين يبرهم يعدلون. وهم الذين يقولون، وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧، ٩٨]﴾. وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿[البقرة: ١٦٥]﴾. وهذا كله من الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به. فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصدنا الكلام فيه. والله أعلم.

(١) فصل

في هدي رسول الله ﷺ في حلق الرأس، وتركه، وكيفية جعل شعره. لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك؛ بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة.

وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشركي، وبدعي، ورخصة. **فالشرعي**: الحلق في الحج والعمرة، والشوكي حلق الرأس للشيخ فإنهم يحلقون رؤوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة.

وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفاً على السجود له، ويسميه: وضع رأس، وأدباً، وعلى التوبة له، والتوبة لا تنبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وعلى حلق الرأس له وحلق الرأس عبودية لا تصلح إلا لله وحده؛ وكانت العرب إذا منوا على الأسير؛ جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية وإذلاً له. ولهذا كان من تمام النسك؛ وضع النواصي لله عبودية وخصوعاً وذلاً. ويربونه على الحلف باسم الشيخ لإذلاله.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف من نذر

لغير الله! وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطوعة والفقراء، يجعلونه شرطاً في

الفقر وزياً يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم .

وقد صح عن النبي ﷺ في الخوارج أنه قال : «سيماهم التحليق» .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لصبيغ بن عسل وقد سأله عن مسائل فأمر بكشف رأسه وقال : «لورأيتك مخلوقاً لأخذت الذي فيه عينك حتى أن تكون من الخوارج» .

ومن خلق البدعة : الحلق عند المصائب بموت القريب ونحوه . فأما المرأة فيحرم عليها ذلك ، وقد برىء رسول الله ﷺ من الحالقة والصالقة والشاقة .

فالحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والصالقة التي ترفع صوتها بالويل والثبور ونحوه ، والشاقة التي تشق ثيابها ، وأما الرجل فحلقه لذلك بدعة قبيحة يكرهها الله ورسوله .

وأما حلق الحاجة والرخصة : فهو كالحلق ، لوجع ، أو قمل ، أو أذى في رأسه : من بشور ونحوها ، فهذا لا بأس به .

وأما حلق بعضه وترك بعضه فهو مراتب : أشدها أن يحلق وسطه ويترك جوانبه ، كما تفعل شمامسة النصارى ، ويليه أن يحلق جوانبه ويدع وسطه كما يفعل كثير من السفلة وأسقاط الناس ، ويليه أن يحلق مقدم رأسه ويترك مؤخره .

وهذه الصور الثلاثة داخلية في القزع^(١) الذي نهى عنه رسول الله ﷺ ، وبعضها أقبح من بعض ؛ فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي^(٢) عينيه ؛ جاز حلق بعضه .

هذا والأولى في هذه الحال : أن يقتصر على ما تدفع به الحاجة أو حلق جميعه ، وهذا فيه نظر .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ . [البقرة : ١٩٧] . فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن . وهذا من زينة القرآن الباطنة ، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة .

ومنه قوله تعالى لآدم ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا

(١) انظر في القزع البخاري ١٦٣/٧ وقارن بمسلم ١٠٠/١٤ .

(٢) في الأصل (الحرى يودى) بالمهمله .

(٣) ٢٥١ روضة المحيين .

تَضْحَى ﴿ فقابل بين الجوع والعُري دون الجوع والظمإ، وبين الظمإ والضحي دون الظمإ والجوع، فإن الجوع عُري الباطن وذله، والعُري جوعُ الظاهر وذله. فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحي حرُّ الظاهر، فقابل بينهما.

(١) قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة؛ لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾. [الأعراف: ٢٦].

فجمع بين الزيتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آتَبَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣]. فنفي عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام؛ لما أرتته النسوة اللاتيمات لها في حبه: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾. [يوسف: ٣٢]. فأرتتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرت عن بجمال باطنه، وأرتتهن جمال ظاهره...

فصل (٢)

وسأله ﷺ عائشة رضي الله عنها فقالت: نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال: «لكن أفضل الجهاد وأجمله حجٌّ مبرور» ذكره البخاري، وزاد أحمد «لكن هو جهاد».

وسأله ﷺ امرأة: ما يعدلُّ حجةً معك، فقال: «عمرة في رمضان» ذكره أحمد، وأصله في الصحيح.

وسأله ﷺ أم معقل فقالت: يا رسول الله إن عليَّ حجة وإن لأبي معقل بكراً،

فقال أبو معقل: صدقت، قد جعلته في سبيل الله، فقال: «أعطها فلتحجَّ عليه فإنه في سبيل الله» فأعطاهما البكر فقالت: يا رسول الله إني امرأة قد كبرت سني وسقمت، فهل من عمل يجزئ عني من حجتي؟ فقال: «عمرة في رمضان تجزئ عن حجة» ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ رجل فقال: إني أكرى في هذه الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. [البقرة: ١٩٨]. فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقرأها عليه، وقال: «لَكَ حج» ذكره أبو داود.

وسئل ﷺ: أي الحج أفضل؟ قال: «العَجُّ والشَّجُّ» فقليل: ما الحاج؟ قال: «الشَّعِثُ الثَّقِلُ» قال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة» ذكره الشافعي.

وسئل ﷺ عن العمرة، أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعمر فهو أفضل» قال الترمذي: صحيح.

وعند أحمد: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعتمروا خير لكم».

وسأله ﷺ رجل فقال: إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب علينا. أفأحج عنه؟ قال: «أنت أكبر ولده؟» قال: نعم. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه كان ذلك يجزيء عنه؟» قال: نعم. قال: «فحج عنه» ذكره أحمد.

^(١) **وأما** المفصل: فهو الذي نحن بصددده، فإنما التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلا بد من الوفاء بهذا الالتزام.

وعلى هذا: فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع - وإن تخلله التحلل - فهو أفضل من الأفراد الذي لا حل فيه، لأمر النبي ﷺ، من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به؛ ولأنه النسك المنصوص عليه في كتاب الله. ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي ﷺ، غضب حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج فتوقفوا. ولأنه من المحال قطعاً أن يكون حجةً قط أفضل من حجة خير القرون. وأفضل العالمين مع نبيهم ﷺ. وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا

من ساق الهدى . فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه إلا حج من قرن وساق الهدى . كما اختاره الله سبحانه لنبيه . فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه . واختار لأصحابه التمتع . فأى حج أفضل من هذين؟

ولأنه من المحال: أن ينقلهم من النسك الفاضل إلى المفضول المرجوح .
ولوجوه آخر كثيرة . ليس هذا موضعها . فرجحان هذا النسك أفضل من البقاء على الإحرام الذي يفوته بالفسخ . وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني .
وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدى . فكلام باطل من وجوه .

أحدها: أن الهدى في التمتع عبادة مقصودة . وهو من تمام النسك . وهو دم شكران لا دم جبران . وهو بمنزلة الأضحية للمقيم . وهو من تمام عبادة هذا اليوم . فالنسك المشتمل على الدم بمنزلة العيد المشتمل على الأضحية . فإنه ما تُقَرَّبُ إلى الله في ذلك اليوم بمثل إراقة دم سائل .

وقد روى الترمذي وغيره من حديث أبي بكر الصديق «أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العجُّ والثجُّ» والعج: رفع الصوت بالتلبية . والثجُّ: إراقة دم الهدى . فإن قيل: يمكن المفرد أن يحصل هذه الفضيلة .

قيل: مشروعيتها إنما جاءت في حق القارن والمتمتع . وعلى تقدير استحبابها في حقه: فأين ثوابها من ثواب هدي المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: أنه لو كان دم جبران لما جاز الأكل منه . وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه أكل من هديه . فإنه «أمر من كل بدنه ببضعة . فجعلت في قدر، فأكل من لحمها . وشرب من مرقها» وإن كان الواجب عليه سبع بدنة . فإنه أكل من كل بدنة من المائة . والواجب فيها مشاع لم يتعين بقسمة .

وأيضاً فإنه قد ثبت في الصحيحين: «أنه أطعم نساءه من الهدى الذي ذبحه عنهن . وكن متمتعات» احتج به الإمام أحمد . فثبت في الصحيحين عن عائشة «أنه أهدى عن نسائه . ثم أرسل إليهن من الهدى الذي ذبحه عنهن» .

وأيضاً، فإنه الله سبحانه وتعالى قال فيما يذبح بمنى من الهدى ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ وهذا يتناول هدي التمتع والقرآن قطعاً، إن لم يخص به . فإن المشروع هناك ذبح هدي المتعة والقرآن . ومن ههنا - والله أعلم - أمر النبي ﷺ ، من كل بدنة ببضعة . فجعلت في قدر، امثالاً لأمر ربه بالأكل ، ليعم

به جميع هديه .

الوجه الثالث : أن سبب الجبران محذور في الأصل ؛ فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محذور، والتمتع مأمور به : إما أمر إيجاب عند طائفة، كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين . فلو كان دمه دم جبران : لم يجز الإقدام على سببه بغير عذر . فبطل قولهم : إنه دم جبران . وعلم أنه دم نسك . وهذا وسع الله به على عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام، لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة . فهو بمنزلة القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح على الخفين . وكان من هدي النبي ﷺ وهدى أصحابه فعل هذا وهذا، والله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، فمحبه لأخذ العبد بما يسره عليه وسهله له، مثل كراهته منه لارتكابه ما حرمه عليه، ومنعه منه . والهدي - وإن كان بدلاً عن ترفهه بسقوط أحد السفرين - فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحج مفرد، ويعتمر عقيقه . والبذل قد يكون واجباً، كالجمعة عند من جعلها بدلاً، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل . فإذا كان البدل قد يكون واجباً فكونه مستحباً أولى بالجواز . وتحلل النحل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يفعل إلا بعد التحلل الأول . وكذلك رمى الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحل التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في لياليه، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة . ولهذا قال مالك وغيره : إنه يجزىء بنية واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة، والله أعلم .

(١) وأفتى ﷺ أصحابه بجواز فسخهم الحج إلى العمرة، ثم أفتاهم باستحبابه، ثم أفتاهم بفعله حتماً، ولم ينسخه شيء بعده، وهو الذي ندين الله به أن القول بوجوبه أقوى وأصح من القول بالمنع منه .

وقد صح عنه صحة لا شك فيها أنه قال : «مَنْ لم يكن أهدياً فليهلَّ بعمرة، ومن كان أهدياً فليهلَّ بحج مع عمرة» .

وأما ما فعله هو فإنه صح عنه أنه قرَن بين الحج والعمرة من بضعة وعشرين وجهاً، رواه عنه ستة عشر نفساً من أصحابه، ففعل القرآن، وأمر بفعله مَنْ ساق

الهدى، وأمر بفسخه إلى التمتع من لم يسق الهدى، وهذا من فعله وقوله كأنه رأى عين، وبالله التوفيق.

(١) ويوضح ذلك إيضاحاً بيناً ما روى مسلم في صحيحه، من حديث الزهري، عن عروة، عنها، قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فحضت، فلم أزل حائضاً حتى كان يوم عرفة، ولم أهل إلا بعمره، فأمرني رسول الله ﷺ: أن أنقض رأسي، وأمتشط وأهل بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي بعث معي رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن أعتمر من التنعيم، مكان عمرتي التي أدركني الحج ولم أحل منها».

فهذا حديث في غاية الصحة والصراحة: أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة بها؛ حتى أدخلت عليها الحج. فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كل منهما يوافق الآخر. وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبية على ذلك؛ إذ لو كانت العمر كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة؛ لسوى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي: عن علي رضي الله عنه أنه قال: «اعتمر في كل شهر مرة».

وروى وكيع: عن إسرائيل، عن سويد بن أبي ناجة، عن أبي جعفر، قال: قال لي علي: «اعتمر في الشهر - إن أطقت - مراراً» وذكر سعيد بن منصور: عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس؛ «أن أنساً كان إذا كان بمكة فجمم رأسه: خرج إلى التنعيم فاعتمر».

(٢) وكان يدور بيني وبين المكين كلام في الاعتمار من مكة في رمضان وغيره، فأقول لهم: كثرة الطواف أفضل منها، فيذكرون قوله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة»، فقلت لهم في أثناء ذلك: محال أن يكون مراد صاحب الشرع: العمرة التي يخرج إليها من مكة إلى أدنى الحل، وأنها تعدل حجة، ثم لا يفعلها هو مدة مقامة بمكة أصلاً، لا قبل الفتح ولا بعده، ولا أحد من أصحابه، مع

(١) ٣٦٤ زاد المعاد ج١.

(٢) ٢٨٨ تهذيب السنن ج٢.

أنهم كانوا أحرص الأمة على الخير، وأعلمهم بمراد الرسول، وأقدرهم على العمل به. ثم مع ذلك يرغبون عن هذا العمل اليسير والأجر العظيم؟ يقدر أن يحج أحدهم في رمضان ثلاثين حجة أو أكثر، ثم لا يأتي منها بحجة واحدة، وتختصون أنتم عنهم بهذا الفضل والثواب؛ حتى يحصل لأحدكم ستون حجة أو أكثر؟ هذا مالا يظنه من له مسكة عقل. وإنما خرج كلام النبي ﷺ على العمرة المعتادة، التي فعلها هو وأصحابه، وهي التي أنشئوا السفر لها من أوطانهم، وبها أمر أم معقل، وقال لها: «عمرة في رمضان تعدل حجة» ولم يقل لأهل مكة: اخرجوا إلى أدنى الحل فأكثروا من الاعتمار، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة. ولا فهم هذا أحد منهم. وبالله التوفيق.

...^(١) ثبت في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ قدم تلك الليلة ضعفة أهله، وكان ابن عباس فيمن قدم» وثبت: «أنه قدم سودة»، وثبت: «أنه حبس نساءه عنده؛ حتى دفعن بدفعه» وحديث أم حبيبة انفرد به مسلم. فإن كان محفوظاً، فهي إذاً من الضعفة التي قدمها.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر» **قيل:** نقدم عليه حديثه الآخر، الذي رواه أيضاً الإمام أحمد، والترمذي وصححه: «أن النبي ﷺ قدم ضَعْفَة أهله، وقال: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» ولفظ أحمد فيه: قدمنا رسول الله ﷺ: أغْيِلِمَة بني عبدالمطلب، عَلَى حُمُرَاتٍ لَنَا مِنْ جَمْعٍ^(٢). فجعل يَلْطَحُ أفخاذنا^(٣) ويقول: «أَيُّ بُنَى، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» لأنه أصبح منه، وفيه: نهى النبي ﷺ، عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس. وهو محفوظ بذكر القصة فيه، والحديث الآخر إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر.

ثم تأملنا. فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي. أما من قدمه من

(١) ٤٧١ زاد المعاد جـ ١.

(٢) جمع صخرة لجر، وجر: جمع حمار.

(٣) اللطح - بإسكان الطاء، وبالحاء المهملة - الضرب الخفيف بالكف كأنه للمداعبة والملاطفة.

النساء؛ فرمين قبل طلوع الشمس: للعذر، والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحطّهم. وهذا الذي دلت عليه السنة؛ جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر: بمرض، أو كبر يشق معه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح؛ فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقاً للقادر والعاجز. كقول الشافعي وأحمد.

الثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم.

والذي دلت عليه السنة؛ إنما هو التعجيل بعد غيوبة القمر، لا نصف الليل. وليس مع من حدّه بالنصف دليل. والله أعلم.

فصل

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت - لا قبله قطعاً - بأذان وإقامة، يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان براءة الله ورسوله من كل شرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام. فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل، والذكر حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس. وهنالك سألته عروة بن مضر الطائي، فقال: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللت راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه. فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً: تم حجه. وقضى تفته» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها: ركن كعرفة وهو مذهب اثنين من الصحابة: ابن عباس. وابن الزبير. وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعبي وعلقمة والحسن البصري. وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود بن علي الظاهري. وأبي عبيد القاسم بن سلام. واختاره المحمّدان: ابن جرير، وابن خزيمة. وهو أحد الوجوه للشافعية. ولهم ثلاث حجج، هذه إحداها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾. [البقرة: ١٩٨].

والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركناً بأمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ مدّد وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر. وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان؛ صح حجه. ولو كان الوقوف بمزدلفة ركناً؛ لم يصح حجه.

^(١) **أرباب العزائم والبصائر** أشد ما يكونون استغفاراً؛ عقيب الطاعات؛

لشهودهم : تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه ، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده .

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات . وهو أجل المواقف وأفضلها . فقال : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ . وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ . وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . [البقرة : ١٩٨، ١٩٩] . وقال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ . [آل عمران : ١٧] .

قال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر . ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل . **وفي الصحيح** : أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً . ثم قال : « اللهم أنت السلام . ومنك السلام . تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة ، والقيام بما عليه من أعبائها ، وقضاء فرض الحج ، واقتراب أجله . فقال في آخر سورة أنزلت عليه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . [النصر : ١ - ٣] .

(١) فصل

ونحر رسول الله ﷺ بمنحره بمنى ، وأعلمهم : أن منى كلها منحرة ، وأن فجاج مكة طريق ومنحرة . وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى ، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه ، كما أنه لما وقف بعرفة قال : « وقفت ههنا ، وعرفة كلها موقف » ووقف بمزدلفة وقال : « وقفت ههنا ، ومزدلفة كلها موقف » .

وسئل ﷺ أن يئني له بمنى بقاء يظله من الحر؟ فقال : « لا ، منى مناخ لمن سبق إليه » . وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها ، وأن من سبق إلى مكان منها فهو أحق به ، حتى يرتحل عنه ، ولا يملكه بذلك .

(٢) **قال** تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ . [البقرة : ٢١٣] .

قال سعيد: عن قتادة: «ذكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عز وجل نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق».

وقال ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة: كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفاراً».

وهذا قول الحسن وعطاء، قالوا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمة واحدة، على ملّة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفاراً كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحاً وإبراهيم والنبين».

وهذا القول ضعيف جداً، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة: حدثنا شيبان بن فروخ: حدثنا همام: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو الصواب قطعاً، فإن قراءة أبي بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾. [يونس: ١٩].

والمقصود: أن العدو كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين: كفاراً ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث...^(١)

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢١٦].

(١) اختصرنا قرابة كراسة حول بدء عبادة الأوثان: (٢) ٩٠ فوائد.

أسبابها وأماكنها، فمن أرادته فليرجع إليه اهـ. ج.

وقوله عز وجل : ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ . [النساء: ١٩] .

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية .

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية .

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه ، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده ، ويحب المودة والمشاركة ، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده . وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها ، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه ، ويحب المرأة لوصف من أوصافها ، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه .

فالإنسان كما وصفه به خالقه : ظلم جهول ، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه ، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه .

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه ، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه ، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له ، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له ، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له .

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته ، علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه ، والمحن التي تنزل به ، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته ، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب . . .

(١) قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا

وهو شرٌ لكم . والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ . [البقرة: ٢١٦] .

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد ، فإن العبد إذ علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب ، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة ؛ لعدم علمه بالعواقب . فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد ، أوجب له ذلك أموراً :

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسررات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. **وكذلك** لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، لأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها.

والعقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها.

فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام. لذيد قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعت له لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريحه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه - وهو لا يعلم - فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريجه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات؛ التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلورضي باختيار الله أصابه القدر وهو

محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم، غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر؛ طريقاً كالميتة، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف.

(١) قاعدة

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن :
فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه ؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به . والشدة بترأ لا دوام لها وإن طالّت ، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله ، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه ، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه ، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا ، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا . وكانت البلية في حق هذا عين النعمة ، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب ، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يردّه ذلك البلاء إليه ، بل شرد قلبه عنه وورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه ؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به ، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه ، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء ، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء ، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه ، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل . وبالله التوفيق .

فصل^(١)

المحجوب قسمان: محجوب لنفسه، ومحجوب لغيره، ولا بد أن ينتهي إلى المحجوب لنفسه دفعاً للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحجوب الحق فهو محجوب لغيره، وليس شيء يُحِبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبة الله سبحانه. وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحجوب توجب محبة ما يحبه. وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لا تنفع؛ بل قد تضر.

واعلم أنه لا يجب لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضاداته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها: فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها. فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته.

فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه؛ علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك. **وإذا** رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاته الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة. **والمحجوب لغيره قسمان** أيضاً: أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم؛ لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها؛ لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب.

فالعاقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه ؛ فإن ذلك قد يكون شرًّا له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة ، فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه .

فالمحبوب الموصول إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين ، والمكروه الموصول إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين .

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان . فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبواقهما ، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة . وإلى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعاً وقدرًا . . .

...^(١) **الفائدة الثانية** : يجوز للمفتي أن يعدل عن جواب المستفتي عما سألته عنه إلى ما هو أنفع له منه ، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه ، وذلك من كمال علم المفتي وفقهه ونصحه ، وقد قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ : مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ . [البقرة: ٢١٥] . فسألوهم عن المنفق فأجابهم بذكر المصروف ؛ إذ هو أهم مما سألوهم عنه ، ونبههم عليه بالسياق ، مع ذكره لهم في موضع آخر .

وهو قوله تعالى : ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ . [البقرة: ٢١٩] . وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه .

وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ، قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . [البقرة: ١٨٩] . فسألوهم عن سبب ظهور الهلال خفيًا ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدرج حتى يكمل ثم يأخذ في النقصان ، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التي بها تمام مصالحهم في أحوالهم ومعاشرهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج ، وإن كانوا قد سألوهم عن السبب فقد أجيبوا بما

هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ماسألوا عنه. ولفظ سؤالهم محتمل؛ فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم ثم يأخذ في النقص؟

(١) فصل

ثم بعث عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، في اثني عشر رجلاً من المهاجرين. كل اثنين يعتقبان على بعير. فوصلوا إلى بطن نخلة، يرصدون عيراً لقريش. وفي هذه السرية سمى عبدالله بن جحش أمير المؤمنين. وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فلما فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم» فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم. فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعث عبدالله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة. فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم. ثم اجتمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله. وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل. ثم قدموا بالبعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس. وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتل في الإسلام. وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه. واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام. واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. [البقرة: ٢١٧].

يقول سبحانه : هذا الذي أنكرتموه عليهم - وإن كان كبيراً - فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله والصدء عن سبيله وعن بيته، وإخراج المسلمين - الذين هم أهله - منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به؛ أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هنا بالشرك، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. [البقرة: ١٩٣]. ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. [الأنعام: ٢٣]. أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته، وآخر أمرهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به. ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾. [الذاريات: ١٤]. قال ابن عباس: «تكذيبكم» وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها، ومرّ مصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. [الزمر: ٢٤]. وكما فتنوا عباده على الشرك فتنوا على النار. وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾. [البروج: ١٠]. فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار^(١). واللفظ أعم من ذلك. وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم. فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾. [الأعراف: ١٥٥]. فذلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده: بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر.

والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام - كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصيفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا -

(١) أصل الفتنة في اللغة: الامتحان والاختبار. ومن ذلك: الفتان، وهو المبرد ونحوه من آلة ونحوه يختبر بها الذهب وغيره من المعادن ليعلم صفاؤه، وما فيه من مادة أخرى غيره.

لون آخر، وهي الفتنة التي قال النبي ﷺ فيها: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي».

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين: هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مراداً بها المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾. [التوبة: ٤٩]. يقوله الجدُّ بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائْذَنْ لِي فِي الْقَعُودِ، وَلَا تَفْتِنِّي بِتَعْرِضِي لِبَنَاتِ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَإِنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْهُنَّ. قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾. [التوبة: ٤٩]. أي وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أوليائه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام. بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام. فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولا سيما وأوليائه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مُقَصِّرِينَ نَوْعَ تَقْصِيرٍ، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله ﷺ وإيثار ما عند الله. فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدوٍّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟.

(١١) فصل

في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في الإسلام وأول قتيل.

لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش، ومعه سرية إلى نخلة ترصد عيراً لقريش، وأعطاه كتاباً مختوماً، وأمره: أن لا يقرأه إلا بعد يومين. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام. فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ: قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ

الله ﴿٢١٧﴾. [البقرة: ٢١٧]. فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما. فقال: «لا، حتى يقدم أصحابنا - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم». فلما قدما فاداهما رسول الله ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة.

وذكر ابن وهب: «أن النبي ﷺ رد الغنيمة وودى القتيل» والمعروف في السير خلاف هذا....

(١) فصل

في فقه هذه القصة

ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام؛ إن كان ذكر التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر - والله أعلم - أنه وهم غير محفوظ؛ إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ، أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية. وقد عيّر المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ: قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية. [البقرة: ٢١٧]. ولم يثبت نسخ هذا بنص يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه. وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. [التوبة: ٥].

ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير التي سیر الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها. وكان أولها: يوم الحج الأكبر، عاشر ذي الحجة، وآخرها: عاشر ربيع الآخر. هذا هو الصحيح في الآية، لوجوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهى الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم، وإن احتاجوا إليه، خشية أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم. ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

(٢) **قوله تعالى:** ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. [البقرة: ٢١٧]. من

باب بدل الاشتغال . . والسؤال إنما وقع عن القتال فيه ، فلمَ قدم الشهر؟ وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم وهم به أعنى .

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمة ، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال ، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقاً لما ذكرنا من القاعدة .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفى بضميره فقال : قل هو كبير؟ وأنت إذا قلت : سألته عن زيد : أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول : أزيد في الدار؟ .

قيل في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة ، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً ، ولو أتى بالمضمر وقال : هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك ، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام .

ونظير هذه الفائدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله : نعم توضؤوا به لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص ، فعدل عن قوله : نعم توضؤوا إلى جواب عام يقتضي تعلق الحكم والطهورية بنفس مائه من حيث هو؛ فأفاد استمرار الحكم على الدوام وتعلقه بعموم الآية ، وبطل توهم قصره على السبب فتأمله فإنه بديع .

فكذلك في الآية لما قال : ﴿قتال فيه كبير﴾ فجعل الخبر بكبير واقعاً على قتال فيه ، فيطلق الحكم به على العموم ، ولفظ المضمر لا يقتضي ذلك .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿والذين يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ . [الأعراف: ١٧٠] . ولم يقل : أجرهم تعليقاً لهذا الحكم بالوصف ، وهو كونهم مصلحين وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور .

وقريب منه ، وهو اللطف معني ، قوله تعالى : ﴿يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ . [البقرة: ٢٢٢] . ولم يقل : فيه تعليقاً لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال . وقال تعالى : ﴿قل هو أذى﴾ .

ولم يقل : الحيز ؛ لأن الآية جارية على الأصل ولأنه لو ذكره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات ، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً ليفيد تعليق الحكم بكونه حيزاً بخلاف قوله : ﴿ قُلْ هُوَ أَذَى ﴾ . فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيزاً ، بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يُعلم بالشرع . فتأمل .

^(١) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ . [البقرة: ٢١٨] . فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات .

وقال المغترون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه ؛ أولئك يرجون رحمة الله .

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته ، فيأتي العبد بها ثم يحسن طنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ، ويصرف ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها .

^(٢) فصل

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان . والراجون رحمة الله : هم الذين قاموا بهذه الثلاثة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . [البقرة: ٢١٨] .

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد ، ففرض عليه هجرتان في كل وقت : **هجرة** إلى الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص ، والإنيابة والتوكل ، والخوف والرجاء ، والمحبة والتوبة .

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره ، والتصديق بخبره ، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها : فهجرته إلى ما

هاجر إليه» وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه. فهذا كله فرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد. وأما جهاد الكفار والمنافقين: فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

(١) فصل

والفرق بين الرجاء والتمني:

أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾. [البقرة: ٢١٨]. فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته؛ فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقاً إليه وحرصاً عليه فهو شبيهه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه.

وعلاوة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها. . .

(٢) **وقد** تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا. وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة.

وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهى الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله».

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم.

وأما الأماني فإنها رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيتهم، وهي تصدر من قلب تراحمت عليه وساوس النفس؛ فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة وأحاطته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل، فيستريح إليها. قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. [النساء: ١٢٣]. فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته؛ تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصره الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصره نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعًا. فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكلم على الأماني التي يسميها رجاء. والله الموفق.

...﴿وقوله﴾: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. في الدنيا والآخرة﴾. [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]. فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم. فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتنا، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها. وقوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا. وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [الروم: ٢١]. فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكر مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة؛ فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها.

(١) ولما نزل التشديد في أكل مال اليتيم عَزَّلُوا طعامهم عن طعام الأيتام وشرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسوله الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى، قُلْ: إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

... (٢) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ يرشد سبحانه فيها إلى مَذَارِكِهَا وَعِلَلِهَا، كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ: هُوَ أَذَى، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (٣) [البقرة: ٢٢٢]. فأمر سبحانه نبيه أن يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم.

وكذلك قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾. [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا، نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. [المائدة: ٣٨]. وقال في جزاء الصيد: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾. [المائدة: ٩٥].

(٤) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. [البقرة: ٢٢٢]. ففيه معنى آخر سوى ما ذكره (٥) وهو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لظهور الماء وظهور الماء لا ينفع بدونه؛ بل هو مكمل له معدُّهُ بِهَيْءٍ بِحَصُولِهِ فَكَانَ أَوْلَى بِالتَّحْدِيدِ لِأَنَّ الْعَبْدَ أَوَّلَ مَا يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ فَقَدْ تَطَهَّرَ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الشَّرْكِ ثُمَّ يَتَطَهَّرُ بِالماء من الحدث. (٦) قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّوَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. [البقرة: ٢٢٢].

قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَاتَّوَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. [البقرة: ٢٢٢]. فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها. يعني في الحيض. وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج، ولا تعدُّه إلى غيره.

(٢) ١٦٣ أعلام ج٤.

(١) ٤١٠ أعلام ج٤.

(٤) ٦٨ بدائع ج١.

(٣) تقدم بحث في هذه الآية ص (٣٧٨).

(٥) يشير إلى أن السهيلي ذكر أن التقديم للتوبة سبب الطهارة.

(٦) ٣١٥ زاد المعاد ج٣.

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين:
أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث، وهو موضع الولد، لا في الحش الذي هو موضع الأذى. وموضع الحرث: هو المراد من قوله: ﴿من حيث أمركم الله﴾. الآية، قال: ﴿فَاتُّوا حَرثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٣]. وإتيانها في قبلها من دبرها: مستفاد من الآية أيضًا، لأنه قال: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: من حيث شِئْتُمْ: من أمام، أو من خلف. قال ابن عباس: فاتتوا حرثكم: يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحش الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل، والذريعة القريبة جدًا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان؟

وأيضًا: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يُفوت حقها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضًا: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له. وإنما الذي هيء له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعًا.

وأيضًا: فإن ذلك مضر للرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم. لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن، لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضًا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًا، لمخالفته للطبيعة. وأيضًا: فإنه محل القدر والنَّجْو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضًا: فإنه يضر بالمرأة جدًا، لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنفرة. وأيضًا: فإنه يُحدث الهمَّ والغم والنفرة من الفاعل والمفعول.

وأيضًا: فإنه يسود الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تكون عليه كالسيما، يعرفها من له أدنى فراسة. . .

...^(١) كان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبيهن على حرف. ويقولون: هو

أسر للمرأة. وكانت قريش والأنصار تُشَرِّحُ النساء على أقفائهن. فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُّوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٣].

وفي الصحيحين: عن جابر قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها: كان الولد أحول. فأنزل الله عز وجل: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُّوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٣].»

وفي لفظ لمسلم: «إن شاء مجيبة، وإن شاء غير مجيبة؛ غير أن ذلك في صِمام واحد» «والمجيبة» المنكبة على وجهها. و«الصِمام الواحد» الفرج. وهو موضع الحرث والولد. وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء.

ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه. **وفي** سنن أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى المرأة في دبرها».

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها». **وفي** لفظ للترمذي وأحمد: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

وفي لفظ للبيهقي: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر». **وفي** مصنف وكيع: حدثني زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبدالله بن يزيد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن» وقال مرة: «في أدبارهن». **وفي** الترمذي: عن طلق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن. فإن الله لا يستحي من الحق».

وفي الكامل لابن عدي من حديثه، عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود يرفعه: «لا تأتوا النساء في أعجازهن».

وروينا في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعاً: «من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر».

(١) قال تعالى: ﴿لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٥].
واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء، يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.
والثاني: أن يجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف: - كلا، والله! وبلى، والله! - في أثناء كلامه. وكلاهما رفع الله المؤاخذه به لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده: أن لا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكمًا.

وقد أفتى أصحاب النبي ﷺ بعدم وقوع طلاق المكره، وإقراره.
فصح عن عمر أنه قال: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته، أو ضربته، أو أوثقته».

وصح عنه: «أن رجلاً تدلى بحبل ليشتار عسلاً، فأتت امرأته، فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله، فأبت، فطلقها، فأتى عمر، فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن ذلك ليس بطلاق».

وكان علي بن أبي طالب لا يميز طلاق المكره، وقال ثابت الأعرج: سألت ابن عمر وابن الزبير عن طلاق المكره؟ فقالا جميعاً: «ليس بشيء».

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغار بن جبلة، عن صفوان بن عمرو الأصم عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن رجلاً جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني، أو لأذبحنك، فناشدها الله؛ فأبت، فطلقها ثلاثاً، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لا قيلولة في الطلاق» رواه سعيد بن منصور في سننه.

وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال:
«كل الطلاق جائز، إلا طلاق المعتوه، والمغلوب على عقله».

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة: حدثني عمرو بن شراحيل المعافري: «أن امرأة استلت سيفاً، فوضعت على بطن زوجها، وقالت: والله

لأنفذه، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثاً. فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمضى طلاقها»

وقال عليّ: «كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه».

قيل: أما خبر الغار بن جبلة: ففيه ثلاث علل:

إحداها: ضعف صفوان بن عمرو.

والثانية: لين الغار بن جبلة.

والثالثة: تدليس بقية بن الوليد الراوي عنه.

ومثل هذا لا يحتج به. قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

وأما حديث ابن عباس: «كل الطلاق جائز» فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب، قال أبو محمد بن حزم: وهذا الخبر شر من الأول.

وأما أثر عمر: فالصحيح عنه خلافه، كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

وأما أثر عليّ: فالذي رواه عنه الناس: أنه كان لا يُجيز طلاق المكره.

وروى عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: أن علي بن أبي طالب كان لا يجيز طلاق المكره. فإن صح عنه ما ذكرتم: فهو عام مخصوص بهذا.

فصل

وأما طلاق السكران

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. [النساء: ٤٣]. فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر، لأنه لا يعلم ما يقول.

وصح عنه ﷺ أنه «أمر بالمقرّ بالزنا أن يُسْتَنَكَه» ليعتبر قوله الذي أقرّ به، أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة لما عقر بعيرَي عليّ: «فجاء النبي ﷺ، فوقف عليه يلومه، فصعد فيه النظر وصوبه، وهو سكران، ثم قال: هل أنتم إلا

عبيد لأبي؟ فنكص النبي ﷺ على عقبيه» وهذا القول لو قاله غير سكران لكان ردة وكفرًا، ولم يؤخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان أنه قال: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»
رواه ابن أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء: «طلاق السكران لا يجوز» وقال ابن طاوس: «طلاق السكران لا يجوز» وقال القاسم بن محمد: «لا يجوز طلاقه».

وصح عن عمر بن عبد العزيز «أنه أتى بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو، لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد» وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحيد بن عبد الرحمن، وربيعه الرأي، والليث بن سعد، وعبد الله بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه. واختاره المزني وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقر عليها مذهبه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق: قد أتى خصلتين: حرما عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقيها جميعًا. وقال في رواية الميموني: وقد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز، حتى تبينته، فقلت: إنه لا يجوز طلاقه. لأنه لو أقر لم يلزمه، ولو باع لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجناية. وما كان من غير ذلك فلا يلزمه، قال أبو بكر عبد العزيز: وبهذا أقول. وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي..

والذين أوقعوه لهم سبعة مأخذ:

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجناياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصاحي في كلامه، فإنهم قالوا: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفترى ثمانون».

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطلاق» وقد تقدم.

والسادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» وقد تقدم^(١) . . .

(٢) والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذْكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ﴾ . [البقرة: ٢٢٥] . أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه .

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على: أن لا تبرأ، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفت، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذه وأنها تقتضي تعذيباً فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين .

والقول الأول أصح وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين وهو أن لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو عقده وعزمه كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ . [المائدة: ٨٩] . فتعقيد الأيمان هو كسب القلب .

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ . [البقرة: ٢٦٧] . فالأول للتجار، والثاني للزراع .

الوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ . [البقرة: ٢٨٦] . وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ . [الأعراف: ٣٩] . ﴿وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ . [الأنعام: ٧٠] . فهذا كله للعمل .

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟ **فقال** طائفة: معناهما واحد، قال أبو الحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة ولا فرق بينهما قال ذو الرمة:

ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه

(١) تقدما قريباً ص (٣٨٥) بأنها لا يحتج بها . ج .

(٢) ١٢٠ شفاء العليل .

لنفسه ولغيره ولا يقال : يكتسب . قال الخطيئة :

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر هداك ملكك الناس يا عمر
قلت : والاكتساب افتعال وهو يستدعي اهتماماً وتعملاً واجتهاداً ، وأما الكسب
فيصح نسبته بأدنى شيء ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي ، وفي
جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام .

(١) حكم رسول الله ﷺ في الإيلاء

ثبت في صحيح البخاري : عن أنس قال : آلى رسول الله ﷺ من نسائه .
وكانت انفكت رجله ، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ليلة . ثم نزل . فقالوا : يا
رسول الله ، آليت شهراً ، فقال : « الشهر تسع وعشرون » .
وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ
فَاءُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[البقرة : ٢٢٦ ، ٢٢٧] .

الإيلاء لغة : الامتناع باليمين . وُحْصَ في عرف الشرع بالامتناع باليمين من
وطء الزوجة . ولهذا عُذِّي فعله بأداة «من» تضميناً له معنى : يمتنعون من
نسائهم . وهو أحسن من إقامة «من» مقام «علي» .
وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم
بالإيلاء . فإذا مضت : فإذا أن يفيء وإما أن يطلق .

وقد اشتهر عن علي وابن عباس : «أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون
الرضى» كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه .

وظاهر القرآن ؛ مع الجمهور . وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل
آخر . فاحتج الآخر على محمد بقول علي . فاحتج عليه محمد بالآية ، فسكت .
وقد دلت الآية على أحكام ، منها : هذا .

ومنها : أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مولياً .

وهذا قول الجمهور . وفيه قول شاذ : أنه مُولٍ .

ومنها : أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر ؛ فإن

كانت مدة الامتناع أربعة أشهر؛ لم يثبت له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها: إما أن يطلقوا، وإما أن يفيثوا. وهذا قول الجمهور. منهم أحمد والشافعي ومالك، وجعله أبو حنيفة مولياً بأربعة أشهر سواء. وهذا بناء على أصله: أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة.

وهذا موضع يختلف فيه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: «أدرت بضعة عشر رجلاً من الصحابة كلهم يوقف المولي، يعني بعد أربعة أشهر». وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: «سألت اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن المولي؟ فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر» وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال ابن مسعود وزيد بن ثابت: «إذا مضت الأربعة الأشهر، ولم يفيء فيها؛ طلقت منه بمضيها» وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه. فعند هؤلاء؛ يستحق المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء، وإلا طلقت بمضيها.

وعند الجمهور؛ لا يستحق المطالبة، حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تطلق، وإن لم يفيء أخذ بإيقاع الطلاق: إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبد الله بن مسعود قرأ: ﴿فَإِنْ فَاءُوا- فَيَهِنْ- فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة: ٢٢٦]. بإضافة الفية إلى المدة تدل على استحقاق الفية فيها، وهذه القراءة: إما أن تجري مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم توجب كونها من القرآن. وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه. لا يجوز فيها غير هذا الالته.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفية بعدها لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء لوقعت الفیئة موقعها، فدل على استحقاق الفیئة فيها.

قالوا: ولأن الله سبحانه وتعالى جعل لهم تربص أربعة أشهر ثم قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾. [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وظاهر هذا: أن التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك. ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في المدة، ولا يفهم منه: إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفیئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها؛ أن تكون تفسيراً... (١)

وقد اختلف الفقهاء: هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك فإنه حق له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرُدُّه، أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها؛ فهو حق لها على الزوج بنص القرآن.

وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف. **ومن** ضد المعروف أن يكون عنده شائبة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة. **ومن** زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه.

والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾. [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرة واحدة ليستقر لها بذلك الصداق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر؛ فإن المقصود

(١) ذكر المؤلف بعد هذا أدلة الجمهور وأوصلها إلى عشرة. اهـ. ج.

إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصدائق دخل في العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمولي تربص أربعة أشهر، وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة.

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله؛ فليس أيضاً بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض من: سفر، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بهمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء موقتاً في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف. بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف، فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولا بد.

قالوا: وعليه أن يشبعها وطئاً إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره. وقد حضَّ النبي ﷺ على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر وجعله صدقة لفاعله فقال: «وفي بُضْعٍ أحذكم صدقة».

ومن تراجم النسائي على هذا:

الترغيب في المباشرة

ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظتها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلب الصحة، ودفع المواد الرديئة.....

﴿وقوله:﴾ «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» . [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، **﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** . [البقرة: ٢٢٧]. فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم «السميع» للنطق به «العليم» بمضمونه.

وكقوله تعالى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» . [البقرة: ٢٣٥].

فلما ذكر سبحانه التعريض بخطة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها؛ رفع الجناح عن التعريض وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة.

ونفي مواعدتهن سرّاً - فقيل: هو النكاح والمعنى: لا تصرّحوا لهن بالتزويج إلا أن تعرضوا تعريضاً وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سرّاً فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله: **﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾** وهو: انقضاء العدة.

ومن رجع القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بنهي المواعدة سرّاً، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة، فلو كان معنى مواعدة السر هو إسرار العقد كان تكراراً.

ثم عقب ذلك بقوله: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾** . [البقرة: ٢٣٥]. أن تتعدوا ما حد لكم فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم قال: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** . [البقرة: ٢٣٥]. لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون.

فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى:
﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم؛ قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٣٤]. وفي هذا معنى التعليل أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. [النساء: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

وأيضاً فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾. [طه: ٩٠].

وقوله سبحانه في القصة: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. [طه: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [الحشر: ٢٢، ٢٣].

فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنی المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم حماها الله عن كل أفاك معرض عن كتاب الله واقتباس الهدى منه. ولو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة، والله الموفق للصواب.

وأيضاً فإن الله سبحانه يعلق بأسماء المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلاماً محضة؛ لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. . . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. ﴿إِنَّهُمْ رَعَوْفٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾. ﴿إِنَّهُ يَمْلِكُنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ السَّمَاءَ وَتَكُونَ بِهَا كُوَكُوبٌ﴾. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. ونظائره كثيرة.

وأيضاً فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. [الملك: ١٤]. وقد اختلف النظار في هذه الأسماء: هل هي متباينة نظراً إلى تباين معانيها وأن كل اسم يدل على معنى غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة، فمدلوها لا تعدد فيه وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك. **والتحقيق** أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام.

...^(١) تقسيم الألفاظ إلى: صريح، وكناية، وإن كان تقسيماً صحيحاً في أصل الوضع؛ لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة. فليس حكماً ثابتاً للفظ لذاته، فربّ لفظ صريح عند قوم، كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان، كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك. فهذا لفظ «السراح» لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق، لا صريحاً ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به لزمه طلاق امرأته، نواه أو لم ينوه، ويدعي أنه ثبت له عرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوى باطلة شرعاً واستعمالاً. أما الاستعمال: فلا يكاد أحد يطلق به ألبتة.

وأما الشرع: فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ، فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ

تَعْتَدُونَهَا . فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ . [الأحزاب: ٤٩] . فهذا السراح غير الطلاق قطعاً .

وكذلك «الفراق» استعمله الشرع في غير الطلاق ، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ - إِلَى قَوْلِهِ - فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ . [الطلاق: ٢٠، ١] . فالإمساك هنا : الرجعة . والمفارقة : ترك الرجعة ، لا إنشاء طلاق ثانية ، هذا مما لا خلاف فيه ألبتة ، فلا يجوز أن يقال : إن من تكلم به طلقت زوجته ، فهم معناه أو لم يفهمه ، وكلاهما في البطلان سواء ، وبالله التوفيق .

... وفي صحيح مسلم قول ابن عمر للمطلق ثلاثاً : «حرمت عليك حتى تنكح زوجاً غيرك . وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك» وهذا تفسير منه للطلاق المأمور به . وتفسير الصحابي حجة . وقال الحاكم : هو عندنا مرفوع . ومن تأمل القرآن حق التأمل تبين له ذلك . وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول : هو الطلاق الذي تملك به الرجعة .

ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملة واحدة ألبتة . قال تعالى : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ . [البقرة: ٢٢٩] . ولا تعقل العرب في لغتها وقوع المرتين إلا متعاقبتين .

كما قال النبي ﷺ : «من سبح الله دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمده ثلاثاً وثلاثين ، وكبره أربعاً وثلاثين» ونظائره . فإنه لا يعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوال ، يتلو بعضه بعضاً . فلو قال : سبحان الله ثلاثاً وثلاثين . والحمد لله ثلاثاً وثلاثين . والله أكبر أربعاً وثلاثين - بهذا اللفظ - لكان ثلاث مرات فقط .

وأصرح من هذا ؛ قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ : أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ . [النور: ٦] . فلو قال : أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين ؛ كانت مرة .

وكذلك قوله : ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ : أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . [النور: ٨] . فلو قالت : أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين ؛ كانت واحدة .

وأصرح من ذلك قوله تعالى : ﴿سُنْعَدْبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ . [التوبة: ١٠١] . فهذا مرة بعد مرة . ولا ينتقض هذا بقوله تعالى : ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ . [الأحزاب: ٣١] .

وقوله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فإن المرتين هنا: هما الضعفان، وهما المثلان. وهما مثلان في القدر. كقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. [الأحزاب: ٣٠]. وقوله: ﴿فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾. [البقرة: ٢٦٥]. أي: ضعف ما يعذب به غيرها، وضعف ما كانت تؤتي.

ومن هذا قول أنس: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ مرتين» أي: شقتين وفرقتين، كما قال في اللفظ الآخر: «انشق القمر فلقنتين» وهذا أمر معلوم قطعاً: أنه إنما انشق القمر مرة واحدة. والفرق معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزئين ومرتين في المضاعفة. فالثاني: يتصور فيه اجتماع المرتين في آن واحد. والأول: لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل على أن الله لم يشرع الثلاث جملة: أنه قال: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ - إلى أن قال - وَبِعُورِلَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فهذا يدل على أن كل طلاق بعد الدخول: فالمطلق أحق فنه بالرجعة، سوى الثالثة المذكورة بعد هذا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ - إلى قوله - فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. [البقرة: ٢٣٢]. فهذا هو الطلاق المشروع.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أقسام الطلاق كلها في القرآن. وذكر أحكامها. فذكر الطلاق قبل الدخول، وأنه لا عدة فيه.

وذكر الطلقة الثالثة، وأنها تحرم الزوجة على المطلق، حتى تنكح زوجاً غيره. وذكر طلاق الفداء - الذي هو الخلع - وسماه فدية. ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم. **وذكر الطلاق الرجعي** الذي المطلق أحق فيه بالرجعة. وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة. وبهذا احتج أحمد والشافعي وغيرهما على أنه ليس في الشرع طلقة واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة؛ كانت رجعية. ويلغو وصفها بالبينونة. وأنه لا يملك إبانته إلا بعوض.

وأما أبوحنيفة فقال: تبين بذلك. لأن الرجعة حق له. وقد أسقطها. **والجمهور يقولون:** وإن كانت الرجعة حقاً له، لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه؛ فلا يملك إسقاطها إلا باختيارها، وبذلها العوض، وسؤالها أن تفتدي

نفسها منه بغير عوض في أحد القولين . وهو جواز الخلع بغير عوض . وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها ، ولا بذلها العوض ؛ فخلاف النص والقياس .

قالوا: وأيضاً فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة . فإنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد ، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء ويرجعها . وهذا - وإن كان فيه رفق بالرجل - ففيه إضرار بالمرأة . فنسخ سبحانه ذلك بثلاث . وقصر الزوج عليها . وجعله أحق بالرجعة ، ما لم تنقض عدتها . فإذا استوفى العدد الذي ملكه حرمت عليه . فكان في هذا رفق بالرجل ؛ إذ لم تحرم عليه بأول طلبة . وبالمرأة ، حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث . فهذا شرعه وحكمته وحدوده التي حدها لعباده . فلو حرمت عليه بأول طلبة يطلقها ؛ كان خلاف شرعه وحكمته . وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة ، بل إنما ملك واحدة . فالزائد عليها غير مأذون له فيه .

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانيتها بطلقة واحدة ، إذ هو خلاف ما شرعه ، لم يملك إبانيتها بثلاث مجموعة ؛ إذ هو خلاف ما شرعه .

ونكتة المسألة ؛ أن الله لم يجعل للأمة طلاقاً بائناً قط ، إلا في موضعين .

أحدهما: طلاق غير المدخول بها .

والثاني: الطلقة الثالثة . وما عداه من الطلاق ؛ فقد جعل للزوج فيه الرجعة ، هذا مقتضى الكتاب ، كما تقدم تقريره وهذا قول الجمهور ، منهم الإمام أحمد ، والشافعي .

وأهل الظاهر قالوا: لا يملك إبانيتها بدون الثلاث إلا في الخلع .

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيما إذا قال : أنت طالق طلبة لا رجعة فيها :

أحدها: أنها ثلاث . قال ابن الماجشون . لأنه قطع حقه من الرجعة ؛ وهي لا تنقطع إلا بثلاث ، فجاءت الثلاث ضرورة .

الثاني: أنها واحدة بائنة . كما قال ، وهذا قول ابن القاسم . لأنه يملك إبانيتها بطلقة بعوض ، فملكها بدونه ، والخلع عنده طلاق .

الثالث: أنها واحدة رجعية ، وهذا قول ابن وهب ، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس . وعليه الأكثرون .

فصل

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب:

أحدها: أنه يقع. وهذا قول الأئمة الأربعة. وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة.

الثاني: أنها لا تقع، بل ترد. لأنها بدعة محرمة. والبدعة مردودة. لقوله ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وهذا المذهب حكاه أبو محمد بن حزم. وحكي للإمام أحمد فأنكره. وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية. وهذا ثابت عن ابن عباس. ذكره أبوداود عنه. قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالف السنة. فيرد إلى السنة. انتهى.

وهو قول طاوس وعكرمة. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يفرق بين المدخول بها وغيرها. فتقع الثلاث بالمدخول بها. وتقع بغيرها واحدة. وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس. وهو مذهب إسحاق بن راهويه، فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء.

فأما من لم يوقعها جملة؛ فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرم. والبدعة مردودة. وقد اعترف أبو محمد بن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة لوجب أن ترد وتبطل. ولكنه اختار مذهب الشافعي: أن جمع الثلاث جائز غير محرم. وستأتي حجة هذا القول. **وأما من جعلها واحدة.** فاحتج بالنص والقياس.

فأما النص: فما رواه معمر وابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه: «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ قال: نعم» رواه مسلم في صحيحه. **وفي لفظ:** «لم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى واحدة؟ قال: نعم».

وقال أبوداود: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عبد الرزاق؛ أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع - مولى رسول الله ﷺ - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة. ونكح امرأة من مزينة، فجاءت

النبي ﷺ. فقالت: ما يغني عني إلا كما تعني هذه الشعرة - لشعرة أخذتها من رأسها - ففرق بيني وبينه. فأخذت النبي ﷺ حمية؛ فدعا بركانة وإخوته؛ ثم قال لجلسائه: «ألا ترون أن فلاناً يشبه منه كذا وكذا - من عبد يزيد - وفلاناً يشبه كذا وكذا؟» قالوا: نعم. قال النبي ﷺ، لعبد يزيد: «طلقها». ففعل. ثم قال: «راجع امرأتك أم ركانة وإخوته». فقال: إني طلقته ثلاثاً يا رسول الله. قال: «قد علمت. راجعها». وتلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. [الطلاق: ١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبدالله بن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد - أخو بني المطلب - امرأته ثلاثاً في مجلس واحد. فحزن عليها حزناً شديداً. قال: فسأله رسول الله ﷺ: «كيف طلقته؟» فقال: طلقته ثلاثاً. فقال: «في مجلس واحد؟» قال: نعم. قال: «فإنها تلك واحدة. فأرجعها إن شئت». قال: فراجعتها. وكان ابن عباس يرى: إنها الطلاق عند كل طهر.

قالوا: وأما القياس؛ فقد تقدم أن جمع الثلاث محرم وبدعة. والبدعة مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ.

قالوا: وسائر ما تقدم في بيان التحريم يدل على عدم وقوعها جملة.

قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾. [النور: ٦]. وقوله: ﴿وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾. [النور: ٨]. لكفى.

قالوا: وكذلك كل ما يعتبر له التكرار: من حلف، أو إقرار، أو شهادة. وقد قال النبي ﷺ، «تحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم» فلو قالوا: نحلف بالله خمسين يمينا أن فلاناً قتله. كانت يمينا واحدة.

قالوا: وكذلك الإقرار بالزنى، كما في الحديث: إن بعض الصحابة قال لما عز: إن أقررت أربعاً رجمك رسول الله ﷺ فهذا لا يعقل أن يكون الأربع فيه مجموعة بفم واحد.

وأما الذين فرقوا بين المدخول بها وغيرها؛ فلمهم حجتان:

إحدهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح : عن طاوس : أن رجلاً يقال له :
أبوالصهباء كان كثير السؤال لابن عباس . . قال له : «أما علمت أن الرجل كان
إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها ؛ جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ ،
وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمر الناس قد تتابعوا فيها^(١) قال :
أجيزهن عليهم» .

الحجة الثانية : أنها تبين بقوله : أنت طالق ، فيصادفها ذكر الثلاث وهي بائن ؛
فيلغو . ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها . وحديث أبي
الصهباء في غير المدخول بها .

قالوا: ففي هذا التفريق موافقة المنقول من الجانبين ، وموافقة القياس .
وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى ، كما حكاه أبو محمد بن
حزم وغيره . ولكن عدم الوقوع جملة ؛ هو مذهب الإمامية . وحكوه عن جماعة من
أهل البيت .

قال الموقعون للثلاث : الكلام معكم في مقامين :

أحدهما: تحريم جمع الثلاث .

والثاني: وقوعها جملة . ولو كانت محرمة . ونحن نتكلم معكم في المقامين .

فأما الأول: فقد قال الشافعي ، وأبو ثور ، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات

عنه ، وجماعة من أهل الظاهر : إن جمع الثلاث سنة .

واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

غَيْرُهُ ﴾ . [البقرة: ٢٣٠] . ولم يفرق بين أن تكون الثلاث مجموعة أو مفرقة . ولا يجوز

أن نفرق بين ما جمع الله بينه ، كما لا يجمع بين ما فرق الله بينه .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ . [البقرة: ٢٣٧] . ولم

يفرق .

وقال: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ الآية . [البقرة: ٢٣٦] .

ولم يفرق .

وقال: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . [البقرة: ٢٤١] . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ . [الأحزاب: ٤٩] .

(١) التتابع - بالياء المثناة قبل العين - الوقوع والسقوط بجهالة .

ولم يفرق .

قالوا: وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «أن عويمراً العجلاني طلق امرأته ثلاثاً - بعد أن لاعنها - بحضرة رسول الله ﷺ، قبل أن يأمره بطلاقها» .
قالوا: فلو كان جمع الطلاق الثلاث معصية لما أقره عليه رسول الله ﷺ . ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان . فإن كان الأول؛ فالحجة عليه ظاهرة، وإن كان الثاني؛ فلا شك أنه طلقها وهو يظنها امرأته، فلو كان حراماً لبين له رسول الله ﷺ وإن كانت قد حرمت عليه . . .
 ...^(١) قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ . [البقرة: ٢٢٩] .

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس، خالفت النص والإجماع، وفي الآية دليل على جوازه مطلقاً بإذن السلطان وغيره .

ومنعه طائفة بدون إذنه . والأئمة الأربعة، والجمهور؛ على خلافه .

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه «فدية» ولو كان رجعيّاً - كما قال بعض الناس - لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له .
ودل قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ . على جوازه بما قل وكثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما .

وقد ذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن عبدالله بن محمد بن عقيل؛ أن الرُّبِيع بنت معوذ بن عفراء حدثته: «أنها اختلعت من زوجها بكل شيء تملكه . فخصم في ذلك إلى عثمان بن عفان فأجازه . وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه» .

وذكر أيضاً: عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع؛ أن ابن عمر «جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها، حتى نُقِبَتْهَا» .

ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نشزت عن زوجها فقال: «اخلعها ولو من قرطها» . ذكره حماد بن سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير، عنه .

وذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب: «لا يأخذ منها فوق ما أعطاهما» .

وقال طاوس : « لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها » .
 وقال عطاء : « إن أخذ زيادة على صداقها فالزيادة مردودة إليها » .
 وقال الزهري : « لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها » .
 وقال ميمون بن مهران : « إن أخذ منها أكثر مما أعطاه لم يُسَرَّحْ بإحسان » .
 وقال الأوزاعي : « كانت القضاة لا تجيز أن يأخذ منها شيئاً إلا ما ساق إليها » .
 والذين جوزوه ؛ احتجوا بظاهر القرآن وآثار الصحابة .
 والذين منعه ؛ احتجوا بحديث أبي الزبير ؛ أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خلع امرأته . قال النبي ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم ، وزيادة . فقال النبي ﷺ : « أما الزيادة فلا » قال الدارقطني : سمعه أبو الزبير من غير واحد . وإسناده صحيح .

قالوا : والآثار من الصحابة مختلفة . فمنهم من روي عنه تحريم الزيادة .
 ومنهم من روي عنه إباحتها . ومنهم من روي عنه كراهتها .
 كما روي عن وكيع ، عن أبي حنيفة ، عن عمار بن عمران الهمداني ، عن أبيه ، عن علي ؛ « أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها » والإمام أحمد أخذ بهذا القول ، ونص على الكراهة . وأبو بكر من أصحابه حرم الزيادة . وقال : تُردُّ عليها .
 وقد ذكر عبدالرزاق : عن ابن جريج قال : قال لي عطاء : أتت امرأة رسول الله ﷺ . فقالت : يا رسول الله ، إني أبغض زوجي ، وأحب فراقه . قال : « فتردين عليه حديقته التي أصدقك ؟ » قالت : نعم ، وزيادة من مالي . فقال رسول الله ﷺ : « أما الزيادة من مالك فلا . ولكن الحديقة » . قالت : نعم . فقضي بذلك على الزوج . وهذا - وإن كان مرسلًا - فحديث أبي الزبير موقوف له . وقد رواه ابن جريج عنها .

فصل

وفي تسميته الخلع فدية دليل على أن فيه معنى المعاوضة

ولهذا اعتبر فيه رضی الزوجين . فإذا تقايلا الخلع ، ورد عليها ما أخذ منها ، وارتجعا في العدة : فهل لهما ذلك ؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم . وقالوا : قد بان منه بنفس الخلع .
 وذكر عبدالرزاق : عن معمر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ؛ أنه قال في

المختلعة: «إن شاء أن يراجعها فليرد عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعتها».

قال معمر: وكان الزهري يقول ذلك. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يراجعها إلا بخطبة. ولقول سعيد بن المسيب والزهري وجه دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعد الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه؛ غير أن العمل على خلافه؛ فإن المرأة مادامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاقه المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تقايلا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما؛ لم تمنع قواعد الشرع ذلك. وهو بخلاف ما بعد العدة. فإنها قد صارت عنه أجنبية محضة، فهو خاطب من الخطاب ويدل على هذا؛ أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره اهـ.

^(١) **وقد ثبت بالنص والإجماع؛** أنه لا رجعة في الخلع، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة؛ أن العدة فيه حيضة واحدة. وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين، ووقوع ثالثة بعده. وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق فإنه سبحانه قال: ﴿الطَّلَاق مَرَّتَانٍ. فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٌ بِإِحْسَانٍ. وَلَا يُحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا - وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين - فإنه يتناولها وغيرها. ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويحلى منه المذكور، بل إما أن يختص بالسابق، أو يتناوله وغيره.

ثم قال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾. [البقرة: ٢٣٠]. وهذا يتناول من طُلِّقَتْ بعد فدية وطلقتين قطعاً؛ لأنها هي المذكورة، فلا بد من دخولها تحت اللفظ. فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق؛ دل على أنها من غير جنسه.

فهذا مقتضى النص والقياس، وأقوال الصحابة.

ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها؛ يعد الخلع فسخاً، بأي لفظ كان، حتى بلفظ الطلاق. وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار

شيخنا. قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه.
قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار؛ أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: «ما أجازته المال فليس بطلاق».

قال عبدالله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس.
وقال عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق».
وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: «كان أبي لا يرى الفداء طلاقاً، ويخيره».
ومن اعتبر الألفاظ، ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود؛ جعله بلفظ الطلاق طلاقاً، وقواعد الفقه وأصوله؛ تشهد أن المرعي في العقود حقائقها ومعانيها، لا صورها وألفاظها. وبالله التوفيق.
ومما يدل على هذا؛ أن النبي ﷺ «أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع تطليقة، ومع هذا؛ أمرها أن تعتد بحیضة» وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضاً: فإنه سبحانه علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يعين الله سبحانه لها لفظاً معيناً، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة، والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة. وبالله التوفيق.

... **ومن** (١) ذلك لفظ الفدية، أدخل فيه طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد الفدية؛ إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث، وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله، وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها، واشترطت له لفظاً معيناً، وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعاً إلا به، وأولئك تجاوزوا به، وهؤلاء قصرُوا به.

والصواب أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان، والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني؛ فلا فرق قطً بين أن تقول: «اخلعني بألف» أو: «فادني بألف» لا حقيقة ولا شرعاً، ولا لغة ولا عرفاً؛ وكلام ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك، لم يقيد أحدهما بلفظ، ولا استثنى لفظاً دون لفظ، بل قال ابن عباس: عامة طلاق أهل اليمن الفداء.

وقال الإمام أحمد: الخلع فرقة، وليس بطلاق، وقال: الخلع ما كان من جهة النساء، وقال: ما أجازته المال فليس بطلاق، وقال: إذا خالَعَهَا بعد تطليقتين فإن شاء راجَعَهَا فتكون معه على واحدة.

وقال في رواية أبي طالب: الخلع مثل حديث سهلة: إذا كرهت المرأة الرجل وقالت: لا أبرُّكَ قَسَمًا، ولا أطيع لك أمرًا، ولا أغتسل لك من جنبه، فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاه؛ لأن النبي ﷺ، قال: «أَتُرْدِينَ عليه حَدِيثَهُ؟». **قلت:** وقد قال في الحديث: «أَقْبِلِ الْحَدِيثَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً» وجعل أحمد ذلك فداءً.

وقال ابن هانئ: سئل أبو عبد الله عن الخلع: أفسخ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس، كان يقول فرقة وليس بطلاق؟ فقال أبو عبد الله: كان ابن عباس يتأول هذه الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وكان ابن عباس يقول: هو فداء، قال ابن عباس: ذكر الله الطلاق في أول الآية، والفداء في وسطها، وذكر الطلاق بعد؛ فالفداء ليس هو بطلاق، وإنما هو فداء، فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه، وهذا هو الصواب؛ فإن الحقائق لا تتغير بتغيير الألفاظ، وهذا باب يطول تتبعه.

(١) فصل

ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. [البقرة: ٢٣٠]. والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلل والمحلل له، وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فلم يجعلوه زوجًا، وأبطلوا نكاحه، ولعنوه.

وأعجب من هذا قول بعضهم: نحن نحتج بكونه سَمَاءً «محللاً» فلولا أنه أثبت الحل لم يكن محللاً.

فيقال: هذه من العظام، فإن هذا يتضمن أن رسول الله ﷺ لعن من فعل السنة التي جاء بها، وفعل ما هو جائز صحيح في شريعته؛ وإنما سَمَاءً محللاً لأنه

أحلّ ما حرّم الله، فاستحقّ اللعنة. فإن الله سبحانه حرّمها على المطلق، حتى تنكح زوجاً غيره، والنكاح اسم في كتاب الله وسُنّة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحاً، وهو الذي شرع إعلانهُ، والضربُ عليه بالدّفوف، والوليمة فيه، وجُعِلَ للإيواء والسكن، وجعله الله مودّةً ورحمةً، وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل. فإن المحلل لم يدخل على نفقة، ولا كسوة، ولا سُكنى، ولا إعطاء مهر، ولا يحصل به نسب ولا صهر، ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخل عاريةً، كالتيس المستعار للضراب، ولهذا شبهه به النبي ﷺ، ثم لعنه، فعُلم قطعاً لا شك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور في القرآن، ولا نكاحه هو النكاح المذكور في القرآن.

وقد فطر الله سبحانه قلوب الناس على أن هذا ليس بنكاح، ولا المحلل بزواج، وأن هذا منكر قبيح، تُعير به المرأة والزوج، والمحلل والولي، فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله، وأحبّه، وأخبر أنه سنته، ومن رغب عنه فليس منه؟.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠].
أي: فإن طلقها هذا الثاني، فلا جناح عليها وعلى الأول أن يتراجعا، أي: ترجع إليه بعقد جديد، فأتى بحرف «إن» الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يُقيم، والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكّن الزوج فيه من الأمرين، بل يشرطون عليه أنه متى وطئها فهي طالق، ثم لما علموا أنه قد لا يُخبر بوطئها ولا يُقبل قولها في وقوع الطلاق، انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط إخبار المرأة بأنه دخل بها. فبمجرد إخبارها بذلك تطلق عليه. والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سبباً لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطئ، كان وطؤه سبباً لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله...

...^(١) ولا ريب أن من تدبّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع؛ جزم بتحريم الحيل وبطلانها. فإن القرآن دلّ على أن المقاصد والنيّات معتبرة في التصرف والعادات، كما هي معتبرة في القُرّبات والعبادات، فيجعلُ الفعل حلالاً أو حراماً، وصحيحاً

أو فاسدًا، وصحيحًا من وجه، فاسدًا من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدًا في الكتاب والسنة.

وقد سمي الله سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثًا بعد الزوج الثاني مراجعة؛ فقال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾. [البقرة: ٢٣٠]. أي: إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الأول؛ أن يتراجعا نكاحًا مستأنفًا.

فمنها: قوله تعالى في آية الرجعة: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾. [البقرة: ٢٣١]. وذلك نصٌّ في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصّد الصلاح، دون الضرر، فإذا قصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعية.

...^(١) اسم «المراجعة» في لسان الشارع؛ قد يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء عقد، وقد يكون مع تشعته، فيكون إمساكًا.

^(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. [النساء: ١٩]. فهذا دليل على أنه إذا عضّلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحلّ له أخذ ما بذلته له ولا يملكه بذلك.

ومنها: قوله تعالى في آية الخلع: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه؛ إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنّا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العود. ظنّ إقامة حدوده.

^(٣) وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانها^(٤). فقال: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾. [البقرة: ١٨٧].

(١) ٥٤ زاد المعاد جـ ٤.

(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ ١.

(٤) بالنسخة (قربانه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(٣) ٢٦ مدارج جـ ٢.

وقال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك؛ أوائل الحرام. **يقول** سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

(١) فصل

وأما تفريقه في العدة بين الموت والطلاق وعدة الحرة وعدة الأمة وبين الاستبراء والعدّة، مع أن المقصود العلم ببراءة الرحم في ذلك كله، فهذا إنما يتبين وجهه إذا عُرِفَت الحكمة التي لأجلها شرعت العدة وعرف أجناس العدد وأنواعها. **فأما** المقام الأول ففي شرع العدة عدّة حِكَم:

منها: العلم ببراءة الرحم، وأن لا يجتمع ماء الواطئين فأكثر في رحم واحد، فتختلط الأنساب وتفسد، وفي ذلك من الفساد ما تمنعه الشريعة والحكمة.

ومنها: تعظيم خَطَر هذا العقد، ورفع قدره، وإظهار شرفه.

ومنها: تطويل زمان الرجعة للمطلق؛ إذ لعله أن يندم ويفيء فيصادف زمناً يتمكن فيه من الرجعة.

ومنها: قضاء حق الزوج، وإظهار تأثير فقدّه في المنع من التزين والتجمل، ولذلك شرع الإحداد عليه أكثر من الإحداد على الوالد والولد.

ومنها: الاحتياط لحق الزوج، ومصلحة الزوجة، وحق الولد، والقيام بحق الله الذي أوجبه؛ ففي العدة أربعة حقوق.

وقد أقام الشارع الموت مقام الدخول في استيفاء المعقود عليه؛ فإن النكاح مدته العمر، ولهذا أقيم مقام الدخول في تكميل الصداق، وفي تحريم الرّبيبة عند جماعة من الصحابة ومن بعدهم، كما هو مذهب زيد بن ثابت وأحمد في إحدى الروايتين عنه؛ فليس المقصود من العدة مجرد براءة الرحم، بل ذلك من بعض مقاصدها وحكمها.

المقام الثاني في أجناسها، وهي أربعة في كتاب الله، وخامس بسنة رسول الله ﷺ:

الجنس الأول: أمُّ بابِ العِدَّةِ ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

[الطلاق: ٤].

الثاني: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

الرابع: ﴿وَاللَّائِي يَشْنُ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ

أَشْهُرٍ﴾. [الطلاق: ٤].

الخامس: قول النبي ﷺ: «لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا حَائِلٌ حَتَّى

تُسْتَبْرَى بِحَيْضَةٍ».

ومقدمٌ هذه الأجناس كلها الحاكم عليها كلها وضع الحمل، فإذا وجد فالحكم له، ولا التفات إلى غيره، وقد كان بين السلف نزاع في المتوفى عنها أنها تتربص أبعد الأجلين، ثم حصل الاتفاق على انقضائها بوضع الحمل.

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت، سواء دخل بها أو لم يدخل، كما دل عليه عموم القرآن والسنة الصحيحة واتفاق الناس؛ فإن الموت لما كان انتهاء العقد وانقضاءه؛ استقرت به الأحكام: من التوارث، واستحقاق المهر.

وليس المقصود بالعدة هاهنا مجرد استبراء الرحم كما ظنه بعض الفقهاء؛ لوجوبها قبل الدخول، ولحصول الاستبراء بحَيْضَةٍ واحدة، ولاستواء الصغيرة والأيسة وذوات القُرْوء في مدتها، فلما كان الأمر كذلك قالت طائفة: هي تعبدٌ محضٌ لا يعقل معناه، وهذا باطل لوجوه:

منها: أنه ليس في الشريعة حكم واحد إلا وله معنى وحكمة يعقله مَنْ عَقَلَهُ وَيُخْفِي عَلَى مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ.

ومنها: أن العِدَّةَ ليست من باب العبادات المحضة؛ فإنها تجب في حق الصغيرة والكبيرة والعاقلة والمجنونة والمسلمة والذمية، ولا تقتصر إلى نية.

ومنها: أن رعاية حق الزوجين والولد والزوج الثاني ظاهر فيها؛ فالصواب أن يقال: هي حريم لانقضاء النكاح لما كمل، ولهذا تجد فيها رعاية لحق الزوج وحرمة له.

ألا ترى أن النبي ﷺ كان من احترامه ورعاية حقوقه تحريم نسائه بعده .
ولما كانت نساؤه في الدنيا هن نسائه في الآخرة قطعاً ، لم يحل لأحد أن يتزوج
بهن بعده ، بخلاف غيره ؛ فإن هذا ليس معلوماً في حقه ، فلو حرمت المرأة على
غيره لتضررت ضرراً محققاً بغير نفع معلوم ، ولكن لو تأيَّمت على أولادها كانت
محمودة على ذلك .

وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في احترام حق الزوج ، وتعظيم حريم هذا العقد
غاية المبالغة : من تربص سنة في شريابها وحفش بيتها ، فخفف الله عنهم ذلك
بشريعته التي جعلها رَحمة وحكمة ومصلحة ونعمة ، بل هي من أجل نعمه عليهم
على الإطلاق ، فله الحمد كما هو أهله .

وكانت أربعة أشهر وعشرًا على وفق الحكمة والمصلحة ؛ إذ لا بدّ من مدة
مضروبة لها ، وأولى المدد بذلك المدة التي يعلم فيها بوجود الولد وعدمه ؛ فإنه يكون
أربعين يومًا نُطفة ، ثم أربعين علقة ، ثم أربعين مُضغة ، فهذه أربعة أشهر ، ثم
ينفخ فيه الروح في الطور الرابع ، فقدّر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثم حمل .

فصل

وأما عدة الطلاق فلا يمكن تعليلها بذلك ؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس
بالاتفاق ، ولا ببراءة الرحم ؛ لأنه يحصل بحیضة كالاستبراء ، وإن كان براءة الرحم
بعض مقاصدها . ولا يقال : «هي تعبد» لما تقدم ، وإنما يتبين حكمها إذا عرف ما
فيها من الحقوق ؛ ففيها حق الله ، وهو امتثال أمره وطَلَب مرضاته ، وحق للزوج
المطلق وهو اتساع زمن الرجعة له ، وحق للزوجة ، وهو استحقاقها للنفقة والسكنى
مادامت في العدة ، وحق للولد ، وهو الاحتياط في ثبوت نسبه وأن لا يختلط بغيره ،
وحق للزوج الثاني ، وهو أن لا يسقي ماءه زرع غيره .

ورتب الشارع على كل واحد من هذه الحقوق ما يناسبه من الأحكام ؛ فرتب
على رعاية حقه هو : لزوم المنزل ، وأنها لا تُخْرُج ولا تُخْرُج ، هذا مُوجِب القرآن
ومنصوص إمام أهل الحديث وإمام أهل الرأي .

ورتب على حق المطلق تمكينه من الرجعة مادامت في العدة ، وعلى حقها

استحقاق النفقة والسكنى ، وعلى حق الولد ثبوت نسبه وإلحاقه بأبيه دون غيره ، وعلى حق الزوج الثاني دخوله على بصيرة ورحم بريء غير مشغول بولد لغيره ؛ فكان في جعلها ثلاثة قروء رعاية لهذه الحقوق ، وتكميلاً لها ، وقد دل القرآن على أن العدة حق للزوج عليها بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ . [الأحزاب : ٤٩] .

فهذا دليل على أن العدة للرجل على المرأة بعد المسيس ، وقال تعالى : ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ ، إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ . [البقرة : ٢٢٨] . فجعل الزوج أحق بردها في العدة ؛ فإذا كانت العدة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر طالّت مدة التربص لينظر في أمرها هل يمسكها بمعروف أو يُسرحها بإحسان .

كما جعل الله سبحانه للمولي تربص أربعة أشهر لينظر في أمره هل يفىء أو يطلق .

وكما جعل مدة تسير الكفار أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ويختاروا لأنفسهم .

فإن قيل : هذه العلة باطلة ؛ فإن المختلعة والمفسوخ نكاحها بسبب من الأسباب ، والمطلقة ثلاثاً ، والموطوءة بشبهة ، والمزني بها تعتد بثلاثة أقراء ، ولا رجعة هناك ، فقد وُجد الحكم بدون علته ، وهذا يبطل كونها علة .

قيل : شرط النقض أن يكون الحكم في صورة ثابتاً بنص أو إجماع ، وأما كونه قولاً لبعض العلماء فلا يكفي في النقض به .

وقد اختلف الناس في عدة المختلعة ؛ فذهب إسحاق وأحمد في أصح الروايتين عنه دليلاً : أنها تعتد بحيضة واحدة ، وهو مذهب عثمان بن عفان وعبدالله بن عباس ، وقد حكى إجماع الصحابة ولا يعلم لها مخالف ، وقد دلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة دلالة صريحة ، وعُدُّ مَنْ خالفها أنها لم تبلغه ، أو لم تصح عنده ، أو ظن الإجماع على خلاف موجبها ، وهذا القول هو الراجح في الأثر والنظر :

أما رجحانه أثراً فإن النبي ﷺ لم يأمر المختلعة قط أن تعتد بثلاث حيض ، بل قد رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنْهُ ، من حديث الربيع بنت معوذٍ ؛ أن ثابت بن قيس ضَرَبَ امرأته فكسر يدها ، وهي جميلة بنت عبدالله بن أبيّ ، فأَتَى أَخُوها يشتكي إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت ، فقال : «خذ الذي لها عليك

وخلَّ سبيلها» قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة وتلحق بأهلها. وذكر أبوداود، والنسائي: من حديث ابن عباس؛ أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أو أمرت أن تعتد بحيضة، قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة، وهذه الأحاديث لها طرق يصدق بعضها بعضاً. وأعلل الحديث بعلتين: أحدهما: إرساله، والثانية: أن الصحيح فيه «أمرت» بحذف الفاعل، والعلتان غير مؤثرتين؛ فإنه قد روي من وجوه متصلة، ولا تعارض بين أمرت وأمرها رسول الله ﷺ؛ إذ من المحال أن يكون الأمر لها بذلك غير رسول الله ﷺ في حياته، وإذا كان الحديث قد روي بلفظ محتمل ولفظ صريح يفسر المحتمل ويبينه، فكيف يجعل المحتمل معارضاً للمفسر بل مقدماً عليه؟ ثم يكفي في ذلك فتاوى أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ: هو إجماع من الصحابة. وأما اقتضاء النظر له فإن المختلعة لم تَبَقْ لزوجها عليها عدة، وقد ملكت نفسها وصارت أحقَّ بْبُضْعِها، فلها أن تتزوج بعد براءة رحمها، فصارت العدة في حقها بمجرد براءة الرحم، وقد رأينا الشريعة جاءت في هذا النوع بحيضة واحدة، كما جاءت بذلك في المَسْبِيَّة والمملوكة بعقد معاوضة أو تبرع والمهاجرة من دار الحرب، ولا ريب أنها جاءت بثلاثة أقرء في الرجعية، والمختلعة فرعٌ متردد بين هذين الأصلين؛ فينبغي إلحاقها بأشبهها بها؛ فنظرنا فإذا هي بذوات الحيضة أشبه. ومما يبين حكمة الشريعة في ذلك؛ أن الشارع قسم النساء إلى ثلاثة أقسام: أحدها: المفارقة قبل الدخول؛ فلا عدة عليها ولا رجعة لزوجها فيها.

الثاني: المفارقة بعد الدخول إذا كان لزوجها عليها رجعة، فجعل عدتها ثلاثة قروء، ولم يذكر سبحانه العدة بثلاثة قروء إلا في هذا القسم، كما هو مصرح به في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ، إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ، إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وكذا في سورة الطلاق لما ذكر الاعتداد بالأشهر الثلاثة في حق مَنْ إذا بلغت أحلها خيرَ زوجها بين إمساكها بمعروف أو مفارقتها بإحسان، وهي الرجعية قطعاً، فلم يذكر الأقرء أو بدَّلها في حق بائن ألبتة.

القسم الثالث: مَنْ بَانتَ عَنْ زَوْجِهَا وَانْقَطَعَ حَقُّهَا بِسَبْيٍ أَوْ هِجْرَةٍ أَوْ خُلْعٍ؛ فجعل عدتها حيضة للاستبراء، ولم يجعلها ثلاثاً؛ إذ لا رجعة للزوج، وهذا في غاية الظهور والمناسبة.

وأما الزانية والموطوءة بشبهة فموجبُ الدليل أنها تُستبرأ بحيضة فقط، ونص عليه أحمد في الزانية، واختاره شيخنا في الموطوءة بشبهة، وهو الراجح، وقياسهما على المطلقة الرجعية من أبعد القياس وأفسده.

فإن قيل: فهب أن هذا قد سلم لكم فيما ذكرتم من الصور، فإنه لا يُسلم معكم في المطلقة ثلاثاً؛ فإن الإجماع منعقد على اعتدادها بثلاثة قروء مع انقطاع حق زوجها من الرجعة، والقصد مجرد استبراء رحمها.

قيل: نعم هذا سؤال وارد، وجوابه من وجهين:
أحدهما: أنه قد اختلف في عدتها: هل هي بثلاثة قروء أو بقرء واحد؟ فالجمهور - بل الذي لا يعرف الناس سواه - أنها ثلاثة قروء.

وعلى هذا فيكون وجهه أن الطَّلقة الثالثة لما كانت من جنس الأولين أعطيت حكمهما؛ ليكون باب الطلاق كله باباً واحداً، فلا يختلف حكمه؛ والشارع إذا علّق الحكم بوصف لمصلحة عامة لم يكن تخلف تلك المصلحة والحكمة في بعض الصور مانعاً من ترتب الحكم، بل هذه قاعدة الشريعة وتصرفها في مصادرها ومواردها.

الوجه الثاني: أن الشارع حرّمها عليه حتى تنكح زوجاً غيره، عقوبة له، ولعن المحلّل والمحلّل له؛ لمناقضتهما ما قصده الله سبحانه من عقوبته؛ وكان من تمام هذه العقوبة أن طَوَّل مدة تحريمها عليه؛ فكان ذلك أبلغ فيما قصده الشارع من العقوبة، فإنه إذا علم أنها لا تحل له حتى تعتد بثلاثة قروء، ثم يتزوجها آخر بنكاح رغبة مقصود لا تحليل مُوجبٍ لِلْعَتَةِ، ويفارقها، وتعتد من فراقه ثلاثة قروء آخر، طال عليه الانتظار، وعيّل صبره، فأمسك عن الطلاق الثلاث، وهذا واقع على وفق الحكمة والمصلحة والزجر؛ فكان التبرص بثلاثة قروء في الرجعية نظراً للزوج ومراعاة لمصلحته لما لم يوقع الثالثة المحرمة لها، وههنا كان تربصها عقوبة له ورجراً لما أوقع الطلاق المحرم لما أحل الله له، وأكدت هذه العقوبة بتحريمها عليه إلا بعد زوج وإصابة وتبرص ثان.

وقيل: بل عدتها حيضة واحدة، وهي اختيار أبي الحسين بن اللبان؛ فإن كان مسبقاً بالإجماع فالصواب اتباع الإجماع، وأن لا يلتفت إلى قوله، وإن لم يكن في المسألة إجماع فقوله قوي ظاهر، والله أعلم.

فإن قيل: فقد جاءت السنة بأن المخيرة تعتد ثلاث حيض، كما رواه ابن ماجه من حديث عائشة قالت: أَمَرْتُ بَرِيرَةَ أَنْ تَعْتَدَ ثَلَاثَ حِيضٍ.

قيل: ما أَصْرَحَ من حديث لو ثبت! لكنه حديث منكر بإسناد مشهور، وكيف يكون عند أم المؤمنين هذا الحديث وهي تقول: الأقرء الأطهار؟ فإن صح الحديث وجب القول به، ولم تسع مخالفته، ويكون حكمه حكم المطلقة ثلاثاً في اعتدادها بثلاثة قروء ولا رجعة لزوجها عليها؛ فإن الشارع يخص بعض الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن ببعض الأحكام، وإن لم يظهر لنا موجب التخصيص، فكيف وهو ظاهر في مسألة المخيرة، فإنها لو جعلت عدتها حيضة واحدة لبادرت إلى التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيض طال زمن انتظارها وحسبها عن الأزواج، ولعلها تتذكر زوجها فيها وترغب في رجعته، ويحول ما عندها من الوحشة، ولو قيل: إن اعتداد المختلعة بثلاث حيض لهذا المعنى بعينه؛ لكان حسناً على وفق حكمة الشارع، ولكن هذا مفقود في المسبية والمهاجرة والزانية والموطوءة بشبهة.

فإن قيل: فهَبْ أن هذا كله قد سلم لكم، فكيف يسلم لكم في الآيسة والصغيرة التي لا يوطأ مثلها؟

قيل: هذا إنما يرد على مَنْ جعل علة العدة مجرد براءة الرحم فقط، ولهذا أجابوا عن هذا السؤال بأن العدة ههنا شرعت تعبدًا محضًا غير معقول المعنى، وأما مَنْ جعل هذا بعض مقاصد العدة وأن لها مقاصد أخر من تكميل شأن هذا العقد واحترامه وإظهار خطره وشرفه فجعل لهم حريم بعد انقطاعه بموت أو فرقة، فلا فرق في ذلك بين الآيسة وغيرها، ولا بين الصغيرة والكبيرة، مع أن المعنى الذي طوِّلت له العدة في الحائض في الرجعية والمطلقة ثلاثاً؛ موجودٌ بعينه في حق الآيسة والصغيرة، وكان مقتضى الحكمة التي تضمنت النظر في مصلحة الزوج في الطلاق الرجعي، وعقوبته وزجره في الطلاق المحرم؛ التسوية بين النساء في ذلك، وهذا ظاهر جدًا، وبالله التوفيق.

فصل

وأما تحريم المرأة على الزوج بعد الطلاق الثلاث، وإباحتها له بعد نكاحها للثاني؛ فلا يَعْرِفُ حكمته إلا مَنْ له معرفة بأسرار الشريعة، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح الكلية فنقول وبالله التوفيق:

لما كان إباحة فَرْجِ المرأة للرجل بعد تحريمه عليه ومنعه منه؛ من أعظم نعم الله عليه، وإحسانه إليه؛ كان جديرًا بشكر هذه النعمة، ومراعاتها، والقيام بحقوقها، وعدم تعريضها للزوال، وتنوعت الشرائع في ذلك بحسب المصالح التي علمها الله في كل زمان ولكل أمة.

فجاءت شريعة التوراة بإباحتها له بعد الطلاق ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه، ولم يبق له سبيل إليها؛ وفي ذلك من الحكمة والمصلحة ما لا يخفى؛ فإن الزوج إذا علم أنه إذا طلق المرأة وصار أمرها بيدها، وأن لها أن تنكح غيره، وأنها إذا نكحت غيره حرمت عليه أبدًا، كان تمسكه بها أشدَّ، وحَذَره من مفارقتها أعظم، وشريعة التوراة جاءت بحسب الأمة الموسوية فيها من الشدة والإصرار ما يناسب حالها.

ثم جاءت شريعة الإنجيل بالمنع من الطلاق بعد التزوج ألبتة، فإذا تزوج بامرأة فليس له أن يطلقها.

ثم جاءت الشريعة الكاملة الفاضلة المحمدية، التي هي أكمل شريعة نزلت من السماء على الإطلاق، وأجلُّها وأعلاها وأقومها بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ بأحسن من ذلك كله وأكمل وأوفق للعقل والمصلحة.

فإن الله سبحانه أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، وأباح لها من الطيبات ما لم يُبيحْه لأمة غيرها.

فأباح للرجل أن ينكح من أطايب النساء أربعًا، وأن يتسرَّى من الإماء بما شاء، وليس التسرى في شريعة أخرى غيرها.

ثم أكمل لعبده شرَّعه، وأتم عليه نعمته، بأن ملكه أن يفارق امرأته ويأخذ غيرها؛ إذ لعل الأولى لا تصلح له ولا توافقه، فلم يجعلها غلاً في عنقه، وقيداً في رجله، وإصرًا على ظهِّره، وشرع له فراقها على أكمل الوجوه لها وله، بأن يفارقها

واحدة ثم تترىص ثلاثة قروء، والغالب أنها في ثلاثة أشهر، فإن تَأَقَّتْ نفسه إليها، وكان له فيها رغبة، وَصَرَّفَ مُقَلَّبَ القلوب قلبه إلى محبتها، وَجَدَ السبيلَ إلى ردها ممكنًا، والباب مفتوحًا، فراجع حبيبته، واستقبل أمره، وعاد إلى يده ما أخرجته يد الغضب ونزغات الشيطان منها.

ثم لا يؤمن غلبات الطباع ونزغات الشيطان من المعادة، فممكن من ذلك أيضًا مرة ثانية، ولعلها أن تذوق من مرارة الطلاق وخراب البيت ما يمنعها من معادة ما يغضبه، ويدوق هو من ألم فراقها ما يمنعه من التسرع إلى الطلاق، فإذا جاءت الثالثة جاء مالا مَرَدُّ له من أمر الله، وقيل له: قد اندفعت حاجتك بالمرّة الأولى والثانية، ولم يبق لك عليها بعد الثالثة سبيل، فإذا علم أن الثالثة فراقٌ بينه وبينها وأنها القاضية أمسك عن إيقاعها، فإنه إذا علم أنها بعد الثالثة لا تحلُّ له إلا بعد تربص ثلاثة قروء وتزوج بزواج راغب في نكاحها وإمساكها، وأن الأول لا سبيل له إليها حتى يدخل بها الثاني دخولًا كاملاً يذوق فيه كل واحد منهما عُسِيلَةً صاحبه؛ بحيث يمنعهما ذلك من تعجيل الفراق ثم يفارقها: بموت أو طلاق أو خلع ثم تعتدُّ من ذلك عدةً كاملة؛ تبين له حينئذ يأسه بهذا الطلاق الذي هو من أبغض الحلال إلى الله، وعلم كل واحد منهما أنه لا سبيل له إلى العود بعد الثالثة، لا باختياره ولا باختيارها، وأكد هذا المقصود بأن لَعَنَ الزوج الثاني إذا لم ينكح نكاح رغبة يقصد فيه الإمساك، بل نكح نكاح تحليل، ولعن الزوج الأول إذا رَدَّهَا بهذا النكاح، بل ينكحها الثاني كما نكحها الأول، ويطلقها كما طلقها الأول، وحينئذ فتباح للأول كما تباح لغيره من الأزواج.

وَأَنْتَ إذا وازنت بين هذا وبين الشريعتين المنسوختين، ووازنت بينه وبين الشريعة المبدلة المبيحة ما لعن الله ورسوله فاعله، تبين لك عظمة هذه الشريعة، وَجَلَّالَتِهَا، وهيمتها على سائر الشرائع، وأنها جاءت على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنفعها للخلق، وأن الشريعتين المنسوختين خير من الشريعة المبدلة، فإن الله سبحانه شرعهما في وقت، ولم يشرع المبدلة أصلاً.

وهذه الدقائق ونحوها مما يختص الله سبحانه بفهمه من يشاء؛ فمن وصل إليها فليحمد الله، ومن لم يصل إليها فليسلم لأحكام الحاكمين وأعلم العالمين، وليعلم أن شريعته فوق عقول العقلاء وَفَقَّ فِطَرِ الْأَنْبَاءِ:

وفل للعيون الرُّمْد لا تتقدَّمي
وَسَامِح، ولا تنكر عليها، واخلها
إلى الشمس، واستغشي ظلام الليالي
وإن أنكرت حقاً فقل خلّ ذالبا
وقال غيره:

عاب التفقّه قومٌ لا عُقول لهم
ما ضرَّ شمس الضحى والشمس طالعة
وما عليه إذا عابوه من ضرر
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

(١) ذكر حكمه ﷺ في العدد

هذا الباب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان، وأوضحه وأجمعه؛ بحيث لا تشذ عنه معتدة. فذكر أربعة أنواع من العدد. وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل: بوضع الحمل مطلقاً؛ بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة، أو متوفى عنها. فقال: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤]. وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه. وهو ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل. فإنه إضافة إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة بعم. فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان. أما المبتدأ: فظاهر. وأما الخبر - وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ - ففي تأويل مصدر مضاف: أي أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين؛ اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول. كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. [فاطر: ١٥]. وهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها: عدتها وضع حملها. ولو وضعت والزوج على المغتسل، كما أفتى به النبي ﷺ سبعة الأسلمية. وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقاً من كتاب الله مطابقاً له.

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء. كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها. وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة

قد يئست من الحيض . فبين سبحانه عدة النوعين بقوله : ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِيضْنَ﴾ . [الطلاق : ٤] . أي : فعدتهم كذلك .

النوع الرابع : المتوفى عنها زوجها . فبين عدتها بقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ . [البقرة : ٢٣٤] . فهذا يتناول المدخول بها وغيرها ، والصغيرة والكبيرة .

ولا يدخل فيه الحامل ؛ لأنها خرجت بقوله : ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ . [الطلاق : ٤] . فجعل وضع حملهن جميع أجلهن ، وحصره فيه . بخلاف قوله في المتوفى عنهن : ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له .

وأيضاً فإن قوله : ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ . [الطلاق : ٤] . متأخر في النزول عن قوله : ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ . [البقرة : ٢٣٤] .

وأيضاً فإن قوله : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ . في غير الحامل بالاتفاق . فإنها لو تبادى حملها فوق ذلك تربصته . فعمومها مخصوص اتفاقاً . وقوله : ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ . غير مخصوص بالاتفاق . هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك . ووقعت الحوالة على القرآن . فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقرر له ؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله ، مفصلة مبينة .

ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك .

وقد دلت السنة - بحمد الله - على مراد الله منها .

ونحن نذكرها ، ونذكر أولى المعاني وأشبهها ، ودلالة السنة عليها .

فمن ذلك : اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً .

فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة : «أبعد الأجلين : من وضع

الحمل ، أو أربعة أشهر وعشراً» وهذا أحد القولين في مذهب مالك . اختاره سُخْنُونُ .

قال أحمد في رواية أبي طالب عنه : إن علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في

المعتدة الحامل : «أبعد الأجلين» .

وكان ابن مسعود يقول : «من شاء بَاهَلَّتْهُ : إن سورة النساء القصري نزلت بعد» .

وحديث سُبَيْعة يقضي بينهم: «إذا وضعت: فقد حَلَّتْ».

وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] هي في المتوفى عنها. والمطلقة مثلها، إذا وضعت: فقد حلت وانقضت عدتها.

ولا تنقضي عدة الحامل إذا أسقطت حتى يتبين خلقه. فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة. وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر: لم تنقض العدة حتى تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملاً. والعدة من يوم يموت أو يطلق. هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة ابن عباس وأبو هريرة، فقال أبو هريرة: «عدتها وضع الحمل».

وقال ابن عباس: «عدتها أقصى الأجلين» فحكمًا أم سلمة. فحكمت لأبي هريرة. واحتجت بحديث سُبَيْعة. وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع الحمل. ولو كان الزوج على مغتسله، فوضعت؛ حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد تناولها عمومان. وقد أمكن دخولها في كليهما. فلا تخرج من عدتها بيقين حتى يأتي عليها أقصى الأجلين.

قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداها بخصوص الأخرى. لأن كل آية منها عامة من وجه، خاصة من وجه.

قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالاً للعموم في مقتضاه. فإذا اعتدت أقصى الأجلين: دخل أدناهما في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في الصحيحين: أن سُبَيْعة الأسلمية توفّي عنها زوجها، وهي حبل، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبو السنابل: ما أنت بناكحة حتى تعندي آخر الأجلين. فسألت النبي ﷺ فقال: «كذب أبو السنابل قد حلت، فانكحي من شئت».

الثاني: أن قوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤]. وهذا جواب عبدالله بن مسعود. كما في صحيح

البخاري عنه: «أيجعلون عليها التغليف، ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهد لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤].».

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير. فإن ظاهره؛ أن آية سورة الطلاق مقدمة على آية البقرة. لتأخرها عنها فكانت ناسخة لها. ولكن النسخ عند الصحابة والسلف: أعم منه عند المتأخرين. فإنهم يريدون به ثلاثة معان: أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر: إما بتخصيص، وإما بتقييد وهو أعم مما قبله. الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج. وهذا أعم من المعنيين الأولين. فابن مسعود أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة، إن كان عمومها مراداً، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مراداً، أو مبينة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها. وعلى التقديرات الثلاث؛ فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها. وهذا من كمال فقهه ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه، التي هي أصول الفقه؛ سَجِيَّةٌ للقوم وطبيعة لهم، لا يتكلفونها، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك. فمن بعدهم إنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم، وأنى له؟.

(١) الثالث: أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة؛ لكان تقديمها هو الواجب، لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة. ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس؛ أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة. وبالله التوفيق.

فصل

ودل قوله سبحانه: ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. على أنها إذا كانت حاملاً بتوءمين؛ لم تنقض العدة حتى تضعهما جميعاً.

ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدها؛ وضع الحمل أيضاً.

ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان: حياً أو ميتاً، تام

(١) المقصود به الجواب الثالث الذي أجاب به الجمهور عن رأي أصحاب الأجلين وقد سبق الجوابان الأول

الخلقة أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ .

ودل قوله : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بَأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] . على الاكتفاء بذلك . وإن لم تحض . وهذا قول الجمهور . وقال مالك : إذا كانت عاداتها أن تحيض في كل سنة مرة . فتوفي عنها زوجها ؛ لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها ، فتبرأ من عدتها . فإن لم تحض انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته . وعنه رواية ثانية كقول الجمهور : أنها تعتد أربعة أشهر وعشراً . ولا تنتظر حيضها . . .^(١)

...^(٢) **الدليل الثاني :** أن لفظ (القرء) لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض ، ولم يحىء عنه في موضع واحد استعماله للطهر ، فحملة في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع ؛ أولى ، بل متعين . فإنه ﷺ قال للمستحاضة : «دعي الصلاة أيام أقرائك» وهو ﷺ المعبر عن الله تعالى . وبلغه قومه نزل القرآن . فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنيه ؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه ، إذ لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه ألبتة . ويصير هولغة القرآن التي خوطبنا بها . وإن كان له معنى آخر في كلام غيره . ويصير هذا المعنى ؛ الحقيقة الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنيه ، كما يخص المتواطىء بأحد أفرادها . بل هذا أولى ؛ لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القبيلتين الشيء باسم ، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر . ثم تتسع الاستعمالات . بل قال المبرد وغيره : لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة . والواضع لم يضع لفظاً مشتركاً ألبتة ، فإذا ثبت استعمال الشارع لفظ «القرء» في الحيض ؛ علم أن هذه لغته ، فيتعين حمله عليها في كلامه .

يوضح ذلك : ما في سياق الآية من قوله : ﴿لَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ . [البقرة: ٢٢٨] . وهذا هو الحيض . والحمل ، عند عامة المفسرين . والمخلوق في الرحم ؛ إنما هو الحيض الوجودي ، ولهذا قال السلف والخلف : هو الحمل والحيض . وقال بعضهم : الحمل ، وبعضهم : الحيض . ولم يقل أحد قط : إنه الطهر ؛ ولهذا لم ينقله من عني بجمع أقوال أهل التفسير ، كابن الجوزي وغيره .

(١) ذكر الشيخ ابن القيم هنا مانصه باختصار : فصل : ومن ذلك اختلافهم في الأقراء : هل هي الحيض أو

الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة : إنها الحيض . . . وقالت طائفة : الأقراء الأطهار . . . وذكر البحث في عدة

صفحات لمن أراداه . هـ . ج .

وأيضاً: فقد قال سبحانه: ﴿وَاللَّائِي يَشْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ﴾. [الطلاق: ٤]. فجعل كل شهر بإزاء حيضة. وعلق الحكم بعدم الحيض، لا بعدم الطهر من الحيض.

وأيضاً: فحديث عائشة، عن النبي ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي. وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم. ومظاهر؛ لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث. **وفي** لفظ للدارقطني: «طلاق العبد ثنتان»، وروى ابن ماجه: من حديث عطية العوفي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان».

وأيضاً قال ابن ماجه في سننه: حدثنا علي بن محمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: «أمرت بريرة أن تعتد بثلاث حيض».

وفي المسند: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ خير بريرة. فاختارت. وأمرها أن تعتد عدة الحرة» وقد فسر «عدة الحرة» بثلاث حيض في حديث عائشة. **فإن قيل:** فمذهب عائشة: أن الأقراء الأطهار؟

قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذنا بروايته دون رأيه. **وأيضاً:** ففي حديث الربيع بنت معوذ؛ «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شماس - لما اختلعت من زوجها - أن تتربص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها» رواه النسائي.

وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس؛ «أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها؛ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة».

وفي الترمذي؛ «أن الربيع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها رسول الله - أو أمرت - أن تعتد بحيضة» قال الترمذي: حديث الربيع الصحيح: «أنها أمرت أن تعتد بحيضة».

وأيضاً: فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ، قال في سبايا أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة» رواه أحمد وأبو داود.

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحیضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة. كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: «إن استبراء الأمة حیضة بإجماع» ليس كما ظنوا. بل جائز لها عندنا؛ أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها دم حیض. كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه؟

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة».

وأيضاً: فالمقصود الأصلي من العدة؛ إنما هو استبراء الرحم. وإن كان لها فوائد آخر. ولشرف الحرة المنكوحة وخطرها؛ جعل العلم الدال على براءة رحمها: ثلاثة أقراء. فلو كان القراء هو الطهر؛ لم تحصل بالقراء الأول دلالة. فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها ثم حاضت؛ كان ذلك قرءاً محسوباً من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار، ومعلوم أن هذا لم يدل على شيء؛ وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، لو طلقها في طهر لم يصعب فيها؛ فإنها يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق. والعدة لا تكون قبل الطلاق؛ لأنها حكمة. والحكم لا يسبق سببه فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلاً؛ لم يجوز إدخاله في العدة الدالة على براءة الرحم. وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول. ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له...

...^(١) **فإن قيل:** فإذا جعلنا الأقراء الأطهار استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لا بد أن يحمل على فائدة مستقلة. وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقاً، تكون العدة بعده؛ لا فائدة فيه. وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقاً، يستقبلن فيه العدة، لا يستقبلن فيه طهرًا لا تعتد به. فإنها إذا طلقت حائضاً استقبلت طهرًا لا تعتد به. فلم تطلق لاستقبال العدة. ويوضحه قراءة من قرأ: [فَطَلَّقُوهُنَّ فِي قُبُلٍ عِدَّتِهِنَّ]. وقُبُل العدة هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبول الحائض.

يوضحه: أنه لو أريد ما ذكره لقليل: في أول عدتهن. فالفرق بين قُبُل

الشيء وأوله.

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيضة؛ لكان قد طلقها قبل العدة.
فنقول: أجل. وهذا هو الواجب عقلاً وشرعاً: فإن العدة لا تفارق الطلاق ولا تسبقه.. بل يجب تأخيرها عنه.

وقولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها كما لو طلقها في الحيض.

قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لورضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل؛ لم تُبَحْ له. ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تُبَحْ له برضاها، كما يباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيها بإسقاطها بالعوض اتفاقاً، وبدونه في أحد القولين. وهذا مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك. ويقولون: إنما حرم طلاقها في الحيض لأنه طلقها في وقت رغبته عنها. ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها فالتطويل المضر؛ أن يطلقها حائضاً، فنتظر مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة. فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق. وأما إذا طلقت طاهراً؛ فإنها تستقبل العدة عقب انقضاء الطهر. فلا يتحقق التطويل.

وقولكم: «إن القرء مشتق من الجمع؛ وإنما يجمع الحيض في زمن الطهر» عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن هذا ممنوع. والذي هو مشتق من الجمع؛ إنما هو من باب اليائي من المعتل. من قرأ يقرى كقضى يقضى. والقرء من المهموز من باب الهمز. من قرأ يقرأ كنحر ينحر. وهما أصلان مختلفان. فإنهم يقولون: قرئت الماء في الحوض أقربه: أي: جمعته. ومنه سميت القرية. ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه؛ لأنه يقرىها أي: يضمها ويجمعها.

وأما المهموز: فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد. ومنه قراءة القرآن. لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدراً محدداً، لا يزيد ولا ينقص.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

ففرق سبحانه بين الجمع والقرآن. ولو كانا واحداً لكان تكريراً محضاً. ولهذا قال ابن عباس: ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَبَعَ قُرْآنَهُ﴾. [القيامة: ١٨]. «فإذا بيناه» فجعل

قرآنه . نفس إظهاره وبيانه . لا كما زعم أبو عبيدة : أن القرآن مشتق من الجمع .
ومنه اقولهم : ما قرأت هذه الناقة سلى قط ، وما قرأت جنيئاً . هو من هذا الباب ، أي : ما ولدته وأخرجته وأظهرته . ومنه فلان يقرئك ويقرأ عليك السلام ، هو من الظهور والبيان . ومنه قولهم : قرأت المرأة حيضة أو حيضتين : أي حاضتهما ؛ لأن الحيض ظهور ما كان كامناً كظهور الجنين .

ومنه قرء الثريا وقرء الريح وهو الوقت الذي يظهر فيه المطر والريح . فإنهما يظهران في وقت مخصوص .

وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق . وذكره أبو عمرو وغيره . ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر .

وقولكم : إن عائشة قالت : « القروء الأطهار » والنساء أعلم بهذا من الرجال .
فالجواب : أن يقال : جعل النساء أعلم بمراد الله من كتابه وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي الدرداء وأكابر أصحاب النبي ﷺ ؟ فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال ؛ وإلا كانت كل آية نزلت في النساء ؛ تكون النساء أعلم بها من الرجال ، ويجب على الرجال تقليدهن في معناها وحكمها . فيكن أعلم من الرجال بآية الرضاع ، وآية الحيض ، وتحريم وطء الحائض ، وآية عدة المتوفى عنها ، وآية الحمل والفصال ، ومدتهما ، وآية تحريم إبداء الزينة إلا لمن ذكر فيها . وغير ذلك من الآيات التي تتعلق بهن ، وفي شأنهن نزلت . ويجب على الرجال تقليدهن في حكم هذه الآيات ومعناها . وهذا لا سبيل إليه ألبتة .

وكيف ؟ ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل . والرجال أحق بهذا من النساء ، وأوفر نصيباً منهن ، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلا والصواب في جانب الرجال .

وكيف يقال : إذا اختلفت عائشة ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود في مسألة ؛ أن الأخذ بقول عائشة أولى ؟ وهل الأولى إلا قول فيه خليفتان راشدان ، وإن كان الصديق معهما كما حكى عنه ؟ فذلك القول مما لا يعدوه الصواب ألبتة . فإن النقل عن عمر وعلي ثابت . وأما عن الصديق ؛ ففيه غرابة . ويكفي قول جماعة من الصحابة ، فيهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وأبي

الدرداء وأبي موسى . فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟
ثم يقال : فهذه عائشة ترى رضاع الكبير ينشر الحرمة ، ويثبت المحرمية ، ومعها جماعة من الصحابة ، وقد خالفها غيرها من الصحابة . وهي روت فيه حديث التحريم به . فهلا قلتم : النساء أعلم بهذا من الرجال ، ورجحتم قولها على قول من خالفها؟ ونقول لأصحاب مالك : وهذه عائشة لا ترى التحريم إلا بخمس رضعات ومعها جماعة من الصحابة ، وروت منه حديثين ، فهلا قلتم : النساء أعلم بهذا من الرجال ، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم : هذا حكم يتعدى إلى الرجال فيستوي النساء معهم فيه؟
قيل : ويتعدى حكم العدة مثله إلى الرجال . فيجب أن يستوي النساء معهم فيه . وهذا لاخفاء به . ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة بأن رسول الله ﷺ شهد لواحد من هذا الحزب بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه . وقد وافق ربه تبارك وتعالى في عدة مواضع ، قال فيها قولاً فنزل القرآن بمثل ما قال : وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم وأوله بالعلم ، وشهد له بأنه محدث ملهم فإذا لم يكن بد من التقليد؛ فتقليده أولى . وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين فتحكيمها هو الواجب . . .

(١) ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات

وأنه لم يقدرها . ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها . وإنما ردّ الأزواج فيها إلى العرف .

ثبت عنه في صحيح مسلم : أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يوماً : «واتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين : أن هنذا امرأة أبي سفيان قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح ، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني ولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم . فقال : «خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف» .

وفي سنن أبي داود: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن ولا تُقَبِّحوهن» وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [البقرة: ٢٣٣].

والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم وسوى بينهما في عدم التقدير، وردهما إلى المعروف. فقال: «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف» فجعل نفقتهما بالمعروف. ولا ريب أن نفقة الخادم غير مقدرة. ولم يقل أحد بتقديرها.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾. [البقرة: ٢٣٣].

قال: «على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه. قلت له: أيجبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟»

وقال الحسن: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ قال: «على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني» وهذا فسر الآية جمهور السلف. منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبدالله بن عتبة بن مسعود. وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبدالرزاق، وأبوحنيفة، وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه. وإنما ذلك برّ وصلة. وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي.

قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي قال: «ما رأيت أحداً أجبر أحداً على أحد. يعني: على نفقته».

وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر. والشعبي أفقه من هذا. والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنى أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج. فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى وأمه التي ولدته خاصة .
فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين . فأما
نفقة الأولاد: فإن الرجل يجبر على نفقه ابنه الأدنى ، حتى يبلغ فقط . وعلى نفقة
بنته الدنيا حتى تزوج . ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا . . . (١)

فصل (٢)

فإن قيل: فما تقولون في وجوب الإنفاق على الأقارب مع اختلاف الدين؟ لقوله تبارك
وتعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ . [البقرة: ٢٣٣] . واختلاف الدين يمنع الميراث .

قيل: أما الأقارب مطلقاً فلا تجب نفقتهم مع اختلاف الدين .

وأما عمود النسب ففيهم روايتان: إحداهما: لا تجب نفقتهم لذلك .

والثانية: يجب ، لتأكد قرابتهم بالعصبة . وحكى بعض الأصحاب في وجوب
نفقة الأقارب مطلقاً - مع اختلاف الدين - أنه إن منع وجوب الإنفاق منع في سائر
الأقارب ، وإن لم يكن مانعاً لم يمنع في حق قرابة الكلاله ، كالرق والغنى . فأما أن
يكون مانعاً في قرابة دون قرابة فلا وجه له ؛ ولا يصح التعليل بتأكد : القرابة ، لأن
الأخ والأخت أقرب من أولاد البنات . والذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق
وإن اختلف الدينان ، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حُسْنًا﴾ . [العنكبوت: ٨] . ﴿وإن جَاهَدَاكَ على أن تشرَّكَ بي ما ليس لك به علم فلا
تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ . [لقمان: ١٥] .

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة ،
وهو في غاية الغنى .

وقد ذم الله تبارك وتعالى قاطعي الرحم ، وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة .
قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ . [النساء: ١] . وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ . [الرعد: ٢٥] .
وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قاطع رحم» ، «والرحم معلقة بساق العرش

(١) يأتي في سورة النساء - إن شاء الله - بحث مفصل بأدلة واضحة حول هذا الموضوع اهـ . ج .

(٢) ٤١٧ أحكام جـ ٢ .

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن جابر بن مطعم وليس فيه كلمة (رحم) وإنما هي من تفسير أحد
رواته وهو سفيان . فقد قال في روايته : يعني : قاطع رحم . راجع الفتح (١٠/٣٤٧) وصحيح مسلم :

(٤/١٩/١١) رقم (٢٥٥٦) المراجع .

تقول: يارب صل من وصلني، واقطع من قطعني»، وليس من صلة الرحم ترك القرابة تهلك جوعاً وعطشاً وعرياً، وقريبه من أعظم الناس مالاً. وصلة الرحم واجبة وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه. وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد؛ فإن الميراث مبناه على النصرة والموالة بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة. وقد جعل الله للقرابة حقاً - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا: قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. [النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافراً، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؟ ورأس الإحسان الذي لا يجوز إخراج من الآية هو الإنفاق عليه عند ضرورته وحاجته، وإلا فكيف يوصي بالإحسان إليه في الحالة التي لا يحتاج إلى الإحسان، ولا يجب [له الإحسان] أحوج ما كان إليه؟.

والله سبحانه وتعالى حرّم قطيعة الرحم وإن كانت كافرة. وترك رحمه يموت جوعاً وعطشاً وهو من أغنى الناس وأقدرهم على دفع ضرورته أعظم قطيعة.

...^(١)ولو افتداه من الأسر كان له مطالبته بالفداء، وليس ذلك ديناً عليه، والقرآن يدل على هذا القول، فإن الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٦]. فأمر بإيتاء الأجر بمجرد الإرضاع، ولم يشترط عقدًا ولا إذن الأب. وكذلك قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [البقرة: ٢٣٣]. فأوجب ذلك عليه، ولم يشترط عقدًا ولا إذنًا، ونفقة الحيوان واجبة على مالكة، والمستأجر والمرتهن له فيه حق، فإذا أنفق عليه النفقة الواجبة على ربه كان أحق بالرجوع من الإنفاق على ولده، فإن قال الراهن: أنا لم آذن لك في النفقة، قال: هي واجبة عليك، وأنا أستحق أن أطلبك بها لحفظ المرهون والمستأجر، فإذا رضي المنفق بأن يعتاض بمنفعة الرهن وكان نظير النفقة؛ كان قد أحسن إلى صاحبه، وذلك خير محض، فلو لم يأت به النص لكان القياس يقتضيه.

وَوَطَّرَدُ هذا القياس أن المودَع والشريك والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن النفقة بالركوب والحلب؛ جاز ذلك كالمرتهن.

(١) **قال الله تعالى:** ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٣]. إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فدلّت الآية على عدة أحكام: **أحدها:** أن تمام الرضاع حولان^(٢)، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه وأكد بكاملين؛ لثلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك، بتراضيها وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل؛ فلها ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضاراً بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد . . .

(٣-٤) **اختلف** الناس في القيام والسجود: أيها أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لجوهِه:

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار. فكان ركنه أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ «أفضل الصلاة طول القنوت».

وقالت طائفة: السجود أفضل.

واحتجت بقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٥).

وبحديث معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسى الله أن ينفعني به، فقال: عليك بالسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله له بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة». قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته؟ فقال

(١) ١٣٩ تحفة المودود.

(٢) بالنسخة (حولين) وهو خطأ، لأنه خبر (أن) وخبرها مرفوع، وعلامة رفعه هنا الألف، لأنه مثني.

(٣) ١٢٢ زاد المعاد ج ١.

المراجع.

(٤) سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا عِزَّتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ . . .﴾ [البقرة: ٢٣٥].

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

لي مثل ذلك^(١).

وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي - وقد سألته مرافقته في الجنة -: «أعني على نفسك بكثرة السجود».

وأول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ سورة ﴿اقرأ﴾ [العلق: ١] على الأصح، وختمها بقوله: ﴿واسجد واقترب﴾. [العلق: ١٩].

وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها، علوها وسفلها.

وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له. وذلك أشرف حالات العبد. فلهذا كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة.

وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع. يقال: طريق معبد: أي ذلته الأقدام ووطأته: وأذل ما يكون العبد وأخضع: إذا كان ساجداً.

وقالت طائفة: طول القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل.

واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد خُصَّت باسم القيام لقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلُ﴾ [الزمل: ٢] وقوله ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً» ولهذا يقال: قيام الليل، ولا يقال: قيام النهار.

قالوا: وهذا كان هدى النبي ﷺ. فإنه ما زاد في الليل على إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشر ركعة.

وكان يصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء، وأما بالنهار فلم يحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا رضي الله عنه: الصواب: أنها سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة والسجود أفضل بهيأته. فهية السجود أفضل من هية القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود.

وهكذا كان هدى رسول الله ﷺ. فإنه كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف وفي صلاة الليل، وكان إذا خفف القيام خفف الركوع والسجود. وكذلك كان يفعل في الفرض كما قاله البراء بن عازب:

(١). رواه مسلم والترمذي والنسائي.

«كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريباً من السواء» والله أعلم.

...^(١) عن أبي هريرة أنه قال: «والله لأنا أقربكم صلاةً برسول الله ﷺ» فكان أبوهريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار، ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبوهريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة. وأن رسول الله ﷺ فعله. وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقاً، عند النوازل وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة.

فأهل الحديث؛ متوسطون: بين هؤلاء، وبين من استحبه عند النوازل وغيرها. وهم أسعد بالحديث من الطائفتين. فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة، وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفاً للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل للدعاء والثناء. وقد جمعها النبي ﷺ فيه. ودعاء القنوت ثناء ودعاء، فهو أولى بهذا المحل.

وإذا جهر به الإمام أحياناً ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك. فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المؤمنين، وجهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة.

ومن هذا أيضاً جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه. وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالاختلاف في أنواع الشهادات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك: من الأفراد، والقران، والتمتع. وليس مقصدنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو. فإنه قبله القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب. وهذا شيء والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ، الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدى وأفضله. فإذا قلنا: لم يكن

من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالبسملة؛ لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدى وأفضله. والله المستعان. ...^(١) **العزة** يراد بها ثلاثة معان: عزة القوة. وعزة الامتناع. وعزة القهر. والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث.

ويقال من الأول: عَزَّ يَعُزُّ - بفتح العين - في المستقبل.

ومن الثاني: عَزَّ يَعُزُّ - بكسرهما -

ومن الثالث: عَزَّ يَعُزُّ - بضمهما - أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه «العزة» مستلزمة للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص العزة. ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة. ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعالين - بقوة معرفتها وإيمانها - بهاء العزة وجلالها وعظمتها. وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي. فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

فصل^(٢)

ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، منزلة «السكينة» هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب.

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ: أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ. وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا

(١) ٢٥٧ مدارج جـ٣.

(٢) ٥٠٢ مدارج جـ٢.

مَعَ إِيْمَانِهِمْ . وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿٤﴾ . [الفتح : ٤] .
الخامس : قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِمْ . وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيْبًا﴾ . [الفتح : ١٨] .
السادس : قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيْةَ الْحَمِيْةَ الْجَاهِلِيَّةَ . فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَى رَسُوْلِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ . [الفتح : ٢٦] . الآية .
وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذا اشتدت عليه الأمور : قرأ آيات السكينة .

وسمعه يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه ، تعجز العقول عن حملها - من محاربة أرواح شيطانية ، ظهرت له إَذَاكَ في حال ضعف القوة - قال : فلما اشتد عليَّ الأمر ، قلت لأقاربي ومن حولي : اقرءوا آيات السكينة ، قال : ثم ألق عني ذلك الحال ، وجلست وما بي قلبه .

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه . فرأيت لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطمأنينته .

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار ، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده ، عند اضطرابه من شدة المخاوف . فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه . ويوجب له زيادة الإيمان ، وقوة اليقين والثبات .

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب . كيوم الهجرة ، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤسهم . لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما .

وكيوم حنين ، حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار ، لا يلوي أحد منهم على أحد .

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم ، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس .

وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها - وهو عمر - حتى ثبتته الله بالصديق رضي الله عنه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة ، إلا التي في سورة البقرة .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبياً أمياً، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا مُتَزَيِّن بالفحش، ولا قَوَالٍ للحنأ. أُسَدُّه لكل جميل. وأهْبُ له كل خُلُتٍ كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

قال صاحب المنازل:

«السكينة: اسم لثلاثة أشياء. أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت. قال أهل التفسير: هي ريح هفافة. وذكروا صفتها».

قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين. ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها: فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنها ريح هفافة. لها رأسان ووجه كوجه الإنسان». **ويروى** عن مجاهد: إنها صورة هرة لها جناحان، وعينان لهما شعاع. وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة. كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن مُنَبِّه: هي روح من روح الله تتكلم. إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون.

والثاني: أنها معنى. ويكون معنى قوله: ﴿وَسَكِينَةً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]

أي: وبعينه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت. ويؤيده عطف قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال عطاء بن أبي رباح: ﴿فيه سكينة﴾ هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها. وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم. ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا... (١)

(٢) **قوله تعالى:** ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقول هود: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً، به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبر منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد.

ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم.

الثاني: قولهم: ﴿وَوَثَّبتْ أقدامنا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبت فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وانصَرنا على القوم الكافرين﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

(١) استمر المؤلف في بحث السكينة لمن أراده. وخلاصته أن السكينة الثانية: للمحدثين، والثالثة: التي

نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين. ج. (٢) ٦٣ شفاء.

وأيضاً: فإن كون الإنسان منصوراً على غيره: إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه. **وعند القدرية** لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع قوله: ﴿فَهْوَ مُؤَمَّمٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدرى أي: بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعى الذى بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه ألبته.

^(١) وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة؛ أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختمها؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب».

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة في «مسنده»؛ أنها جرت لأبي الدرداء، ورواها الطبراني في معجمه أنها جرت لأبي بن كعب.

^(٢) لما بعث الله رسول الله ﷺ؛ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه؛ فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، [البقرة: ٢٥٦]. وهذا نفى في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدين.

نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة؛ كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه

(١) ٢٠٦ الوابل الصيب.

(٢) ١١ هداية.

عن ذلك ؛ حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام .
والصحيح : أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين ؛ بل : إما أن يدخلوا في الدين ، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة ، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان .

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ ؛ تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط ، وأنه إنما قاتل من قاتله ، وأما من هادنه ؛ فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده ؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له ، كما قال تعالى : ﴿ نَبَاً اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧] .

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم ، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال ؛ قاتلهم : فمن على بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وقتل بعضهم .
وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين ؛ لم يبدءهم بقتال ؛ حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده ، فعند ذلك غزاهم في ديارهم ، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ، ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله ، ولو انصرفوا عنه ؛ لم يقاتلهم .

والمقصود : أنه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه ألبتة ، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً ، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته ؛ لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً .

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله . . . » وذكر الحديث ، ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة ، وكذلك من أسلم من يهود المدينة ، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي . . .

. . . **(١) الوجه الرابع عشر :** أن النور صفة كمال ، وضده صفة نقص ؛ ولهذا :

سمى الله نفسه نوراً، وسمى كتابه نوراً، وجعل لأوليائه النور ولأعدائه الظلمة؛ فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِيَّاهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويجيء الأنبياء يوم القيامة وأمهم؛ لكل نبي نوران، ولكل واحد من أتباعهم نور، وتجيء هذه الأمة؛ لكل منهم نوران، ولنبينهم ﷺ في كل شعرة نور.

ولما كانت مادة الملائكة التي خلقوا منها نوراً؛ كانوا بالمحل الذي أحلهم الله به، وكانوا خيراً محضاً.

والنور ظاهر وباطن فمتى حل ظاهره بجسم كساه؛ من: الجمال والجلال، والمهابة والضياء، والحسن والبهجة والسناء؛ بحسب ما كسي من النور، وزالت عنه الوحشة والثقل وكان: مفرحاً لرائيه، ساراً لناظريه. وإذا حل باطنه بالباطن؛ اكتسى من الخير والعلم، والرحمة والهداية، والعفو والجود، والصبر والحلم، والتواضع والنصيحة؛ بحسب ذلك النور. فالنور في الحقيقة هو كمال العبد في الظاهر والباطن.

ولما كان ليوسف الصديق من هذا النور النصيب الوافر؛ ظهر في جماله الظاهر والباطن؛ فكان على الصفة التي ذكرها الله في كتابه.

وكذلك رسول الله ﷺ لما كان نصيبه؛ من هذا النور أكمل نصيب؛ كان أجمل الخلق ظاهراً وباطناً؛ فكان وجهه يتلأأ تلاًلؤ القمر ليلة البدر، وكان كلامه كله نوراً، وعمله نوراً، ومدخله ومخرجه نوراً؛ فإذا تكلم رؤي النور يخرج من بين ثناياه. فكان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، وكان نوره من أكبر آيات نبوته.

قال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه؛ فجئت حتى رأيته، فلما وقع بصري عليه؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس: أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»، فاستدل على نبوته: بنور وجهه، ونور كلامه؛ بنوره المرئي، ونوره المسموع كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكانت بداهته تأتيك بالخبر

أي: ما يدهك من وجهه ومنظره ونوره وبهائه، وأخذه الصرصري فقال:
لو لم يقل إني رسول أما شاهدته في وجهه ينطق
فإذا كان هذا نور عبده، فكيف بنوره سبحانه؟!

... (١) وقد سمي الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي بعث به رسوله: نوراً،
وهدي، وحياة. وسمى ضده: ظلمة، وموتاً، وضلالاً. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ
الَّذِينَ آمَنُوا، يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ،
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ،
كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ. وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ
مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ. وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و«نوراً» لما يحصل به من
الهدى والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿كَمْشَكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ. الْمَصْبَاحُ فِي
رُجَاجَةٍ، الرُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا
غَرْبِيَّةٍ. يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ. نُورٌ عَلَى نُورٍ. يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن
يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

ومثل حال من فقد هذا النور؛ بمن هو في ﴿أَوْ كَظَلَمَاتٍ﴾^(١) في بحرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَذْ يَرَاهَا. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿[النور: ٤٠].

... قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ. فَأَبْهَتَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لما أجاب إبراهيم ﷺ المحاج له في الله: بأن الذي يحيي ويميت هو الله؛ أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة؛ بأنه يحيي ويميت: بأنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فالزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس، من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادّعى أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً؛ فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه، وليس هذا انتقلاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي في طرد حجته إن كانت صحيحة.

... **طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه.** إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي: كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فطلب إبراهيم: أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى؟﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي: لم يشك إبراهيم؛ حيث قال ما قال لم نشك نحن. وهذا القول صحيح أيضاً. أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه. لكن لم يطلب ما طلب شكاً وإنما طلب ما طلبه طمأنينة....

(١) في المطبوعة: ظلمات فأثبتنا الصواب من الآية.

(٣) ٤٧١ مدارج جا١.

(٢) ١٠٩ مختصر الصواعق جا١.

... (١) إبراهيم - ﷺ - طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى؛ إلى رؤية تحقيقه عياناً. فطلب - بعد حصول العلم الذهني - تحقيق الوجود الخارجي؛ فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.

ولما كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى؛ قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وإبراهيم لم يشك ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك؛ ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني - قبل مشاهدة معلومه - ظناً. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. لكن بين الخبر والعيان فرق.

وفي المسند مرفوعاً: «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم؛ لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك...

... (٢) فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد واللجنة والنار ويتخلف العمل؟؟...

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق. واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء. وهذا التخلف له عدة أسباب: أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه: أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك: ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيباً شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الخبر كالمعاينة».

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم : عدم استحضاره ، أو غيبته عن القلب كثيراً من أوقاته أو أكثرها ؛ لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك : تقاضي الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ؛ فهناك لا يمسك الإيمان في القلب ؛ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا .
وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب .

وجماع هذه الأسباب ؛ يرجع إلى ضعف : البصيرة ، والصبر ؛ ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يهدونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

... **قوله** تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] . شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله ؛ سواء كان المراد به : الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر ، بمن بَذَرَ بَذْراً فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهُ سَبْعَ سَنَابِلٍ ، اشتملت كل سنبل على مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك ؛ بحسب حال المنفق ، وإيمانه ، وإخلاصه ، وإحسانه ، ونفع نفقته ، وقدرها ، ووقوعها موقعها ؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من : الإيمان ، والإخلاص ، والتثبت عند النفقة ، وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه ، وسَمَحَتْ به نفسه ، وَخَرَجَ من قلبه قبل خروجه من يده ، فهو ثابت القلب عند إخراجه ، غيرُ جَزَع ولا هَلَع ولا مُتَبِعَه نفسه ترجفُ يده وفؤاده ؛ ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه ، وبحسب طيب المنفق وزكاته .

وتحت هذا المثل من الفقه ؛ أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر ، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية ، فمغله بحسب : بَذْرِهِ ، وطيب أرضه ، وتعاهد البذر بالسقي ، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم

تُحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة برّوة، وهي المكان المرتفع، الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطرٌ عظيم القطر مُتتابع؛ فرواها ونماها؛ فأتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطلّ: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمى عليه.

مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل؛ إشارة إلى نوعي الإنفاق: الكثير، والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًا، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرّض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويُبطل حسناته؛ كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار؛ فاحترقت.

فإذا كان يومُ استيفاء الأعمال وإحراز الأجور؛ وجدّ هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرتُه حينئذٍ أشدّ من حسرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف؛ فهو أحوَج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرّون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذٍ أشدّ ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يوماً وقد وجدّه محترقاً كله كالصريم؟ فأئيّ حسرة أعظم من حسرته؟

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره.

وقال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله؛ حتى يموت.

وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي يُنفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها؛ أحوَج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله كلها.

قال الحسن: هذا مثل قلّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبياناه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم - والله - أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

فصل

فإن عَرَضَ لهذه الأعمال من الصدقات ما يُبطلها من المَنِّ والأذى والرياء؛ فالرياء يمنع انعقادها سبباً للثواب، والمَنُّ والأذى يبطل الثواب الذي كان سبباً له، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صَفْوَن - وهو الحجر الأملس - عليه تراب فأصابه وابل - وهو المطر الشديد - فتركه صُلْداً لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ، وانطباقها على أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمأن والمؤذي؛ فقلبه في قسوته عن الإيثار والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النّبات والنبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلاء، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابل الوحي؛ انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه؛ فبرز ما تحته حجراً صُلْداً لا نبات فيه. وهذا مثل ضرب به الله سبحانه لعمل المرائي ونفقتة، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه؛ أحوَج ما كان إليه، وبالله التوفيق.

... (١) **قوله** تعالى: ممثلاً لخبث الرياء المبطل للعمل، والمَنِّ والأذى المبطل

للمصدقات: ﴿صفوان﴾ وهو الحجر الأملس ﴿عليه تراب﴾ غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب ﴿فتركه صلداً﴾ أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ «الصفوان» وهو الحجر؛ كقلب المرائي والمسان والمؤذي، و«التراب» الذي لصق به؛ ما تعلّق به من أثر عمله وصدقته، و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض، فإذا صادفها لينة قابلة؛ نبت فيها الكلاء، وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئاً. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول؛ فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل. فآتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فإن كانت هذه الجنة، التي بموضع عال؛ حيث لا تُحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يخرج غيرها؛ إن كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل ببات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرّجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق؛ بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين؛ كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبّه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿أَيُؤْذُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا

إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ، فَاحْتَرَقَتْ؟ كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴿[البقرة: ٢٦٦].

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة، التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها بحال شيخ كبير، له ذرية ضعفاء؛ بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجى وأفقر ما هو له وأسرُّ ما كان به؛ إذ أصابه نار شديدة فأحرقتة.

فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وهذا فسرهما عمر وابن عباس رضي الله عنهما «لرجل غني عمل بطاعة الله زماناً؛ فبعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة وضرب لقبحها هذا المثل.

(١) **المقصود في الزكاة** أمور عديدة:

منها: سدُّ خَلَّةِ الفقير.

ومنها: إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به.

ومنها: شكر نعمته عليه من المال.

ومنها: إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه.

ومنها: المواساة بهذا المقدار؛ لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ.

ومنها: التعبد: بالوقوف عند حدود الله، وأن لا ينقص منها ولا يغير.

وهذه المقاصد إن لم تكن أعظم من مقصود إراقة الدم في الأضحية؛ فليست بدونه، فكيف يجوز إلغاؤها واعتبار مجرد إراقة الدم؟.

ثم إن هذا الفرق ينعكس عليكم من وجه آخر، وهو أن مقصود الشارع من إراقة دم الهدي والأضحية؛ التقربُ إلى الله سبحانه بأجل ما يقدر عليه من ذلك

النوع، وأعلاه وأغلاه ثمناً، وأنفسه عند أهله، فإنه لن يناله سبحانه لحومها ولا دماؤها، وإنما يناله تقوى العبد منه، ومحبة له، وإيثاره بالتقرب إليه: بأحب شيء إلى العبد، وآثره عنده، وأنفسه لديه، كما يتقرب المحبُّ إلى محبوبه: بأنفس ما يقدر عليه، وأفضله عنده.

ولهذا فطر الله العباد على أن من تقرب إلى محبوبه بأفضل هدية يقدر عليها وأجلها وأعلاها؛ كان أحظى لديه، وأحب إليه من تقرب إليه بألف واحدٍ رديء من ذلك النوع.

وقد نبّه سبحانه على هذا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]. وسئل النبي ﷺ عن أفضل الرقاب فقال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها».

ونذر عمر أن ينحر نجبية فأعطى بها نجيتين، فسأل النبي ﷺ أن يأخذها بها وينحرهما، فقال: «لا، بل انحرها إياها» فاعتبر في الأضحية عينَ المذود دون ما يقوم مقامه، وإلا كان أكثر منه، فلأن يعتبر في الزكاة نفس الواجب، دون ما يقوم مقامه، ولو كان أكثر منه؛ أولى وأحرى...

(١) وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً؛ بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه ؛ حلاوة هذا الخطاب، وجلالته، ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن: يحيي قلبه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيثار والحكمة.

فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيثار ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليسم سرح الذكر في رياض القرآن. **وليتأمل:** ما: عدد الله فيه من نعمه، وتعرف بها إلى عبادته من أول القرآن إلى آخره؛ حين خلق أهل النار وابتلاهم: بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها.

فله على أوليائه وعباده؛ أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من: محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه، وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره.

وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة. ومن استقرى الأسماء الحسنى؛ وجدها مدائح وثناء؛ تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء: لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لتوسم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن: ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمي».

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «يفتح

عليّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن» .

وكان يقول في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وبغفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه ألبتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنفرة عصفور في بحر.

...^(١)والفرق بين الخيل والإبل؛ أن الخيل تراد لغير ما تراد له الإبل . . .

وللشارع قصد أكيد في: اقتنائها، وحفظها، والقيام عليها، وترغيب النفوس في ذلك بكل طريق ولذلك عفا عن أخذ الصدقة منها؛ ليكون ذلك أرغَبَ للنفوس فيما يحبه الله ورسوله من: اقتنائها، ورباطها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فرباط الخيل من جنس آلات السلاح والحرب، فلو كان عند الرجل منها ما عساه أن يكون ولم يكن للتجارة؛ لم يكن عليه فيه زكاة، بخلاف ما أعِدُّ للنفقة؛ فإنَّ الرجل إذا ملك منه نصيباً ففيه الزكاة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بعينه في قوله: «قد عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرقة». أفلا تراه كيف فرق بين: ما أعد للإنفاق، وبين ما أعد: لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وجهاد أعدائه؟ فهو من جنس السيوف والرماح والسهام، وإسقاط الزكاة في هذا الجنس من محاسن الشريعة وكمالها.

فصل

وأما قوله: «أوجب في الذهب والفضة والتجارة ربع العشر، وفي الزروع والشمار نصف العشر أو العشر، وفي المعدن الخمس» فهذا أيضاً من كمال الشريعة ومراعاتها للمصالح؛ فإن الشارع أوجب الزكاة: مواساة للفقراء، وطُهْرَةً للمال، وعبودية للرب، وتقرباً إليه: بإخراج محبوب العبد له، وإيثار مرضاته.

ثم فَرَضَها على أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكين، وأرفقها بأرباب الأموال؛ ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في الأموال التي تحتل المَوَاساة، ويكثر فيها الربح

والدر والنسل، ولم يفرضها فيما يحتاج العبد إليه من ماله، ولا غنى له عنه: كعبيده، وإمائه، ومركوبه، وداره، وثيابه، وسلاحه؛ بل فرضها في أربعة أجناس من المال: المواشي، والزروع والثمار، والذهب والفضة، وعروض التجارة؛ فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم، وعامة تصرفهم فيها، وهي التي تحتمل المواساة، دون ما أسقط الزكاة فيه، ثم قَسَمَ كل جنس من هذه الأجناس؛ بحسب حاله وإعداده للنماء: إلى ما فيه الزكاة، وإلى ما لا زكاة فيه.

فقسم المواشي إلى قسمين:

سائمة ترعى بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة؛ فالنعمة فيها كاملة والمنة بها وافرة، والكلفة فيها يسيرة، والنماء فيها كثير؛ فخصَّ هذا النوع بالزكاة.

وإلى مغلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دواليبهم وحُرُوثهم وحَمَلِ أمتعتهم؛ فلم يجعل في ذلك زكاة؛ لكلفة المغلوفة وحاجة المالكين إلى العوامل؛ فهي: كثيابهم، وعبيدهم، وإمائهم، وأمتعتهم.

ثم قسم الزروع والثمار إلى قسمين:

قسم يجري مجرى السائمة من بهيمة الأنعام، في سَقِيهِ من ماء السماء، بغير كلفة، ولا مشقة؛ فأوجب فيه العشر.

وقسم يُسقى بكلفة ومشقة؛ ولكن كلفته دون كلفة المغلوفة بكثير؛ إذ تلك تحتاج إلى العلف كل يوم؛ فكان مَرْتَبَةٌ بين السائمة والمغلوفة، فلم يوجب فيه زكاة ما شرب بنفسه، ولم يسقط زكاته جملة واحدة، فأوجب فيه نصف العشر.

ثم قسم الذهب والفضة إلى قسمين:

أحدهما: ما هو مُعَدٌّ للثمنية والتجارة به، والتكسب؛ ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها.

وإلى ما هو مُعَدٌّ للانتفاع دون الربح والتجارة: كحِلْيَةِ المرأة، وآلات السلاح التي يجوز استعمالُ مثلها فلا زكاة فيه.

ثم قَسَمَ العُرُوضَ إلى قسمين: قسم أعد للتجارة؛ ففيه الزكاة.

وقسم أعد للثمنية والاستعمال، فهو مصروف عن جهة النماء؛ فلا زكاة فيه.

ثم لما كان حصولُ النماء والربح بالتجارة؛ من أشق الأشياء وأكثرها مُعانة وعَمَلًا؛ خَفَّفَهَا بأن جعل فيها ربع العشر، ولما كان الربح والنماء بالزروع والشمار التي تُسَقَى بالكلفة؛ أَقْلَ كلفة والعملُ أيسرَ ولا يكون في كل السنة؛ جعله ضعفه، وهو نصف العشر، ولما كان التعب والعمل فيما يشرب بنفسه؛ أَقْلَ والمؤنة أيسر؛ جعله ضعف ذلك وهو العشر، واكتفى فيه بزكاة عامة خاصة؛ فلو أقام عنده بعد ذلك عدة أحوال لغير التجارة؛ لم يكن فيه زكاة؛ لأنه قد انقطع نماؤه وزيادته، بخلاف الماشية، وبخلاف ما لو أعِدَّ للتجارة؛ فإنه عُرْضَةٌ للنماء.

ثم لما كان الرِّكَازُ: مالاً مجموعاً محصلاً، وكلفة تحصيله أقل من غيره، ولم يحتاج إلى أكثر من استخراجِه؛ كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس.

فانظر إلى تناسب هذه الشريعة الكاملة، التي بهَرَّ العقولَ حسنُها وكمالُها، وشهدتِ الفِطْرُ بحكمتها، وأنه لم يطرُق العالم شريعة أفضل منها، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفِطَرُ الألباء واقترحت شيئاً يكون أحسن مقترح؛ لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به.

ولما لم يكن كل مالٍ يحتمل المواساة قَدَّرَ الشارع لما يحتمل المواساة نُصْباً مقدرة، لا تجب الزكاة في أقل منها.

ثم لما كانت تلك النُصُبُ تنقسم: إلى ما لا يُجْحَفُ المواساة ببيعِضه؛ أوجب الزكاة منها، وإلى ما يجحف المواساة ببيعِضه؛ فجعل الواجب من غيره، كما دون الخمس والعشرين من الإبل.

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر؛ إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ جعلها كل عام مرة، كما جعل الصيام كذلك.

ولما كانت الصلاة لا يشق فعلها كل يوم؛ وَظَفَهَا كل يوم وليلة.

ولما كان الحجُّ يشقُّ تكرُّر وجوبه كل عام؛ جعله وظيفة العمر.

وإذا تأمَّلَ العاقلُ مقدار ما أوجبه الشارع في الزكاة؛ وَجَدَهُ: مما لا يضر المخرج فقده، وينفع الفقير أخذه، ورآه قد راعى فيه حالَ صاحب المال وجانبَهُ حقَّ الرعاية، ونفع الآخذ به، وقصد إلى كل جنس من أجناس الأموال؛ فأوجب الزكاة في أعلاه وأشرفه.

فأوجب زكاة العين في الذهب والورق؛ دون الحديد والرصاص والنحاس ونحوها.
وأوجب زكاة السائمة في الإبل والبقر والغنم؛ دون الخيل والبغال والحمير،
 ودون ما يقل اقتناؤه، كالصيود على اختلاف أنواعها، ودون الطير كله.
وأوجب زكاة الخارج من الأرض في أشرفه، وهو الحبوب والشمار؛ دون البقول
 والفواكه والمقائبي والمباطخ والأنوار.

وغير خاف تميز ما أوجب فيه الزكاة؛ عما لم يوجبها في: جنسه، ووصفه،
 ونفعه، وشدة الحاجة إليه، وكثرة وجوده، وأنه جار مجرى الأموال لما عداه من
 أجناس الأموال؛ بحيث لو فقد لأضرَّ فقده بالناس، وتعطل عليهم كثير من
 مصالحهم، بخلاف ما لم يوجب فيه الزكاة؛ فإنه جار مجرى الفضلات والتبائت
 التي لو فقدت لم يعظم الضرر بفقدائها.

وكذلك راعى في المستحقين لها أمرين مهمين: أحدهما: حاجة الآخذ.

والثاني نفعه؛ فجعل المستحقين لها نوعين: نوعاً يأخذ لحاجته، ونوعاً يأخذ
 لنفعه، وحرَّمها على مَنْ عداهما.

^(١) **قوله** تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً
 مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]. قيل: ﴿يعدكم الفقر﴾ يخوِّفكم به، يقول: إن أنفقتُم
 أموالكم افتقرتم ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع
 خاصة، ويُذكر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنى إلا في هذا
 الموضع فإنها البخل».

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف
 محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعلَّة الفحشاء والخلَّة الفحشاء،
 ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعَد الشيطان وأمره: يأمرهم بالشر، ويخوِّفهم
 من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا

خَوْفَهُ من فعل الخير؛ تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له؛ ارتكبها. **وسمى** سبحانه تخوفه وَعَدَ الانتظار الذي خوفه إياه، كما ينتظر الموعود ما وعد به. ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة؛ وقاية الشر، والفضل؛ إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إبعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولة الشيطان: إبعاد بالشر، وتكذيب بالوعد»، ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٨].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيد بالله تعالى من شر الشيطان.

.. (١) قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. [آل عمران: ٤٨]. **الحكمة** في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله . كأنه فسرهما بثمرتها ومقتضاها .
وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب : فهي السنة . كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة .

وقيل: هي القضاء بالوحي . وتفسيرها بالسنة ؛ أعم وأشهر .
وأحسن ما قيل في الحكمة : قول مجاهد ، ومالك : إنها معرفة الحق والعمل به ، والإصابة في القول والعمل .
وهذا لا يكون إلا : بفهم القرآن ، والفقه : في شرائع الإسلام ، وحقائق الإيمان .

والحكمة حكمتان : علمية ، وعملية .
فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء ، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها : خَلْقًا ، وأمرًا ، قدرًا ، وشرعًا .

والعملية: كما قال صاحب المنازل : «وهي وضع الشيء في موضعه» . . .
والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه . فالرجل الكامل ؛ من له إرث كامل من أبيه . ونصف الرجل - كالمراة - له نصف ميراث ، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى . وأكمل الخلق في هذا ؛ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وأكملهم ؛ أولو العزم . وأكملهم ؛ محمد ﷺ ؛ ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه ، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة .

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] .

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا، وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] .
فكل نظام الوجود؛ مرتبط بهذه الصفة . وكل خلل في الوجود، وفي العبد؛

فسببه؛ الإخلال بها. فأكمل الناس؛ أوفرهم منها نصيباً، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال؛ أقلهم منها ميراثاً.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وأفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

...^(١) **الوجه السادس والعشرون:** أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيراً

كثيراً فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي: العلم النافع، والعمل الصالح.

الوجه السابع والعشرون: أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلها: أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم. فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه الثامن والعشرون: أنه سبحانه ذكّر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم بشكرها، وأن يذكروه على إسداثها إليهم، فقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

...^(٢) **قوله** تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]. أي: الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمئة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في

إحصارهم في سبيل الله .

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله .

وقيل: حبسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله .

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى ؛ أحصروا عن الضرب في الأرض ؛ لطلب المعاش ، فلا يستطيعون ضرباً في الأرض .

والصحيح: أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، ولكمال عفتهم وصيانتهم ؛ يحسبهم من لم يعرف حالهم ؛ أغنياء .

والموضع الثاني: قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ . . . ﴾ الآية [التوبة : ٦٠]

والموضع الثالث: قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [فاطر : ١٥] .

فالصنف الأول: خواص الفقراء . والثاني : فقراء المسلمين : خاصهم ،

وعامهم .

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم : غنيهم وفقيرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى ؛ يقابلهم : أصحاب الجدة ، ومن ليس محصراً

في سبيل الله ، ومن لا يكتم فقره تعففاً . فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني .

والصنف الثاني ؛ يقابلهم : الأغنياء أهل الجدة ، ويدخل فيهم المتعفف وغيره ،

والمحصر في سبيل الله وغيره .

والصنف الثالث ؛ لا مقابل لهم ، بل الله وحده الغني ، وكل ما سواء فقير إليه .

قال: (٣) الشرط الثالث : الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح ، وذلك لأن المسألة

فيها ضرب من : الخصومة ، والمنازعة والمحاربة ، والرجوع عن مالك الضر والنفع ؛ إلى من

(١) ذكر الفقر في غير هذه المواضع ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ [البقرة : ٢٦٨] . ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما

هي . وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ [البقرة : ٢٧١] ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا :

إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ [آل عمران : ١٨١] . ﴿ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ [النساء : ٦٠] .

﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ [النساء : ١٣٥] . ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ [الحج : ٢٨] .

﴿ إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٢] ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ [محمد : ٣٨] .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ [الحشر : ٨] .

لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.
والإلحاح ينافي حال الرضى ووصفه. وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافاً. فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهِهِمْ﴾، لا يسألون الناس إلحافاً [البقرة: ٢٧٣].

فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله. ولكن لا يلحفون، فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف، لا مطلق السؤال.
قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء؛ لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء؛ لم يسأل غداء.

وقالت طائفة - منهم: الزجاج، والفراء وغيرهما -: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً؛ لأنهم وُصفوا بالتعفف، والمعرفة بسيماهم، دون الإفصاح بالمسألة؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء.
ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾.
فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال؛ فيقع إلحاف. كما قال تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المائدة: ٤٨] أي: لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها عدل﴾ [البقرة: ١٢٣] أي: لا يكون عدل فيقبل، ونظائره.
قال امرؤ القيس:

* على لاحب لا يهتدى لمناره (١) *

أي: ليس له منار يهتدى به.
قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون ألبتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف؛ فيجري هنا مجرى قولك: فلان لا يرجى خيره، أي: ليس له خير فيرجى.

وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم. لأن المعنى: ليس منهم مسألة؛ فيكون منهم إلحاف. قال: ومثل ذلك قول الشاعر:
لا يُفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينحجر

أي: ليس بها أرنب؛ فيفرغ لهولها ولا ضب. فينجحر.

وقال الفراء: نفي الإلحاف عنهم، وهو يريد نفي جميع السؤال.

...^(١) **فإن قيل:** فما قولكم في نحو قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾

[نوح: ٤] ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]؟

قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والإخراج من الذنوب فدخلت من لتؤذن بهذا المعنى، ولكن لا يكون ذلك في القرآن؛ إلا حيث يذكر الفاعل والمفعول، الذي هو الذنب نحو قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: يغفر من ذنوبكم، دون أن يذكر الاسم المجرور؛ لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ؛ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾

[آل عمران: ١٤٧].

وفي سورة الصف: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]. فما الحكمة في

سقوطها هنا؟ وما الفرق؟

قلت: هذا إخبار عن المؤمنين، الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر؛ بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محبطة كإحباط الكفر المهلك للكافر؛ فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثم إحاطة من الذنب بالذنب؛ وإنما يتضمن معنى: الإذهاب، والإبطال، للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات بخلاف الآيتين المتقدمتين؛ فإنهما: خطاب للمشركين، وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم، مما أحاط بهم من الذنوب، وهو الكفر. ففي ضمن ذلك الإعلام والإشارة: بأنهم واقعون في مهلكة قد أحاطت بهم، وأن لا ينقذهم منها إلا المغفرة المتضمنة للإنقاذ، الذي هو أخص من الإبطال والإذهاب. وأما المؤمنون؛ فقد أنقذوا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فهي في موضع

من التي للتبعض؛ لأن الآية في سياق ثواب الصدقة فإنه قال: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والصدقة لا تذهب جميع الذنوب.

ومن هذا النحو قوله ﷺ: «فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير» فأدخل عن في الكلام، إيداناً بمعنى الخروج عن اليمين.

لما ذكر الفاعل، وهو الخارج؛ فكأنه قال: فليخرج بالكفارة عن يمينه.

ولما لم يذكر الفاعل المكفر في قوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. لم يذكر من، وأضاف الكفارة إلى الأيمان.

وذلك من إضافة المصدر إلى المفعول؛ وإن كانت الأيمان لا تكفر؛ وإنما يكفر الحنث والإثم، ولكن الكفارة حل لعقد اليمين، فمن هنالك؛ أضيفت إلى اليمين، كما يضاف الحل إلى العقد؛ إذ اليمين عقد، والكفارة حل له. والله أعلم.

...^(١) إن الله سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسدّ خلّة الفقير، فأوجب سبحانه في فضول أموال الأغنياء ما يسدّ [به] خلّة الفقراء، وحرّم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزَيِّدُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرايين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

^(١) وأما الفرق الإسلامي: فهو الفرق بين: ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه،

وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله . وهذا الفرق من لم يكن من أهله ؛ لم يشم رائحة الإسلام البتة .

وقد حكى الله سبحانه عن أهل الفرق الطيعي : أنهم أنكروا هذا الفرق . فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور ؛ إذ قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] . لا فرق بينهما . وقالوا : الميتة مثل المذكاة . لا فرق بينهما ، وقالوا : الحلال والحرام شيء واحد . فهذا جمعهم وذاك فرقهم . فهذا فرق يتعلق بالأعمال .

^(١) **قال تعالى :** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨] ، فأمر بترك ما بقي ؛ دون رد ما قبض ولم يكن صحيحاً ؛ بل كان عفواً كما قال سبحانه : ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، فجعل له ما سلف من الربا وإن لم يكن مباحاً له ؛ وكذلك سائر العقود له ما سلف منها ، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام ، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه ، فإنه تعالى ؛ لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه ، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع ، ومن تأمل حكم رسول الله ﷺ في باب أنكحة الكفار إذا أسلموا عليها ؛ وجده مشتقاً من القرآن مطابقاً له .

^(٢) **الثامن عشر :** أن العقل تحت حجر الشرع : فيما يطلبه ويأمر به ، وفيما يحكم به ويخبر عنه . فهو محجور عليه في الطلب والخبر . وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله : لم يؤمن بهم ، وبما جاءوا به ؛ فكذلك من عارض خبرهم بعقله . ولا فرق بين الأمرين أصلاً .

يوضحه : أن الله سبحانه حكى عن الكفار معارضة أمره بعقولهم ، كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم .

أما الأول : ففي قوله : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] . فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا

والبيع . فهذا معارضة النص بالرأي .

ونظير ذلك : ما عارضوا به تحريم الميتة من قياسها على المذكاة ، وقالوا : تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله . وفي ذلك أنزل الله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .
وعارضوا أمره بتحويل القبلة ، وقالوا : إن كانت القبلة الأولى حقاً ؛ فقد تركت الحق . وإن كانت باطلاً ؛ فقد كنت على باطل .

وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله ، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله ، وزعم أن العقل يقتضي خلافه .

وأما الثاني : وهو معارضة خبره بالعقل ، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨] . وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم .

وعارضوا إخباره عن النبوات بعقولهم ، وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم ؛ وعارضوا أدلة نبوة رسوله ﷺ بعقولهم ؛ فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] . وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغاً مزخرفاً ؛ وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول .

وكذلك قولهم : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان : ٧-٨] . أي : لو كان رسولاً لخالق السموات والأرض : لما أحوج به أن يمشي بيننا في الأسواق في المعيشة ، ولأغناه من أكل الطعام ، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة ، أو ألقى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب .

وعارضوا شرعه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله ، وتوحيده ؛ بمعارضة عقلية ، واستندوا فيها إلى القدر . فقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨ - ١٤٩] .

وحكى مثل هذه المعارضة في سورة النحل ، وفي سورة الزخرف . وإذا تأملتها

حق التأمل؛ رأيتها أقوى بكثير من معارضة آيات الصفات بعقولهم، فإن إخوانهم عارضوا بمشيئة الله للكائنات، والمشيئة ثابتة في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة: هم وضعوها من تلقاء أنفسهم، أو تلقوها عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسل أو خبرهم بالمعقولات؛ إنها هي طريقة الكفار. فهم سلف الخلف بعدهم، فبئس السلف والخلف.

ومن تأمل معارضة المشركين للرسل بالعقول؛ وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة، لخبرهم عن: الله وصفاته، وعلوه على خلقه، وتكليمه للملائكته ورسله؛ بعقولهم. فإن كانت تلك المعارضة باطلة؛ فهذه أبطل وأبطل. وإن صحت هذه المعارضة؛ فتلك أولى بالصحة منها. وهذا لا محيد لهم عنه...

...^(١) **الطبعة السابعة**: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم، على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من: تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفايتهم في مهماتهم، وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «لا حسد إلا في اثنتين»^(٢): رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق»، يعني أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما: من منافع النفع العام، والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله.

واخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].
وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

(١) ٣٦٢ طريق المجرتين.

(٢) في النسخة (اثنتين) والصواب: (اثنتين) كما أثبتناه، وكما في البخاري ومسلم وأحمد. المرجع.

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٢٧٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمَصْدَقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ

وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨] .

وقال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

وقال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ

كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١] . فصَدَّرَ سبحانه الآية بالطف بأنواع الخطاب ، وهو الاستفهام

المتضمن لمعنى الطلب ، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر .

والمعنى : هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافاً مضاعفة؟

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً حسناً ؛ حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل ، لأن

الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد ؛ طُوِّعَتْ له نفسه بذله ، وسهل عليه

إخراجه فإن علم أن المستقرض : مليٌّ ، وفيٌّ ، محسن ؛ كان أبلغ في طيب قلبه وسهاحة نفسه .

فإن علم أن المستقرض : يتجر له بما اقترضه ، وينمي له ، ويثمره ؛ حتى يصير

أضعاف ما بذله ؛ كان بالقرض أسمح وأسمح .

فإن علم : أنه مع ذلك كله ؛ يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس

القرض ، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم ؛ فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا

لأفة في نفسه من : البخل والشح ، أو عدم الثقة بالضمان ؛ وذلك من ضعف

إيمانه ؛ ولهذا كانت الصدقة ؛ برهاناً لصاحبها .

وهذه الأمور كلها ؛ تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية ، فإنه سماه قرضاً ،

وأخبر أنه هو المقرض لا قرض حاجة ؛ ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء

لمعاملته ، وليعرف مقدار الربح ، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به .

ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة ، ثم أخبر عما يعطيه

فوق ذلك من الزيادة ، وهو الأجر الكريم . وحيث جاء هذا القرض في القرآن ؛

قيده بكونه حسناً ، وذلك يجمع أموراً ثلاثة :

أحدها: أن يكون من طيب ماله ، لا من رديئه وخبيثه .

الثاني: أن يخرج طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ؛ ابتغاء مرضاة الله .

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي .

فالأول: يتعلق بالمال ، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله ، والثالث بينه وبين الأخذ وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض ، ومثل سبحانه بهذا المثل ؛ إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غابت في الأرض ؛ فأنبت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته ، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة ؛ الواحدة ؛ فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني ؛ فيقوى إيمان المنفق ، وتسخو نفسه بالإنفاق .

وتأمل كيف جمع السنبل في هذه الآية على سنابل ، وهي من جموع الكثرة ؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف ، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى : ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخِرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦] . فجاء بها على جمع القلة ؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

قيل: المعنى : والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء ، لا لكل منفق ، بل يختص برحمته من يشاء ؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه ، ولصفات المنفق وأحواله في : شدة الحاجة ، وعظيم النفع ، وحسن الموقع .

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك ، فلا يقتصر به على السبعمئة ؛ بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة .

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة .

وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ، ليطابق الممثل

للممثل به . فهنا أربعة أمور: منفق ، ونفقة ، وباذر ، وبذر .

فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه ، فذكر من شق الممثل المنفق ؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه ، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها . وذكر من شق الممثل به البذر ؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة ، وترك ذكر الباذر ؛ لأن القرض لا يتعلق بذكره .

فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان . وهذا كثير في أمثال القرآن ؛ بل عامتها ترد على هذا النمط .

ثم ختم الآية باسمين من أسماائه الحسنی مطابقين لسياقها ، وهما : الواسع ، العليم .

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه ، فإن المضاعف واسع العطاء ، واسع الغنى ، واسع الفضل ، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق ؛ فإنه عليم : بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ؛ ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها ؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته ؛ بل يضع فضله مواضعه : لسعته ، ورحمته ، ويمنعه من ليس من أهله : بحكمته ، وعلمه .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢] .

هذا بيان للقرض الحسن ماهو؟ وهو أن يكون في سبيله ، أي : في مرضاته ، والطريق الموصلة إليه ، ومن أنفعها ؛ سبيل الجهاد .

وسبيل الله خاص وعام ، والخاص جزء من السبيل العام ، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى . فالمن نوعان :

أحدهما : من بقلبه من غير أن يصرِّح به بلسانه ، وهذا إن لم يبطل الصدقة ؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره ، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه ، فله المنّة عليه من كل وجه ، فكيف يشهد قلبه منة لغيره ؟ .

والنوع الثاني : أن يمن عليه بلسانه ؛ فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ،

ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقاً وطوقه منة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبدالرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعت صنعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنعة فلا تنسوها. وفي ذلك قيل:

وإن امرءاً أهدى إلي صنعة وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان: من منح سائله ومن، ومن منع نائله وضمن.

وحظر الله على عباده المن بالصنعة واختص به صفة لنفسه؛ لأن من العباد: تكدير، وتعير، ومن الله سبحانه وتعالى: إفضال، وتذكير.

وأيضاً: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة. وأيضاً: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه. ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً: فالمنة أن يشهد المعطي: أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضاً: فالمان بعبثائه يشهد نفسه: مترفعاً على الآخذ، مستعلياً عليه، غنياً عنه، عزيزاً ويشهد ذل الآخذ، وحاجته إليه، وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضاً: فإن المعطي قد تولى الله ثوابه، ورد عليه أضعاف ما أعطى؛ فبقي عوض ما أعطى عند الله. فأى حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه؛ فقد ظلمه ظلماً بيناً، وأدعى أن حقه في قلبه. ومن هنا - والله أعلم - بطلت صدقته بالمن؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولا حظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمن عليه بما أعطاه؛ أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]. على أن المن والأذى - ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه - ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا مَنًّْا وَلَا أَذًى؛ لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي: مبطلاً لأثر الإنفاق، مانعاً من الثواب؛ فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم: معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة. فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره؛ جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقه، فليس المقام مقام شرط وجزاء؛ بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سراً وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سرٍّ وعلانية؛ فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت؛ سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر^(١) بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

(١) هكذا بالنسخة، ولعل الصواب: (فقد لا تمر) ليستقيم المعنى. المراجع.

فأخبر أن القول المعروف - وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره -، والمغفرة - وهي العفو عن أساء إليك - خيرٌ من الصدقة بالأذى.

فالقول المعروف: إحسان، وصدقة بالقول.

والمغفرة: إحسان بترك المؤاخذه والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى؛ حسنة مقرونة بما يبطلها. ولا ريب أن حسنتين؛ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة؛ مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب رده، فيكون عفو عنه؛ خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف، والرد الجميل؛ خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المستول؛ خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المستول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو؛ خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمنُّ بنفقتة ويؤذي؛ مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حلِيمٌ؛ إذ لم يعاجل المان بالعقوبة. وفي ضمن هذا: الوعيد، والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه؛ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العظيمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!!

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٦٤﴾.

تضمنت هذه الآية الإخبار: بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته. وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة؛ هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقاً.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ يدل على أن المن والأذى المبطل؛ هو المقارن كالرياء وعدم الإيثار، فإن الرياء لو تأخر عن العمل؛ لم يبطله. ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمأن المؤذي، في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارناً للعمل، لأنه «فعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخياً، وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارناً ومتراخياً، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق؛ فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رثاء الناس؛ فيكون تشبيهاً للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد.

والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال

وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر - بالحجر: لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به. **وتضمن** تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار، الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته، وأزالتها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه: لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة، التي إذا بذرت في التراب الطيب؛ أنبت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه؛ فلا ينبت ولا يخرج شيئًا، ثم قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل. فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منها؛ كان مثله ما ذكره في هذه الآية: - **إحداهما**: طلبه بنفقته: محمدة، أو ثناء، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟ **فالآفة الأولى** تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت. فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها. وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك؛ كان مثله كجنة - وهي البستان الكثير الأشجار - فهو مجتنّ بها، أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بربرة - وهو المكان المرتفع - فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض؛ لأنها إذا ارتفعت كانت: بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت صاحبة للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها؛ فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره. فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء

بالرياح والشمس ، بخلاف الشار التي تنشأ في الظلال .

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع ؛ لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] . وهو المطر الشديد العظيم القدر ؛

فأدت ثمرتها وأعطت بركتها ؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها ، أو ضعفي

ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل ، فهذا حال السابقين المقربين . ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا

وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ فهو دون الوابل ، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها ؛ فتكتفي في

إخراج بركتها بالطل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند

الله ، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار

سرّاً وعلانية ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . وأصحاب الطل

مقتصدوهم .

فَمِثْلُ حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة بالوابل

والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين ؛ يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف ؛

فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله

والتثبيت من نفوسهم ، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضعفين ، ف قيل : ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه ، وضعفه مثله .

وقيل : ضعفه مثلاه ، وضعفاه ثلاثة أمثاله ، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله ، كلما

زاد ضعفاً ؛ زاد مثلاً .

والذي حمل هذا القائل على ذلك ؛ فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية ، فإنه

رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه ، فإذا زاد إلى المثل ؛ صار مثلين ، وهما

الضعف . فلو قيل : لها ضعفان ؛ لم يكن فرق بين المفرد والمثنى ، فالضعفان عنده

مثلان مضافان إلى الأصل ، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعاف ؛ ثلاثة أمثال

مضافة إلى الأصل ، وهكذا أبداً .

والصواب : أن الضعفين هما المثلان فقط : الأصل ومثله . وعليه يدل قوله

تعالى : ﴿ فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أي : مثلين ، وقوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ

ضِعْفَيْنِ ﴾ [الاحزاب: ٣٠] . أي : مثلين .

ولهذا قال في الحسنات : ﴿ نَوَّيْتُمَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الاحزاب: ٣١] .

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية ؛ فوهم منشؤه ؛ ظن أن الضعف

هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان. والله أعلم.

واختلف في رافع قوله: ﴿فَطْلٌ﴾ فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف: فالذي يُروىها ويصيبها طل.

والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما: أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة وهما متلازمان.

ثم قال تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثلٌ قلّ - والله - من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبياناه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم - والله - أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخاري: «عن عبيد بن عمر قال: سأل عمر يوماً أصحاب النبي، ﷺ: فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل يا ابن أخي ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله^(١).

فقوله تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعاً، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحاً فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

وقال تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون.

(١) لقد سبق هذا الحديث بوجه آخر، وهذا اللفظ المذكور ينحوماً عند البخاري. انظر الفتح:

(٤٩/٨) رقم: (٤٥٣٨) وقد ذكر ابن حجر في نفس الموضع عدة أوجه لروايته. اهـ المراجع.

وقوله: ﴿أَيُّود﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد؛ لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها؛ أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنها أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعاً، فإن منهما: القوت والغذاء، والدواء والشراب، والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطباً ويابساً، ومنافعها كثيرة جداً.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما؛ فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججاً لقولها فذكرناها في غير هذا الموضع^(١).

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة؛ بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل؛ لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيراً، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة؛ فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها. والله أعلم.

والمقصود أن هذين النوعين؛ هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم تعدم شيئاً من أنواع الثمار المشتهة؛ بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعنان، فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعنان و﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

وقد قيل: إن الثمار هنا وفي آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها، لقوله هنا: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

(١) في كتاب: (مفتاح دار السعادة). ذكر مفاضلة بين النخيل والأعنان وانتهت بأن النخيل أفضل.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وفي الكهف ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا انْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. [الكهف: ٤٢]. وما ذلك إلا ثمار الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه.

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية؛ فهو حريص على بقاء جنته؛ لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء؛ فهم كل عليه لا ينفعون به بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم، وهذا نهاية ما يكون من تعلق

القلب بهذه الجنة: لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة؛ فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا

أصاب جنته إعصار - وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود - وفيه نار مرت بتلك الجنة؛ فأحرقتها وصيرتها رماداً؟،

فصدق - والله - قول^(١) الحسن: هذا مثل قل من يعقله من الناس.

ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل، وحذا القلوب إلى التفكير فيه؛

لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه؛ لكفاه وشفاه، فهكذا

العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله؛ كانت

كالإعصار ذي النار المحرق للجنة، التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن

هذه المواضع أهم مما كلامنا بصده - من ذكر مجرد الطبقات - لم نذكرها، ولكنها

من أهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي؛

(١) كلمة (قول) ليست بالنسخة، وزيدت لإيضاح المعنى. وقد مر قول الحسن - رحمه الله - في ص (٤٧٤)

وفي غيرها. المراجع.

لما سولت له نفسه - والله - إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية؛ ولهذا استحق اسم الجهل. فكل من عصى الله فهو جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ واو الحال، أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف، فعلام عطف ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها^(١) واو الحال، اختاره الزمخشري، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا، في حال كبره وضعف ذريته.

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني، وهو قوله: ﴿أَيُودَ أَحَدُكُمْ﴾ لطلب الماضي كثيراً، فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر؛ فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان - بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئاً أصلاً؛ بل ذهب بذره ضائعاً، لعدم إيمانه وإخلاصه، ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصاً بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة، التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق. فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين - وهما: الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة - دون غيرهما من المواشي.

(١) بالنسخة: (أنه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

إِذَا بِحَسَبِ الْوَاقِعِ ؛ فَإِنَّهَا كَانَا أَغْلَبَ أَمْوَالِ الْقَوْمِ إِذْ ذَاكَ : فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَانُوا أَصْحَابَ تِجَارَةٍ وَكَسْبٍ . وَالْأَنْصَارُ كَانُوا أَصْحَابَ حَرْثٍ وَزَرْعٍ ، فَخَصَّ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ بِالذِّكْرِ ؛ لِحَاجَتِهِمَا إِلَى : بَيَانِ حُكْمِهِمَا ، وَعُمُومِ وَجُودِهِمَا .

وإِذَا لِأَنَّهَا أَصُولُ الْأَمْوَالِ ، وَمَا عِدَاهُمَا فَعَنْهَا يَكُونُ وَمِنْهَا يَنْشَأُ . فَإِنَّ الْكَسْبَ تَدْخُلُ فِيهِ التِّجَارَاتُ كُلُّهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَنْوَاعِهَا مِنْ : الْمَلَابِسِ ، وَالْمَطَاعِمِ ، وَالرَّقِيقِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ ، وَالْآلَاتِ ، وَالْأَمْتَعَةِ ، وَسَائِرِ مَا تَتَعَلَّقُ بِهِ التِّجَارَةُ . وَالْخَارِجُ مِنَ الْأَرْضِ يَتَنَاوَلُ : حَبَّهَا ، وَثَمَارَهَا ، وَرِكَازَهَا ، وَمَعْدَنَهَا ، وَهَذَانِ هُمَا أَصُولُ الْأَمْوَالِ وَأَغْلِبُهَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَكَانَ ذِكْرُهُمَا أَهَمَّ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ فَهِيَ سَبْحَانَهُ عَنْ قَصْدِ إِخْرَاجِ الرَّدِيِّ كَمَا هُوَ عَادَةٌ أَكْثَرُ النَّفُوسِ : تَمَسُّكَ الْجَيِّدِ لَهَا ، وَتَخْرُجَ الرَّدِيِّ لِلْفَقِيرِ .

وَنَهْيِهِ سَبْحَانَهُ عَنْ قَصْدِ ذَلِكَ وَتَيَمُّمِهِ ؛ فِيهِ مَا يَشْبَهُ الْعُذْرَ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، لَا عَنْ قَصْدٍ وَتَيَمُّمٍ ، بَلْ عَنْ اتِّفَاقٍ ، إِذَا كَانَ هُوَ الْحَاضِرُ إِذْ ذَاكَ ، أَوْ كَانَ مَالَهُ مِنْ جَنْسِهِ ، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَتَيَمَّمِ الْخَبِيثَ ؛ بَلْ تَيَمَّمِ إِخْرَاجَ بَعْضِ مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَوْقِعُ قَوْلِهِ : ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ مَوْقِعُ الْحَالِ ، أَيِ : لَا تَقْصِدُوهُ مُنْفِقِينَ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ أَيِ : لَوْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الْمُسْتَحْقِقِينَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ لَكُمْ ؛ لَمْ تَأْخُذُوهُ فِي حَقُوقِكُمْ إِلَّا بِأَنْ تَسَاحَوْا فِي أَخْذِهِ وَتَتَرَخَّصُوا فِيهِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : أَغْمَضَ فَلَانٌ عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ ، وَيُقَالُ لِلْبَائِعِ : أَغْمَضَ - أَيِ : لَا تَسْتَقْصِ - كَأَنَّكَ لَا تَبْصُرُ . وَحَقِيقَتُهُ مِنْ إِغْمَاضِ الْجَفْنِ ، فَكَأَنَّ الرَّائِي لِكِرَاهَتِهِ لَهُ لَا يَمْلَأُ عَيْنَهُ مِنْهُ ؛ بَلْ يَغْمِضُ مِنْ بَصَرِهِ وَيَغْمِضُ عَنْهُ بَعْضُ نَظَرِهِ بَغْضًا .

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لَمْ يَفْتَنَّا بِالْوَتْرِ قَوْمٌ وَلِلْضِيءِ سَمَ رِجَالٌ يَرْضَوْنَ بِالْإِغْمَاضِ
وَفِيهِ مَعْنِيَانِ :

أَحَدُهُمَا : كَيْفَ تَبْذُلُونَ لِلَّهِ وَتَهْدُونَ لَهُ مَا لَا تَرْضَوْنَ بِبَذْلِهِ لَكُمْ وَلَا يَرْضَى أَحَدُكُمْ مِنْ صَاحِبِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ لَهُ ، وَاللَّهُ أَحَقُّ مِنْ يُخِيرَ لَهُ خِيَارَ الْأَشْيَاءِ وَأَنْفُسِهَا ؟

وَالثَّانِي : كَيْفَ تَجْعَلُونَ لَهُ مَا تَكْرَهُونَ لِأَنْفُسِكُمْ وَهُوَ سَبْحَانَهُ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ؟ ثُمَّ خَتَمَ الْآيَتَيْنِ بِصِفَتَيْنِ يَقْتَضِيهِمَا سِيَاقُهُمَا فَقَالَ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

فغناه وحده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنى عنه، الشريف القدر، الكامل الأوصاف؛ فإنه لا يقبله.

ثم قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن: الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت: على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعوه إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعوبه داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوه إلى البخل والشح؛ هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي: بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل؛ فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا؛ دعتك الحاجة إليه، وافترقت إليه بعد إخراجها، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة؛ أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل^(١). فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكذب في وعده، الغارّ الفاجر في أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد. كما قال:

دلاهم بغرور ثم أوردتهم إن الخبيث لمن والاه غرار
هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنياً؛ بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه؛ فإنه يعد عبده: مغفرة منه لذنوبه، وفضلاً؛ بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه: إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله، وذلك

(١) تقدم ص (٤٥٤) نقلاً عن الإغاثة ص (١٠٧) ج ٢ ما يحسن الرجوع إليه من ذكره أن الصواب: أن الفحشاء على بابها في العموم... إلخ ما ذكره. ج.

وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيها يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم. **وتأمل** كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم: بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها؛ فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من: عقل عن الله خطابه وفهم مراده ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتأمل ختم هذه السورة؟ التي هي سنام القرآن: بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام؟

القسم الأول: محسن وهم: المتصدقون. فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للملء الوفي، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكما لها من: المن، والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها؛ ابتداء من الرياء، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبثها.

ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن: استجابتهم لدعوته، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا: أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقللة فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته؛ خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد؛ بل لا يعقله إلا من له: لب، وعقل ذكي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر؛ فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه؛ بل يعلم ما كان لوجهه، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه وماله من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها: إن أبدوها، أو كتموها؛ بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿إِنْ تُبْدُوا

الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴿البقرة: ٢٧١﴾. أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبدئها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء؛ فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال: بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها؛ فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية؛ خير للمنفق من إظهارها وإعلانها. **وتأمل** تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها؛ فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه: كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها للفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة؛ مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير؛ خيراً من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه: أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خير.

ثم أخبر: أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم؛ أحوج ماكانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟! .

وأن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصاً؛ لأنها صادرة عن إيمانهم. **وأن** نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة. وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفَافًا ﴿البقرة: ٢٧٣﴾. فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب. والضرب في الأرض هو: السفر، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى، يحسبهم الجاهل أغنياء من: تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتبتهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسابان الجاهل؛ أنهم أغنياء؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو: المتوسم المتفرس، الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم. والإلحاف هو: الإلحاح، والنفي متسلط عليهما معاً، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وهذا كقوله:

على لا حب لا يهتدي لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدي به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال؛ هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف؛ فالأفضل تركه، ولا يجرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوقيفه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

القسم الثاني: (الظالمون) وهم ضد هؤلاء، وهم الذين يذبحون المحتاج

المضطرب. فإذا دعت الحاجة إليهم؛ لم ينفسوا كربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا، فذكرهم تعالى بعد هذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فصدر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية. وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك، لردوا ما قبضوه به قبل التحريم. وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه. ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشدّه؛ وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى: الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منها مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقمه لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه، وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. يعني: إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رؤوس أموالكم: لا تزدادون عليها؛ فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها. فإن كان هذا القابض معسراً فالواجب؛ إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم. فإن أبت نفوسكم، وشحت: بالعدل الواجب؛ أو الفضل المندوب؛ فذكروها يوماً ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيككم جزاء أعمالكم؛ أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي... (١)

(٢) والله سبحانه قد قال في آية المداينة [البقرة: ٢٨٢]. التي أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود، أو النسيان، فأرشدهم

إلى حفظها بالكتاب، وأكد ذلك بأن أمرهم بكتابة الدين، وأمر الكاتب أن يكتب.

ثم أكد ذلك بأن نهاء أن يأتي أن يكتب. ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى، وأمر مَنْ عليه الحق أن يُمْلِلَ، وَيَتَّقِي ربه. فلا يَبْخَسَ من الحق شيئاً. فإن تَعَذَّرَ إملاؤه: لسفهه، أو صغره، أو جنونه، أو عدم استطاعته؛ فوليّه مأمور بالإملاء عنه.

وأرشدهم إلى حفظها باستشهاد: شهيدين من الرجال، أو رجل وامرأتين. فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام، الذي لا يحتاج صاحب الحق معه إلى يمينٍ، ونهى الشهود أن يأتوا إذا دُعوا إلى إقامة الشهادة. ثم أكد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق، سامة ومللاً.

وأخبر أن ذلك: أعدل عنده، وأقوم للشهادة. فيتذكرها الشاهد إذا عاين خطّه؛ فيقيمها. وفي ذلك تنبيه على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتيقّنه. وإلا لم يكن بالتعليل بقوله: ﴿وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ﴾ فائدة.

وأخبر أن ذلك: أقرب إلى اليقين، وعدم الريب. ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة؛ إذا كان بيعاً حاضراً فيه التقابض من الجانبين، يأمن به كل واحد من المتبايعين من: جُحود الآخر، ونسيانه.

ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا: خَشْيَةَ الجُحود، وغَدْر كل واحدٍ منها بصاحبه. فإذا أشهدا على التبايع أَمِنَا ذلك.

ثم نهي الكاتب والشهيد عن أن يُضَارَّ: إما بأن يمتنعا من الكتابة والشهادة تَحُمُلاً وأداءً، أو أن يَطْلُبَا على ذلك جُعْلاً يَضُرُّ بصاحب الحق، أو بأن يكتب الشاهد بعض الشهادة، أو يؤخر الكتابة والشهادة تأخيراً يَضُرُّ بصاحب الحق، أو يَمْطُلَاهُ، ونحو ذلك، أو هو نهي لصاحب الحق أن يُضَارَّ الكاتب والشهيد، بأن: يَشْغَلَهَا عن ضرورتها وحوائجها، أو يُكَلِّفَهَا من ذلك ما يَشُقُّ عليهما.

ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله. فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود. ثم ذكر ما تُحْفَظ به الحقوق؛ عند عدم القدرة على الكتاب والشهود، وهو السَّفَر في الغالب، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾

فَدَلَّ ذلك دلالة بَيِّنَةٌ أن الرِّهَان قائمةٌ مقام الكتاب والشهود، شاهدةٌ مخبرة بالحق، كما يُخبر به الكتاب والشهود.

وهذا - والله أعلم - سرُّ تقييد الرهن بالسَّفَر؛ لأنه حالٌ يتعذر فيها الكتاب الذي يَنْطِقُ بالحق غالباً، فقام الرهنُ مقامه، ونابَ منابَهُ. وأكد ذلك بكونه مقبوضاً للمرتهن، حتى لا يتمكن الراهنُ من جَحْده.

فلا أحسنَ من هذه النصيحة، وهذا الإرشاد والتعليم، الذي لو أخذ به الناس لم يضع في الأكثر حقَّ أحد، ولم يتمكَّن المبطلُ من الجحود والنسيان. **فهذا** حكمه سبحانه المتضمنٌ لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم...

...^(١) **فبيّنة** الحال ودلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي؛ أضعافاً ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد؛ فالشارع لا يهمل مثل هذه البيّنة والدلالة، ويضيع حقاً يعلم كلُّ أحدٍ ظهوره وحجته، بل لما ظنَّ هذا من ظنه؛ ضيعوا طريق الحكم، فضاع كثير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفاجر ممكناً من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم على بذلك شاهدان اثنان، فضاعت حقوق كثيرة لله و لعباده.

وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الأمانة والسياسة؛ ما: يحفظ به الحق تارة ويضيع به أخرى، ويحصل به العدوان تارة والعدل أخرى. ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المغنية عن التفريط والعدوان.

وقد ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع:

فذكر نصاب شهادة الزنى أربعة في سورة النساء، وسورة النور.

وأما في غير الزنى فذكر: شهادة الرجلين، والرجل والمرأتين؛ في الأموال؛ فقال في آية الدين: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهذا في التحمل والوثيقة، التي يحفظ بها صاحب المال حقه، لا في طريق الحكم، وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء.

وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين.

وأمر في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد: عدلين من المسلمين، أو آخرين من غيرهم. وغير المؤمنين هم الكفار، والآية صريحة في قبول شهادة الكافرين على الوصية في السفر؛ عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبي، ﷺ، والصحابة بعده ولم يحجىء بعدها ما ينسخها؛ فإن المائدة من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض ألبتة.

ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿من غيركم﴾: من غير قبيلتكم، فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخرانٍ من غيركم﴾ [المائدة: ١٠٦] ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله: ﴿من غيركم﴾ أيتها القبيلة، والنبي، ﷺ، لم يفهم هذا من الآية؛ بل إنما فهم ما هي صريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده، وهو سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك^(١).

وقد ذهب مالك إلى التوصل إلى الإقرار بما يراه الحاكم، وذلك يستند إلى قوله: ﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ [يوسف: ٢٦] ومتى حكماً بعقد الأزج وكثرة الخشب ومعاهد القمط في الجص^(٢) وما يصلح للمرأة والرجل، يعني في الدعاوي، والدباغ والعطار إذا تحاصبا^(٣) في جلد والقيافة، والنظر في الخشى والنظر في إمارات القبلة، وهل اللوث في القسامة إلا نحو هذا. انتهى.

قلت: الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الإمارات ودلائل الحال، كفقهاء في كليات الأحكام؛ ضيع الحقوق.

فههنا فهان لابد للحاكم منها: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الوقائع وأحوال الناس، يميز به بين: الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب.

(١) بحث المؤلف في البيئات قرابة كراسة، قرر فيها ثبوت الحق بأي بينة. ج.

(٢) ١١٧ بدائع ج ٣.

(٣) في المطبوعة: الحصن وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

(٤) في المطبوعة: تحاكما وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها، وأن الخلق لاصلاح لهم بدونها ألبتة؛ علم أن السياسة العادلة: جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها. **وسياسة** عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علمها، وخفيت علي من خفيت عنه.

ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان نبي الله للمرأتين، اللتين ادعتا الولد فحكم به داود للكبرى، فقال سليمان: «إتوني بالسكين أشقه بينهما» فقالت الصغرى: لا تفعل هو ابنها؛ ففضى به للصغرى؛ لما دل عليه امتناعها، من رحمة الأم، ودل رضى الكبرى بذلك على الاسترواح إلى التآسي بمساواتها في فقد الولد. **وكذلك** قول الشاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ ﴿وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فذكر الله تعالى ذلك مقررًا له، غير منكر على قائله؛ بل رتب عليه العلم: ببراءة يوسف، وكذب المرأة عليه. **وقد** أمر النبي ﷺ، الزبير أن يقرر ابني أبي الحقيق بالتعذيب على إخراج الكنز؛ فعذبهما حتى أقرأ به.

ومن ذلك قول علي للظعينة التي حملت كتاب حاطب وأنكرته فقال لها: «لتخرجن الكتاب أو لنجردنك».

وهل تقتضي محاسن الشريعة الكاملة إلا هذا؟!

وهل يشك أحد في أن كثيراً من القرائن؛ تفيد علماً أقوى من الظن المستفاد من الشاهدين؛ بمراتب عديدة؟!

فالعلم المستفاد من مشاهدة الرجل مكشوف الرأس، وآخر هارب قدامه، وبيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، فالعلم بأن هذه عمامة المكشوف رأسه؛ كالضروري. فكيف تقدم عليه اليد التي إنما تفيد ظناً ما عند عدم المعارضة، وأما مع هذه المعارضة فلا تفيد شيئاً؛ سوى العلم بأنها يد عادية فلا يجوز الحكم بها ألبتة؟ ولم تأت الشريعة بالحكم لهذه اليد وأمثالها ألبتة.

وقد أمر النبي ﷺ، الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وقد نص أحمد على اعتبار الوصف عند تنازع المالك والمستأجر في الدفين في الدار.

وهذه من محاسن مذهبه، ونص على البلد يفتح؛ فيوجد فيه أبواب مكتوب عليها بالكتابة القديمة: أنها وقف؛ أنه يحكم بذلك لقوة هذه القرينة، وهل الحكم بالقافة إلا حكم بقرينة الشبه؟ وكذلك اللوث في القسامة؛ حتى إن مالكا وأحمد في إحدى الروايتين؛ يقيدان بها؛ وهو الصواب الذي لا ريب فيه، وكذلك الحكم بالنكول إنما هو مستند إلى قوة القرينة الدالة على أن الناكل غير محق.

وبالجملة فالبينة: اسم لكل ما يبين الحق. ومن خصها بالشاهدين؛ فلم يوف مسأها حقه.

ولم تأت البينة في القرآن قط مراداً بها الشاهدان؛ وإنما أتت مراداً بها: الحجة، والدليل، والبرهان: مفردة، ومجموعة.

وكذلك قول النبي، ﷺ: «البينة على المدعي» المراد به بيان ما يصحح دعواه. **والشاهدان** من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة؛ قد تكون أقوى منها كدلالة الحال على صدق المدعي؛ فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد.

والبينة والحجة والدلالة، والبرهان والآية، والتبصرة؛ كالمترادفة؛ لتقارب معانيها.

والمقصود أن الشرع لم يبلغ القرائن ولا دلالات الحال؛ بل من استقرأ مصادر الشرع وموارده؛ وجده: شاهداً لها بالاعتبار، مرتباً عليها الأحكام.

وقول ابن عقيل: ليس هذا فِرَاسَة.

يقال: ولا خير في تسميته فِرَاسَة؛ فإنها فِرَاسَة صادقة.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى الفِرَاسَة وأهلها، في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسبيل، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنك أخذت من السبيل، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَماهُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِّنَ التَّعَفُّفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيَماهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. **وفي** الترمذي مرفوعاً: «اتقوا فِرَاسَة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] والله أعلم.

...^(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البيّنات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ. وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ. وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ. فَلْيَكْتُبْ. وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ. وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ. وَلَا يَبْخُسْ مِنْهُ شَيْئًا. فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ. وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ. فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب، وأمر من عليه الحق أن يملّي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه؛ أملى عنه وليه.

ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه برجلين، فإن لم يجد؛ فرجل وامرأتان.

ثم نهى الشهود المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها؛ إذا طلبوا بذلك.

ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة: أن لا يكتبوها.

ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.

ثم أمرهم إذا كانوا على سفر - ولم يجدوا كاتباً - أن يستوثقوا بالرهن المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم. وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم شيء. فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين. فإن الحاكم يحكم بالنكول واليمين المردودة، ولا ذكر لهما في القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد الواحد واليمين مخالفاً لكتاب الله؛ فالحكم بالنكول والرد أشد مخالفة...

^(٢) الطريق الثامن من طرق الحكم: الحكم بالرجل الواحد والمرأتين.

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ. فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَاءِ، أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا

الأخرى ﴿البقرة: ٢٨٢﴾. فإن قيل : فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين ؛ بدل عن الشاهدين ، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين .

قيل : القرآن لا يدل على ذلك . فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم . فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق ، فإن لم يقدرُوا على أقواها ؛ انتقلوا إلى مادونها . فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين ؛ لأن النساء ؛ يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام ، وحفظهن وضبطهن ؛ دون حفظ الرجال وضبطهم . ولم يقل سبحانه : احكموا بشهادة رجلين ، فإن لم يكونا رجلين ؛ فرجل وامرأتان .

وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام :

أحدها : هذا . والثاني : في الميراث ، والثالث : في الدية ، والرابع : في العقيقة ، والخامس : في العتق .

كما في الصحيح عنه ، ﷺ ، أنه قال : «من أعتق امرأ مسلماً أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار . ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار» .

وقوله تعالى : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فيه دليل على أن الشاهد إذا نسى شهادته فذكره بها غيره ؛ لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها ؛ وليس له أن يقلده . فإنه سبحانه قال : ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ ولم يقل : فتخبرها . وفيها قراءتان : التثقيل والتخفيف . والصحيح : أنهما بمعنى واحد من «الذكر» .

وأبعد من قال : فيجعلها ذكراً ؛ لفظاً ومعنى . فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر . فإذا ضلت أو نسيت ؛ ذكرتها الأخرى فذكرت .

وقوله : ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ تقديره عند الكوفيين : لثلاث تضلّ إحداها . ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا . كقوله : ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] ونحوه .

ويرد عليهم نصب قوله : ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ إذ يكون تقديره : لثلاث تضل ، ولثلاث تذكر .

وقدّره البصريون بمصدر محذوف ، وهو : الإرادة والكرهية والحذر ، ونحوها .

فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه. **ويشكل عليهم** هذا التقدير في قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ فإنهم إن قدروه: كراهة أن تضلَّ إحداهما؛ كان حكم المعطوف عليه - وهو: فتذكر - حكمه. فيكون مكروهاً، وإن قدروها: إرادة أن تضلَّ إحداهما؛ كان الضلال مراداً.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه. والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى؛ إن ضلت، وهذا مراد قطعاً. والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل؛ إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى؛ إذا ضلت. وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط. وإلى هذا المعنى أشار النبي، ﷺ، حيث قال: «أما نقصان عقلهن: فشهادة امرأتين بشهادة رجل» فبين أن شطر شهادتهن؛ إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك؛ أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال. وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة؛ لم تكن فيه على نصف رجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات؛ إنما هو أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل: كالولادة والاستهلال، والارتضاع، والحيض، والعيوب تحت الثياب. فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره، فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة.

...^(١) **والمنافع** التي يجب بذلها نوعان:

منها: ما هو حق المال، كما ذكرنا في الخيل، والإبل، والحلي.

ومنها: ما يجب لحاجة الناس.

وأيضاً: فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة: كتعليم العلم، وإفتاء الناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم، وأداء الشهادة^(٢)، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، وغير ذلك من منافع الأبدان.

وكذلك من أمكنه إنجاء إنسان من مهلكة؛ وجب عليه أن يخلصه، فإن ترك ذلك - مع قدرته عليه -؛ أثم، وضمنه.

فلا يمتنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ وقال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾

وللفقهاء في أخذ الجعل على الشهادة أربعة أقوال، وهي أربعة أوجه في مذهب أحمد: أحدها: أنه لا يجوز مطلقاً، والثاني: أنه يجوز عند الحاجة، والثالث: أنه لا يجوز إلا أن يتعين عليه، والرابع: أنه يجوز، فإن أخذه عند التحمل؛ لم يأخذه عند الأداء.

...^(١) الشهادة المتعينة حق على الشاهد، يجب عليه القيام به، ويأثم بتركه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهل المراد به: إذا ما دعوا للتحمل، أو للأداء؟ على قولين للسلف، وهما روايتان عن أحمد، والصحيح: أن الآية تعمهما، فهي حق عليه^(٢)، يأثم بتركه ويتعرض للفسق والوعيد. ولكن ليست حقاً تصح الدعوي به، والتحليف عليه؛ لأن ذلك يعود على مقصودها بالإبطال؛ فإنه مستلزم: لاثامه، والقدح فيه بالكتمان.

^(٣) وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار قال مجاهد: حَكَمَ، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّنَّ.

وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله. وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره؛ بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

(١) ١٤٨ الطرق الحكمية.

(٢) بالنسخة (حق له) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(٣) ٤٥٠ مدارج جـ ٣.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال النبي، ﷺ: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ: هَلُمَّ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا. فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً. أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

قال النبي، ﷺ: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ» وشهادة الزور هي قول الزور.

كما قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وعند نزول هذه الآية؛ قال رسول الله، ﷺ: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ، وَلَوْ عَلَى

أنفسكم﴾ [النساء: ١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة

ما عَزَّ الْأَسْلَمِي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجه رسول الله، ﷺ»، وقال

تعالى: ﴿قَالُوا: شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا. وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا - وأضعافه - يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته؛ أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون - وأرضاهم عندي عمر - أن رسول الله ﷺ نهي عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس».

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله، ﷺ، بالجنة، لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة؛ بل قال: «أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلى في الجنة» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله»، وفي لفظ آخر: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فدل على أن مجرد قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم.

وهذا أكثر من أن تذكر شواهد من الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

...^(١) **وقبول** شهادة العبد: هو موجب الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وصريح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها: كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس. **قال تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل الخيار. ولا ريب في دخول العبد في هذا الخطاب. فهو عدل بنص القرآن. فدخل تحت قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥، المائدة: ٨]^(٢) وهو من الذين آمنوا قطعاً؛ فيكون من الشهداء لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا ريب أن العبد من رجالنا.

(١) ١٦٦ الطرق الحكمية (٢) آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] والعبد المؤمن الصالح من خير البرية؛ فكيف ترد شهادته؟ وقد عدّله الله ورسوله، كما في الحديث المعروف المرفوع: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» والعبد يكون من حملة العلم، فهو عدل بنص الكتاب والسنة. وأجمع الناس على أنه مقبول الشهادة على رسول الله، ﷺ، إذا روى عنه الحديث، فكيف تقبل شهادته على رسول الله، ﷺ، ولا تقبل شهادته على واحد من الناس؟

... (١) ثم ذكر العادل (٢) في آية التداين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرًا وحدها؛ لذكرت بعض تفسيرها، والغرض إنما هو التنبيه والإشارة.

وقد ذكر أيضاً العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان. ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة، التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان؛ ما يستدعي بيانه؛ كتاباً مفرداً.

والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة. ولنعد إلى المقصود: فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدد: فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم؛ أهل الإحسان والنفع المتعدى وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله. فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملئ فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، مادامت آثارهم في الدنيا. فيا لها من نعمة ما أجلها! وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

(٣) ولما نزل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي

(١) ٣٧٨ طريق الهجرتين.

(٢) وهو القسم الثالث من أصحاب الأموال الثلاثة الذين ذكر أولهم، وهم (المحسنون المتصدقون) ص ٣٧٥ من طريق الهجرتين.

قلت: وقد سبق ذكرهم ص (٤٦٩ - ٤٧١) من هذا البحث. المراجع.

(٣) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ ١.

أنفسكم أو تُخَفَّوهِمْ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴿البقرة: ٢٨٤﴾ أشكل ذلك على بعض الصحابة وظنوا أن ذلك من تكليفهم بما لا يطيقونه، فأمرهم، ﷺ، أن يقابلوا النص بالقبول. فبين الله سبحانه بعد ذلك: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه أو اخطؤوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصراراً كما حمّله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأنهم إن قصرُوا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم استغفروا: عفا الله عنهم، وغفر لهم، ورحمهم. فانظر ماذا أعطاهم الله تعالى لما قابلوا خبره: بالرضى والتسليم، والقبول والانقياد، دون المعارضة والرد...

(١) قال سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة: الشهوة، والشيطان، والهوى، والحسنة تنال؛ بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا وهو: أن الاكتساب يستدعي العمل والمحاولة والمعاناة؛ فلم يجعل على العبد؛ إلا ما كان من هذا القليل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله. وأما الكسب؛ فيحصل بأدنى ملاسة؛ حتى بالهمّ بالحسنة، ونحو ذلك.

فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «إذا هم عبدي بحسنة فاكْتُبْهَا وَإِنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَا تُكْتُبْهَا».

وأما حديث الوسطة وعدمها؛ فضعيف؛ لأن الخير أيضاً بواسطة: الرسول، والملّك، والإلهام، والتوفيق. فهذا في مقابلة وسائط الشر. فالفرق ما ذكرناه. والله أعلم.

(٢) وفي الصحيحين: عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي، ﷺ، قال: «من قرأ بهاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

الصحيح: أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه قيام الليل: وليس بشيء. وقال علي بن أبي طالب: ما كنت أرى أحداً يعقل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة.

فهرس الضوء المنير على التفسير المجلد الأول

رقم	الصفيقة الموضوع
٥	مقدمة المؤلف
٦	ملاحظات حول إحالات ابن القيم
٨	اعتذار عنه حول الإحالات
٩	طريقة المؤلف في الإحالة على الكتب
١٢	مقدمة في آداب قراءة القرآن
١٥	فائدة التأمل في القرآن
١٦	هدي الرسول ﷺ في سجود القرآن
٢٠	بحث في سجود الشكر
٢٢	تفسير الفاتحة
٢٣	فصل في التوبة وفيه بحوث
٢٨	فصل في جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الألوهية
٣٠	فصل كل عمل أصله المحبة والإرادة الفرق بين الحمد والمدح
٣٣	الفرق بين الثناء والمجد وتقسيم هذه المعاني الأربعة
٣٤	قاعدة عظيمة القدر
٣٨	الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب وفيه بحوث قيمة
٤٤	ذكر الصراط معرّفاً بتعريفين
٤٨	الصراط المستقيم هو صراط الله
٥٠	صراط الله قليل سالكوه
٥١	أجل المطالب سؤال الهداية من الله
٥٣	الفاتحة مشتملة على أنواع التوحيد
٥٦	دلالة الأسماء مبنية على أصليين
٥٧	نفي معاني أسماء الله إلحاد، والإلحاد أنواع
٥٩	اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى
٦١	ارتباط الخلق والأمر بالأسماء الثلاثة: الله، والرب، والرحمن

٦٢	فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد
٦٣	فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة ، وهي عشر مراتب
٧٤	فصل في اشتغال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب وشفاء الأبدان
٧٧	شهادة قواعد الطب
٨٠	في الفاتحة الرد على جميع المبطلين
٨١	الرد على الرافضة
٨٢	سر الخلق انتهى إلى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾
٨٨	قسم من له عبادة بلا استعانة
٩٠	انقسام الناس إلى أربعة أقسام
٩٦	منفعة العبادة ومقصودها
١٠١	العارفون بالله هم الطائفة الإبراهيمية
١٠٢	سر العبودية بمعرفة صفات الرب
١٠٤	قواعد ﴿إياك نعبد﴾ أربع
١٠٥	جميع الرسل دعوا إلى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾
١٠٥	العبودية وصف أكمل خلق الله
١٠٨	لزوم العبادة إلى الموت
١٠٨	العبودية خاصة وعامة
١١١	مراتب ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ علماً وعملاً
١١١	العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة
١١٢	﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فيها عشرون فائدة : اشتملت على علم عظيم

تفسير سورة البقرة

١٤٣	أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال
١٤٥	ذكر الله - سبحانه - أن الكافرين مصرون على الكفر فعاقبهم . . إلخ
١٥٠	ذكر المنافقين وصفاتهم
١٥١	ذكر أمراض القلوب
١٥٣	الأمراض متولدة من الجهل ، ودواؤها
١٥٤	عود على صفات المنافقين
١٦٦	الهدى أربعة أقسام اشتملت عليها أول سورة البقرة
١٧٠	القسم الرابع : قوم يكتُمون إيمانهم . . إلخ

- ١٧١ اشتمل المثالان على حكم عظيمة
- ١٧٢ ذهاب نور المنافقين يوم القيامة
- ١٧٤ فهم المعاد وما يجري فيه
- ١٧٦ سمى الله كتابه : روحًا ، في عدة مواضع
- ١٧٧ وسماه نورًا . . إلخ
- ١٧٧ قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ الآيات ، فيها إثبات الصانع وصفات كماله ، وإثبات النبوة وغيرها
- ١٨٤ قوله - تعالى - : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية : اشتملت على ما رزق أهل الجنة من النعيم
- ١٨٧ أهل هذه البشري : المؤمنون المتقون المخلصون
- ١٨٨ قول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ﴾ الآية ، فيها رد اعتراض الكفار والحكمة في ضرب الأمثال
- ١٩٠ قوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية فيها تقرير الإيمان بالله فيما خلقه وقدره
- ١٩١ قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فيها الجواب عن سؤا لهم والحكمة في خلق آدم وذريته وفضله ، وفضل العلم من وجوه
- ١٩٥ الحكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر
- ١٩٦ الحكمة في إخراج آدم من الجنة
- ٢٠٠ ذكر مناظرة عدو الله في شأن آدم
- ٢٠٣ كل من عارض النصوص فهو من حلفائه
- ٢٠٤ من اتبع هدى الله لا خوف عليه
- ٢٠٥ تلاوة القرآن تلاوة لفظه ومعناه
- ٢٠٦ هل يدخل مسلمو الجن الجنة
- ٢٠٩ أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة وفوائد الصلاة في حفظ القلب والبدن
- ٢١٠ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل
- ٢١٣ اختلاف الناس في الصابئة
- ٢١٤ تقسيم الأمم قبل مبعث النبي ﷺ
- ٢١٦ الأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان
- ٢١٦ لما بعث ﷺ استجاب أكثر أهل الأديان
- ٢١٧ أمر الله بأخذ أوامره بالعزم والجد

- ٢١٨ قصة أصحاب السبت
- ٢٢٠ قصة القتيل الذي تدافعوا فيه
- ٢٢٣ تقسيم قول الله : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآيات
- ٢٢٣ تفسير قول الله : ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾
- ٢٢٤ تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ الآية
- ٢٢٤ تفسير قوله - تعالى - : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية
- ٢٢٥ تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ الآية
- ٢٢٦ تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الآية
- ٢٢٨ تفسير قوله - تعالى - : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية
- ٢٣٠ تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ الآية
- ٢٣١ تفسير قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية
- ٢٣١ تفسير قوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَالِصَةً﴾ الآية مناظرة ومعجزة
- ٢٣٤ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل في حجرهم على الله في نسخ الشرائع
- ٢٣٦ التوطيئات لنسخ القبلية وسياق الآية الدالة على غش اليهود وخيانتهم وكذلك النصارى وبيان أن من تولى الكفار فهو منهم
- ٢٤٠ قول الله - تعالى - : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ الآية .
- ٢٤٢ بحث يعود على قول الله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا تُولُوا فُتْمٌ وَجْهَ اللَّهِ﴾
- ٢٤٥ تفسير قول الله تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إلى قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾
- ٢٤٩ البحث في الذرية وذكر الخلاف فيها
- ٢٥٢ ذكر خصائص إبراهيم خليل الله الكريم وذريته
- ٢٥٦ تفسير قول الله ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ الآية وما بعدها
- ٢٥٨ حكمة الختان وفوائده
- ٢٦٠ خصال الفطرة
- ٢٦١ ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الآيات . ذكر في طيها استطرادًا مفيدًا
- ٢٦٩ ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين ونصر الله لهم في أمر القبلية
- ٢٦٩ ذكر نظائر في عدة مسائل قيِّمة جدًا
- ٢٧٢ ذكر أصناف المنكرين للقبلية
- ٢٧٣ ذكر أن قبلية اليهود وأتباعهم لا أصل لها في الشرع
- ٢٧٥ الحجة في كتاب الله نوعان . ثم عود على تفسير آيات ذكر القبلية

- ٢٧٧ تاريخ تحويل القبلة وذكر إمامة إبراهيم وفي ضمنه أن البيت إمام
- ٢٨٠ مبنى الدين على قاعدتين : الذكر والشكر ﴿فاذكروني أذكركم﴾ الآية
- ٢٨١ ذكر واجب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٢٨١ الذكر عبودية القلب واللسان غير مؤقت وهو في القرآن على عشرة أوجه مفصلة
- ٢٨٣ بحث في قول الله تعالى : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾
- ٢٨٥ الصبر في القرآن نحو سبعين موضعاً وهو واجب بالإجماع
- ٢٨٨ حد الصبر لغة وأنواعه الثلاثة
- ٢٨٩ علاج المصيبة بالصبر وفوائد في الدين والدنيا
- ٢٩٢ بحث في قول من قال : الصلاة من الله بمعنى الرحمة
- ٢٩٤ بحث في قول الله تعالى : ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله﴾ الآيات
- ٢٩٤ بحث في قول الله تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ الآيات
- ٢٩٩ أنواع المحبة وخاتمة البحث فيها
- ٣٠٤ قوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ الآية . مناظرة بين الكفار والمسلمين
- ٣٠٥ قوله تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ الآية
- ٣٠٦ قوله تعالى : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ الآية
- ٣٠٦ الرد على المعارض على شرعية القصاص ، بحث موسع
- ٣١٦ الرد على المعارض على شرعية حد السارق والزاني وتنصيف الحد على الرقيق
- ٣١٩ البحث في الجنائيات الثلاث على الأنفس والأموال والأعراض
- ٣٢٣ قاعدة الشريعة لا يجوز هدمها ودلائل هذه القاعدة
- ٣٢٥ شروط الواقفين أربعة أقسام ، الضرار نوعان
- ٣٢٧ الإنكار على من أفتى بغير الشرع أو وصى خلاف الشرع
- ٣٣٠ بحث الصيام وتفسير الآيات الواردة فيه ، والحكمة منه
- ٣٣١ هديه ﷺ الإكثار من العبادات في الصيام
- ٣٣٤ بحث في قوله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾
- ٣٣٤ بحث عن مرض الأبدان والأشياء التي يؤدي انحباسها والحمية ، وأصول الطب
- ٣٣٦ الأشياء المفطرة وغير المفطرة
- ٣٣٨ وقت الإفطار والدعاء عنده
- ٣٣٩ حكم الصيام في السفر وأسباب الفطر
- ٣٤١ تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في الصفات

- ٣٤٢ بحث في قوله ﴿الآن باشروهن﴾
- ٣٤٣ هديه ﷺ في الاعتكاف وأحكامه
- ٣٤٦ بحث في قوله تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾
- ٣٤٧ بحث في قوله تعالى : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾
- ٣٤٨ بحث في قوله تعالى : ﴿واقموا الحج والعمرة لله﴾
- ٣٤٩ هديه ﷺ في حجه وعمره والاختلاف في عدد عمره ووقتها
- ٣٥٥ حكم حلق الرأس وأنواعه وما ابتدع فيه
- ٣٥٨ بحث في قوله تعالى : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾
- ٣٥٩ حكم الحج والعمرة للنساء وحكم فسخ نية الحج إلى العمرة
- ٣٦٣ بحث حول العمرة المكية وحكم رمي الجمرة الأولى ووقتها
- ٣٦٦ هديه ﷺ في الوقوف عند المشعر الحرام والندب إلى كثرة ذكر الله
- ٣٦٧ مواطن النحر وحكم البناء بمنى
- ٣٦٨ بحث في قول الله - تعالى - : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ الآية
- ٣٦٨ بحث في قول الله - تعالى - : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾
- الآية وفيها حكم وأسرار
- ٣٧٢ المحبوب قسمان : محبوب لنفسه ومحبوب لغيره
- ٣٧٣ يجوز للمفتي أن يعدل عن الجواب إلى ما هو أنفع للمستفتي
- ٣٧٤ ذكر قصة سرية عبد الله بن جحش وما نزل فيها من قرآن لإيضاح موارد الفتنة
- ٣٧٩ بحث في قوله الله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية وحكم الجهاد والهجرة
- ٣٨٠ الفرق بين الرجاء والتمني
- ٣٨١ بحث في قول الله تعالى : ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ وبحث خلطة اليتامى
- ٣٨٢ بحث في أحكام الحيض في القرآن وأحكام الوطء
- ٣٨٥ بحث في أحكام الأيوان وحكم طلاق المكره والسكران
- ٣٨٩ بحث في أحكام الإيلاء ومدة التبرص وحكم مجامعة الرجل لزوجته
- ٣٩٣ بحث أحكام الخطبة قبل انتهاء العدة وذكر ختم الآيات بأسماء الله وفائدتها
- ٣٩٥ تقسيم الألفاظ إلى صريح وكناية واختلافه باختلاف الأشخاص . . إلخ
- ٣٩٦ حكم الطلاق ووقته وحكم الطلاق الثلاث مجموعة وذكر الخلاف فيها
- ٤٠٢ ذكر حكم الفدية في الخلع برضاها والخلاف إذا تم الخلع هل له رجعة برضاها
- ٤٠٦ حكم التحليل المحرم والجائز وحكم العضل من الزوج

- ٤٠٩ حكم تفريق الشرع بين عدة الموت والطلاق وغيرهما، والجواب عنه بوضوح
- ٤١٦ الحكمة في منع نكاح المطلقة ثلاثا حتى تنكح زوجا غيره وذكر الفرق بين شريعة الإسلام والتوراة والإنجيل
- ٤١٨ ذكر حكم الله في العدد بتفصيل
- ٤٢٤ البحث في الأقراء هل هي الحيض أو الأطهار
- ٤٢٧ حكم النفقات على الزوجات والأقارب
- ٤٣٢ بحث أي القيام والسجود أفضل . بحث القنوت
- ٤٣٤ معاني العزة واستلزامها للوحدانية
- ٤٣٤ بحث السكينة وأصلها وماهي؟
- ٤٣٧ بحث في الصبر والثناء على أهله
- ٤٣٨ ماورد في آية الكرسي وبحث في قول الله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وتقدم البحث في ص ٢١٦
- ٤٤٠ بحث في قول الله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾
- ٤٤٣ بحث في قول الله تعالى ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية
- ٤٤٤ بحث في قول الله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ الآية وما بعدها
- ٤٤٦ بحث مايعرض للأعمال الصالحة فيبطلها . . إلخ
- ٤٤٧ بحث من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله ومضاعفته
- ٤٤٨ المقصود في الزكاة أمور عديدة
- ٤٤٩ الحث على إخراج الطيب من الكسب وما أخرج الله من الأرض
- ٤٥٠ بحث في مطالعة أصول النعم وما لله على أوليائه منها
- بحث مقادير الزكاة على أكمل الوجوه وأنفعها وتناسبها
- ٤٥٤ بحث حول ما يأمر الله به من إخراج الزكاة وما وعد به من الأجر والفضل
- ٤٥٥ بحث يدور على فضل الحكمة وخيريتها والامتنان بها وأنواعها والخلاف فيها
- ٤٥٧ بحث حول مستحقي الزكاة والوعد لمخرج الزكاة بالمغفرة وتكفير السيئات
- ٤٦١ ذكر الله أحكام الناس في الأموال ثلاثة : عدل وظلم وفضل
- ٤٦٢ العقل تحت حجر الشرع فيما يأمر به وفيما يحكم به
- ٤٦٣ بحث معارضي الشرع تبعا لقائدهم إبليس لعنه الله
- ٤٦٤ السابعة أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس
- ٤٦٥ بحث حول طلب الله القرض من عباده لمصلحتهم في الربح عليه
- ٤٦٧ المن نوعان : من بالقلب ومن باللسان والله حرم المن واختص به نفسه . . إلخ

- ٤٦٨ المن معارضة من المان لمعطي الفضل في الحقيقة ومحبط للعمل
- ٤٧٠ بحث في قول الله ﴿قول معروف ومغفرة﴾ والخلاف في ذلك
- ٤٧٢ تمثيل المنفق في مرضاة الله باللجنة كثيرة الأشجار والشمار
- ٤٧٣ الخلاف في الضعفين
- ٤٧٤ بحث في قول الله ﴿أيود أحدكم﴾ الآية . والخلاف في هل النخل أفضل أم العنب أفضل؟
- ٤٧٧ بحث في قول الله ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ الآية . والتحذير من طاعة الشيطان
- ٤٨٠ ذكر أقسام الأغنياء ومجمل البحوث في آيات الإنفاق استعراض مفيد
- ٤٨٣ استعراض آيات النبي عن الربا والتحذير منه
- ٤٨٤ بحث آية المداينة في إرشاد الله لعباده بطرق حفظ حقوقهم
- ٤٨٥ ذكر البينة ونصاب الشهادات
- ٤٨٧ السياسة نوعان : عادلة وظالمة
- ٤٨٨ البينة اسم لكل ما يبين الحق شهود وقرائن ومدح الفراسة
- ٤٨٩ طرق الحكم والبحث حول قول الله - تعالى - : ﴿أن تضل إحداهما﴾ الآية
- ٤٩١ المنافع التي يجب بذلها نوعان :
- ٤٩٢ الخلاف في أخذ الجعل على الشهادة
- ٤٩٢ مدار لفظ شهد على الحكم والقضاء والإعلام والبيان . . إلخ
- ٤٩٤ قبول شهادة العبد وأدلة ذلك
- ٤٩٥ ذكر فضل خاتمة سورة البقرة

انتهى فهرس المجلد الأول

الضَّوْءُ الْمُنِيرُ

على

النَّفْسِ الْمُنِيرِ

المجلد السادس

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي المحمّد الطّحطاوي

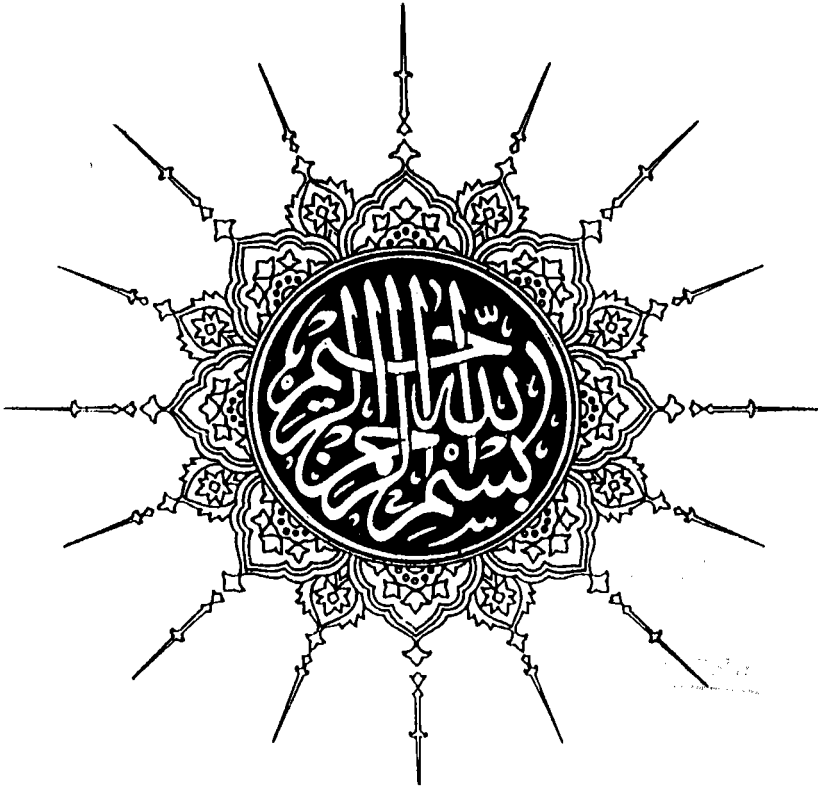
من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الأسدي
المعروف بابن قتيو الجوزية

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتّجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السلام



الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة-شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

ت ٣٦٤٨٦٧٨ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) حكم رسول الله في الظهار، وبيان ما أنزل فيه

ومعنى «العود» الموجب للكفارة

قال - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقِيَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢-٤] .

ثبت في السنن والمسانيد «أن أوس بن الصامت: ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة - وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات - فقالت: يا رسول الله، إن أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا سني، ونثرت له ذات بطنى: جعلني كأمه عنده. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما عندي في أمرك شيء»، فقالت: اللهم إني أشكو إليك». وروي أنها قالت: «إن لي صبية صغارا، إن ضمهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فنزل القرآن».

وقالت عائشة «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى عليّ بعض كلامها. فأنزل الله - عز وجل - : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. فقال النبي ﷺ: «ليعتق رقبة؟» قالت: لا يجد. قال: «فيصوم شهرين متتابعين». قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير، ما به صيام. قال: «فليطعم ستين مسكينا» قالت:

ما عنده شيء يتصدق به. قال: «فإني سأعينه بَعْرَق من تمر» قالت: وأنا أعينه بَعْرَق آخر. قال: «أحسن، فأطعمني عنه ستين مسكينا، وارجمي إلى ابن عمك».

^(١) **والسمع** يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت وأنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق؛ ففيهم أفتان: إحداها أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب. والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِئْكُمْ مَآزِدُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَفْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِئْكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤٢]. أي قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلي: سمع الله لمن حمده. أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي، ﷺ: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم» أي يجيبكم. والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه، ومعه كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

...^(٢) **وسألته** ﷺ خولة بنت مالك فقالت: إن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وشكته إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يجادلها فيه بقوله: «اتقي الله فإنه ابن عمك» فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

رُؤُوسُهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ [المجادلة: ١]
 الآيات فقال: «يعتق رقبة» قالت: لا يجد. قال: «فيصوم شهرين متتابعين». قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكيناً». قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، فأتى ساعته بعرق من تمر، قلت: يا رسول الله إني أعينه بعرق آخر، قال: «أحسنْتَ اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك» ذكره أحمد وأبو داود.

ولفظ أحمد: قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدَرَ سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليّ يوماً، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت على كظهر أُمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس الخويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت: فوائتني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ، ما كان يتغشاها ثم سرّني عنه، فقال: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك»، ثم قرأ عليّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، إلى قوله: ﴿وَاللِّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤]. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مُريه فليعتق رقبة» وذكر نحو ما تقدم. وعند ابن ماجه أنها قالت: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت^(١) له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات.

^(٢) وفي السنن: «أن سلمة بن صخر البياضي: ظاهر من امرأته مدة شهر

(١) أردات: أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. ويقال: امرأة نثرت: كثيرة الولد. (٢) ١٥٩ زاد المعاد ج٤.

رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه. فقال له النبي ﷺ: «أنت بذاك ياسلمة؟» قال: قلت: أنا بذاك يا رسول الله - مرتين - وأنا صابر لأمر الله. فاحكم فيَّ بما أراك الله، قال: «حرَّر رقبة». قلت: والذي بعثك بالحق نبيا ما أملك رقبة غيرها - وضربت صفحة رقبتى - قال: «فصم شهرين متتابعين». قال: فهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام؟ قال: «فأطعم وسقًا من تمر ستين مسكينًا». قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا وحشِين^(١)، مالنا طعام. قال: «فانطلق إلى صاحب صدقة بني زُرَيْق فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر. وكل أنت وعيالك بقيتها». قال: فَرُحْتُ إلى قومي. فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول ﷺ السَّعة، وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم».

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس «أن رجلا أتى النبي ﷺ، قد ظاهر من امرأته. فوقع عليها، فقال: يا رسول الله، إنى ظهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفر؟» قال: «وما حملك على ذلك؟ يرحمك الله». قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «فلا تقر بها حتى تفعل ما أمرك الله» وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه أيضًا عن سلمة بن صخر عن النبي - ﷺ - في المظاهر يواقع قبل أن يُكْفَرَ، فقال: «كفارة واحدة» وقال: حسن غريب. انتهى. وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار عن إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس قال: «أتى رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنى ظهرت من امرأتي، ثم وقعت عليها قبل أن أكفر. فقال: رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَسَاءَلَ﴾ [المجادلة: ٣]؟ فقال: أعجبتني. فقال: «أمسك حتى تُكْفَرَ» قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تكلم فيه. وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم. فتضمنت هذه الأحكام أمورًا.

أحدها: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار

(١) الوحش - بسكون الحاء - الجائع.

طلاقاً، ولو صرح بنيته له، فقال: «أنت عليّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» لم يكن طلاقاً. فكان ظهاراً. وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ. وقد نص عليه أحمد والشافعي وغيرهما.

قال الشافعي: ولو ظاهر - يريد طلاقاً - كان ظهاراً، أو طلق يريد ظهاراً: كان طلاقاً. هذا لفظه، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهبه خلاف هذا.

ونص أحمد على أنه إذا قال: «أنت عليّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» أنه ظهار. ولا تطلق به. وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية فنسخ. فلم يجوز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ. وأيضاً: فإن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار، دون الطلاق. وأيضاً: فإنه صريح في حكمه فلم يجوز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله - عز وجل - بشرعه، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

ومنها: أن الظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه. لأنه - كما أخبر الله عنه - منكر من القول وزور، فكلاهما حرام. والفرق بين جهة كونه منكراً، وجهة كونه زوراً: أن قوله: «أنت عليّ كظهر أمي» يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءً لتحريمها. فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً. فهو خبر زور، وإنشاء منكر، فإن الزور: هو الباطل، خلاف الحق الثابت. والمنكر: خلاف المعروف.

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم، الذي لولا عفو الله ومغفرته لآخذه به.

ومنها: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار. وإنما تجب بالعود. وهذا قول الجمهور. **وروى الثوري عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال:** «إذا تكلم بالظهار فقد لزمه» وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه. وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ قال: «جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود فيطؤها، فتحرير رقبة».

وحكى الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار. وحكاه ابن حزم عن الثوري وعثمان البتي. وهؤلاء لم يخف عليهم: أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم: هو العود إلى ما كان عليه في الجاهلية من التظاهر. كقوله

تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥]، أى عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه. ولهذا قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

قالوا: ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور. وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه.

قالوا: ولأن الله - سبحانه - لما حرم الظهار، ونهى عنه: كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ﴾ [الإسراء: ٨]. أي إن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة. فالعود هنا: نفس فعل المنهي عنه.

قالوا: ولأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية. فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير، وتحريم الزوجة حتى يُكْفَرَ، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبراً بلفظه كالطلاق...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. والكبت: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه، قال النضر^(٢) وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن^(٣)، وقال أهل التفسير: كُبتوا: أهلكوا وأخزوا وحزنوا، وإذا كان المحاد مكبوتاً فلو كان آمناً على نفسه وماله لم يكن مكبوتاً بل مسروراً جذلاً^(٤) يشفي صدره من الله ورسوله، آمناً على دمه وماله، فأين الكبت إذن؟

ويدل عليه قوله: ﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فخوفهم بكبتٍ نظير كُتِبَ مَنْ قَبْلَهُمْ: وهو الإهلاك من عنده وأنا بأيدي عباده وأوليائه. وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٥] دليل على أن المحادة مغالبة ومعادة حتى يكون أحد المحادين غالباً، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد

(١) ٨٢٦ أحكام أهل الذمة جـ ٢. (٢) هو النضر بن شميل كما في الصارم ٢٢.

(٣) زاد ابن تيمية في الصارم ٢٢ فائدة لغوية طريفة في هذا المقام حين قال: «وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده. كما يقال: أحرقت الحزن والعداوة كبده».

(٤) في الأصل (اجدلاً). والذي في مطبوعة الصارم ٢٣ (جدلان).

ليس بمسالماً، فلا يكون له أمان مع المحادّة، وقد جرت^(١) سنة الله - سبحانه - أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك^(٢) عدوه.

يوضحه^(٣) أن المحادّة مشاقّة، لأنها من الحد والفصل واليئونة، وكذلك المشاقّة^(٤) من الشق، وكذلك المعاداة من العُدوة، وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحدّ وعدوه الآخر^(٥) في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة^(٦)؛ وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبداً.

يوضحه أن الحبل وُصِّلَ وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضاً فإنها إذا كانت بمعنى المشاقّة فقد قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ^(٧) اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فأمر بضرب أعناقهم، وعَلَّل ذلك بمشاقّتهم ومحادّتهم^(٨)، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه، وهذا دليل تاسع في المسألة. وترتيبه هكذا: هذا مشاق لله ورسوله، والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق، وقد تبينت صحة المقدمتين.

ونظير هذا الاستدلال قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣] والتعذيب في الدنيا هو القتال والإهلاك، ثم علَّل ذلك بالمشاقّة، وأخر عنهم ذلك التعذيب لما سبق من كتابه الجلاء عليهم، فمن وجدت منه المشاقّة [من] غيرهم ممن لم يكتب عليه الجلاء استحقّ عذاب الدنيا الذي أخره عن أولئك. وهذا دليل عاشر في المسألة.

(١) في الأصل (جرى). (٢) كذا بالأصل، والذي في (الصارم ٢٣) ملك.

(٣) في الصارم ٢٣ (وأيضاً، فإن المحادّة).

(٤) في الأصل (المساقّة) بالسین المهملة. (٥) في الأصل (والآخر).

(٦) في الأصل (القاطعة والمفاصلة) صوابها من الصارم ٢٣.

(٧) كذا بالأصل (يشاق) بإدغام القاف، وهي قراءة معروفة، والفك هنا أشهر.

(٨) كذا في الأصل بفكّ الإدغام في لفظة (محادّة)، وهي في الصارم ٢٤ مدغمة.

(١) وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية فنبه - سبحانه - بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين. فالمشتركون في النجوى: إما شفع فقط أو وتر فقط أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة، وأقل أنواع الشفع اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه: رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم - سبحانه - بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل.

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية، والعرب تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

وقال - تعالى - في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون؟ وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معها في الذكر؟ فجعل الخاص مع المعية الخاصة والعام مع المعية العامة.

(٢) المعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة: وهي معية القرب، كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ

هُم مُّحْسِنُونَ ﴿ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ«مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجاورة. فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أي.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصاً. وهو نوعان: قرب من داعيه بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جواباً للصحابة - رضي الله عنهم - وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربُّنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟» فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والثاني: قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل» فهذا وقربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جلسه، كما قيل:

ألا رُبَّ من يدنو ويزعم أنه يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون

قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأني القرب منها، فكيف بمن يقرب خلقه كيف يشاء. وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خَلِيٍّ من محبته ومعرفته

(١) لم يأت (الحزن) في القرآن ألا منهياً عنه ومنهياً؛ فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] والنفي كقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك: أن «الحزن» موقف غير مُسِيرٍ، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يُحْزَنَ العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠] ونهى النبي ﷺ الثلاثة: «أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه».

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، إن كل لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير. مُفْتَرٌّ للعزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَاعْيَنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مدحوا على ما دلَّ عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تحلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة. ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا نصبٍ،

وَلَا حَزَنَ إِلَّا كَفَرَّ اللَّهُ بِهِ خُطَايَاهُ» فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته. لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه
(١) الوجه التاسع عشر: أنه - سبحانه - أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع .

أحدها هذا. والثاني قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] . والثالث قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥] . والرابع قوله - تعالى - : ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح ، والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين .

(٢) الوجه السابع والستون: أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال : إيمان بالله ؛ فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها .
والإيمان له ركنان : أحدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به .

والثاني تصديقه بالقول والعمل ، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال ، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة ، فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب .

الوجه الثامن والستون: أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة

والإرادة، والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة، والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمعلوم إلى العلم، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته.

الوجه التاسع والستون: أن العلم أعم الصفات تعلقاً بمتعلقه وأوسعها، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم.

ف ذات الرب - سبحانه - وصفاته وأسمائه معلومة له، ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير. وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص بالتعلق.

أما القدرة؛ فإنها تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخص من العلم من هذا الوجه، وأعم من الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده، فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه.

الوجه السبعون: أن الله - سبحانه - أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، ويأتهم بهم من بعدهم. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي أئمة يقتدى بنا من بعدنا.

فأخبر - سبحانه - أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده.

الوجه الحادي والسبعون: أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب، وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الوجه الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً، واعتبر هذا بالشاهد: فإن الصانع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويربهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثم الجهاد» فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحباً وصوماً وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ماسبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول

الوجه السادس والأربعون بعد المائة: إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ما حصل لأدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها - سبحانه - في قوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ [الأنعام: ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلميذه كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدد - سبحانه - هذه النعمة بهذا العلم على عباده، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل مارفعه الله به إليه وفضله وكرمه: وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

(١) وللعلم ست مراتب: أولها حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده.

فمن الناس من يجرمه لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها ويدع مالا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

ومن الناس من يجرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والمهارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علماً كثيراً ولو كان حسن الفهم.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حسن الفهم ردىء الاستماع لم يقدّر خيره بشره، وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلفظ له في السؤال فيغيره بالعلم غراً. وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمل ماتحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه - سبحانه - أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكراً لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب وكان بمنزلة البصير إذا مرت به المراتب فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين.

أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقي إليه، فإن كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه.

وهاهنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله: الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغائه والإقبال على الذكر. فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية. . . .

^(١) **قوله** تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢] وأجنت الميّت واريته في القبر فهو جَنِين. والحب المفرط يستر العقل، فلا يَعْقِلُ المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبة من الجنون. وأصل المادة من السّتر في جميع تصاريفها، ومنه أجنّة الليل،

وَجَنَّ عَلَيْهِ إِذَا سَتَرَهُ، وَمِنَ الْجَنِّينَ لَاسْتَارَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَمِنَ الْجَنَّةِ لَاسْتَارَهَا بِالْأَشْجَارِ، وَمِنَ الْمَجْنُ لَاسْتَارَ الضَّارِبَ بِهِ وَالْمَضْرُوبَ، وَمِنَ الْجَنِّ لَاسْتَارَهُمْ عَنِ الْعَيُونِ بِخِلَافِ الْإِنْسِ فَإِنَّهُمْ يُؤَنَسُونَ أَيُّ يُرَوْنَ، وَمِنَ الْجَنَّةِ بِالضَّمِّ وَهِيَ مَا اسْتَرَتْ بِهِ وَاتَّقَيْتْ.

..(١) قلت: الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس، وأما ما يزيد الله به أوليائه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وكذلك الروح الذي أيدها روحه المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن. وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضاً: أرواحاً. فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام.

فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى.

ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبة وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيدها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان مافيه روح، وهوبو، وهو قسبة فارغة ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المجادلة

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل

ثم نقض العهد بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر»
 قاله عروة، وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن
 يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا
 القاسم، اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسؤل لهم
 الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله، ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه
 الرحا ويضعده، فيلقوها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش:
 أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبرن بما همتم به، وإنه
 لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء الوحي على الفور إليه من ربه - تبارك
 وتعالى - بما هموا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا:
 نهضت ولم نشعربك؟ فأخبرهم بما هممت بهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن أخرجوا من المدينة، ولا تسكنوني بها، وقد
 أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون.
 وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين
 يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.
وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ،
 يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ،
 وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا
 على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبي
 وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله سبحانه وتعالى قصتهم وجعل مثلهم:
 ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦].

فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها، فحاصرهم رسول الله (ﷺ) وقطع نخلهم وحرّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي (ﷺ) الأموال والحلقة، وهي السلاح، وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله (ﷺ) لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُحمّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب^(١).

^(٢) **وذكر** الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجّلوا من المدينة أقبل عمر بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر. ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا. فقال الزبير بن باطا: يا أباسعيد أين كنت منذ اليوم؟ فلم نرك. وكان لا يفارق الكنيسة، وكان يتأله في اليهودية - قال: رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها: وأيت إخواننا قد جلّوا بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البار، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، ولا - والتوراة - ما سلط هذا على قوم قط الله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمناً، وأوقع بابن سنيّة سيدهم. وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم النبي - عليه السلام - فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى نهاهم فكلّم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب.

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فاطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، فوالله أنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبو عمرو بن حراس، وهما أعلم اليهود، جاء من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منها السلام ثم ماتا على دينها ودفناهما ببحرنا، فاسكت القوم فلم يتكلّم منهم متكلّم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسبأ والجلاء.

فقال الزبير بن باطا: قد - والتوراة - قرأت صفته في كتاب التوراة التي أنزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا.

فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت.

قال ولم - فوالثورة - ما حلت بينك وبينه قط؟

قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا.

فأقبل عمر بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً.

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى - عليه السلام - فقال له! وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد رباً غيرك؟! قال: صدقت.

وذكر ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة غدوا عليه ثم جاء من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله - سبحانه - عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء: قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء، حتى قتلوا في يوم سبعين نبياً، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً.

واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم وألقى شبهه على غيره، فقتلوه، وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة، والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر.

(١) «والاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه. قال الله - تعالى -: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظر إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى ، حتى يستدل صاحبه بصفات الله - تعالى - وكماله على ما يفعله ، لحسن اعتباره وصحة نظره ، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم . فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا . فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده ، ولا يفعل ما يناقض ذلك .

وقد ذكر - سبحانه - هذين الطريقتين في كتابه . فقال - تعالى - في الطريق الأولى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ . ثم قال في الطريق الثانية : ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] .

فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته ، وأسماءه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به ، وما لا يفعله ولا يأمر به . مثال ذلك : أن اسمه «الحميد» - سبحانه - يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر . واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً . واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه : من قدرته ، وتدبيره ، وعظائه ومنعه ، وثوابه وعقابه ، وبث رسله في أقطار مملكته ، وإعلام عبده بمراسيمه ، وعهوده إليهم ، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد .

فمتى قام بالعبد تعظيم الحق - جل جلاله - وحسن النظر في الشواهد ، والتبصر والاعتبار بها : صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبله له . . .

(١) قال الله - تعالى - : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به . وقال (ﷺ) : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» وقال : «من رغب عن سنتي فليس مني ، ومن أحب سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة» فعرّفنا سنته ووجدناها بهذه الآثار المشتهرة التي رويت بالأسانيد الصحيحة المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض .

ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث : لها أطلب ، وفيها أرغب ، ولها أجمع ، ولأصحابها اتباع ، فعلمنا يقينا أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق ، فإن

صاحب كل حرفة أو صناعة إن لم يكن معه دلالة وآلة من آلات تلك الصناعة والحرفة ثم ادعى تلك الصناعة كان في دعواه مبطلاً فإذا كانت معه آلات الصناعة الحرفة شهدت له تلك الآلات بصناعته بل شهد له كل من عاينه قبل الاختبار. . .

^(١) **والذي قال لنا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾** [الحشر: ٧] هو الذي شرع لنا هذه الزيادة على لسانه ^(٢) والله - سبحانه - ولاه مَنْصِبَ التشريع عنه ابتداءً، كما ولاه منصب البيان لما أَرَادَهُ بكلامه.

بل كلامه كله بيان عن الله، والزيادة بجميع وجوها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه وَجَدُوا تصديقه في القرآن، ولم يقل أحد منهم قط في حديث واحد أبداً: إن هذا زيادة على القرآن فلا نقبله ولا نسمعه ولا نعمل به، ورسول الله (ﷺ) أَجَلُ في صدورهم وسنته أعظم عندهم من ذلك وأكبر.

ولا فرق أصلاً بين مجيء السنة بعدد الطواف وعدد ركعات الصلاة ومجيئها بفرض الطمأنينة وتعيين الفاتحة والنية؛ فإن الجميع بيانٌ لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على هذا الوجه، فهذا الوجه هو المراد، فجاءت السنة بياناً للمراد في جميع وجوها، حتى في التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته وطاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد وبين بيان المراد من الصلاة والزكاة والحج والطواف وغيرها، بل هذا بيان المراد من شيء، وذلك بيان المراد من أعم منه؛ فالتغريب بيان مُحْضٍ للمراد من قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقد صرح النبي (ﷺ) بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن معارض له؟ ويقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن؟ وهل هذا إلا قَلْبٌ للحقائق؟ فإن حكم القرآن العام والخاص يوجب علينا قبوله فرضاً لا يسعنا مخالفته؛ فلو خالفناه لخالفنا القرآن ولخرجنا عن حكمه ولا بد، ولكان في ذلك مُخَالَفةٌ للقرآن والحديث معاً. يوضحه الوجه الثاني:

أن الله - سبحانه - نَصَبَ رسول الله (ﷺ) منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما

(١) ٢٩٤ أعلام ج ٢.

(٢) يشير إلى ما تقدم من الأدلة على وجوب قبول السنة على أي وجه وردت (ج).

شرعَه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعُه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا: كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث:

أن الله - سبحانه - أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان، وجاء البيان عن رسوله (ﷺ) بمقادير ذلك وصفاته وشروطه؛ فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل. **وهكذا** أمر الله - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله؛ فإذا أمر الرسول بأمر كان تفصيلاً وبياناً للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما. يوضحه الوجه الرابع:

أن البيان من النبي (ﷺ) أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل.

كما فسر قوله: ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مغربها. **وكما** فسر قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

وكما فسر قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: مَنْ ربك؟ وما دينك؟

وكما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب.

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال. **وكما** فسر القوة التي أمر الله أن نعدّها لأعدائه بالرّمي. **وكما** فسر قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصب والهلم والخوف والأواء.

وكما فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم. **وكما** فسر الدعاء في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة. **وكما** فسر أدبار النجوم

بأنه الركعتان قبل الفجر وأدبار السجود بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنًا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تَصَمَّخَ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيمهم عن التأسّي به.

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده أو يَعْلَمُهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفوًا بالسكوت عن تحريره وإن لم يأذن فيه نطقًا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريره أو إباحته، ويكون لذلك

الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الربُّ -

سبحانه وتعالى - على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤]

فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية

المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائدًا على النص فيكون

نسخًا له، وإن كان رفعًا لظاهر إطلاقه.

فهكذا كل حكم منه (ﷺ) زائد على القرآن، هذا سبيله سواء بسواء، وقد

قال - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]

ثم جاءت السنة بأن القاتل والكافر والرقيق لا يرث، ولم يكن نسخًا للقرآن مع أنه

زائد عليه قطعًا، أعنى في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجب بالولادة وحدها،

فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين وعدم الرق والقتل، فهلا قلت: إن

هذه زيادة على النص فيكون نسخًا والقرآن لا ينسخ بالسنة كما قلت ذلك في كل

موضع تركتم فيه الحديث لأنه زائد على القرآن...

(١) قال الله - تعالى -: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ

وَالرَّسُولُ [الحشر: ٧] فنزهه ربه - سبحانه - عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأجله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رحمه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله (ﷺ) ومملكه من جنس غنى بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء، وغناه (ﷺ) عن الشيء، وهو الغنى العالي.

وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو (ﷺ) إنما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده. وقد اختلف الفقهاء في الشيء: هل كان ملكاً للنبي (ﷺ) على قولين، وهما روايتان عن أحمد.

والتحقيق أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال (ﷺ): «والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً؛ إنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت»، وذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبد محض من كل وجه لربه - عز وجل - والعبد لا مال له فيورث عنه.

فجمع الله له - سبحانه - بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمّل له مراتب الكمال، فليست إحدى الطائفتين بأحق به من الأخرى، فكان (ﷺ) في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك في غناه. والله - تعالى - جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً. وخير بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، فاختر أن يكون عبداً نبياً، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها، ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال: «من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلاً فإلي وعلي».

فرفع الله - سبحانه - قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحمل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً، ولا ترك شاة

ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً، فإذا احتج الغني الشاكر بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً، فرسول الله (ﷺ) وفي كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها.

وأيضاً فإن الله - سبحانه - أغنى به الفقراء، فما نالت أمتة الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنياً. قال علي بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبد الله بن عمرو: ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير كثير. فقال مسلمة: ألم يقل الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] فقال عبد الله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه. وأما العيلة فكلما كان بأيدي العرب إلى القلة يقول: إن العرب كانت كلها مقلّة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنها، قال وذلك معنى. قوله: ﴿عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾. وأما قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمتة، وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأبأها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمتة من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبد الله عن علي بن عبد الله بن عباس عن النبي (ﷺ) قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدي كفرة كفرة فسرني ذلك» فنزلت ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ١-٥]. قال أعطني ألف قصر من لؤلؤ تراها المسك في كل قصر ما ينبغي له...

(١) قال الله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُّونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ۖ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٧-١٠].

إلى آخر الآية - فأخبر - سبحانه - . أن ما أفاء على رسوله بجملته : لمن ذكر في هؤلاء الآيات ، ولم يخص منه خمسة بالمذكورين ، بل عمم وأطلق ، واستوعب ، ويصرف على المصارف الخاصة ، وهم أهل الخمس .

ثم على المصارف العامة ، وهم المهاجرون والأنصار ، وأتباعهم إلى يوم الدين . فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون : هو المراد من هذه الآيات .

ولذلك قال عمر بن الخطاب فيما رواه أحمد وغيره عنه : « ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد . والله ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك » . ولكننا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله (ﷺ) فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته . والله لئن بقيت لهم ، لياتين الراعي بجبل صنعاء حظّه من هذا المال ، وهو يرعى مكانه » .

فهؤلاء المسلمون في آية الفیء : هم المسلمون في آية الخمس ، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس ، لأنهم المستحقون لجملة الفیء .
وأهل الخمس لهم استحقاقان : استحقاق خاص من الخمس ، واستحقاق عام من جملة الفیء . فإنهم داخلون في النصيبين .

وكما أن قسمته من جملة الفیء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون ، كقسمة الموارث والوصايا والأملاك المطلقة ، بل بحسب الحاجة والنفع ، والغناء في الإسلام ، والبلاء فيه . فكذلك الخمس في أهله ، فإن مخرجها واحد في كتاب الله .

والتنصيص على الأصناف الخمسة : يفيد تحقيق إدخالهم ، وأنهم لا يخرجون

من أهل الفياء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفياء العام في آية الحشر للمذكورين فيها، لا يتعداهم إلى غيرهم.

ولهذا أفتى أئمة الإسلام - كمالك وأحمد وغيرهما - أن الراضة: لا حق لهم في الفياء. لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، ولا من ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله (ﷺ) وخلفائه الراشدين...

(١) وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أن إثارة المحبوب نوعان: إثارة معاوضة ومتاجرة، وإثارة حب وإرادة.

فالأول: يؤثر محبوبه على غيره طلباً لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابة لداعي محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائماً إلى إثارة محبوبه، فإثارته هو أجل حظوظه، فحظه في نفس الإيثارة لا في العوض المطلوب بالإيثارة، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فلتدرج.

والدين كله والمعاملة في الإيثارة، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاء وكرماً. وهذا إنما يصح في إثارة المخلوق، والله - سبحانه - يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه - سبحانه - فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا». وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره.

والفرق بين الإيثارة والأثرة: أن الإيثارة تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به على الغير. وفي الحديث: «بايعنا رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا».

فإذا عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً، ولا يسد عليك طريقاً، ولا يمنع لك وارداً.

فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فيإثار نفسك عليهم أولاً، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان. وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه. فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب.

قال الله - تعالى :- ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات. فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه - سبحانه - أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها.

قال الله - تعالى :- ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ غَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] . وقال تعالى: **﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾** [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى: **﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾** [المطففين: ٢٦]

وقال النبي (ﷺ): «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة». والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلاً للتنافس والمسابقة.

ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسرفه - والله أعلم - أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثر والمؤثر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألف المؤلف في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزا-عم ووسعتهم كلهم.

وإن قدر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع - بحيث

إذا فعله واحد فات على غيره - فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي (ﷺ) في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

وأيضاً فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساو له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضاً فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابه. والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجاً إليه فإذا اختص به أحدهما فات الآخر، فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبراً على الإيثار به ما لم يجرم عليه ديناً، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقاً عزم على سلوكه إلى ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقاً بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته.

فإذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة - وليس للمؤثر نظيرها - تعين عليه الإيثار.

فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من أثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء، وجاوز أقصاه، وضرب فيه بأوفر الحظ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها، فإن قيل: ما الذي يسهل على النفس هذا الإيثار. فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل يسهله أمور:

أحدهما: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقتته، لا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل. وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل. وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب

الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه^(١)

ولهذا أمر رسول الله (ﷺ) أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

الثاني: النفرة من أخلاق اللثام، ومقت الشح وكرهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله - سبحانه وتعالى - للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جداً، بل لا بد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إشاره أفضل مما بذله. ومن جرب هذا عرفه، ومن لم يجربه فليستقر أحوال العالم. والموفق من وفقه الله - سبحانه وتعالى -.

^(٢) **قال الله - تعالى -:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي (ﷺ): «ياكم والشح! فإن الشح أهلكت من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا». فالبخل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

(١) وفي ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء

كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء . وهو أفضل من سخاء البذل . قال عبدالله بن المبارك : سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل . وهذا المنزل : هو منزل الجود والسخاء والإحسان .

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه ، فإن المراتب ثلاث .

إحداها: أن لا يتقصه البذل ، ولا يصعب عليه . فهو منزلة «السخاء» .

الثانية: أن يعطي الأكثر ، ويُبقي له شيئاً ، أو يبقي مثل ما أعطى ، فهو «الجود» .

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه ، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه . وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله (ﷺ) للأنصار رضي الله عنهم : «إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» والأنصار : هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله : ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء ، وكان ذلك فيهم معروفاً .

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين . حتى إنه مرض مرة ، فاستبطأ إخوانه في العيادة . فسأل عنهم ؟ فقالوا : إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة . ثم أمر منادياً ينادي : من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل . فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابهِ ، لكثرة من عاده . وقالوا له يوماً : هل رأيت أسخي منك ؟ قال : نعم ! نزلنا بالبادية على امرأة . فحضر زوجها . فقالت : إنه نزل بك ضيفان . فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم ؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها . فقلنا : ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا اليسير . فقال : إني لا أطعم ضيفاني البائت . فبقينا عنده يومين أو ثلاثة ، والسماء تمطر . وهو يفعل ذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه . ومضيئنا . فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا : قفوا . أيها الركب اللثام . أعطيتموني ثمن قراي ؟ ثم إنه لحقنا ، وقال : لتأخذنه أو لأطاعنكم برمحي . فأخذناه وانصرف .

فتأمل سر التقدير ، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم لإخوانهم في الدنيا على

نفوسهم بال منازل العالية في جنات عدن على الناس . فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه خير يراد بك . والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

فصل

و«الجود» عشرة مراتب .

أحدها: الجود بالنفس . وهو أعلى مراتبه ، كما قال الشاعر :

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة . وهو ثاني مراتب الجود . فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته ، والجود بها . والإيثار في قضاء حاجات الملتمس .

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته ، وإحجام نفسه . فيجود بها تعباً وكذاً في مصلحة غيره . ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره ، كما قيل :

مُتِمَّ بالندى لو قاله سائله هب لي جميع كرى عينيك لم ينم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله . وهو من أعلى مراتب الجود . والجود به أفضل من الجود بالمال . لأن العلم أشرف من المال .

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة . وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ : أن لا ينفع به بخيلاً أبداً .

ومن الجود به : أن تبذله لمن يسألك عنه ، بل تطرحه عليه طرحاً .

ومن الجود بالعلم : أن السائل إذا سألك عن مسألة : استقصيت له جوابها جواباً شافياً ، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة ، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرأً عليها .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في ذلك أمراً عجيباً : كان إذا سئل عن مسألة حكمية ، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة ، إذا قدر ، ومأخذ الخلاف ، وترجيح القول الراجح . وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته . فيكون فرحة بتلك المتعلقات ، واللوازم : أعظم من فرحة بمسألته . وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس . فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك .

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومآخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة - رضي الله عنهم - النبي (ﷺ) عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميته» فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن» ولم يكن يخفى عليه (ﷺ) نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً في أجوبته (ﷺ). مثل قوله: «إن بعث من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً. بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟» وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمرة: بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية - يعيونه بذلك. ويقولون: سأل السائل عن طريق مصر - مثلاً - فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمرك الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض. وهو خل مثل من لم يصل إلى العنقود

الخامسة: الجود بالنفع بالجاء. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال (ﷺ): «يُصْبَحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ: صَدَقَةٌ. وَيَعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فِيحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ: صَدَقَةٌ. وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ: صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ: صَدَقَةٌ. وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ: صَدَقَةٌ» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَمٍ من الصحابة - رضي الله

عنهم - . كان إذا أصبح قال : « اللهم إنه لا مال لي ، أتصدق به على الناس . وقد تصدقت عليهم بعرضي ، فمن شتمني ، أو قذفني : فهو في حلٍّ . فقال النبي (ﷺ) : « من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم ؟ » . وفي هذا الجود من سلامة الصدر ، وراحة القلب ، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه .

الثامنة: الجود بالصبر ، والاحتمال ، والإغضاء . وهذه مرتبة شريفة من مراتبه . وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال ، وأعز له وأنصر ، وأملك لنفسه ، وأشرف لها . ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار .

فمن صعب عليه الجود بهاله فعليه بهذا الجود . فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة . وهذا جود الفتوة . قال - تعالى - : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود . قال - تعالى - : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية : مقام العدل ، وأذن فيه . ومقام الفضل ، وندب إليه . ومقام الظلم ، وحرمه .

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة . وهو فوق الجود بالصبر ، والاحتمال والعفو . وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم . وهو أثقل ما يوضع في الميزان . قال النبي (ﷺ) : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ » وفي هذا الجود من المنافع والمسار ، وأنواع المصالح ما فيه . والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله .

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم ، فلا يلتفت إليه ، ولا يستشرف له بقلبه ، ولا يتعرض له بحاله ، ولا لسانه . وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك « إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل » . فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد : وإن لم أعطك ما تجود به على الناس ، فجدّ عليهم بزهدك في أموالهم . وما في أيديهم ، تفضل عليهم ، وتراحهم في الجود ، وتنفرد عنهم بالراحة .

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال . والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد ، والإتلاف للممسك . والله المستعان .

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله - :

«**الإيثار**: تخصيص واختيار. والأثرة: تحسُّن طوعاً. وتصح كرهاً».

فرق الشيخ بين «الإيثار» و«الأثرة» وجعل «الإيثار» اختياراً و«الأثرة» منقسمة إلى اختيارية، واضطرارية. وبالفارق بينهما يعلم معنى كلامه. فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً.

وأما «الأثرة» فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك. فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه. إلا إذا كانت طوعاً. مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعاً. فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثره كره. ويعنى بالصحة: الوجود، أي توجد كرهاً. ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعاً من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار» بذل صاحبه وإعطاؤه. و«الأثرة» استبداله هو بالمؤثر به. فيتركه وما استبدل به: إما طوعاً، وإما كرهاً. فكأنك أثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه، ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: «بايعنا رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة، في عُسْرنا، وُسْرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله» فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه (ﷺ) لم يستأثر عليهم.

فصل^(١)

...**وفيهما:** ^(٢) كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يُبشر النبي (ﷺ) بقدم وفد الطائف، ليكون هو الذي سرّه وأفرحه بذلك. وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أو يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه.

وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب. لا يصح، وقد آثرت

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ ٢.

(٢) أي قصة ثقيف حيث ساقها الشيخ - رحمه الله - كاملة مفصلة قبل هذا (ج).

عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها بجوار النبي (ﷺ). وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل. وعلى هذا: فإذا سأل الرجل غيره: أن يؤثره بمقامه في الصف الأول: لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل. ونظائره.

ومن تأمل سيرة الصحابة وجددهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه. وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، وتفريح لأخيه المسلم، وتعظيم لقدره، وإجابة له إلى ما سأل، وترغيب له في الخير. وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة وأخذ أضعافها؟

وعلى هذا: فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائة من يتوضأ به ويتيمم هو، إذا كان لا بد من تيمم أحدهما، فأثره أخاه وحازَ فضيلة الإيثار، وفضيلة الطهر بالتراب. ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق.

وعلى هذا: فإذا اشتد العطش بجماعة عاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فأثر به على نفسه واستسلم للموت. كان ذلك جائزاً، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرماً، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعُدَّ ذلك من مناقبهم وفضائلهم. وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها؟ وهو عين الإيثار بالقرب، فأبي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحضر ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثر بثوابها؟ وبالله التوفيق.

(١) **المثال** الثالث عشر: ردُّ الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة وعامتها بالضرورة؛ في مدح الصحابة، والثناء عليهم، ورضاء الله عنهم، ومغفرته لهم، وتجاوزته عن سيئاتهم، ووجوب محبة الأمة، واتباعهم لهم، واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «لا تَرْجِعُوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ونحوه.

كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخوارج حين ردوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالة المؤمنين ومحبتهم وإن ارتكبوا بعض الذنوب التي تقع مكفرة بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين.

فهذه عشرة أسباب تحقق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها فلا بد من دخول النار، ثم يخرجون منها؛ فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله، فاجتهدوا، فأداهم اجتهداهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المفرد، وكان حظ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب فاشتركوا هم والرافضة في رد المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها فكفروهم وخرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان. ففساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم، وتقديم الرأي على الشرع، والهوى على الهدى، وبالله التوفيق.

^(١) وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دُلَّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله - سبحانه -: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) [إبراهيم: ٢٢] فأوردتهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦] فقال قتادة وابن إسحاق «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨] والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردتهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة...

(١) فصل

ومن عقوباتها (٢) أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه.**

وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه مضيعاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة. إنها هي سحابة صيف أو خيال طيف.

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبيها من الله وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض وليس في الله إن ضيعت من عوض

فالله - سبحانه وتعالى - يعوض عن كل شيء سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني

عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء، وكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفه عين؟ وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم؟ فما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه. **...والتحقيق:** أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها.

ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة مخوفة بمحاسبتين.

وقد دل على المحاسبة قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر - سبحانه - العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟ **والمقصود** من هذا النظر: ما يوجب ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجم من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله! وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

(٢) قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاذه، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها.

وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسى ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكوه وتسعد به في معاشها ومعاذها. قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَطْغَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكوه نفسه وقلبه، بل هو مشئت القلب مضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلاً.

(٣) قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]

فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها، فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه آخر.

(١) وتأمل قوله - تعالى - : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذتها وفرحها عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم المتحب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم.

(٢) قوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها.

ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسياناً آخر. وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبه وذكركه وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصاً. وهذا يبين لك كمال عدله - سبحانه - في تقدير الكفر والذنوب عليها، وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو - سبحانه - ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه. وله فيها قضاآن: قضاء السبب، وقضاء المسبب وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل ما يحبه، عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب

ما يغيضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بدّ، بل هي مترتبة عليه ترتب المسببات على أسبابها، فهو عدل محض من الرب - تعالى - فعدل في العبد أولاً وآخرًا، فهو محسن في عدله محبوب عليه، محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعًا وكرهًا.

قال الحسن: لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلًا.

(١) قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الجبار المتكبر﴾: هو العظيم، وجبروت الله عظمته، والجبار من أسماء الملوك والجبر الملك والجبابة الملوك. قال الشاعر:

* وأنعم صباحًا أيها الجبر

أي: أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على ما يريد. **وعلى هذا؛** فالجبار معناه: القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سمي لجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته: قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد. وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب - سبحانه - الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا فاتت يد المتناول. **فالجبار في صفة الرب - سبحانه -** ترجع إلى ثلاثة معان: الملك، والقهر، والعلو. فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة.

ولهذا جعل - سبحانه - اسمه الجبار مقرونًا بالعزیز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: الخالق، الباري، المصور؛ فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن الباري المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق. **فالجبار من أوصافه** يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى. وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال - تعالى -: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾.

وقال - تعالى - لرسوله ﷺ: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط تقهرهم وتكرهم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس».

سُورَةُ الْمُؤْتَحِنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **الْكَافِرُ** مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنه للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. [الممتحنة: ٤، ٥]. وقال أصحاب موسى - عليه السلام -: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تُظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك. وقال الفراء: لا تُظهر علينا الكفار، فيروا أنهم على حق وأنا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتُر علينا الرزق وتبسُطه عليهم، فيكون ذلك فتنَةً لهم.

وقد أخبر الله - سبحانه - أنه قد فتن كلاً من الفريقين بالفريق الآخر، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فِتْنًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾. فقال الله - تعالى -: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. [الأنعام: ٥٢].

(٢) **قوله** تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم مِّن دياركم وظاهرُوا عَلَى إخراجكم أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. [الممتحنة، ٨، ٩].

فإن الله - سبحانه - لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله - سبحانه - أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء؛ وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجباً وشرطاً في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها، فلا يصح

من المسلم، ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار؛ فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم، ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا^(١) عن حكمه لم يتعرض لهم فيه، وحكمه حكم عقودهم وأنكحتهم الفاسدة.

وكذلك وقف المسلم عليهم فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم أو على أقاربه وبني فلان ونحوه، ولا يكون الكفر موجبا وشرطا في الاستحقاق ولا مانعا منه . . .

... وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر فلا يصح من كافر ولا مسلم . . .

^(٢) **وذكر** ابن أبي شيبه عن معتمر بن سليمان عن معمر عن الزهري «إن أسلمت ولم يسلم زوجها، فهما على نكاحهما، إلا أن يفرق بينهما سلطان» ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ، يسأل المرأة: هل انقضت عدتها أم لا؟.

ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرد فرقة لم يكن فرقة رجعية بل بائنة. فلا أثر للعدة في بقاء النكاح. وإنما أثرها في منع نكاحها للغير. فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة.

ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ: أن النكاح موقوف. فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت. وإن أحببت انتظرت، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح. ولا نعلم أحداً جدد للإسلام نكاحه ألبتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاءهما عليه، وإن تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة، أو مراعاة العدة: فلا نعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بواحدة منهما، مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر، وبعده منه.

ولولا إقراره ﷺ، الزوجين على نكاحهما - وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح - لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام، من غير اعتبار

(١) في الأصل: استفتونا.

(٢) ٢٨ زاد المعاد ج٤.

عدة، لقوله تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾. [الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. وأن الإسلام سبب الفرقة. وكل ما كان سبباً للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق. وهذا اختيار الخلال وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم. وهو مذهب الحسن وطاوس وعكرمة وقتادة والحكم، قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس. وبه قال حماد بن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبد العزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي وغيرهم. قلت: وهو أحد الروایتين عن أحمد.

ولكن الذي أنزل عليه قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾. [الممتحنة: ١٠]. لم يحكم بتعجيل الفرقة. فروى مالك في موطنه عن ابن شهاب قال «كان بين إسلام صفوان بن أمية وبين إسلام امرأته - فاختة - بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر. أسلمت يوم الفتح. وبقي صفوان حتى شهد حنيناً والطائف، وهو كافر، ثم أسلم. ولم يفرق النبي ﷺ، بينهما. واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح» قال ابن عبد البر: وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده.

وقال: ابن شهاب «أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة، حتى أتى اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم فباع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما». ومن المعلوم يقينا: أن أبا سفيان بن حرب خرج فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ، مكة ولم تسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله مكة. فبقيا على نكاحهما. **وأسلم** حكيم بن حزام قبل امرأته. وخرج أبوسفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية عام الفتح. فلقي النبي ﷺ، بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتهما فبقيا على نكاحهما ولم يعلم أن رسول الله، ﷺ، فرق بين أحد من أسلم وبين امرأته.

وجواب من أجاب بتجديد نكاح من أسلم: في غاية البطلان. ومن القول على رسول الله ﷺ، بلا علم. واتفاق الزوجين في التلفظ بكلمة الإسلام معاً في لحظة واحدة: معلوم الانتفاء.

ويلى هذا القول: مذهب من يقف الفرقة على انقضاء العدة، مع ما فيه. إذ

فيه آثار - وإن كانت منقطعة - ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شبرمة «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يُسلم الرجل قبل المرأة، والمرأة قبل الرجل، فأيهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة. فهي امرأته. وإن أسلم بعد العدة: فلا نكاح بينهما» وقد تقدم قول الترمذي في أول الفصل. وما حكاه ابن حزم عن عمر، فما أدري من أين حكاه؟ والمعروف عنه: خلافه. فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين عن عبد الله بن يزيد الخطمي «أن نصرانياً أسلمت امرأته، فخيرها عمر بن الخطاب، إن شاءت فارقت، وإن شاءت أقامت عليه...»

(١) قال المعجلون للفرقة: قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. [الممتحنة: ١٠].

قالوا: فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه، وقد حرم فيه رجوع المؤمنة إلى الكافر، وصرح - سبحانه - بإباحة نكاحها؛ ولو كان في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها، لا سيما والمهاجرة تستبرأ بحيضة. وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم، فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه. وقوله - تعالى -: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت، فهذه أربعة أدلة من الآية؛ ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة، ففي كتاب الله الشفاء والعصمة.

قال الآخرون: مرحباً وأهلاً وسهلاً بكتاب الله، وسمعاً وطاعة لقول ربنا،

ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها، ووضعتموها على غير مواضعها، وليس فيها ما يقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهما الآخر بإلغائها^(١)، ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من التابعين، ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلاً...

قلت: وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله ورضي عنه - يضعف هذا القول جدًّا، ويذهب إلى خروج البضع من ملكه متقوم ويحتج عليه بالقرآن.

قال: لأن الله - تعالى - أمر المسلمين أن يردوا إلى من ذهب امرأته إلى الكفار مهره إذا أخذوا من الكفار مالا بغنيمة أو غيرها فقال - تعالى -: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١] ومعنى عاقبتهم: أصبتم منهم عقبي، وهي الغنيمة. هذا قول المفسرين، والمقصود أنه قال: ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ وهو المهر.

وقال - تعالى - في هذه القصة ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾. [الممتحنة: ١٠]. فأمر المسلمين أن يسألوا مهر نساءهم ويسأل الكفار مهر نساءهم اللاتي هاجرن وأسلمن، ولولا أن خروج البضع متقوم لم يكن لأحد الفريقين عى الآخر مهرا.

واختلف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلى أزواجهن في هذه القصة هل كان واجبا أو مندوبا على قولين أصلهما أن الصلح هل كان قد وقع على رد النساء أم لا.؟ **والصحيح** أن الصلح كان عاما على رد من جاء مسلما مطلقا ولم يكن فيه تخصيص بل وقع بصيغة من المتناولة للرجال والنساء ثم أبطل الله منه رد النساء وعوض منه رد مهورهن وهذه شبهة من قال إن حكم هذه الآية منسوخ ولم ينسخ منه إلا رد النساء خاصة وكان رد المهور مأمورا به.

والظاهر أنه كان واجبا لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾. [الممتحنة: ١٠]. فثبت أن رد المهور حق لمن يسأله، فيجب رده إليه. قال الزهري: ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق. **وكذلك** كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر

المسلمون بحكم الله - تعالى - وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله - تعالى - فيما أمر من رد نفقات المسلمين إليهم فأَنْزَلَ اللهُ - تعالى - : ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [المتحنة: ١١] .

فهذا ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم .

قلت: ويدل عليه أن الشارع كما جعله متقوماً في دخوله ، فكذلك في خروجه ، لأنه لم يدخله إلى ملك الزوج إلا بقيمة . وحكم الصحابة - رضي الله عنهم - في المفقود بها حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها ؛ دليل على أنه متقوم في خروجه وهذا ثابت عن خمسة من الصحابة منهم : عمر وعلي .

قال أحمد : أي شيء يذهب من خالفهم ؟ فهذا القرآن والسنة وأقوال الخلفاء الراشدين دالة على تقويمه ، ولو لم يكن له قيمة لما صح بذل نفائس الأموال فيه ، بل قيمته عند الناس من أغلى القيم ، ورغبتهم فيه من أقوى الرغبات ، وخروجه عن ملك الرجل من أعظم المغارم حتى يعده غراماً أعظم من غرم المال . قلت لشيخنا : لو كان خروجه من ملكه متقوماً عليه لكانت المرأة إذا وطئت بشبهة يكون المهر للزوج دونها ، فحيث كان المهر لها دل على أن الزوج لم يملك البضع ، وإنما يملك الاستمتاع ، فإذا خرج البضع عنه لم يخرج عنه شيء كان ماله .

فقال لي : الزوج إنما ملك البضع ليستمتع به ، ولم يملكه ليعارض عليه ، فإذا حصل لها بوطء الشبهة عوض كان لها لأن عقد النكاح لم يقتض ملك الزوج المعاوضة عن بضع امرأته فصار ما يحصل لها بجناية الواطيء بمثابة ما يحصل لها بغيره من أروش الجنايات .

قلت له : فما تقول في خلع المريض بدون مهر المثل ؟ فقال : هو يملك إخراج البضع مجاناً بالطلاق ، فإذا أخذ منها شيئاً فقد زاد الورثة خيراً . قال : ونحن إنما منعناه من المصحاة فيما ينتقل إلى الورثة ، لأنه يفوته عليهم ، وبضع الزوجة لا حق للورثة فيه البتة ، ولا ينتقل إليهم ، فإذا أخرجه بدون مهر المثل لم يفوتهم حقاً ينتقل إليهم ، انتهى .

قلت: وأما منع الأب من خلع ابنته بشيء من مالها فليست مسألة وفاق ، بل فيها قولان مشهوران ، ونحن إذا قلنا : إن الذي بيده عقدة النكاح هو الأب ، وأن

له أن يعفو عن صداق ابنته قبل الدخول، وهو الصحيح لبضعة عشر دليلاً قد ذكرتها في موضع آخر، فكَذَلِكَ خَلَعَهَا بِشْيءٍ مِنْ مَالِهَا، بل هو أولى لأنه إذا ملك إسقاط مالها مجاناً، فلأن يملك إسقاطه ليخلصها من رق الزوج وأسرته ويزوجها بمن هو خير لها منه أولى وأحرى. وهذه رواية عن أحمد ذكرها أبو الفرج في مبهجه وغيره، واختارها شيخنا. وأما قولكم: إنه يخرج من ملكه قهراً بغير عوض فيما إذا طلق عليه الحاكم لإعسار أو عنت أو غيرها.

فجوابه: أن الشارع إنما ملكه البضع بالمعروف، وإنما ملكه بحقه، فإذا لم يستمتع به بالمعروف الذي هو حقه أخرجه الشارع عنه، قال - تعالى -: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [النساء: ١٩]. وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿فَإِنْ سَأَلَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٍ بِإِحْسَانٍ﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فأوجب الله على الزوج أحد الأمرين: إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يسرح بإحسان، فإذا لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان سرح الحاكم عليه قهراً.

قلت لشيخنا: فلو قتلت الزوجة لم يجب للزوج المهر على قاتلها مع كونه قد أخرج البضع عن ملكه وفوته إياه فلو كان خروجه متقوماً لوجب له على القاتل المهر.

فقال: النكاح معقود على مدة الحياة، فإذا قتلت زال وقت النكاح وانقضى أمدّه، فلا يجب للزوج شيء بعد ذلك، كما لو ماتت. قلت له: فلو أفسد مفسد نكاحها بعد الدخول لأستقر المهر على الزوج، ولم يرجع على المفسد، فضعف هذا القول، وقال: عندي إنه يرجع به: وهو المنصوص عن أحمد، وهو مبني على هذا الأصل، فإذا ثبت أن خروج البضع من ملكه متقوم فله قيمته على من أخرجه من ملكه.

^(١) **قال:** ذكر بعضهم أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن، ولا يقول أنا ولي. وفرق بينهما، فإن الله - تعالى - أمر من ظهر منه الإيمان أن يسمى مؤمناً قال - تعالى -: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾. [الممتحنة: ١٠]. الآية ولم يأمر من ظهر منه ذلك أن يسمى ولياً، ولا فرق بينهما، فإن الله قد وصف الولي بصفة المؤمن فقال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾. [الأنفال: ٣٤]. وهذه صفة المؤمن، ثم لا يجوز أن يصف نفسه بأنه ولي، وكذلك المؤمن، ولأنه إنما يكون ولياً بتولية لطاعات الله

وقيامه بها كالمؤمن .

قلت: هذه حجة من منع قول القائل : أنا مؤمن بدون استثناء ، كما لا يقول : أنا ولي . ومن فرق بينها أجاب بأنه لا يمكنه العلم بأنه ولي ، لأن الولاية هي القرب من الله - عز وجل - فولي الله هو القريب منه المختص به .

والولاء هو في اللغة القرب ولهذا علامات وأدلة وله أسباب وشروط وموجبات ، وله موانع وآفات وقواطع ، فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا .

وأما الإيمان فهو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ويلتزم أداء فرائضه وترك محارمه ، وهذا يمكن أن يعلمه من نفسه ، بل ويعلمه غيره منه .

والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله - تعالى - نوعان : عامة وخاصة ، فالعامة ولاية كل مؤمن فممن كان مؤمناً لله تقياً كان له ولياً وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول : أنا ولي إن شاء الله . كما يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

والولاية الخاصة إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه ، مؤثر له على كل ماسواه في جميع حالاته ، قد صارت مراضى الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه ، وإن سخط الخلق ، فهذا إذا قال : أنا ولي الله كان صادقاً .

وقد ذهب المحققون في مسألة : أنا مؤمن إلى هذا التفصيل بعينه ، فقالوا له :

أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يقول : أنا مؤمن . لأن قوله أنا مؤمن يفيد الإيمان المطلق الكامل الآتي صاحبه بالواجبات التارك للمحرمات بخلاف قوله آمنت بالله . وفي الصحيحين عن عائشة قالت : كان المؤمنات إذا

هاجرن إلى رسول الله ﷺ ، يمتحنهن بقول الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ . [الممتحنة: ١٢] . إلى آخر الآية ، قالت عائشة : فمن أقرت بهذا من

المؤمنات فقد أقرت بالحنة ، وكان رسول الله ﷺ ، إذا أقرن بذلك من قولهن ،

قال لهن رسول الله ﷺ ، «انطلقن فقد بايعتكن» ولا والله مامست يد رسول الله

ﷺ ، يد امرأة قط ، غير أنه يبایعهن بالكلام . قالت عائشة : والله ما أخذ

رسول الله ﷺ ، على النساء قط إلا بما أمره الله ، ومامست كف رسول الله ﷺ ،

كف امرأة قط ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : «قد بايعتكن» كلاماً .

سُورَةُ الصَّفِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل^(١)

وأما إزاعة القلوب: فقال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. [الصف: ٥]. وقال عن عباده المؤمنين أنه سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. وأصل الزيف الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت. فإزاعة القلب: إمالته، وزيفه: ميله عن الهدى إلى الضلال. والزيف يوصف به القلب والبصر، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخصوص غير الزيف، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

^(٢) **قال - تعالى -:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥]. فعاقبهم - سبحانه - بإزاعة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

ونظيره قوله - تعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قيل: من عرض عليه حق فردّه فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه. ومن هنا قيل: لا رأي لصاحب هوى؛ فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. [النساء: ١٥٥].

أخبر - سبحانه - أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. [النساء: ١٥٥]. حتى صارت غلفاً، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف، وجمعه غلف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف وأقلف إذا لم يَحْتَن، والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء، فلا تفقه ماتقول يا محمد، ﷺ، ولم يصنع شيئاً من قال: إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه:

أحدها: أن غلف جمع أغلف: كقلف وأقلف، وحر وأحر، وجر وأجر، وغلب وأغلب، ونظائره، والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف، هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: قلب فلان غلاف لكذا، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظيره في القرآن فيحمل عليه، ولا هو من التشبيه البديع المستحسن، فلا يجوز حمل الآية عليه.

الثالث: أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾، والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها، والأكنة: كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع، ومنه الكنانة لغلاف السهام.

الرابع: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكره، ولا يحسن مقابلته بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. [النساء: ١٥٥]. وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها، كما قيل لهم لما ادعوا ذلك: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [الإسراء: ٨٥]. وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً لأن طبع على قلوبهم...

^(١) فإن قيل: فالزيف الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه

الجزاء، وإلا تسلسل الأمر. قيل: بل الزيف الأول وقع جزاء لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم من الهدى. وهذا الترك أمر عديمي لا يستدعي فاعلا، فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم. فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له. قيل سببه عدم سبب ضده فبقي على العدم الأصلي.

(١) ... **والمقصود** أن اسم النبي، ﷺ، في التوراة (محمد) كما هو في القرآن: محمد. وأما المسيح فإنما سماه (أحمد) كما حكاه الله عنه في القرآن. فإذا تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمداً في التوراة ومتقدمة على تسميته محمداً في القرآن فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما.

وقد تقدم أن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة والوصفية فيهما لا تنافي العلمية، وأن معنهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها، فمحمد مفعول من الحمد، وهو الكثير الخصال التي يحمد عليها حمداً متكرراً حمداً بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التي يستحق تكرار الحمد عليها.

ولا ريب أن بني إسرائيل هم أولو العلم الأول. والكتاب الذي قال الله فيه ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا كانت أمة موسى أوسع علوماً ومعرفة من أمة المسيح. ولهذا لا تتم شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح - عليه السلام - وأمتة محالون في الأحكام عليها، والإنجيل كأنه مكمل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين.

فعرف النبي ﷺ عند هذه الأمة باسم محمد الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يحمد عليها حمداً بعد حمد.

وعرف عند أمة المسيح بأحمد الذي يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره، والذي حمده أفضل من حمد غيره، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضات والأخلاق والعبادات مالميس لأمة موسى، ولهذا كان غالب كتابهم: مواعظ، وزهد، وأخلاق، وحض على الإحسان، والاحتمال، والصفح، حتى قيل: إن الشرائع ثلاث: **شريعة** عدل وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص.

وشريعة فضل وهي شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان، كقوله: من أخذ رداءك فاعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين، ونحو ذلك.

وشريعة جمعت هذا وهذا؛ وهي شريعة القرآن، فإنه يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. [الشورى: ٤٠]. فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل، الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله بالاسمين معاً. فتدبر هذا الفضل وتبين ارتباط المعاني بأسمائها ومناسبتها لها، والحمد لله المان بفضله وتوفيقه...

وقول أبي القاسم: إن اسم محمد (ﷺ) إنما ترتب بعد ظهوره إلى الوجود، لأنه حينئذ حمد حمداً مكرراً، فكذلك يقال في اسمه: أحمد أيضاً سواء، وقوله في اسمه أحمد: إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه، وهذا يقدم على حمد الخلائق له، فبناء منه على أنه تفضيل من فعل الفاعل، وأما على القول الآخر الصحيح فلا يجيء هذا. وقد تقدم تقرير ذلك والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

(١)... **وموسى** - عليه السلام - كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الأصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى (ﷺ) من أعظم خلق الله هيبه ووقاراً، وأشدهم بأساً وغضباً لله، ويطشاً بأعداء الله، وكان لا يستطيع النظر إليه.

وعيسى (ﷺ): كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال ألينة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: «أن لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فاعطه

رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال. وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم. ولم تكتب عليهم.

وَأَمَّا نَبِينَا (ﷺ): فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأتمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً. وبالفضل ندباً إليه واستحباباً. وبالشدة في موضع الشدة. وباللين في موضوع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع الندى موضعه. فيذكر الظلم ومحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله - تعالى -: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فهذا فضل ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ عدل ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل. وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحماية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحرимه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلَّت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم (ﷺ) من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقتها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال - تعالى -: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أمهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعى سِفْراً، بل أسفاراً. وذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) ... **وأما** «أحمد» فهو أفعال التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا: أي هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره في كونه محموداً فلفظ «محمد» يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحمداد، وعلى الأول بمعنى المحمود. وإن كان الفار قليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضي ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فإن هذا هو معنى الفار قليط كما تقدم. وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاك: ها أنا قد باركت فيه، وأثمره، وأكبره بمأذ مأذ» هكذا هذه اللفظة «مأذ» على وزن عمر.

وقد اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون: معناها جداً جداً، أي كثيراً كثيراً، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيراً كثيراً، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر مما عظم من محمد (ﷺ).

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية.

(٢) ... **وتأمل** كيف اشتق للنبي (ﷺ) من وصفه اسمان مطابقان لمعناه وهما «أحمد، ومحمد» فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة «محمد» ولشرفها وفضلها على صفات غيره «أحمد» فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد.

(٣) **فصل** في أنه لو لم يظهر محمد بن عبد الله (ﷺ) لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أثار - سبحانه - إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس

صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقاً لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به. ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله. ومثل هذا قول المسيح: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها.

ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبد الله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله - سبحانه - لا يخلف وعده ولا يكذب خبره.

وقد كان بشر إبراهيم وهاجر بشارات بينات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله (ﷺ)، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة، وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مراراً.

ثم ذكر الله - سبحانه - هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على السنة الأنبياء، ففي التوراة «إن الله - تعالى - قال لإبراهيم: قد أجبت دعائك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته، وعظمته» هكذا في ترجمة بعض المترجمين. وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبراً من أحرار اليهود فإنه يقول: «وسيلد اثني عشر أمة من الأمم». وفيها «لما هربت هاجر من سارة ترائي لها ملك الله، وقال يا هاجر! أمة سارة من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟! قالت: هربت من سيدي، فقال لها الملك: ارجعي إلى سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلددين ابناً تسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع بذلك خشوعك، وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته».

وفي موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في بركة فاران.

وفيها: «فقال لها الملك: يا هاجر! ليفرح روعك، فقد سمع الله - تعالى -

صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وأن الله فتح عليها، فإذا ببشر ماء، فذهبت، وملأت المزادة منه وسقت الصبي منه، فكان الله معهما ومع الصبي حتى تربى، وكان مسكنه في بركة فاران. فهذه أربع بشارات خالصة لأُم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم. واثنتان على هاجر.

(١)... وفي التوراة أيضاً بشارات أخر بإسماعيل وولده، وأنهم أمة عظيمة جداً،

وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنها تمت بظهور محمد بن عبد الله وأمه. فإن «بني إسحاق» كانوا لم يزالوا مطرودين مشردين خولاً للفرعنة والقبط، حتى أنقذهم الله بنبيه وكليمه موسى بن عمران، وأورثتهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطعهم في الأرض أمماً، مسلوباً عزهم ومملكتهم: قد أخذتهم سيوف السودان، وعلتهم أعلاج الحمران حتى إذا ظهر النبي (ﷺ) تمت تلك النبوات، وظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشماً، وطحنوهم طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس الأقصى وبلاد الترك والصقالبة والخزر، وملكوا ما بين الخافقين، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على السنة الأمم، فليس صبي من بعد ظهور النبي (ﷺ) ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا وهو يعرف إبراهيم وآل إبراهيم.

وأما «النصرانية» وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جلييلة، فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات التي تفيد بمجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبد الله (ﷺ) وأمه، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره (ﷺ) لبطلت تلك النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي الذي بشروا به قالوا نحن في انتظاره ولم يجيء بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي في ولد إسماعيل

أنكروا أن يكون لإبراهيم ولد اسمه إسماعيل ، وأن هذا لم يخلقه الله . ولا يكثر على أمة البهت وإخوان القروذ وقتلة الأنبياء مثل ذلك ، كما لم يكثر على المثلثة عباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا وينتقصوا نبينا (ﷺ) . ونحن نبين أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية ولا معجزة إلا بإقرارهم أن محمداً رسول الله ؛ وإلا فمع تكذيبه لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة . .

(١) ... **قوله تعالى** : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرباحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم ، فقال : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها . فقال : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١] يعنى أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة .

فكانها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال : ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ - مع المغفرة - ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢]

فكانها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣] فله ما أحلى هذه الألفاظ ! وما ألصقها بالقلوب ! وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها ! وما ألطف موقعها من قلب كل محب ! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها ! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم .

(٢) ... **ولما علم** - سبحانه - أن آدم ونبيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم ؛ أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها ، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة : كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف

كتبه وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأى فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟! ثم أكد - سبحانه - معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣] ولم يسلط - سبحانه - هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة . . .

(١)... وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة. فتاجروا أيها المفلسون، ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الصف: ١٠، ١١] والمقصود أن الذنوب تسيي العبد حظه من هذه التجارة الرباحة وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصف

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فائدة

لما كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم من يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع مأخوذة من العدد نحو الاثنين والثلاثاء والأربعاء. أو بالأحداث الواقعة فيها: كيوم بعث، ويوم بدر، ويوم الفتح، ومنه يوم الجمعة. وفيه قولان: أحدهما لاجتماع الناس فيه للصلاة، والثاني وهو الصحيح: لأنه اليوم الذي جمع فيه الخلق وكمل، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين لفصل القضاء.

وأما يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومن السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش. والنعال السبئية التي قطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق، ولم يكن يوماً من أيام تخلق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين، وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة: على أن أيام تخلق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة.

وأما حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه: خلق الله التربة يوم السبت فقد ذكر البخاري في تاريخه: أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب، وهو كما ذكر لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده. واعلم أن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره، وإنما يعلم بالشرع، ولهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع، ومن تلقى ذلك عنهم وجاورهم. وأما الأمم الذين لا يدينون بشريعة ولا كتاب فلا يتميز الأسبوع عندهم من غيره، ولا أيامه بعضها من بعض، وهذا بخلاف معرفة الشهر والعام، فإنه بآمر محسوس.

فائدة: في اليوم وأمس وغد، وسبب اختصاص كل لفظ بمعناه. اعلم أن أقرب الأيام إليك يومك الذي أنت فيه، فيقال: فعلت اليوم. فذكر الاسم العام،

ثم عرف بأداة العهد، ولا شيء أعرف من يومك الحاضر فانصرف إليه، ونظيره الآن من آن والساعة من ساعة. وأما أمس وغد، فلما كان كل واحد منهما متصلاً بيومك اشتق له اسم من أقرب ساعة إليه فاشتق اليوم الماضي أمس الملاقي للمساء وهو أقرب إلى يومك من صاحبه أعني صباح غد، فقالوا: أمس. وكذلك غد اشتق الاسم من الغدو وهو أقرب إلى يومك من مسائه أعني: مساء غد...

(١)... وذكر أيضاً عن ابن عباس قال: ما من يوم إلا وليته قبله إلا يوم عرفة، فإن ليلته بعده. قلت: هذا ما اختلف فيه. وحكى عن طائفة أن ليلة اليوم بعده. والمعروف عند الناس أن ليلة اليوم قبله، ومنهم من فصل بين الليلة المضافة إلى اليوم: كليلة الجمعة والسبت والأحد وسائر الأيام، والليلة المضافة إلى مكان أو حال أو فعل: كليلة عرفة وليلة النفر، ونحو ذلك فالمضافة إلى اليوم قبله، والمضافة إلى غيره بعده، واحتجوا له بهذا الأثر المروي عن ابن عباس، ونقض عليهم بليلة العيد، والذي فهمه الناس قديماً وحديثاً من قول النبي ﷺ: ﴿لَا تَخْصُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، وَلَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي﴾ أنها الليلة التي تسفر صبيحتها عن يوم الجمعة، فإن الناس يسارعون إلى تعظيمها وكثرة التعبد فيها عن سائر الليالي، فنهاهم ﷺ عن تخصيصها بالقيام، كما نهاهم عن تخصيص يومها بالصيام، والله أعلم.

(٢) فصل

وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره. وقد اختلف العلماء: هل هو أفضل من يوم عرفة؟ على قولين، هما وجهان لأصحاب الشافعي. وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي (الأم تنزيل) و(هل أتى على الإنسان) ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد: تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها سجدة الجمعة. وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحَب قراءة سورة أخرى فيها سجدة. ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعاً لتوهم الجاهلين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين

السورتين في فجر الجمعة، لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنها اشتملتا على خلق - آدم عليه السلام - وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة. وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعاً، ليست مقصودة، حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

الخاصية الثانية: استحباب كثرة الصلاة على النبي ﷺ، فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: ﴿أَكثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ﴾ ورسول الله ﷺ، سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يُسْعَفُهُمُ اللهُ - تعالى - بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ﷺ. فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ: أن نكثر من الصلاة عليه، في هذا اليوم وليلته.

الخاصية الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من أكد فروض الإسلام، ومن أعظم جماع المسلمين، وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوى مجمع عرفة، ومن تركها تهاونا بها طبع الله على قلبه، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيادة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصية الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكد جداً، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ، في التشهد الأخير، ووجوب القراءة على المأموم. وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به راحة يحتاج إلى إزالتها، فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له. والثلاثة لأصحاب أحمد^(١).

(١) ذكر المؤلف - رحمه الله - في خواص يوم الجمعة وأحكامها قرابة ثلاث كراسات (ج).

(١)... تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم: دعوة، وتعليمًا، وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يحجى بها الرسل: فهو كالمرضى الذي يعالج نفسه برأيه^(٢)، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحتها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم^(٣)، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسيبًا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسيبًا بالتخلق والتكلف. حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ، لأشج عبد القيس رضي الله عنه: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والإناة». فقال: أخلقين تخلقت بهما. أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «بل جبلك الله عليهما». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب. وكان النبي ﷺ، يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهْدِنِي لأَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» فذكر الكسب والقدر، والله أعلم.

(٤) **أقال - تعالى -:** ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤]. فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله

(٢) بل كالذي يعالج نفسه بجهله وسفهه.

(١) ٣١٥ مدارج ج٢.

(٤) التبوكية.

(٣) لأنهم يبلغون عن الله. والله معهم رقيب ومعين.

ﷺ، وصحبوه، والآخرين هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على مناجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في الزمان وفي الآية قول آخر: إن المعنى: لما يلحقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة. والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان. فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله، ولم يرفع به رأساً، فهو من الصنف الثالث، وهم ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

(١) ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] يعني: وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم. وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان. أي يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين، فامتن عليهم - سبحانه - بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، وبألها من منة عظيمة فاتت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن.

(٢) قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] ففاس من حملة - سبحانه - كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمارٍ على ظهره زاملة أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يرعه حق رعايته.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ [الجمعة: ٥] الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بامعها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بها يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحاليين عند من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها

ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

(١)... وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يتعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنزل فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «صدق الله العظيم ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين يتعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما». وجاء سليك الغطفاني، وهو يخطب، فجلس فقال له: «قم يا سليك فاركع ركعتين، وتجاوز فيهما» ثم قال: وهو على المنبر «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، ولتجاوز فيهما» وكان يقصر خطبته أحياناً ويطيلها أحياناً بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهن على الصدقة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجمعة
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **الطبقة** الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهرُوا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال - تعالى - في حقهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس؛ ولا يفطن له فيتصدق عليه» فليس هذا نفياً لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكيناً أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه

مسكيناً. ونظيره قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب» ليس نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم. ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا، وضرب هذا وأخذ مال هذا، فيقتص هذا؛ من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيته حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، فألقي في النار». ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون الرقوب فيكم؟»^(١) قالوا: من لا يولد له. قال: «الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً» ومنه عندي قوله ﷺ: «الربا في النسئة»، وفي لفظ «إنما الربا في النسئة» هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا الفضل. فتأمل.

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نوراً يتوسطون به على الصراط ثم يطفىء الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿بِسُورِ لَه بَابُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

(١) الرقوب: الزوجان إذا لم يعيش لهما ولد.

وقال - تعالى - فيهم: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]. وقال - تعالى - في الكفار: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل. والمنافق أبصر، ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر. ومن كان هكذا كان أشد كفراً، وأخبث قلباً، وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل...

(١) قال - تعالى - عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَثَةً﴾ [مريم: ٧٤]، أي: أموالاً ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفي صحيح مسلم عنه عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث: «البذاذة من الإيمان»، وقد ذم الله المسرفين، والسرف، كما يكون في الطعام والشراب؛ يكون في اللباس.

وفصل النزاع: أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي عليه السلام، يتجمل للوفود؛ وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر، والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد، وأقصى مطلبه؛ فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك. وأما مالا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصليين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله - سبحانه - بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه

بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقلية الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

^(١) وفي مرجعهم من هذه الغزوة: قال رأس المنافقين ابن أبي: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فبلغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أبي يعتذر، ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ، بأذنه فقال: «أبشر، فقد صدقك الله»، ثم قال: «هذا الذي وفي الله بأذنه»، فقال له عمر: يا رسول الله، مُرَّ عَبَادُ بَنِي بَشَرٍ فليضرب عنقه. فقال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟».

^(٢) ... والعزة تتضمن القوة، والله القوة جميعاً. يقال: عزَّ يعزُّ بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعزَّ يعزُّ بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعزَّ يعزُّ بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات - وهي الضمة - لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلباً، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه. فاعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولاريب أن قهر المريب عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر. فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز.
وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال النبي ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحد

هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام» وفي بعض الآثار: أن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل. وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا بِطَاعَتِكَ وَلَا تُدِلَّنَا بِمَعْصِيَتِكَ»، وقال بعضهم: من أراد عِزًّا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة. فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

(١)... قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]. فالسعيد الرابع من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرخصهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحصى حب الله خوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحاً، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذهم مغنماً لا مغرماً وربحاً لا خسراناً.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، وهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ، لعبد الله بن عباس: «واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضرُّوك إلا بشيء كتبه الله عليك». وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعلق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. والله أعلم.

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة المنافقون

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل

والطمأنينة إلى أسماء الرب - تعالى - وصفاته نوعان : طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقضيه وتوجهه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم لها، ويرضى بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال - تعالى - : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها : كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة ؛ فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصاً ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليد، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوسوس، التي لأن يخرج من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ صريح الإيمان . وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فالتوبة طمأنينة تقابل

ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته؛ فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يوارىها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

(١)... حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُذُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس إنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنها هي عداوة المحبة الصادقة للأبناء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُذُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله - ﷺ - فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبهم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُذُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفي الحديث «الولد مبخله مجبنة» وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني زيد بن واقد قال حدثني عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﷻ إِنَّمَا

أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿التغابن: ١٥﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة: الرحمة، والشفقة، واللطف بالصغار.

«...وتطلق الفتنة على أعم من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] قال مقاتل: «أي بلاء، وشغل عن الآخرة. قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى». وقال الزجاج: أعلمهم الله - عز وجل - أن الأموال والأولاد مما يفتنون به. وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده. لأنه ربما عصى الله - تعالى - بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عصمه الله - تعالى -.

ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ «كان يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يعثران، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما، فوضعهما في حجره على المنبر، وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين الصبيين، فلم أصبر عنهما»^(١). وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مُشْتَمِلٌ على فتنة، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فأياكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مُضِلَّاتِ الفتن».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التغابن
والحمد لله رب العالمين

(١) ١٦٠ إغاثة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الجمعة نقلاً عن زاد المعاد بلفظ «صدق الله العظيم...» (ج).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) قال الله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً. وقال الحسن: مخرجاً مما نهاه عنه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسب» الكافي ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله. وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيّب أمله فيه ألبتة. فإنه - سبحانه - لا يخيّب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له. - بعد الإيمان - من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

(٢) ...فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفردة بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاء الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاء الناس أم أبوه.

فتشبه حاله حال الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كل هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل

التقوى فهو القسم الرابع . . .

(١) قال الله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له ؛ رَزَقَهُ [الله] من حيث لا يحسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً [لله] لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «النَّظَرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيَّانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ» . وقال عمر بن شبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن، حدثنا أبو الحسن المدني، عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ؛ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَغْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةَ تَسْرُهُ» . (٢) ... قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء

التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ولم يقل : نَوْتُهُ كَذَا وكَذَا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه - سبحانه - كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن ؛ لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره . وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبيننا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله . وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي .

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر

فيه . وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره ؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه ، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر ، وهكذا الأرواح سواء ، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا ، فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما ، فإذا جذب روحه عنه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لا يخطر بباله ، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بها هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً ، فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً ، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية . وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه ، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق الدنيا بالشهوات واللذات ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه . وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يحشاه ، وإعطائه ما يحبه ويرضاه .

(١) ...وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه ، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه . وجعل لكل عمل من أعمال البر ، ومقام من مقاماته جزاءً معلوماً وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته . فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ [الطلاق: ٥] : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] .

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ، ولم يجعله لغيره . وهذا يدل على

أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه . وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه . بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه . لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة : صارت حالة التوكل قطعاً على من هذا شأنه ، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه ، وأن العبد لا يملك شيئاً منها . فهو لا يجد بدءاً من اعتياده عليه ، وتفويضه إليه ، وثقته به من الوجهين : من جهة فقره ، وعدم ملكه شيئاً ألبته . ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه . والتوكل ينشأ من هذين العلمين .

فإن قيل : فإذا كان الأمر كله لله ، وليس للعبد من الأمر شيء ، فكيف يوكل المالك على ملكه ؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له ، دون هذا الموكل ؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلى العامة . وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة . قيل : لما كان الأمر كله لله - عز وجل - وليس للعبد فيه شيء البتة . كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له ، وعزل نفسه من منازعات مالكة ، واعتماده عليه فيه ، وخروجه عن تصرفه بنفسه ، وحوله وقوته ، وكونه به ، إلى تصرفه بربه ، وكونه به - سبحانه - دون نفسه . وهذا مقصود التوكل .

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل : فهو عزل لها عن حقيقة العبودية . **وأما توجه الخطاب به إلى العامة :** فسبحان الله ! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه ، وأقربهم إليه ، وأكرمهم عليه ؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه .

وهذا يدل على انتفاء الإيثار عند انتفاء التوكل . فمن لا توكل له : لا إيمان له ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال - تعالى - : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة . وأخبر - تعالى - عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعادهم . وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه . وقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴿ [يونس: ٨٤، ٨٥] فكيف يكون من أوهى السبل ، وهذا شأنه ؟ والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) فصل

والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله، وثقة به، والتجاء إليه، وتفويضاً إليه، ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته - سبحانه - وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين، وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثة فكان متوكلاً في السبب، لا على السبب.

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإذا أن يعطل السبب عجزاً منه، ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله أنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطاً (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل (والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور ومخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذور وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني، فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحته وأمانته وخبرته وحسن اختياره. والرب - سبحانه - قد أمر عبده بالاحتياط، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرق ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك، كما قدره - سبحانه - ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه - سبحانه - الملي بالوكالة الوفي بالكفالة. فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان، طالباً للراحة،

مؤثراً للدعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتي ما قدر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم بسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعي ولا كد، فكم من شيء سعيته فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعي فيه غيرك فقدر لك رزقاً! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضاً فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟ بلى لن تخلو الأرض من متوكل: صبر نفسه لله، وملاً قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله، واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه، وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر، ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجاراً، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم؟ وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمرؤا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهلهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله.

﴿فصل وأما عدة الأيسة والتي لم تحض﴾

فقد بينها - سبحانه - في كتابه، فقال: ﴿وَاللَّائِي يَشْنَنُ مِنَ الْمُحِيضِ مِنَ

نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ ﴿٤﴾ [الطلاق: ٤] وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطراباً شديداً: فمنهم من حدّه بخمسين سنة. وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين. وهذا قول إسحاق، ورواية عن أحمد. واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة: «إذا بلغت خمسين خرجت من حد الحيض» وحدّه طائفة بستين سنة. وقالوا: لا تحيض بعد الستين. وهذه رواية ثانية عن أحمد. وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم. فحدّه ستون في نساء العرب، وخمسون في نساء العجم. وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه. تصوم وتصلي، وتقضي الصوم المفروض. هذا اختيار الحرقى. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاد بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا. وأما الشافعي: فلا نص له في تقدير الإياس بمدة. وله قولان بعد. أحدهما: أنه يعرف بإياس أقاربها. والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عصباتها، أو نساء بلدها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب: فاختلفت عادتهم: هل يعتبر بأقلهن عادة منهن، أو بأكثرهن، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه، والقول الثاني للشافعي: أن المعتبر جميع النساء، ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد أم لا؟ على وجهين. أحدهما: ليس له حد. وهو ظاهر نصه. والثاني: له حد. ثم اختلفوا فيه على وجهين. أحدهما: أنه ستون سنة. قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد. والثاني: اثنان وستون. قاله الشيخ أبو إسحاق في المذهب، وابن الصباغ في الشامل. وأما أصحاب مالك: فلم يحدوا سن الإياس بحد ألبة.

وقال آخرون - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: الإياس مختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق عليه في النساء. والمراد بالآية: أن إياس كل امرأة من نفسها، لأن الإياس ضد الرجاء. فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه: فهي آيسة، وإن كان لها أربعون، أو نحوها، وغيرها: لا تئأس منه، وإن كان لها خمسون. وقد ذكر الزبير بن بكار: أن بعضهم قال: لا تلد لخمسين سنة إلا عربية، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية. وقال: «إن هند بنت أبي عبيدة بن عبيد الله بن ربيعة ولدت موسى بن عبد الله بن حسن بن علي بن

أبي طالب ولها ستون سنة» وقد صح عن عمر بن الخطاب في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها: لا تدري ما رفعه «أنها تربص تسعة أشهر. فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر» وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم مالك، وأحمد، والشافعي، في القديم. قالوا: تربص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحل للأزواج، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين. وهذا يقتضي أن عند عمر بن الخطاب، ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة عندهم آيسة قبل الخمسين، وقبل الأربعين. وأن اليأس عندهم ليس وقتاً محدوداً للنساء. بل مثل هذه تكون آيسة، وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة، وإن بلغت الخمسين. وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها - ولا تدري ما رفعه - جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتى تدري ما رفعه - إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها - أولى أن تكون آيسة، وإن لم تبلغ الخمسين. وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل. فإن هذه ليست آيسة. فإن ذلك يزول.

فالمراتب ثلاث. أحدها: أن ترتفع ليأس معلوم متيقن، بأن تنقطع عاماً بعد عام، ويتكرر انقطاعه أعواماً متتابعة. ثم يطلق بعد ذلك. فهذه تربص ثلاثة أشهر بنص القرآن. سواء كانت بنت أربعين، أو أقل أو أكثر. وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر، ثم ثلاثة. فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها، لا تدري ما رفعه؟ فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في أحكام القرآن: إذا كان الله - سبحانه - قد ذكر اليأس مع الرية، فقال - تعالى - : ﴿وَاللَّائِي يَشْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: «أيا امرأة طلقت، فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها، لا تدري ما رفعها. فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر» فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة: كانت موضع الارتباب، فحكم فيها بهذا الحكم. وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول:

إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقى ثلاثين سنة معتدة. وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين: لم يلزمه. فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها. فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عدتها، من الموارثة وغيرها، فإن جاءت بولد لم يلحقه؟ وظاهر عدة الطلاق: أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد. فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

قلت: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل سنتان، والمرتبة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن اليأس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين. فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عدتها منه، قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه، فإذا قيل: منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنى فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يئست من مريض، إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يبرأ، ويئست من غائب إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه، قد يئست منه: لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وجلاً في مرضه، مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف الكلام على هذا وما أشبهه، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس: إنما يكون فيها هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون. وليس واحداً من اليأس. والطامع يعلم يقيناً أن ذلك الشيء يكون، أو لا يكون، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠] والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء: قد يمكن أن تتزوج. غير أن الأغلب عند اليأس فيها: أن الأزواج يرغبون عنها، وقال الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] والقنوط: شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقيناً أن المطر لا يكون، ولكن اليأس داخلهم حين تطاول إبطاؤه، وقال الله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ

الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ تَصْـُورُنَا ﴿يوسف: ١١٠﴾ فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [مرد: ٣٦] وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غني، وإن المرء إذا يش من شيء استغنى عنه» فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع. وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء يصف ناقة:

صفراء من تلد بني العباس ضرتها كالظبي في الكناس
تدر أم تسمع بالإيساس فالنفس بين طمع ويأس

فجعل الطمع بإزاء اليأس، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش عن سلام عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنها أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا شيئاً، ثم قال: «لا تيأسا من الخير ما تمزهرت رءوسكما، فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه» وحدثنا علي بن عبد الله حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس» قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

قال شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن من لا تحيض وإن بلغت، وفيهن من تحيض حيضاً يسيراً يتباعد ما بين أقرائها، حتى تحيض في السنة مرة، ولهذا اتفق العلماء على أن أكثر الطهر - بين الحيضتين - لا حد له، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة. ويحضن ربع الشهر، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه، ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها، ومنهن من يسرع إليها الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه، وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين، ومنهن من لا يسرع إليها الجفاف، فتجاوز الخمسين وهي تحيض، قال: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض من لها

خمسون سنة، أو ستون سنة، أو غير ذلك لقليل: واللائي يبلغن من السن كذا وكذا، ولم يقل «يئسن» وأيضاً: فقد ثبت عن الصحابة أنهم جعلوا من ارتفاع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم، والوجود مختلف في وقت يأسهن، غير متفق. وأيضاً: فإنه - سبحانه - قال: ﴿وَاللَّائِي يَيْئَسْنَ﴾ [الطلاق: ٤] ولو كان له وقت محدود لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن، وهو - سبحانه - قد خص النساء بأنهن اللائي يئسن كما خصهن بقوله: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] فالتى تحيض هي التي تيأس: وهذا بخلاف الارتباب، فإنه - سبحانه - قال: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ [الطلاق: ٤] ولم يقل: إِنْ أَرَبْتِنَ، أي إِنْ أَرَبْتُمْ فِي حَكْمِهِنَّ وَشَكَّكُمْ فِيهِ. فهو هذا. هذا هو الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسى بن أعين - واللفظ له - عن مطرف بن طريف عن عمر بن سالم عن أبي بن كعب قال: «قلت: يا رسول الله إِنْ نَاساً بِالمَدِينَةِ يَقُولُونَ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ مَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - سبحانه - فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿وَاللَّائِي يَيْئَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] فَأَجَلَ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَقَدْ قَضَتْ عِدَّتَهَا، وَلَفْظُ جَرِيرٍ «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ نَاساً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ، قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ عِدَّةٌ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ: الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ وَاللَّائِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْحَمْلِ، قَالَ: فَأَنْزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ الْقَصْرَى ﴿وَاللَّائِي يَيْئَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾» ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّائِي يَيْئَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ يَعْنِي «الْأَيْسَةُ الْعَجُوزُ الَّتِي لَا تَحِيضُ، أَوِ الْمَرْأَةُ الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحَيْضَةِ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنَ الْقُرْءِ فِي شَيْءٍ» وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ فِي الْآيَةِ، يَعْنِي «إِنْ شَكَّكُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ» وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ «لَمْ تَعْلَمُوا عِدَّةَ الَّتِي قَعَدَتْ عَنِ الْحَيْضِ، أَوِ الَّتِي لَمْ تَحْضِ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ يَعْنِي إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ حَكْمِهِنَّ، وَلَمْ تَعْلَمُوا حَكْمَهُنَّ وَشَكَّكُمْ فِيهِ: فَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ، فَهُوَ بَيَانٌ لِنَعْمَتِهِ عَلَى مَنْ طَلَبَ ذَلِكَ، لِيُزِيلَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ، بِخِلَافِ

المعرض عن طلب العلم .

وأيضاً: فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض ، بل منهن من تحيض لعشر، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك ، فلذلك لا يستوين في آخر سن الحيض الذي هو سن اليأس ، والوجود شاهد بذلك . وأيضاً فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولم تحض : هل تعد ثلثة أشهر، أو بالحول ، كالتى ارتفع حيضها . ولا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد .

قلت: والجمهور على أنها تعد ثلثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حداً، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حداً، وهو ظاهر . والله الحمد .

فصل وأما عدة الوفاة: فتجب بالموت

سواء دخل بها أو لم يدخل اتفاقاً . كما دل عليه عموم القرآن والسنة . واتفقوا على أنها يتوارثان قبل الدخول ، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى ؛ لأن الموت لما كان انتهاء للعقد وانقضاء له . استقرت به الأحكام ، فتوارثا ، واستقر المهر ، ووجبت العدة .

واختلفوا في مسألتين . إحداهما : وجوب مهر المثل ، إذا لم يكن المهر مسمى . فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه . ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر . وقضى بوجوبه رسول الله ﷺ . كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بَرُوع بنت واشق . وقد تقدم . ولو لم ترد به السنة لكان هو محض القياس . لأن الموت أجرى مجرى الدخول في تقرير المسمى ، ووجوب العدة . والمسألة الثانية : هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم ، كما ثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابة . وهما روايتان عن أحمد .

والمقصود: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم ؛ فإنها تجب قبل الدخول ، بخلاف عدة الطلاق . وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها : فقليل : هي لبراءة الرحم . وأورد على هذا القول وجوه كثيرة . منها : وجوبها قبل الدخول في الوفاة . ومنها : أنها ثلاثة قروء ، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة ، كما في المستبرأة . ومنها : وجوب ثلاثة أشهر في حق من يُقطع ببراءة رحمها لصغرها أو

كبرها. ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يعقل معناه. وهذا فاسد، لوجهين: **أحدهما:** أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة: وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم. الثاني: أن العِدَّة ليست من العبادات المحضة. بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين، والولد، والناكح.

قال شيخنا: والصواب أن يقال: إن عدة الوفاة هي حرم لانقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج. ولهذا تُحْدُ المتوفى عنها في عدة الوفاة رعاية لحق الزوج. فجعلت العدة حريماً لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن. فيحصل بها فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني. ولا يتصل النكاحان. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه: حرم نساؤه بعده؟ وبهذا اختص الرسول. لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره. فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها لتضررت المتوفى عنها. وربما كان الثاني خيراً لها من الأول، ولكن لو تأيمت على أولادها من الأول لكانت محمودة على ذلك مستحبةً لها. وفي الحديث «أنا وامرأة سَفْعَاء الخدين كهاتين يوم القيامة» - وأوْماً بالوسطى والسبابة - امرأة تأيمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا. وإذا كان المقتضى لتحريمها قائماً فلا أقل من مدة تربصها. وقد كانت في الجاهلية تربص سنة، فخففها الله - سبحانه - بأربعة أشهر وعشر. وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: «فيها ينفخ الروح» فيحصل بهذه المدة براءة الرحم حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلى ذلك.

فصل وأما عدة الطلاق: فهي التي أشكلت

فإنها لا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد الميسس، ولأن الطلاق قطع للنكاح. ولهذا يتنصف فيه المسمى. ويسقط فيه مهر المثل.

فيقال - والله الموفق للصواب -: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة. ففيها حق للزوج، وحق لله، وحق للولد، وحق للناكح الثاني. فحق الزوج: ليتمكن من الرجعة في العدة. وحق الله: لوجوب ملازمتها المنزل، كما نص عليه سبحانه. وهو منصوص أحمد ومذهب أبي حنيفة، وحق الولد: لثلا يضيع نسبه، ولا يدري لأي الواطئين. وحق المرأة: لما لها من النفقة زمن العدة،

لكونها زوجة ترث وتورث.

ويدل على أن العدة حق للزوج: قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] فقلوه: ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ دليل على أن العدة للرجل على المرأة وأيضاً فإنه - سبحانه - قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعل الزوج أحق بردها في العدة. وهذا حق له، فإذا كانت العدة ثلاثة قروء وثلاثة أشهر: طالت مدة التريص، لينظر في أمره: هل يمسك وفيء أو يطلق؟ وكان تخيير المطلق كتخيير المولى. لكن المولى جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التسيير أربعة أشهر^(١)، لينظروا في أمرهم.

ومما يبين ذلك أنه - سبحانه - قال: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَسْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وبلوغ الأجل: هل الوصول والانتهاء. وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته. وفي قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] مقاربتة ومشارفته. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه حد من الزمان. وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا: فلا يكون مقدوراً لها، وقيل: بل هو فعلها. وهو الاغتسال، كما قاله جمهور الصحابة. وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها. ويحل لها أن تمكث من نفسها، فلا اغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد. وفي النكاح الذي هو الوطء، وللناس في ذلك أربعة أقوال.

أحدها: أنه ليس شرطاً، لا في هذا ولا في هذا، كما يقوله من يقوله من أهل الظاهر.

والثاني: أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد وجمهور الصحابة كما تقدم حكايته عنهم.

والثالث: أنه شرط في نكاح الوطء لا في نكاح العقد. كما قاله مالك والشافعي.

والرابع: أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه، وهو الحكم بالطهر بمقتضى وقت صلاة وانقطاعه لأكثره، كما يقوله أبو حنيفة. فإذا ارتجעה قبل غسلها لأجل وطئه لها وإلا كان لأجل حلها لغیره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتمامه، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

(١) في قوله في سورة براءة: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.

أَمَرَكَمُ اللَّهُ ﴿البقرة: ٢٢٢﴾ والله - سبحانه - أمرها أن تتربص ثلاثة قروء . فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها ، وهو - سبحانه - لم يقل : إنها عقيب القرأين تبين من الزوج ، بل خير الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح . فظاهر القرآن ما فهمه الصحابة : أنه عند انتهاء القروء الثلاثة : ينخير الزوج بين الإمساك بالمعروف ، أو التسريح بالإحسان . وعلى هذا : فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحداً لا يكون قسمين . بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها . وهذا كقوله - تعالى - إخباراً عن أهل النار : ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقوله : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وإنها حل من قال : «إن بلوغ الأجل هو مقارنته» أنها بعد أن تحل للخطاب لا يبقى الزوج أحق برجعته . وإنما يكون أحق بها ما لم تحل لغيره ، فإذا حل لغيره أن يتزوجها صار هو خاطباً من الخطاب . ومنشأ هذا : ظن أنها ببلوغ الأجل تحل لغيره . والقرآن لم يدل على هذا ، بل القرآن جعل عليها أن تتربص ثلاثة قروء ، وذكر أنها إذا بلغت أجلها فإما أن تمسك بمعروف ، وإما أن تُسرح بإحسان .

وقد ذكر - سبحانه - هذا الإمساك أو التسريح عقيب الطلاق ، فقال : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ثم قال : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وهذا هو تزويجها الأول المطلق الذي كان أحق بها . فالنهي عن عضلهن مؤكد لحق الزوج ، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تحل للخطاب ، بل فيه : أنه في هذه الحال إما أن يمساك بمعروف ، أو يسرح بإحسان . فإن سرح بإحسان حلت حينئذ للخطاب .

وعلى هذا : فدلالة القرآن بينت أنها إذا بلغت أجلها ، وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم ، فإما أن يمساكها قبل أن تغتسل فتغتسل عنده ، وإما أن يسرحها ، فتغتسل وتنكح من شاءت . وبهذا يعرف قدر فهم الصحابة ، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهاده أن يفهم ما فهموه ويعرف ما قالوه .

فإن قيل : فإذا كان له أن يجمعها في جميع هذه المدة ما لم تغتسل ، فلم قيد التخير ببلوغ الأجل ؟ قيل : ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق

الزوج. والتربص الانتظار، وكانت منتظرة: هل يمسكها، أو يسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلى آخرها، كما خير المولى بين الفیئة وعدم الطلاق، وهنا لما خيره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح إنما يمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة، وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك. فإنه - سبحانه - جعل التسريح بإحسان عند بنوغ الأجل. ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة. فالصواب: أن التسريح إرسالها إلى أهلها بعد بلوغ الأجل ورفع يده عنها. فإنه كان يملك حبسها مدة العدة. فإذا بلغت أجلها فحينئذ إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يمسكها كان عليه أن يسرحها بإحسان. ويدل على هذا قوله - تعالى - في المطلقة قبل المسيس ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِئَتُهُنَّ وَسَرْحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] فأمر بالسراح الجميل، ولا عدة. فعلم أن تخلية سبيلها: إرسالها، كما يقال: سرح الماء والناقة: إذا مكنها من الذهاب وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تاماً، وكان له أن يمسكها وأن يسرحها، وكان مع كونه مطلقاً قد جعل أحق بها من غيره مدة التربص، وجعل التربص ثلاثة قروء لأجله.

ويؤيد هذا أشياء أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبت بالسنة: وأقر به عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر وحكاه أبو جعفر النحاس في ناسخه ومنسوخه: إجماع الصحابة وهو مذهب إسحاق وأحمد بن حنبل في أصح الراويتين عنه دليلاً كما سيأتي تقرير المسألة عن قريب إن شاء الله تعالى.

(١)... ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] ويقال: وجد فلان وجداً ووجداً - بضم الواو وفتحها وكسرهما - إذا صار ذا جدة وثروة. ووجد الشيء كذا وكذا، فهو موجود، وأوجده الله، ويقال: وجد الله الشيء كذا وكذا على غير معنى أوجده. كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الاعراف: ١٠٢] فالله - سبحانه - أوجده على علمه، بأن يكون على صفة. ثم وجده بعد إيجاده على تلك الصفة التي علم أن سيكون عليها.

وأما «الواجد» في أسمائه سبحانه: فهو بمعنى ذو الوجود والغنى. وهو ضد الفاقد. وهو كالموسع ذي السعة. قال تعالى: ﴿وَالسَّامِعُ بِئْنَهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي ذوو سعة وقدرة ومملك. كما قال - تعالى -: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ودخل في أسمائه - سبحانه -: الواجد، دون «الموجد» فإن «الموجد» صفة فعل. وهو معطي الوجود. كالمحيي معطي الحياة وهذا الفعل لم يحىء إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة. فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا. وإنما الذي جاء «خلقه وبرأه، وصوّره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك. فلما لم يكن يستعمل فعله لم يحىء اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنی. فإن الفعل أوسع من الاسم. ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و«الفاعل» و«المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء. وقد أخطأ - أقبح خطأ - من اشتق له من كل فعل اسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر، والمخادع، والقاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يجبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجب تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنی. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ. ومعناه صحيح...

(١)... الوجه الرابع: وهو أن الله - سبحانه - نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمى ما تأخذه أجراً. وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦]. قال شيخنا: وإنما ظن الظان أنها خلاف القياس، حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة. وليس الأمر كذلك. بل الإجارة تكون على كل ما يستوفي مع بقاء أصله. سواء كان عيناً أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي توقف وتعار، فما استوفاه الموقوف عليه والمستعير بلا عوض، يستوفيه المستأجر

بالعوض . فلما كان لبن الظئر مستوفى مع بقاء الأصل جازت الإجارة عليه ، كما جازت على المنفعة . وهذا محض القياس . فإن هذه الأعيان يحدثها الله شيئاً بعد شيء وأصلها باق ، كما يحدث الله المنافع شيئاً بعد شيء وأصلها باق .

يوضحه الوجه الخامس : وهو أن الأصل في العقود : وجوب الوفاء ، إلا ما حرمه الله ورسوله : فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً فلا يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرم الله ورسوله . وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة . وإنما معهم قياس قد علم بأن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق ، وأن القياس الذي مع من أجاز ذلك أقرب إلى مساواة الفرع الأصلي . وهذا ما لا حيلة فيه : وبالله التوفيق .

(١) فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها

ثبت أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها البتة ، فخاصمته في السكن والنفقة إلى رسول الله ﷺ قالت : لم يجعل لي سكنى ولا نفقة . وفي السنن أن النبي ﷺ قال : « يا بنت آل قيس إنما السكنى والنفقة على من كانت له رجعة » ، ذكره أحمد .
وعنده أيضاً « إنما السكنى والنفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى » . وفي صحيح مسلم عنها : طلقني زوجي ثلاثاً ، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة .

وفي رواية لمسلم أيضاً أن أبا عمرو بن حفص خرج مع علي - كرم الله وجهه - إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته بتطبيقه بقيت من طلاقها ، وأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها ، فقالا : والله ما لها نفقة ، إلا أن تكون حاملاً ، فأتت النبي ﷺ ، فذكرت له قولهما ، فقال : « لا نفقة لك » فاستأذنته في الانتقال ، فأذن لها ، فقالت له : أين يا رسول الله ؟ فقال : « عند ابن أم مكتوم » وكان أعمى ، تضع ثيابها عنده ولا يراها ، فلما مضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد ، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث ، فحدثته ، فقال : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بيني وبينكم القرآن ، قال - تعالى - : ﴿ لا

تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴿[الطلاق: ١] الآية، قالت: هذا لمن كانت له مُرَاجعة، فأمر يحدث بعد الثلاث؟. وأفتى النبي ﷺ بأن للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف، ذكره مسلم.

وسئل ﷺ: ما تقول في نسائنا؟ فقال: «أَطْعِمُوهُنَّ مما تَأْكُلُونَ، واكسوهُنَّ مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن» ذكره مسلم.

وسأله ﷺ هند امرأة أبي سفيان فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني ولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: «خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف» متفق عليه.

فتضمنت هذه الفتوى أموراً، أحدها: أن نفقة الزوجة غير مُقَدَّرَة، بل المعروف ينفي تقديرها، ولم يكن تقديرها معروفاً في زمن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم. الثاني: أن نفقة الزوجة من جنس نفقة الولد كلاهما بالمعروف. الثالث: انفراد الأب بنفقة أولاده. الرابع: أن الزوج أو الأب إذا لم يبذل النفقة الواجبة عليه فللزوجة والأولاد أن يأخذوا قدر كفايتهم بالمعروف. الخامس: أن المرأة إذا قَدَّرَتْ على أخذ كفايتها من مال زوجها لم يكن لها إلى الفسخ سبيل. السادس: أن ما لم يقدره الله ورسوله من الحقوق الواجبة فالمرجع فيه إلى العرف. السابع: أن ذم الشاكي لخصمه بما هو فيه حال الشكاية لا يكون غيبة، فلا يَأْثَمُ به هو ولا سامعه بإقراره عليه. الثامن: أن من منع الواجب عليه وكان سبب ثبوته ظاهراً فلمستحقه أن يأخذ بيده إذا قدر عليه، كما أفتى به النبي ﷺ هنداً، وأفتى به ﷺ الضيف إذا لم يقره مَنْ نزل عليه كما في سنن أبي داود عنه ﷺ أنه قال: «ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح بفنائته محروماً كان ديناً عليه إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه» وفي لفظ «مَنْ نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه» وإن كان سبب الحق خفياً لم يجز له ذلك، كما أفتى النبي ﷺ في قوله: «أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال

تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فتضمنت هاتان الآيتان أنه - سبحانه - إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله - سبحانه - إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبه ولوازم ذلك وما أفضى إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

^(١) ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غايتها.

قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مراده لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله - تعالى -: ﴿اللَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. فقد أخبر - سبحانه - أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال - تعالى -: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [حمد: ١٩] فالعلم بوحدانيتها تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب - تعالى - بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها. فكما

أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته . وأيضاً فإن العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره ، فهو متضمن للغاية والوسيلة .

وقولكم: إن العمل غاية ، إما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط ، فإن أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وإن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح ، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها ، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها ، فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً .

وكذلك الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له ، وإن كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته ، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة ، وأن العلم كذلك .

وأيضاً فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه .

وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه ، فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله ، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى ، وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه ، فكيف يقال : إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم ، بل من قام بالأمرين فهو أكمل ، وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة ، فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة ، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والله أعلم .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطلاق

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه تبارك وتعالى

فيمن حرم أمته أو زوجته أو متاعه

قال . تعالى :- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢، ١] ثبت في الصحيحين أنه ﷺ شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش . فاحتالت عليه عائشة وحفصة ، حتى قال : «لن أعود له» . وفي لفظ : «وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» .
وفي سنن النسائي عن أنس «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها فأنزل الله - عز وجل - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾» .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها» . وقال : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] .
وفي جامع الترمذي عن عائشة قالت : «آلى رسول الله ﷺ من نسائه وحرم فجعل الحرام حلالاً . وجعل في اليمين كفارة» هكذا رواه مسلمة (٢) بن علقمة عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة . ورواه علي بن مسهر وغيره عن الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً . وهو أصح . انتهى كلام أبي عيسى .

وقولها: «جعل الحرام حلالاً» أي جعل الشيء الذي حرمه وهو «العسل ، أو الجارية» حلالاً ، بعد تحريره إياه . وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن هبيرة عن قبيصة بن ذؤيب قال : سألت زيد بن ثابت ، وابن عمر عن قال لامرأته «أنت علي حرام؟ فقالا جميعاً: كفارة يمين» .

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن مسعود قال في التحريم : «هي يمين يكفرها» . قال ابن حزم : وروي ذلك عن أبي بكر

الصديق وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما.

وقال الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم قال: «سألت نافعاً مولى ابن عمر عن الحرام: أطلاق هو؟ قال: لا، أو ليس قد حرم رسول الله ﷺ جاريته، فأمره الله - عز وجل - أن يكفر عن يمينه، ولم يحرمها عليه...»

(١) فصل وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال

فماخذ قوله: إن تحريم الحلال - من الطعام والشراب واللباس - يمين يكفر بالنص والمعنى وأثار الصحابة. فإن الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ تَحْلَةً أَيَّانُكُمْ [التحريم: ٢، ١].

ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض، لأنه سببه. وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعاً، إذ هو المقصود بالبيان أو لا. فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا استدلال في غاية القوة.

فسألت عنه شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - فقال: يعم التحريم، لكنه يمين كبرى في الزوجة، كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها، كفارتها كفارة اليمين بالله، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم «إن التحريم يمين تكفر». فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلاً، وتقديرها استدلالاً. ولا يخفى على من أثر العلم والإنصاف، وجانب التعصب والاعتساف، ونصرة ما بنى عليه من الأقوال: الراجح من المرجوح، والله المستعان.

فصل وقد تبين بما ذكرنا

أن من حرم شيئاً غير الزوجة، من الطعام، والشراب، واللباس، أو أمته: لم يحرم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع: **أحدها:** أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: يحرم تحريماً مقيداً، تنزيله الكفارة، كما إذا ظاهر من امرأته، فإنه لا يحل له وطؤها حتى يكفر، ولأن الله - سبحانه - سمى الكفارة في ذلك تحلّة، وهي ما يوجب الحل، فدل على

ثبوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ ﴿لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ولأنه تحريم لما أبيح له، فيحرم بتحريمه، كما لو حرم زوجته.

ومنازعه يقولون: إنما سميت الكفارة تحلة من الحل، الذي هو ضد العقد. لا من الحل الذي هو مقابل التحريم. فهي تحل اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ فالمراد: تحريم الأمة أو العسل ومنع نفسه منه، وذلك يسمى تحريماً. فهو تحريم بالقول لا إثبات للتحريم شرعاً.

وأما قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: «أنت علي حرام» فلو صح هذا القياس لوجب تقديم التكفير على الحنث، قياساً على الظهار، إذ كان في معناه. وعندهم لا يجوز التكفير إلا بعد الحنث. فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين ولا بد: إما أن يفعله حراماً، وقد فرض الله تحلة اليمين. فيلزم كون المحرم مفروضاً، أو من ضرورة المفروض. لأنه لا يصل إلى التحلة إلا بفعل المحلوف عليه، أو إنه لا سبيل له إلى فعله حلالاً، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل. وإقدامه عليه - وهو حرام - ممتنع. هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

وبعد فلها غور، وفيها دقة وغموض. فإن من حرم شيئاً فهو بمنزلة من حلف بالله على تركه. ومن حلف على تركه: لم يجز له هتك حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة. فإذا التزمها جاز له الإقدام على فعل المحلوف عليه ويأذن له فيه. وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة. فيكون إذنه له فيه، وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم: رخصة من الله له، ونعمة منه عليه، بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقى المنع الذي عقده على نفسه إصراراً عليه. فإن الله إنما رفع الآصار عمن اتقاه والتزم حكمه. وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسع الله على هذه الأمة، وجوز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يكفر - لا قبل ولا بعد - لم يوسع له في الحنث. فهذا معنى قوله: «إنه يحرم حتى يكفر» وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذهب أحمد. . . .

(١) قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلمه فهو المهدي، والله هاديه وناصره.

(١) الباب الخامس عشر

* في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم *

قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. قال علي رضي الله - عنه -: علموهم وأدبوهم. وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير.

وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع.

وقد روى الحاكم عن أبي النضر الفقيه ثنا محمد بن حمويه ثنا أبي ثنا النضر بن محمد عن الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن عكرمة حدثنا ابن عباس عن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة [ب] لا إله إلا الله، ولقنوه عند الموت: لا إله إلا الله».

وفي تاريخ البخاري من رواية بشر بن يوسف عن عامر بن أبي عامر سمع أيوب بن موسى القرشي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»، قال البخاري: ولم يصح سماع جده من النبي.

وفي معجم الطبراني من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين». وذكر البيهقي من حديث محمد بن الفضل بن عطية وهو ضعيف عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله! قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد؟ قال: «أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه».

قال سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يكره ولده على طلب الحديث فإنه

مستول عنه، وقال: إن هذا الحديث عزٌّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها. وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك فإنك مستول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وهو مستول عن برك وطواعيته لك.

وذكر البيهقي من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد، فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا، فإنما إثمه على أبيه». وقال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال يا أبا سعيد ما هذه القررة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا. بل والله في الدنيا، قال وما هي؟ قال والله أن يري الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه: طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولداً أو والدأ أو حميماً أو أخاً مطيعاً لله عز وجل.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: «كلكم مستول عن رعيته؛ فالأمير راع على الناس، وهو مستول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلمها وولده، وهي مستولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مستول عنه ألا فكلكم راع، وكلكم مستول عن رعيته».

* فصل - ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع *

ففي السنن ومسنده أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم». وفي صحيح مسلم أن امرأة بشير قالت: أنحل ابني غلاماً، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي. قال: «له إخوة؟» قال: نعم، قال: «كلهن أعطيت ما أعطيت؟» قال: لا، قال: «فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق». ورواه الإمام أحمد، وقال فيه: «لا تشهدني على جور، إن لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم».

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال: إني نحت ابنك هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «أكل ولدك نحت مثل هذا؟» قال: لا، فقال: «ارجعه».

وفي رواية لمسلم - فقال: «فعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»، فرجع أبي في تلك الصدقة.

وفي الصحيح: «أشهد على هذا غيري» وهذا أمر تهديد، لا إباحة، فإن تلك العطية كانت جوراً بنص الحديث، ورسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا يأذن لأحد أن يشهد على صحة الجور، ومن ذا الذي كان يشهد على تلك العطية، وقد أبى رسول الله ﷺ أن يشهد عليها، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها جور، وأنها خلاف العدل. ومن العجب أن يحمل قوله: «اعدلوا بين أولادكم» على غير الوجوب، وهو أمر مطلق مؤكد ثلاث مرات، وقد أخبر الأمر به أن خلافه جور، وأنه لا يصلح، وأنه ليس بحق، وما بعد الحق إلا الباطل، هذا والعدل واجب في كل حال فلو كان الأمر به مطلقاً لوجب حمله على الوجوب، فكيف وقد اقترن به عشرة أشياء تؤكد وجوبه فتأملها في ألفاظ القصة.

وقد ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي حدثنا القاسم بن مهدي حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبد الله بن معاذ عن معمر عن الزهري عن أنس: أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال - النبي عليه الصلاة والسلام -: «فما عدلت بينهما»، وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في الصلة.

وقال بعض أهل العلم: إن الله - سبحانه - يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقاً فللابن على أبيه حق، فكما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي بن أبي طالب: علموهم وأدبوهم، وقال - تعالى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «اعدلوا بين أولادكم»، فوصية الله

للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت إنك عقتني صغيراً فعقتك كبيراً، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً.

(١) فصل

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ عما عوده المربي في صغره من: حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولا بد يوماً ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها.

وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقتها في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جداً.

وينبغي لوليّه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئاً أعطاه على يده ليزوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها ولا يريحه إلا بما يحجم نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما، فأرواح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أرواح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا

يوصل إليها إلا على جسر من التعب.

قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم، ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً.

فصل

ويجنبه فضول الطعام والكلام والنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاحه، وكم من أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانتة له على شهوته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

فصل

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساد له أو كلامه له أو الأخذ من يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد سهل الدياسة؛ ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهاهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمده العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، حرمتهم الانتفاع بأولادهم، وحرمت الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

فصل

ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: «يحرم الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم»، والصبي وإن لم يكن مكلفاً فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه

يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قول العلماء، واحتج من لم يره حراماً عليه بأنه غير مكلف، فلم يحرم لبسه للحريز كالدابة وهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلفاً فإنه مستعد للتكليف، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عرياناً ونجساً، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

فصل

ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكومعه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعداً لها قابلاً لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم.

(١) فصل فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً

واحتمالاً للعبادات فيضرب على ترك الصلاة، كما أمر به النبي - عليه السلام - وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد له حال أخرى يقوى فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلى وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يعاقب على تركه، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قوي جداً، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطى آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله كما هو متمكن من

فهم العلوم والصنائع ، ومصالح دنياه فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله مع أن أدلة الإيـان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها

(١) ... وسمعت شيخنا - رحمه الله - يقول : تنازع أبوان صبيّاً عند بعض الحكام فخير بينهما ، فاختر أباه ، فقالت له أمه : اسأله : لأيّ شيء يختار أباه؟ فسأله . فقال : أمي تبعثني كل يوم للكتاب ، والفقيه يضربني ، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان . فقضى به للأم ، وقال : أنت أحق به .

قال شيخنا : وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه : فهو عاص ، ولا ولاية له عليه . بل كل من لم يقيم بالواجب في ولايته فلا ولاية له . بل إما أن يرفع يده عن الولاية ، ويقام من يفعل الواجب . وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب؟ إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان .

قال شيخنا : وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء ، سواء كان الوارث فاسقاً أو صالحاً ، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة على الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان .

قال : فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته ولا تقوم بها ، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرة ، فالحضانة هنا للأم قطعاً .

قال : وما ينبغي أن يعلم : أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً ، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقاً . والعلماء متفقون على أنه لا يتعين أحدهما مطلقاً . بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط على البر العادل المحسن . والله أعلم .

(٢) قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره : أدبهم وعلموهم .

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع . فالأدب : اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه المأدبة . وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس .

(٣) ... قوله تعالى : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] .

المراد الأمر في الدنيا لأن الآخرة ليس فيها أمر ولا نهي على الملائكة ولا غيرهم ؛

لأن التعبد زائل . وفي البخاري عن علي : اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . قلت : هذا وهم منه - رحمه الله تعالى - فإن الله - تعالى - يأمر الملائكة يوم القيامة بأخذ الكفار والمجرمين إلى النار ، وسوقهم إليها ، وتعذيبهم فيها ، ويأمر عباده بالسجود له فيخرون سجداً إلا من منعه الله من السجود ، ويأمر المؤمنين فيعبرون الصراط ، ويأمر خزنة الجنة بفتحها لهم ، ويأمر خزنة النار بفتحها لأهلها ، ويأمر ملائكة السموات بالنزول إلى الأرض ، ويأمر بشأن البعث كله وما بعده ، فالأمر يومئذ لله ، ولا يعصى الله في ذلك اليوم طرفة عين ، وأوامره ذلك اليوم : للثواب والعقاب والشفاعة وغيرهم تضبطها قدرة الخالق ، فكيف يقال : ليس في الآخرة أمر ولا نهي ، حتى يقال : لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون في الدنيا . أفترى الله - عز وجل - لا يأمرهم يوم القيامة في أمر النار بشيء فلا يعصونه فيه . نعم ليست الآخرة دار حرث ، وإنما هي دار حصاد ، وأوامر الرب ونواهيه ثابتة في الدارين ، وكذلك أوامر التكليف ثابتة في البرزخ ويوم القيامة ، وحكاية الأشعري في مقالاته عن أهل السنة في تكاليف من لم تبلغه الدعوة في الدنيا : أن يكلفوا يوم القيامة ، فقول القائل : الآخرة ليست دار تكليف ولا أمر ولا نهي : قول باطل ، ودعوى فاسدة . والله الموفق .

(١) قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨] فجعل وقاية شر السيئات - وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد . ودخول الجنات - وهو حصول ما يحب العبد - منوطاً بحصول التوبة النصوح . و«النصوح» على وزن فعول ، المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة . كالشكور والصبور . وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة . وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص . فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه . والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف عنها . ومرجعها إلى شيء واحد . فقال عمر بن

الخطاب، وأبي بن كعب - رضي الله عنهما - : «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحاً، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب. وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان. **قلت:** النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرغبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين

دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم ، وحرص على كرامتهم . وخالفته امرأته إلى فساق قومه ، فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسن الناس وجهاً وانضرهم جمالاً وأطيبهم ريحاً . فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله - عز وجل - في كتابه . [وفيه] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله : ﴿ فَخَانَتْهُمَا ﴾ [التحريم : ١٠] قال : والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط . فقيل له : فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ؟ فقال : أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف .

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال : سمعت جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - يقول : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ »^(١) .

وقال هشام بن عمار : حدثنا عبد العزيز الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من وقع على بهيمة ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط » رواه الإمام أحمد .

وقال القعنبی : حدثنا عبد العزيز هو الدراوردي ، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من تولى غير موالیه ، ولعن الله من غير تخوم الأرض ، ولعن الله من كره أعمى عن السبيل ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط : ثلاثاً ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من وقع على بهيمة »^(٢) . هذا الإسناد على شرط البخاري .

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا بشر بن المفضل ، عن خالد الحذاء ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله

(١) قال السيوطي : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم .

(٢) قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر : رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي .

ﷺ: «إذا باشر الرجل الرجل فهما زانيان» وفي لفظ: «إذا أتى الرجل الرجل»^(١).
 وفي المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:
 قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به». وفي لفظ: «من وجدتموه يعمل
 عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٢). وإسناده على شرط البخاري.
 وروى سهيل بن أبي صالح [عن أبيه]، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:
 قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه» أو قال: «فاقتلوا
 الفاعل والمفعول به».

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبوبكر الصديق، وعلي بن
 أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك^(٣). . . .
^(٤) قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا
 تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا
 النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ
 لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *
 وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ
 رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَتُحْصِي الصَّالِحِينَ * وَذَكَرْنَا فِي الْقُرْآنِ
 مَثَلًا لِقَوْمٍ يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفِي آيَاتِنَا لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ﴾ [التحريم: ١٠-١٢] فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة
 أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثل الكفار أن الكافر يُعاقب على
 كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من
 حُمة نسب أو وُصلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها
 تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت
 وُصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوُصلة التي كانت بين
 لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يُغنيا عنهما من الله شيئًا ﴿وقيل ادْخُلَا النَّارَ مَعَ
 الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف
 أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد

(١) قال السيوطي: رواه البيهقي في السنن.

(٢) قال ابن حجر في الزواج: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي.

(٤) ١٨٨ أعلام ج١.

(٣) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب وغيره.

الاتصال، فلا اتصال فَوْقَ اتصال البُنة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً، قال الله - تعالى -: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المنحة: ٣]. وقال - تعالى -: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [الانفطار: ١٩]. وقال - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٤٨]. وقال: ﴿وَإِخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]. وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن مَنْ تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صُحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يُجبرهم من عذاب الله، أو هو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومُحاربة أهله ومُعاداتهم.

فصل

وأما المثلان اللذان للمؤمنين، فأحدهما امرأة فرعون، وَوَجْهُ المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارق في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة، وإن تضرَّرَ بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحمل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة؛ فلم يضرَّ امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولو طُ اتصَلها بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين مريم التي لا زَوْجَ لها، لا مؤمن ولا كافر، فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزْبُ التي لا وصلة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سِيَقَتْ في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويُردَّن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولو طُ اتصَلها بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثلَ يحذر عائشة وحَفْصَةَ، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتباراً آخر، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قَدْفُ أعداء الله: اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين؛ فلا يضر الرجل الصالح قَدْحُ الفجار والفساق فيه، وفي هذا تَسْلِيَةٌ لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتَوَطِّينَ نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذيرُ لها ولحفصة مما اعتمدتا في حق النبي ﷺ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذيرَ لهن والتخويف، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسليّة وتوطينَ النفس لمن أودىَ منهن وكذب عليه! وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التحريم

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **وأما البركة** فكذلك نوعان أيضاً. أحدهما بركة هي فعله - تبارك وتعالى - والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة [على] تارة وبأداة [في] تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له - عز وجل - فهو - سبحانه - المبارك وعبداه ورسوله المبارك كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك. وأما صفته تبارك فمختصة به - تعالى - كما أطلقها على نفسه بقوله ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ [الفرقان: ٦١] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعظيم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك: تعظيم. وقال آخر: معناه أن تحيي البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعظيم. وقيل تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره. وقال ابن عباس: بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالى وتقدس وتعظيم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالى المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها برك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعدد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي وبيننا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة: فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعنى: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه - تعالى - بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فآخر ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن» وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» فدل على أن الله - سبحانه وتعالى - له أسماء وصفات استأثرت بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

الوجه الثالث والسبعون: إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له وموتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه.

كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله.

ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلو لا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم.

(١) الوجه الأربعون أن الله - تعالى - وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال - تعالى - حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهي: العقل والسمع والبصر. كما قال في موضع آخر ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتاً غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم، والله المستعان.

^(١) واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول - سبحانه - عقيب تقرير ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل. وأخبر عنهم أنهم ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وأخبر عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. وهذا إنما يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة.

ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: ﴿انظروا﴾ و﴿فاعتبروا﴾ و﴿سيروا في الأرض فانظروا﴾ فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا

لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكير والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانة؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله - تعالى - من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأُنَجِّينَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣]. وقال في قوم لوط: ﴿إِنَّا مَنُزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهَا لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٥، ٧٦]. وقال تعالى في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

(١) **اعتراف** العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاق أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨، ٩].

(٢) **ومن ذلك** احتجاجه - سبحانه - على إثبات علمه بالجهات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصححه، حيث يقول: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهذا من أبلغ التقرير. فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، وإذا كنتم مقربين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور. فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها. ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فكفرهم السلف قاطبة. وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون [من] في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية. فعلى التقدير الأول ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام. والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة بيوطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تخفيه الضمائر وتجنه الصدور.

(٣) **قوله** تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ألا

يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾ [الملك: ١٣-١٤] وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحة والملازمة.

وقد اختلف في إعراب (من خلق) هو النصب أو الرفع.

فإن كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، كيف لا يعلم الخالق ما خلقه، وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته.

وإن كان منصوباً فالمعنى ألا يعلم مخلوقه وذكر لفظة (من) تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به.

وأيضاً فإنه - سبحانه - خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٣] أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه - سبحانه - للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة إنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له.

(١) نبيه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال - تعالى - في صفة الكلام: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴿١٤٨﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهاً. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠] نبه بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تتصرف وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيراً متكلماً عالماً، وأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟ وقال تعالى: في آلهة المشركين المعطلين ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] فجعل - سبحانه - عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلاً على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات، وقد وصف الله - سبحانه - نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان. وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلاً على عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفنتها واتساعها وتنوعها تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل. وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأني قضية تصح في العقل بعد هذا؟ ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضى والفرح والرحمة كمال فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبتته لنفسه معها كمال فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويحيى إلى حيث شاء غير كمال فهو جاهل بالكمال. والحمداء عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

(١) **قوله تعالى :** ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] أخبر - سبحانه - أنه جعل الأرض ذلولاً منقاداً للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر - سبحانه - أنه جعلها مهاداً وفراشاً، وبساطاً وقراراً وكفاتاً. وأخبر أنه دحاها وطحها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها أنك تودع فيها الحب، فتخرجه لك أضعافاً مضاعفة ما كان.

ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتوارى منه كل قبيح وتخرج له كل مريح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتوارىها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير.

والمقصود أنه - سبحانه - جعل لنا الأرض كالجمل الذلول، الذي كيفما يُقاد يُنقاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً؛ فالماشي عليها يطاء على مناكبها، وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، وهي أعاليه. قالوا وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة، بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والماشي إنما يقع في سطحها. وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذلّلها لهم ووطأها وفق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

ثم نبه بقوله: ﴿وإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] على أننا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل. فلا يحسن أن نتخذة وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته، وقدرته وحكمته ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته. فله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقاءه والقدوم عليه، والإعلام بأنه - سبحانه - يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور.

(١) قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لِّجَوْفِي عُتُوٌّ وَنُفُورٌ﴾ [الملك: ٢٠-٢١] فجمع - سبحانه - بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منفعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله - تعالى - أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي لطيف الفطنة، وخفي اللطف، فإني أحب ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فأسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتنك حبة فاعلم أني أنا ذكرتك بها» وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو - سبحانه - وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكفله.

(١) كتاب لوجع الضرس : يكتب على الخد الذي يلي الوجع : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك : ٢٣] وإن شاء كتب ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام : ١٣] .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الملك
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) **قوله تعالى:** ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٢] الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب - سبحانه - بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» كقوله: ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١] ﴿أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [آل عمران: ١] ﴿أَلَمْصَ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١] وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها. إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم - سبحانه - بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعدته، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم. بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب - سبحانه - على من عبد إلهاً لا يتكلم، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها

من المخلوقات. فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين - أعني القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

فبهذه الحروف علّم القرآن، وبها علّم البيان. وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان. وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت. وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل. والصحيح من الفاسد، وبها جمع أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة؟ وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فأياته - سبحانه - في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان.

ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبه الرثة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه. وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الشنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف.

فألهم - سبحانه - الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها. ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني، أمراً ونهياً، وخبراً، واستخباراً ونهياً، وإثباتاً. وإقراراً، وإنكاراً وتصديقاً، وتكذيباً، وإيجاباً واستحباباً. وسؤالاً، وجواباً. إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمته ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعته - تبارك وتعالى - في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجاز قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين. فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل .

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور . كما افتتحت بالإقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوجدانية . فهي دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه .

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة . فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً . وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق .

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] . فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به السوحي . وقيد به الدين . وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك . وأمنت به السبل والمسالك . وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنصحهم . وأنفعهم لهم وأنصحهم . وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم . وطبيباً يبريء بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك . والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم . ويودعها حكمه فتصير بواد الفهوم ، والأقلام نظام للأفهام . وكما أن اللسان يريد القلب فالقلم يريد اللسان ، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم يريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت .

والأقلام متساوية في الرتب . فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق .

كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يا رب ، وما اكتب ؟

قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» .

واختلف العلماء . هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين . ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني . أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر . قال : قال رسول الله ﷺ «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش . والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله : «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره . إما أن يكون جملة أو جملتين . فإن كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه أنه عند أول خلقه قال له : اكتب . كما في لفظ «أول ما خلق الله القلم قال له اكتب» بنصب أول ، والقلم فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان . إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر «لما خلق الله القلم قال له اكتب» .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير : إنه القلم الذي أقسم الله به .

القلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والعالم خدم لهم . وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم .

وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي .

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاء والمفتين ، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق . وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه

حكام وملوك على أرباب الأقلام . وأقلام العالم خدّم لهذا القلم .

القلم الرابع قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتهما وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول . فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

القلم السادس قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل . الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب . ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبت، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

القلم الثامن قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله . وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم . ومبناه على العلم وعدم الكتمان .

القلم التاسع قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه . وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه

للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق وحياتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبهاً بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه. وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده. فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر قلم اللغة، وتفصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحققين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنعام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم. وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسول. فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلاله القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله - سبحانه - أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره

بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

لك القلم الأعلى الذي بشباته	يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
له ريقة طل، ولكن وقعها	بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعبه	وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها	لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنقطته وهو راكب	وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت	عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا، وتقوضت	لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت	أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت	ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف	ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر المكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أُمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، برياً من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثيراً من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة.

ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر متساوية الأجزاء

يصدق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك. أو صنف كتاباً كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل. ولما استجاز أحد رمية بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والاثيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعن له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسمعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائفة مختارة وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟. فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي. ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق. وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى. فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم. فنفى عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية، فقالت فرقة: الباء في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول. ما أنت بالله بكاذب. وهذا التقدير ضعيف جداً؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم. وقالت فرقة: العامل في (بنعمة ربك) أداة معنى النفي، أو معنى أنفي عنك الجنون بنعمة ربك.

ورد أبو عمر بن الحاجب، وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري يتعلق ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، يعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال، أي ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم

تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي . واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان :
أحدهما نفي ذلك المعمول فقط ، نحو قولك : ما زيد بذهاب مسرعاً ، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام ، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع . والثاني ينفي المحكوم به ، فينتفي معموله بانتفائه ، فينتفي الذهاب في هذه الحال ، فينتفي الإسراع بانتفائه . فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين . وكلاهما منتف جزماً .

وهذا الاعتراض هنا فاسد ؛ لأن المعنى إذا حصل ما أنت بمجنون منعاً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً ، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام ، ولا يفهم منه من له آلة الفهم ، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا . ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم : ٣] أي غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر . ونكر الأجر تنكير تعظيم . كما قال : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات : ٢٦] و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [هود : ١٠٣] [الشعراء : ٨] و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ [ق : ٣٧] و ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبا : ٣١] و ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص : ٤٠] وهو كثير ، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير .

ثم قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته ، لمن منحه الله فهماً . ولقد سئلت أم المؤمنين (١) عن خلقه ﷺ ، فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك . ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أي على دين عظيم .

وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ،

(١) هي عائشة - رضي الله عنها - سألتها سعد بن هشام بن عامر عن وتر النبي ﷺ وعن خلقه . وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهو في المنتقى رقم (١٢٠٢) .

تُصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً، هي أزكى الأخلاق، وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المكتسبة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبييناً وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبه لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه. والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتمى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا. ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

(١) قال تعالى: ﴿لَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤].

قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فاكتمى بذلك السائل، وقال فهمت (٢) أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء

والشح والبخل، ولهذا قيل في حد البخل (جهل مقرون بسوء الظن)، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة على الناس، والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتهاوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها، والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضباً لله، فلا قولاً في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار.

وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسننها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه. وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين، وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم وناقداً لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكفى به شرفاً وفضلاً.

وقد مدح الله - سبحانه - العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرأة التي يعرف بها الحسن من القبيح. وقد قيل العقل ملك، والبدن روحه وحواسه. وحركاته كلها

رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدتها وصل الخلل إليها كلها. ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه. وروى أنه لما أهبط آدم من الجنة أتاه جبريل. فقال: إن الله أحضرك: العقل والدين والحياء، لتختار واحداً منها. فقال: أخذت العقل. فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحازا إليه.

والعقل: عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما. ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي. ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب.

والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها.

وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالباً يؤتى من إقدامه، والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلاً إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشياً نفاقياً يظن أربابه أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إثارة للراحة والدعة، ومؤنة الأذى في الله والموالاتة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة، فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين.

(١) قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن عباس ومجاهد: لعلي دين عظيم، لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه. وهو دين الإسلام. وقال الحسن - رضي الله عنه - : هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهي عنه من نهي الله.

والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين. أن هشام بن حكيم «سأل عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قال الإمام أحمد: عن ابن عبينه قال ابن عباس: «لعلي دين عظيم» وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» والدين فيه معنى الإذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل كما يقال دنته فأدان أي قهرته فذل، قال الشاعر:

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين فأصبحوا بغرة وصيان

ويكون من الأدنى إلى الأعلى كما يقال دنت الله ودنت لله، وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين. فدان الله أي أطاع الله وأحبه وأخافه، ودان الله أي خشع له وخضع وذل وانقاد. والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

(٢) وقد اختلف في تقدير قوله: ﴿بِأَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر. والجمهور على خلاف هذا التقدير. وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

(أحدها) أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

(الثاني) أن المفتون بمعنى الفتنة، أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

(الثالث) أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة قاله الأخفش أيضاً.

(الرابع) أن الباء بمعنى في، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه. و(ستبصر) مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

(١) وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ * بَأْيُكُمُ الْمُفْتُونُ﴾ [القلم: ٦، ٥].

ف قيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أن يبصر مضمّن معنى يشعر ويعلم قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن، يسعها الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان». يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

(٢) المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيثار والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة وقد آلمته فجاءه الطبيب المداري الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساد

ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعدنابات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقه، ثم اله عنها فلا تزال مادتها تقوى وتستحکم حتى عظم فسادها. وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله . . .

(١) وأما تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه معنى آخر غير ما ذكره وهو أن همزه عيب للمهموز وإزراء به وإظهار لفساد حاله في نفسه فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلى غيره.

والنهي بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعدد. والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدي المنتشر.

(٢) **قوله** تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتُنُونَ﴾ [القلم: ١٧، ١٨] أي لم يقولوا إن شاء الله؛ فمن حلف فقال إن شاء الله فقد استثنى؛ فإن الاستثناء استفعال من ثبوت الشيء، كأن المستثنى بيلاً قد عاد على كلامه فثنى آخره على أوله بإخراج ما أدخله أولاً في لفظه، وهكذا التقييد بالشرط سواء؛ فإن المتكلم به قد ثنى آخر كلامه على أوله فقيده به ما أطلقه أولاً، وأما تخصيص الاستثناء بيلاً وأخواتها فعرف خاص للنحاة . . .

(٣) **ومن** ذلك: أن جداد النخل عملٌ مباح أي وقت شاء صاحبه، لكن لما قصد به أصحابه في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه. ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣] ثم جاءت السنة بکراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة. ونص عليه غير واحد من الأئمة. كأحمد بن حنبل وغيره.

(٤) **النوع** الثاني عشر إنكاره - سبحانه - أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين وأن حكمته وعدله يأبى ذلك.

أما الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه.

ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه بل يقولون بوقوعه. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. فجعل - سبحانه - ذلك حكماً سيئاً يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلاً عن أن ينسب إليه.

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وإن حكمته تأبى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرُزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

وأما الثاني وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذُكِّرَ أَوْ أُنْثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ﴾ [القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقوله: ﴿سُنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقوله: ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

وقوله: ﴿سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فسننته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلالهم وكتبهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

[المجادلة: ١٥].

والقرآن مملوء من هذا يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثلته، وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتاباً مفرداً.

(١) قال الله - تعالى -: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتباه العقول السليمة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ١٩] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ [الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله. فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه. ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع. وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار. وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة: فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته - فإن آمن بالقدرة قبح في الحكمة وعطلها، وإن آمن بالحكمة قبح في القدرة ونقصها - بل يربط القدرة

بالحكمة، ويعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيتته فكذلك لا يكون إلا بحكمته. وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلاً، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم.

^(١) قال أبو محمد بن حزم: وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم - أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمداً حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد. قالوا: ولا نعلم لهؤلاء مخالفاً من الصحابة، وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

أما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ. أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ. إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخِيرُونَ. أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٤٣].

فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه.

ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] وأنهم يدعون إلى السجود لرهم تبارك وتعالى فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا. وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر. ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين.

^(٢) **فإن قيل:** فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟

فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ

وعرصات القيامة فلا ينقطع ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف .

وأما في عرصة القيامة فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] .

فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة ، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك ، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حساً عقوبة لهم ، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢] دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه «أن ناساً قالوا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا» - فذكر الحديث بطوله ، إلى أن قال : فيقول : «تبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيقول المؤمنون : فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم . فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقاً واحداً كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم» وذكر الحديث .

وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة ، فمن أجاب في الدنيا طوعاً واختياراً أجاب في البرزخ ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ ، ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحاً ، بل هو مقتضى الحكمة الإلهية ، لأنه مكلف وقت القدرة وأبى ، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة .

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار .

وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح ، وفيه التكليف في عرصة القيامة ، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة . فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول . والله أعلم .

^(١) **وحدثنا** عبد الله بن داود عن سفيان في قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر .
وقال غير سفيان : كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة . وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين .

وقال يونس في تفسيرها : إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقى عليها ثم شكر الله بها أعطاه أشرف منها ، وإذا هوى ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجاً .

وقال أبو حازم : نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها إني رأيته أعطاهما أقواماً فهلكوا . وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية ، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره .

^(٢) **ونهاه** سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : ٤٨] . وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال : ما العامل في الظرف وهو قوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ ﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه .

وقد أثنى الله - سبحانه - عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال : « دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » .

فلا يمكن أن ينهي عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه. وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناذاة وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم. والكظيم والكاظم الذي قد امتلاً غيظاً وغضباً أو همماً وحزناً عليه فلم يخرج. ^(١) **وكثير** من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية وقد قال تعالى لنبيه:

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ [القلم: ٥١].

وقال: ﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد﴾ [الفلق: ١-٥].

فكل عائن حاسد. وليس كل حاسد عائناً. فلما كان الحاسد أعم من العائن: كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة. فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد وإن صادفته حذراً شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهم: لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسيّ سواء. فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله: من إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سُمهاً بنظرها إلى المعين.

وقد يعين الرجل نفسه. وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرفَ بذلك حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت. وهذا هو الصواب قطعاً. **والمقصود** العلاج النبوي لهذه العلة. وهو أنواع.

وقد روى أبو داود في سننه عن الرباب - جدة عثمان بن حكيم الأنصاري - عن سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل. فدخلت فاغتسلت فيه، فخرجت محموماً، فمنا ذلك إلى رسول الله ﷺ. فقال: «مروا أبا ثابت يتعوذ». قالت: فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة؟ فقال: «لا رقية إلا في نفس، أو حمة، أو

لَذُغَةً. و«النفس» العين. يقال: أصابت فلاناً نفساً، أي عين. والنفاس: العائن. و«اللذغة» بدال مهملة وغين معجمة وهي ضربة العقرب ونحوها.

فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية، نحو: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ونحو «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ونحو «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر: من شر ما خلق، وذراً، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون».

ومنها: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات، من شر ما أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم. اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعده. سبحانك وبحمدك».

ومنها: «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر. وأسأله الله الحسنی، ما علمت منها وما لم أعلم: من شر ما خلق، وذراً وبرأ، ومن شر كل ذي شر لا أطيع شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته. إن ربي على صراط مستقيم».

ومنها: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً: وأحصى كل شيء عدداً^(١)».

(٢) ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

(١) استمر المؤلف في ذكر الرقى وأحكام العائن قرابة كراسة وسيأتي قريباً إن شاء الله في تفسير سورة الفلق في بدائع الفوائد بحثاً موسعاً حول الحسد والسحر وغيرها من ذكر سحر اليهود وغيرهم.

(٢) ٢٣٨ بدائع ج٢.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه وهو المقصود بهذه السورة والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيز منه .

والسمع هنا المراد به سماع الإجابة لا السمع العام فهو مثل قوله : سمع الله لمن حمده . وقول الخليل ﷺ : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيز ذلك فإنه يستعيز به من عدو يعلم أن الله يراه ويعلم كيده وشره فأخبر الله - تعالى - هذا المستعيز أنه سميع لاستعاذته أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيز ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحام السجدة وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر : ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر، وأم نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم .

(السبب الثاني) تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيهِ فمر اتقئ الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران : ١٢٠] . وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس : «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر .

(السبب الثالث) الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بإذاه أصلاً فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيرهِ وبغيهِ فإنه كلما بغى عليه كان بغيهِ جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه . ولورأى

المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره وما له وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصَرَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بغى عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكاً.

(السبب الرابع) التوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو حسبه والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيته، ومن كان الله كافيته وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشقى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبيننا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

(السبب الخامس) فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا.

فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما فإذا جذب روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطر به باله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقى الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية^(١).
^(٢) **أخبر** - تعالى - عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمؤمنين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب - تعالى - وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصده، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتهما، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ووَكَّلَ بالرياح ملائكةً تصرّفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وقال غير واحد من السلف عتت على الخزان فلم يقدروا على ضبطها «ذكره البخاري في صحيحه».

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوحي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابة والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدّي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي وأنها إذا وعت وعي القلب.

وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأُمته، وقول الملك له: أسمع سمعت أذنك وعقل قلبك، فلما كان القلب وعاءاً والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه، كان حصول العلم موقوفاً على حسن الاستماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه.

ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به.

وعقل الإنسان يسمى عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمى حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها.

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض، فأولها الشعور، ثم الفهم، ثم المعرفة، ثم العلم، ثم العقل.

ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان.

فخير القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله. فهذا قلب حجري، ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ ولا يضبط، فتفهم الأول كالرسم في الحجر، وتفهم الثاني كالرسم على الماء، بل خير القلوب ما كان ليناً صلباً يقبل بليته ما ينطبع فيه، ويحفظ صورته بصلابته، فهذا تفهمه كالرسم في الشمع وشبهه.

(١) فصل

ومن ذلك قوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠] إلى آخرها.

قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء.

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائك كلهم والجن والإنس، والعرش والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية، ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن. ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق.

كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٣٣] أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لحق مثل ما أنك ههنا» فكأنه - سبحانه - يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لذلك ذلك على أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل. فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكويد.

ثم بين - سبحانه - كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى إلى غيره، وأنه لم يتكلم به، بل قاله، من تلقاء نفسه، كما بين كذب من قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر، وسيصلية الله سقر.

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:
(أحدها) أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

(والثاني) أنه تكلم به حقيقة، لقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]. ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعاً منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، بإضافتها إلى الله - سبحانه - وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبدته، وناقته، وروحه، وبابه - إليه.

بخلاف كلامه فإنه لا بد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلى الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيبته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلى خالق فقد زعم أن الله لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك. وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة إضافة صفة إلى. موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلى خالق فقد تناقض، وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، وفرق بين متماثلين حقيقة، وعقلاً، وشرعاً، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه - سبحانه - إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ لكلام في قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صحَّ أن يقال: قال الرسول كذا. وهذا قول الرسول - أي قاله مبلغاً - وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في

موضع واحد، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

فصل

الأمر الثالث ما تضمنه قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى: لا يأمرهم، ولا ينههم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم. بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة. **فمن** زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره، ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام - سبحانه - البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقوّل عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقوّل عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحریمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر. ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها. ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه، الذي هو شر الخلق

على الإطلاق. فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجى. ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود.

قلت له - بعد أن أفضى في نبوة النبي ﷺ - إلى أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب تعالى.

فقال: كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه عليّ.

فأسمع الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان ملكاً قاهراً قهر الناس بسيفه «حتى دانوا له، ومكث ثلاثاً وعشرين سنة يكذب على الله، ويقول: أوحى إلي ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذباً مفترياً على الله وعلى أنبيائه، وعلى رسله وملائكته. ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم، ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله أمرني بذلك، ولم يأمره.

ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نوااميسهم فهذه حاله عندكم. فلا يخلو إما أن يكون الرب - تعالى - عالماً بذلك مطلعاً عليه من حاله، يراه ويشاهده أم لا.

فإن قلت: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى، ونسبتموه إلى الجهل المفرط، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه. **وإن قلت:** بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته.

قليل لكم: فهل كان قادراً على أن يغير ذلك ويأخذ على يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟

فإن قلتم : ليس قادراً على ذلك نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية ، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إرادتهم .

وإن قلتم : بل كان قادراً ، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة .

هذا لو كان مخلي بينه وبين ما فعله ، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدق بأنواع التصديق ، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك . وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمراً خارجاً عن العادة . فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبياً فقد سب الله وقبح فيه ، ونسبه إلى الجهل والعجز والسفه .

قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في الأرض وقتاً ما ، ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحا آثارهم وجورهم . فإن أولئك لم يعيدوا شيئاً من هذا ، ولا أيدوا . ونصروا ، وظهرت على أيديهم الآيات ، ولا صدقهم الرب تعالى بإقراره ولا بفعله ولا بقوله ، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول ، كفرعون ونمرود وأضرابها .

ولا ينتقص هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين ؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه . بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول .

ومن حكمة الله - سبحانه - أن أخرج مثل هؤلاء إلى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين ، وكان ظهورهم من آيين الأدلة على صدق الرسل .

والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تبين الأشياء ، والضد يظهر حسنه الضد ، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه .

فلما سمع ذلك قال : معاذ الله لا نقول : إنه ملك ظالم ، بل نبي كريم من أتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من أتبع موسى فهو كمن أتبع محمداً .

قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا ؛ فإنكم إذا أقرتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به ، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا

الناس كلهم إلى الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبنائهم. فإن كان ذلك عدواناً منه وجوراً لم يكن نبياً، وعاد الأمر إلى القدرح في الرب تعالى، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحداً مخالفته وترك أتباعه، ويلزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه يمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاده الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقول عليه - سبحانه - . وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسائهم وصفاتهم ودينهم. وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبه. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة. . .

(٢) وقد أرشد - سبحانه - إلى هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٧] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه. هذا أحدا لقولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده فكأنه قال:

لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن اهـ.

فقد أخبر- سبحانه - أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة. فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

ويقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦] والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه.

قال: ومثله قوله ﷺ: «ما زالت أكلة خبير تعادوني، وهذا أوان قطع أبهرى»^(١) والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهر^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] أي لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني.

الموضع الثاني قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَنْخِتُمْ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

-
- (١) رواه البخاري معلقاً: ووصله البزار وغيره عن عائشة رضي الله عنها. والأبهر عرق في الظهر. وفي النهاية: ما زالت أكلة خبير تعادني - بضم التاء وتشديد الدال - وأتى للأبهر بمعان كثيرة. وقال الحافظ في الفتح (٣٣٨: ٧) قال ابن إسحاق: لما اطمأن النبي ﷺ بعد فتح خيبر أهدت إليه زينب بنت الحارث. امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية كانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها الذراع. فكثرت فيها من السم. فلما تناول الذراع لأك منها مضغة ولم يسقط. وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات.
- (٢) تقدم في تفسير آية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية في سورة آل عمران بحث على هذه الآية قريباً من هذا (ج).

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي. وهذا القول أقوى من الأول لوجوه:

(أحدهما) أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: إن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى عليّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا يبعضه، فلولا أي أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟.

(الوجه الثاني) أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من الحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر.

(الثالث) أن الربط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [الكهف: ١٤] وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

(الرابع) أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم «إنه افتراه، لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكو له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقدر على تخليصه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [الأحقاف: ٤] وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

(الخامس) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكّنه. وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

(السادس) أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى، فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

(السابع) أنه - سبحانه - أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالى: ﴿قُلْ لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتלוه عليكم وأن أعلمكم به ألبتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إلي وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به. فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرّون به من جهته، لأن

الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدرؤا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري .

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ [يونس: ١٦] تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي . ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليّ وأنزله عليّ ولو شاء ما فعل . فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنتني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليّ تالياً له ولا لبعضه . فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالة .

ومن هذا قوله - سبحانه - : ﴿وَلَيْنَ شَتْنَا لَنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يُخْتَمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] ولقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وبرهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة والله أعلم .

(الثامن) أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شَتْنَا لَنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخِرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣] وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبا: ٩] ونظائره لم يأت إلا فيما كان مابعد فعل المشيئة منفياً .

(التاسع) أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على

القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب.

ومنه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنى يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.

والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

(**العاشر**) أن الختم هو شد القلب، حتى لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والقصد. والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به. فإذا قيل الأمر كذلك، ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم. قيل: هذا أولى أن يسمى ختماً، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وكان وصول هذا الآذى إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أودى. فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أساء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزيكها ويطهرها ويعليها، وما يدهسها ويخفيها ويحقرها. ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

ثم قال - سبحانه - : ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩] أي لا يخفون علينا، فسنبازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعان فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقليل، هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولى. وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول، وبالله التوفيق:

ذكر الله - سبحانه - في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا غَيْرَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين: أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدر في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا غَيْرَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «ليس الخبر كالمعاين» وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(١) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، معاينة بعد سماع.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة عن أبي هريرة.

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَأِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين. وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثلاً.

فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدفته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين.

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته. بل من إضافة الجنس إلى نوعه فإن العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً فأضيف العام إلى الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغاير للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥٣]. وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله.

وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة.

وذكر عظمتة تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذاباً متقولاً عليه، مفترى عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه

مع ذلك يؤيده وينصره، ويحجب دعواته، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره. فهو سبحانه - العظيم - الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم. فسبحان ربنا العظيم، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً.
^(١) (فإن قيل): فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ ولم تدخل في قوله ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر.

ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل؛ ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً. فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء، لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله.

وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيهاً على ذلك المراد كأنك قلت. سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك كما تقول صلّ مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ [الحديد: ١] والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض. كما قال: ﴿والله يسجد من في السموات والأرض﴾ [الرعد: ١٥].

وتأمل قوله تعالى ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه.

^(٢) وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة. فقال: المعنى سبح ناطقاً باسم ربك، متكلماً به. وكذا ﴿سبح اسم ربك﴾ المعنى سبح ربك ذاكراً اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة لکن لمن يعرف قدرها. فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحاقة

والحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **قوله** - تعالى - : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [المعارج: ١٩-٢١] وهذا تفسير الهلوع ، وهو شدة الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع .

فأخبر - سبحانه - أنه خلق الإنسان كذلك ، وذلك صريح في أن هلهه مخلوق لله ، كما أن ذاته مخلوقة . فالإنسان بجملته : ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله ، ليس في شيء خلق لله وشيء خلق لغيره ، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها . فالهلع فعلة حقيقة ، والله خالق ذلك في حقيقة ، فليس الله - سبحانه - بهلوع ولا العبد هو الخالق لذلك .

(٢) **ويضاد** الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [المعارج: ١٩-٢١] . وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع ، وقد ولع بالكسر فهو هلع وهلوع .

وفي الحديث «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع» قلت : هنا أمران : أمر لفظي وأمر معنوي ، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً صاحبه ، وأكثر ما يسمى هلوعاً ولا يقال هالع له ، فإنه لا يتعدى ، ففيه وجهان : أحدهما أنه على النسب : كقولهم : ليل نائم ، وسر كاتم ، ونهار صائم ، ويوم عاصف . كله عند سيئويه على النسب ، أي ذو كذا كما قالوا : تامر ولابن .

والثاني أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير . وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد ، ولا سيما إذا كان شحه هالعاً ، أي ملق له في الهلع ، وجبته خالع أي قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سباحة ولا شجاعة ولا

نفع بهاله ولا يبده. كما يقال: لا طعنة ولا جفنة ولا يطرد ولا يشرد بل قد قمعه وصغره وحقره ودسّاه الشح والخوف والطمع والفرع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستظامه والاستكانة وباء بها سريعاً، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

(١) ذم الإنسان وأنه خلق هلوفاً، لا يصبر على شر ولا خير، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع إلا من استثنى بعد ذلك من الناجين من خلقه. فذكر منهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩-٣١] وأمر الله - تعالى - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلزم الرباط على ثغورها فمنا يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتر ما علا تتبيراً.

(٢) و«الأدب» هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب؛ حتى يقف بين يدي الله

طاهراً. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته. للوقوف بين يدي ربه. **وسمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال - تعالى -: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيداناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال. وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله - سبحانه وتعالى - يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. لا سيما إذا وقف بين يديه. فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً.

ومن الأدب: نهى النبي ﷺ المصلي «أن يرفع بصره إلى السماء».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

قال: والجهمية - لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه - ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه. كما أخبر به عن نفسه. واتفقت عليه رسله. وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم. بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم. إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض. ولا يرفع بصره إليهم. فما الظن بملك الملوك سبحانه؟.

وسمعت يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود - إن القرآن هو أشرف الكلام. وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد. فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما

ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم. رضي الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنیان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد «أنه من السنة» و«كان الناس يؤمرون به» ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء. فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألتنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه. قلت: هما.

أمران: الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقى السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالى، حق لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله - تبارك وتعالى - : هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

^(١) قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] فيكون قائماً

بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبت انتبهت. ومنهم من تكون مضطجعة. ومنهم من تكون إلى القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت رُوحه لها رُوحاً» فحياة هذا الروح بهذه الكلمة فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش، قال - تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذا الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق بهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة: جنة الدنيا...

(١) ينبيه - سبحانه - الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهيّن، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال حتى جعله بشراً سوياً، يسمع ويبصر ويقول وينطق ويبطش ويعلم فنسى مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال - تعالى -: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨-٣٩] وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار - سبحانه - بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرد بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به من ذلك أن يتركهم

سدى، لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتاباً وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً أو بعثهم إلى دار يوفيههم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكفرون ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

(١) قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] أقسم - سبحانه - برب المشارق والمغارب. وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها.

وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذاك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنى في موضع آخر، فقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فقليل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء: في سورة الرحمن ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والسماء، والأرض، والحب، والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين، والمغربين.

وأما سورة ﴿سَأَلْ سَائِلٌ﴾ فإنه أقسم - سبحانه - على عموم قدرته وكما لها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم. فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون. فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب (بها) في مغرب.

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذاك يجب

أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذاك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه.

وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُتُمْتَ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته - سبحانه - للمشارك والمغرب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠-٤١] أي لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال - تعالى -: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ [الواقعة: ٦٠] لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى] كما في قوله: ﴿وما نحن بمسبوقين * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنه لما ضمّنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلی، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

فصل

وقد وقع الإخبار عن قدرته - سبحانه - على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها في الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم ، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان . فقال في الواقعة : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ * على أن نُبدِّلَ أمثالكم ونُنشئكم فيما لا تعلمون ﴿ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨] . قال كثير من المفسرين : المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ، ولم يفتنا ذلك . وفي قوله : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨] إذا شئنا أهلكناهم وأتيننا بأشباههم . فجعلناهم بدلاً منهم . قال المهدوي : قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل ، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول . وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا .

ثم استدل - سبحانه - بالنشأة الأولى فذكرهم بها فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٢] فنبههم بما علموه وعاینوه على صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية .

والذي عندي في معنى هاتين الآيتين ، وهما آية الواقعة والإنسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها .

وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الإنسان ، فقال : وبدلنا أمثالهم في شد الأسر ، يعني النشأة الأخرى . ثم قال : وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتي بـ [إن] لا بـ [إذا] ، كقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] .

قلت : وإتيانه بـ [إذا] التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وأنه واقع لا محالة . وذلك هو النشأة الأخرى التي استدل على إمكانها بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة: ٦٢] واستدل بالمثل على المثل ، وعلى ما أنكروه بما عاینوه وشاهدوه ، وكونهم أمثالهم هو إنشأؤهم خلقاً جديداً بعينه فهم هم بأعيانهم وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون .

فإذا قلت : المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت ، وإن قلت : هو مثله صدقت ،

فهو هو معاد أو هو مثل الأول . وقد أوضح هذا - سبحانه - بقوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم . وقد سماه الله - سبحانه وتعالى - إعادة ، والمعاد مثل المبدأ ، وسماه نشأة أخرى وهي مثل الأولى ، وسماه خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال : ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وسماه أمثالاً وهم هم . فتطابقت ألفاظ القرآن وصدّق بعضها بعضاً ، وبين بعضها بعضاً . ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله .

ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين : إنهم غيرهم من كل وجه . فهذا خطأ قطعاً - معاذ الله من اعتقاده - ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم . فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن ، صغير العقل ، ضعيف العلم .

وتأمل قوله - تعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٥٩ ، ٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نَبْدُلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنيون ، ولن تغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون . فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم . وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيبته ، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتكم بها .

فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان . وقال في سورة الإنسان : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ فهذه النشأة الأولى ثم قال : ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرى . ونظير هذا ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٧] وهذا في القرآن كثير جداً ، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحدهما على الأخرى . وبالله التوفيق .

فصل

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المذرة قال: ﴿فَذَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢].

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسى ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع. والثاني ضد العمل الصالح. فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعراض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين. ثم ذكر - سبحانه - حالهم عند خروجهم من القبور. فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

أي يسرعون. والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمنونها. وهذا من اللفظ التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمنون الصوت، لا يعرجون عنه يمينة ولا يسرة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرُونَ إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له). قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى [عن] أي لا عوج عنه.

وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر. ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما. والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

ثم قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤] فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذلل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]. ونظيره قوله: ﴿وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ١٦].

وضد هذا قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] فنفي عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر.

وضده أيضاً قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عز الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

ومثله أيضاً قوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. [الإنسان: ٢١]. فجمع لهم بين زينة الظاهرة والباطن.

ومثل قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصفات: ٦-٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضاً: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وتزودوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً. والله أعلم بالصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المعارج

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) **من** أعظم الظلم والجهل ؛ أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره ، فإنك توقر المخلوق وتجعله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها ، قال - تعالى - : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : ١٣] أي : لا تعاملونه معاملة من توقرونه ، والتوقير : العظمة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَوَقَّرُوهُ ﴾ **قال** الحسن : ما لكم لا تعرفون الله حقاً ولا تشكرونه . وقال مجاهد : لا تبالون عظمة ربكم . وقال ابن زيد : لا ترون لله طاعة ، وقال ابن عباس : لا تعرفون حق عظمته . **وهذه** الأقوال ترجع إلى معنى واحد ؛ وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته ، وحدوه وأطاعوه وشكروه . فطاعته سبحانه ، واجتناب معاصيه ، والحياء منه بحسب وقاره في القلب .

ولهذا قال بعض السلف : ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره ، فيقرن اسمه به ؛ كما تقول : قبح الله الكلب والخنزير والنتن ، ونحو ذلك ؛ فهذا من وقار الله .

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه ، لا في اللفظ ، بحيث تقول : والله وحياتك ، مالي إلا الله وأنت ، وما شاء الله وشئت ، ولا في الحب والتعظيم والإجلال ، ولا في الطاعة ، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله ؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة .

ولا في الخوف والرجاء ، ويجعله أهون الناظرين إليه ، ولا يستهين بحقه ، ويقول : هو مبني على المسامحة ، ولا يجعله على الفضلة ، ويقدم حق المخلوق عليه . **ولا يكون** الله ورسوله في حد وناحية ، والناس في ناحية وحد ، فيكون الحد والشق الذي فيه الناس ، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله .

ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه، ولسانه دون قلبه وروحه. ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبة من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره؛ فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من إطلاعه على سره وضميره؛ فيرى فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه.

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلوات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك. فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزعاجاً، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجراً، وهو يريد الانزعاج ممن نظر إلى ضربه. من سمع بالمثلثات والعقوبات والآيات في حق غيره، ليس كمن رآها عياناً في غيره: فكيف بمن وجدها في نفسه؟ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فأياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياداً بالله من الخذلان. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يَوْمُنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا، ويتم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما امتحن من جشانه أثر، زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوى بدنه، زاد في قوة إيمانه وبقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع

طول العمر، فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرتة، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص والتوبة النصوح؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته؛ فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فاذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجمل وأفضل.

وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل. وفي الحديث المرفوع: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله».

فالتائب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

(١) ... **ومنها**: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣]. قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون الله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾

[الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق فيه برجاء ربه، فأعطاه مارجاه: كان ذلك أَلطف موقعاً، وأحلى عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله - سبحانه وتعالى - يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والابانة وغيرها. ولهذا قَدَّرَ عليه الذنب وابتلاه به، لتكامل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه. فكذاك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه.

(١)... **قال تعالى:** ﴿مَّا لَكُم لَا تَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون الله عظمة. وقال سعيد بن جبیر: مالكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون الله عظمة.

قال البغوي: و«الرجاء» بمعنى المَخُوف. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم: وقال الحسن: لا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرون له نعمة. **وقال ابن كيسان:** لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الشئاء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم. **ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله**

تعالى فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعُبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً،

وَبُنِيتْ عَلَيْهَا الْهِياكلُ ، وَصُوِّرَتْ صُورٌ أربابها فيها ، ثم جُعِلَتْ تلك الصور أجساداً لها ظل ، ثم جُعِلَتْ أصناماً ، وعبدت مع الله تعالى .

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح ، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه ، حيث يقول : ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سِوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ [نوح : ٢١-٢٤] .

قال ابن جرير : « وكان من خبر هؤلاء - فيما بلغنا - : ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : أن يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم . وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوَّرْنَاهُمْ كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصَوَّرَهُمْ ، فلما ماتوا وجاء آخرون ذَبَّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسْقَوْنَ المطر ، فعبدوهم » قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال : « كان بين آدم ونوح - عليهما السلام - عشرة قرون ، كلهم على الإسلام » حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق^(١) عن مَعْمَرٍ عن قتادة في هذه الآية قال : « كانت آلهة يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك . فكان وَدٌّ لَكَلْبٍ بِدَوْمَةٍ الْجَنْدَلِ ، وكان سُوعٌ لَهْذِيل . وكان يَغُوثُ لبني غُطَيْفٍ من مُرَاد . وكان يَعُوقُ لِهَمْدَانَ . وكان نَسْرٌ لذي الكُلاع من حِمير . وقال الوالبي : عن ابن عباس « هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام » .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال : قال عطاء عن ابن عباس « صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ . أما وَدٌّ فكانت لكَلْبٍ بِدَوْمَةٍ الْجَنْدَلِ . وأما سُوعٌ فكانت لهْذِيل . وأما يَغُوثُ فكانت لمُرَاد ، ثم لبني غُطَيْفٍ بِالْجُرْفِ عند سَبَأ . وأما يعوق فكانت لهَمْدَانَ . وأما نَسْرٌ فكانت لحمير لآل ذي الكُلاع ؛ وكان أول ما كاد به عُبَادُ الأصنام من جهة العكوف

(١) كذا في الأصول . والذي في تفسير ابن جرير - الطبعة الأميرية - حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة .

على القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم بها، كما قصَّ الله - سبحانه - قصصهم في كتابه، فقال: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال البخاري في صحيحه: عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا وحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبُدَتْ».

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: «كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذبن كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوق لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم».

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي قال: «أول ما عبُدت الأصنام أن آدم - عليه السلام - لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ^(١)، وهو أخصب جبل في الأرض».

قال هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «فكان بنو شيث - عليه السلام - يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل، إن لبني شيث دوار^(٢) يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنماً، فكان أول من عملها».

قال هشام: وأخبرني أبي قال: «كان ودٌ، وسواعٌ، ويعوقٌ، ونسرٌ: قوماً صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني

(١) نوذ - بالنون المفتوحة - عن كتاب الأصنام طبعة دار الكتب. وبهامشه لطابعه أحمد زكي باشا: قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم: الراهون جبل بالهند: وهو الذي أنزل عليه آدم. وإليه ينسب الحجر الراهوني. قال الهمداني: إنما هو جبل الراهوم بالميم - لأن الراهام لا تكاد تفارقه. قال: والمعجم تسميه نوذ، أو يوذ: شك الهمداني.

(٢) الدوار - بتخفيف الواو مفتوحة - الطواف.

قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً، فقالوا: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم

(١) وكان من تلك الأصنام ذو الخلصة وكان مَرَوَّةً بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر^(٢) وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم وبجيلة، [وأزُد السَّراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن^(٣)] فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لجريز^(٤): «ألا تكفيني ذا الخلصة؟» فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة دونه، فظفر بهم^(٥). وهَدَمَ بَيْتَ ذِي الْخَلْصَةِ وَأَضْرَمَ فِيهِ النَّارَ فَاحْتَرَقَ^(٦). وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة.

وكان لدؤس صنم يقال له: «ذو الكفين» فلما أسلموا بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الطفيل بن عمرو فحرقه. وكان لبني الحارث بن يشكر^(٧) بن مُبَشَّر من الأزد^(٨) صنم يقال له «ذو الشرى». وكان لقضاعه ولخنم وجذام. وعاملة وغطفان، صنم في مشارف الشام يقال له «الأقصر». وكان لمزينة صنم يقال له «نهم» وبه كانت تسمى عبدنهم^(٩).

(١) ٢١٥ إغاثة ج ٢.

(٢) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٣) في الأصنام - بعد أن ذكر قصة رجل قتل أبوه فاستقسم عند ذي الخلصة فخرج السهم ينهيه عن الأخذ بشاره فقال شعراً يهجو به ذا الخلصة، ثم قال هشام: فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها. قدم عليه جريز بن عبد الله مسلماً. فقال له: يا جريز، ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى. فوجهه إليه. فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه.

(٤) في الأصنام: فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل. وأكثر القتل في خثعم. وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم. فظفر بهم.

(٥) قال هشام: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذهب الدنيا حتى تصطك أليات نساء دوس على ذي الخلصة. يعبدونه كما كانوا يعبدونه».

(٦) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٧) ثم قال هشام: وكان سادن «نهم» يسمى خزاعي بن عبدنهم من مزينة، ثم من بني عداء. فلما =

وكان لأزد السراة صنم يقال له «عائم»^(١). وكان لعنزة صنم يقال له «سُعير»^(٢). وكان لطَيٍّ صنم يقال له «الفلس»^(٣).

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم، كان يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله: أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره، كان أول ما يصنع إذا دخل منزله: أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق: وكان لخلولان صنم يقال له: عم أنس^(٣) بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم، وحرثهم، قسماً بينه وبين الله، بزعمهم، فما دخل في

سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم، فكسره، وأنشأ يقول:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك، كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها هذا إله؟ أيكم ليس يعقل؟
أبيت، فديني اليوم دين محمد إله السماء الماجد المتفضل
ثم لحق بالنبي ﷺ. فأسلم وضمن له إسلام قومه مزيناً.

(١) ثم قال هشام: فخرج جعفر بن أبي خلاص الكلبي عن ناقته، فمرت به - وقد عترت عترة عنده - فنفرت ناقته منه. فأنشأ يقول:

نقرت قلوبني من عتائر صرعت حول السعير، تزوره ابناً يقدم
وجوع يذكر مطعين جنابه ما إن يجير إليهم بتكلم
قال أبو المنذر: «يقدم» و«يذكر» ابنا عترة. فرأى هؤلاء يطوفون حول السعير.

(٢) «الفلس» بفتح الفاء وسكون اللام، وضبط بهامش نسخة الأصنام عن الخازمي - بضم الفاء. وعن ابن دريد في الجمهرة بكسر الفاء. وذكر عن إجماع ثقات النساين أنه بفتحها وسكون اللام.

قال هشام أبو المنذر: وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له «أجا» أسود، كأنه تمثال إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه: ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ولم تخفر حويته، وكانت سدنته بنو بولان - بفتح الباء وسكون الواو - وبولان هو الذي بدأ بعبادته. فكان آخر من سدنته منهم رجل يقال له «صيفي» إلى أن قال: فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي ﷺ فبعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه.

(٣) قال هشام: وكان لخلولان صنم يقال له «عميانس» بضم العين ثم ميم ساكنة. ثم باء مفتوحة بعدها ألف ثم نون مضمومة - بأرض خولان. وفي الهامش مانصه: بهامش نسخة الخزنة الزكية عبارة هذا نصتها. «عم أنس» في السيرة. قال أحمد زكي باشا - طابع الأصنام والمعلق عليها - وقد حذا اليعمري حذو ابن هشام. ثم قال: لم يرد الاسم «عم أنس» في كتب اللغة المعتمدة التي وقعت لي أهد. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٢ ص ١٩١) عن ابن إسحاق: قال وكان لخلولان بأرضهم صنم يقال له «عم أنس» أهد.

حق الله من حَقِّ عم أنس^(١) رُدُّوه عليه ، وَمَا دَخَلَ فِي حَقِّ الصْنَمِ مِنْ حَقِّ اللَّهِ الَّذِي سَمَّوْهُ لَهُ تَرْكُوهْ لَهُ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - : ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِثْلًا ذُرًّا مِنَ الْحَرِثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيحًا فَقَالُوا هَذَا اللَّهُ بَزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة نوح
والحمد لله رب العالمين

(١) في الأصنام «عميانس» .



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني في المستعاذ به، وهو الله وحده رب الفلق * ورب الناس ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيزين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره. وقد أخبر- تعالى- في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادت طغياناً ورهقاً. فقال حكاية عن مؤمني الجن. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي طغياناً وإثماً وشرّاً يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاضم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات» وهو ﷺ لا يستعيز بمخلوق أبداً.

ونظير ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وبِعِفْوِكَ من عقوبتك» فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق (٢) . . .

(٢) قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿أَهْبِطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] وكلا الخطابين لأبوي الثقلين،

(١) ٢٠٣ بدائع جـ٢. (٢) تنمة البحث في تفسير سورة الفلق نقلاً عن البدائع (ج).

(٣) ٣٧ مفتاح جـ١.

وهو دليل على أن الجن مأمورون منيئون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس كما لا خلاف بينهم أن مسيئتهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحى ذريته خاصة. وحكى هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

واحتج الأولون بوجوه. أحدها هذه الآية فإنه - سبحانه - أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى. وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط.

ولا خلاف أن مؤمنهم لا يعاقبون لأننا نقول لو لم تدل الآية إلا على أمر عديم فقط لم يكن مدحاً لمؤمنى الإنس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عديم وهو عدم الخوف والحزن.

ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفى الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره - سبحانه - أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفى ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفى غاية المكروهات أولى.

الثانى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ

الْيَمِ ﴿الأحقاف: ٢٩ - ٣١﴾. فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخباراً مقررأً أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلأً بقوله: ﴿وَيُجْرُكُمْ مِنْ عَذَابِ الْيَمِ﴾ بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

الثالث قوله - تعالى - في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل على أن مؤمنهم يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع قوله - تعالى -: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهأً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴿[البقرة: ٢٥-٢٤] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ فكما دخل كافرهم في الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولى.

الخامس قوله عن صالحهم. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذي يهدي إليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس قوله - تعالى -: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. عم - سبحانه - بالدعوة وخص بالهداية المفضية إليها فمن

هداه إليها فهو ممن دعاء إليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها .

الثامن قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّيُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢] . وهذا عام في الجن والإنس ، فأخبرهم - تعالى - أن لكلهم

درجات من عمله فاقضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس .

التاسع قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] .

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة . أحدها عموم الاسم الموصول فيها .

الثاني ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها ، وهو قول : ربنا الله ، مع الاستقامة ، والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتباً على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتى ذلك استحق الجزاء .

الثالث أنه قال : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة ، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين ، ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة .

العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله ، فدخل محسنهم الجنة بفضلهم ورحمته أولى ، فإن رحمته سبقت غضبه ، والفضل أغلب من العدل ، ولهذا لا يدخل

النار إلا من عمل أعمال أهل النار. وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط، بل ينشيء لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه، ويرفع بها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه بخلاف أهل النار، فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم، وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

(١) الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجن.

وقد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين: وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى. وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً. ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة. ثم قيل في إعراب الآية ﴿وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ﴾ [الجن: ١١] قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وكقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي فريق سماعون، وكقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] أي فريق يحرفون، وكقوله على أظهر القولين: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٦] أي فريق يودّ أحدهم، وقال الشاعر:

فظلوا ومنهم دمه سابق لهم وآخر يذري دمه العين بالهل

أي ومنهم من دمه. وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم:

﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن: ١١] أي كنا ذوي طرائق - وهي المذاهب - واحدها طريقة وهي المذهب، والقدر جمع قدة، كقطعة وقطع وزنا ومعنى. وهي من القد وهو القطع.

وقيل: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة في اختلافها، وعلى هذا فالمعنى: كنا طرائق قدداً وليس بشيء.

وأضعف منه قول من قال: إن طرائق منصوب على الظرف، أي كنا في طرق مختلفة كقوله: غسل الطريق الثعلب. وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام. وقيل: المعنى كانت طرائقنا طرائق قدداً، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

وقال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿وَأَقْصُوا إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥].

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

وهذا كما قسّم - سبحانه - بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم. ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف آخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ويقولون:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ إِلَى قَوْلِهِ مُنْذِرِينَ﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رِسْلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يامعشر العرب والعجم، فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وليس في كل سماء قمر وقوله تعالى: ﴿وَلَوْأ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْأ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل على أنه لم يرسل جنياً ولا امرأة ولا بدوياً.

وأما تسميته تعالى الجن رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.

(فصل) وقد اتفق المسلمون على أن كفر الجن في النار، وقد دلَّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] الآية فلمؤها منه به وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿حَطَبًا﴾

[الجن: ١٤، ١٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال الله تعالى: ﴿فَكَبُكِبُوا فِيهَا هَمًّا وَغُلُوبًا وَجُؤُدًا يُبْلِغُونَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومهم. وبالجملته فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمداً ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته، كما يجب على الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ فقله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن رداً منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلى معصية الله، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلى النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي «واثبورا» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون «واثبورا هم»، حتى قيل: إن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

(فصل) وأما حكم مؤمنهم في الدار الآخرة: فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة. وترجم على ذلك البخاري في صحيحه^(١) فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم) لقله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. بخساً نقصاً.

قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِيبًا﴾ [الصفات: ١٥٨] قال كفار قريش:

الملائكة بنات الله ، وأمهاتهم بنات سروات الجن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتْ
الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨] ستحضر للحساب . ثم ذكر حديث
أبي سعيد « إذا كنت في غنمك أو باديته فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ،
فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ،
سمعتة من رسول الله ﷺ . هذا ما ذكره في الباب .

وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنهم في الجنة . وحكي عن أبي حنيفة وغيره
أن ثوابهم نجاتهم من النار . واحتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ ياقومنا أجيئوا
دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فجعل غاية ثوابهم إيجارهم من العذاب الأليم .
وأما الجمهور فقالوا : مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار . ثم اختلفوا
فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه . وقال سهل بن عبد الله : يكونون في
ربض الجنة ، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم .
فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة .

وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس : هل هم مكلفون بالأمر والنهي ، أم
هم مضطرون على أفعالهم ؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب
(المقالات) له فقال : واختلف الناس في الجن ، هل هم مكلفون ، أم مضطرون ؟
فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : هم مأمورون منهيون ، وقد أمروا ونهوا ، وهم
مختارون . وزعم زاعمون أنهم مضطرون .

قلت : الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون
بالشريعة الإسلامية . وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر . فإضافة
هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال : ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان ،
ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام .

وقال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من
حق عليه القول أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر ، ولا يكون ذلك إلا في أهل
التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم .

ثم قال بعد ذلك ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جداً في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئتهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر. وقال الله تعالى: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْءَاءَ فَرِيئَاتٍ هُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية. ومعنى الآية: أن الله قىض للمشركين - أي سبب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آبائهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد. وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء: نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع

أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويدبحون لهم وبأسائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين - : ﴿أَهْلَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠، ٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون: في القيامة: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. وما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴿ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢] فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

(أحدها) أن الله - سبحانه وتعالى - صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(الثاني) أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع) أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَا قَوْمُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس) أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

(السادس) أنهم قالوا: ﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

(السابع) أنهم قالوا: ﴿وَيَجْرُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

(الثامن) أنهم قالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢] وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدین بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدین بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضاً.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة. وأيضاً قال - تعالى - عن نبيه سليمان: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزْغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْرُهُ مَنْ عَذَابُ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿لَجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بكرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بها. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل.

ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمن، فإنه - سبحانه وتعالى - ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ* وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام.

ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت على آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب

فلك الحمد» وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاءها، وجميعة الآخرة والجزء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء. وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] فيها قولان:

أحدهما إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً - أي أن تعلموا ما فيها - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

الثاني إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقد رتب أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] قال مجاهد: فارين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣] وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بداه الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ

السموات والأرض فانفذوا﴾ أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها ﴿سَنفِرُ﴾ [الرحمن: ٣١] الآية وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] وهذا في الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقل إن استطعتم. لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً. وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم.

وحسن الخطاب بالثنية في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ أمر آخر. وهو موافقة رءوس الآي، فاتصلت الثنية بالثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩] فأضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنها سويّاً في التكليف. واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

فصل فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار.

وقد دل على ذلك قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ [الجن: ١٣] الآية. وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته.

وأيضاً فقد قال - تعالى - في سورة الرحمن: ﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنة إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله، أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنى ولم يخاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني أن المعنى ولم يخاف مقام ربه عليه وإطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وأن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدهما: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وبالיום الآخر، فإذا

خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم . كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم ، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته . وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] . وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن .

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا لمن يؤمن ببلقائه وبالיום الآخر والبعث بعد الموت . وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين ، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل ، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل .

وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه ، فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه .

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل .

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران ، فمن أين رجحتم أحدهما؟

قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة ، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت .

وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد وإطلاعه عليه وعلمه به : مقام الله ، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب .

وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء : ٧٩] وقوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان : ٢٥ ، ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ [مريم : ٧٣] . والمقصود أن قوله تعالى : ﴿وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن : ٤٦] يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان .

(الثالث) قوله عقيب هذا الوعد ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(الرابع) أنه ذكر في وصف نسائهم أنهم : ﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن : ٧٤] وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إانس قبلهم ، ولا نساء الجن جن قبلهم . ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف : ٣٠ ، ٣١] وأمثال هذه من العمومات .

وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم ، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد . ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد ، فإن الوعد فضله والوعيد عدله ، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه .

وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار ، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه . وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه ، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد ، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار .

وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم ، وأنهم مكلفون باتباعه ، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم ، لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء : ٦٩] .

وقد أخبر - سبحانه - عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتُهُمْ﴾ [غافر: ٧، ٨].
فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم.

وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول. وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم.

فهذا ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط. وهم درجات عند الله.

والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما في الدرجة.
قال - تعالى -: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الصفات: ٢٢]. قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ أشباههم ونظراءهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار. وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني. وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

وفي الآية ثلاثة أقوال آخر: أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردّها إليها. الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها. الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين، وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. ، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجن

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سئل عن مسألة فقال: لا أدري، ف قيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقیل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك. وقال: لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهايني انتهيت. قال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل، ولا يجب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا؟

وكان رحمه الله إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار. وقال عطاء بن أبي رباح: أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليرعد. وسئل النبي ﷺ: أي البلاد شر؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل جبريل». فسأله فقال: أسواقها. وقال الإمام أحمد: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تلجىء الضرورة. وسئل الشعبي عن مسألة، قال: لا أدري، ف قيل: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال بعض أهل العلم: تعلم: لا أدري، فإنك إن قلت: لا أدري علموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوكم حتى لا تدري. وقال عتبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً، فكان كثيراً ما يسأل فيقول: لا أدري.

وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئاً إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني . . .

(١) وناشئة الليل أول ساعاته . قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل . والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة، بعد ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى . وقال أبو عبيدة ناشئة الليل ساعاته وأناؤه ناشئة بعد ناشئة . قال الزجاج: ناشئة الليل كلما نشأ منه أي حدث منه فهو ناشئة . قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت . والمعنى أن ساعات الليل الناشئة . وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء . وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل: أوله . وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة .

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدي وابن الزبير وابن عباس في رواية قال ابن أبي مليكة سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة . فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زماناً . وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل . وقال آخرون: منهم عائشة إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة ناشئة الليل القيام بعد النوم، وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك الناشئة، ومنه ناشئة الليل فعلى قول الأولين ناشئة الليل بمعنى (من) إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في) أي طاعة ناشئة فيه . والمقصود أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى .

(١) قال الله - تعالى - : ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ [الزمل: ٨].
 و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من التبتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلاً» كالتعلم والفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتيلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

(٢) وأما في سورة (الزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارك والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه. ثم قال: ﴿إِنَّا لِقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]. أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني.

وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى]، كما في قوله:

﴿وما نحن بمسبوقين على أن نبذل أمثالكم﴾ [الواقعة: ٦٠] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ[على]، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

(١) قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول﴾ فأخذناه أخذاً وبِئلاً [المزمل: ١٥، ١٦] فأخبر سبحانه أنه أرسل محمداً ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذاً وبِئلاً، فهكذا من عصى منكم محمداً ﷺ، وهذا في القرآن كثير جداً فقد فتح لك بابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المزمل
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب

المرتبة الأولى: النبوة. **الثانية:** إنذار عشيرته الأقربين. **الثالثة:** إنذار قومه. **الرابعة:** إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله. وهم العرب قاطبة. **الخامسة:** إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

فصل وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثم نزل عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرة. **بالمهجرتين.**

(٢) **ترتيب** سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بُعث إلى حين لقي الله - عز وجل - أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أول نبوته. فأمره أن يقرأه في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . .

(٣) **فصل** في مبعثه ﷺ، وأول ما نزل عليه: بعثه الله على رأس أربعين، وهي سن الكمال. وقيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح: أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة: ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة والله أعلم. ثم أكرمه الله - تعالى - بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه. فأول ما أنزل عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور. وقال جابر: «أول ما أنزل عليه يا أيها المدثر» والصحيح قول عائشة، لوجوه.

أحدها: أن قوله «ما أنا بقارىء» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً. **الثاني:** الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإندار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً ثم بالإندار بما قرأه ثانياً.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله «أول ما أنزل من القرآن (يا أيها المدثر)» قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر - الذي احتج به - صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً، قبل نزول (يا أيها المدثر) فإنه قال: «فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي، فقلت: زملوني، دثروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. وقد أخبر: أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فدل حديث جابر على تأخر نزول (يا أيها المدثر) والحجة في روايته، لا في رأيه والله أعلم.

(١) أكمل الخلق عند الله عز وجل: من كَمَّل مراتب الجهاد كلها. والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله. فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده. وشرع في الجهاد من حين بُعث إلى أن توفاه الله عز وجل. فإنه لما نَزَلَ الله عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكْبَرُ * وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤] شَمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً

ونهاراً، وسراً وجهاراً. ولما نزل عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [الحجر: ٩٤] فصَدَعَ بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس...

^(١) **وسئل** ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ فقال: «وآدم بين الروح والجسد» صححه الترمذي. وسئل ﷺ: كيف كان بدء أمرك؟ فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأيت أنه خرج منها نور أضاءت له قُصُور الشام» ذكره أحمد.

وسأله ﷺ أبوهريرة: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من النبوة؟ قال: «إني لفي الصحراء ابن عشرين سنة وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجهه لم أرها لأحد قط، وأرواح لم أجد لها خلق قط وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضُدي لا أجد لأخذهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هَصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فحوى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العَلَقَة ثم نبذها فطرحها، ثم قال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هزَّ إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدُ سليماً، فرجعت بها رقة على الصغير ورحمة على الكبير» ذكره أحمد.

^(٢) **فلما** كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه وبين عباده. ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان ماضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان. واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قالوا: أول ما أكرمه الله - تعالى - بنبوته أنزل عليه القرآن . وإلى هذا ذهب جماعة ، منهم يحيى الصّرصري ، حيث يقول في نونيته :

وأنت عليه أربعون ، فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة ، في ليلة القدر ، إلى بيت العزة ، ثم أنزل منجماً - بحسب الوقائع - في ثلاث وعشرين سنة . وقالت طائفة: «أنزل فيه القرآن» أي : في شأنه وتعظيمه وفرض صومه . وقيل : كان ابتداء المبعث في شهر رجب . وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة .
إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

المرتبة الثانية : ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه ، من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : «إن روح القدس نفث في روعي : أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله . فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» .

المرتبة الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له . وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيتلبس به الملك ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك ، وفخذه على فخذه زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترُضُّها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السموات ليلة المعراج : من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه ، بلا واسطة ملك ، كما كلم الله موسى بن

عمران . وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثوبتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة ، وهي تكليم الله له كفاً من غير حجاب . وهذا على مذهب من يقول : إنه ﷺ رأى ربه - تبارك وتعالى - وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف ، وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم - مع عائشة ، كما حكاها عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة .

وقال تعالى : ﴿وَيَا بَنِي إِدْرِسَ أَطَهَّرْ﴾ [المدثر: ٤] . قال قتادة ومجاهد : نفسك فطهر من الذنب . فكنتي عن النفس بالثوب . وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك ، والشعبي ، والزهري ، والمحققين من أهل التفسير . قال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا غدر . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي :

وإني - بحمد الله - لا ثوبَ غادرٍ لبستُ . ولا مِن غَدْرَةٍ أتَقَنعُ

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء : طاهر الثياب . وتقول للغادر والفاجر : دنس الثياب . وقال أبي بن كعب : لا تلبسها على الغدر ، والظلم والإثم . ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر .

وقال الضحاك : عملك فأصلح . قال السدي : يقال للرجل ، إذا كان صالحاً : إنه لطاهر الثياب . وإذا كان فاجراً : إنه لخبث الثياب . وقال سعيد بن جبير : وقلبك وبيتك فطهر . وقال الحسن والقرطبي : وخلقك فحسن . وقال ابن سيرين وابن زيد : أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها . لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ، ولا يطهرون ثيابهم . وقال طاوس : وثيابك فقصر . لأن تقصير الثياب طهرة لها . والقول الأول : أصح الأقوال .

ولاريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به ، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق . لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن . ولذلك أمر القائم بين يدي الله - عز وجل - بإزالتها والبعد عنها .

والمقصود : أن « السور » يطهر دنس القلب ونجاسته . كما يطهر الماء دنس

الثوب ونجاسته . وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة . ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله . ويؤثر كل منهما في الآخر . ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب ، وجلود السباع ، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع . وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي . يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودينسها ورائحتها ، وبهجتها وكسفتها ، حتى إن ثوب البرلي يعرف من ثوب الفاجر ، وليسا عليهما . **وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة . فقال : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** فهذا يعم الترك لما لا يعني : من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة . فهذه الكلمة كافية شافية في الورع .

قال إبراهيم بن أدهم : الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعينك هو ترك الفضلات . وفي الترمذي مرفوعاً إلى النبي ﷺ : «يا أبا هريرة ! كن ورعاً تكن أعبد الناس» .

(١) الباب التاسع

في طهارة القلب من أدرانته وأنجاسه

هذا الباب ، وإن كان داخلاً فيما قبله ، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة ، ولكننا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته ، وشدة الحاجة إليها ، ودلالة القرآن والسنة عليها . قال الله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكَبَّرُ * وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١-٤] . وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١] . وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب ، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق .

قال الواحدي : اختلف المفسرون في معناه ، فروى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : «يعني من الإثم ، وما كانت الجاهلية تحبزه» . وهذا قول قتادة ومجاهد ، قالوا «نفسك فطهرها من الذنب» ونحوه قول الشعبي وإبراهيم

والضحاك والزُّهري . وعلى هذا القول : « الثياب » عبارة عن النفس ، والعرب تَكْنِي بالثياب عن النفس . ومنه قول الشَّخَّاح :

رموها بأثواب خفاف ، فلا ترى لها شَبَها إلا النعام المنفرا
رموها يعني الركاب ^(١) بأبدانهم . وقال عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنى بمحرّم
يعني نفسه .

وقال في رواية الكلبي : يعني لا تغدر ، فتكون غادراً دنس الثياب ، وقال سعيد بن جبير : « كان الرجل إذا كان غادراً قيل : دنس الثياب ، وخبيث الثياب » . وقال عكرمة : « لا تلبس ثوبك على معصية ، ولا على فُجْرة » وروي ذلك عن ابن عباس ، واحتج بقول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ، ولا من خزية أتقنع ^(٢)
وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية : « وعملك فأصلح » وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق ، وقال السُّدي : « يقال للرجل إذا كان صالحاً : إنه لطاهر الثياب ، وإذا كان فاجراً : إنه لخبيث الثياب » قال الشاعر :

لَا هُمْ إِنْ عَامَرَ بَنَ جَهْمٍ أَوْ ذَمَّ حَجًّا فِي ثِيَابٍ دُسْمٍ ^(٣)
يعني أنه متدنس بالخطايا ، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب ، قال امرؤ القيس :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارِي نَقِيَّة

يريد أنهم لا يغدرون ، بل يفون ، وقال الحسن : « خُلِّقَ فحسنة » ، وهذا قول القرطبي ، وعلى هذا : الثياب عبارة عن الخلق ، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتغال ثيابه على نفسه .

(١) وفي نسخة « يغني الإبل » .

(٢) الذي في تفسير ابن جرير : « ولا من عذرة أتصنع » وسمى الشاعر : غيلان بن سلمة .

(٣) أو ذم الحج : أوجه على نفسه . والدسم : جمع دسم ، أي دنس . يقول : أحرم بالحج وهو متلطف بالذنوب .

وروي العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب» والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه، وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك. ونيتك فطهر» وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فَسُلِّيْ ثِيَابِيْ مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِيْ

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد. وذكر أبو إسحاق: «وثيابك فقصر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤْمَنَ أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة: «معناه: نساءك طهرهن» وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا حَفْصٍ رَسُولًا فِدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثَقِةً: إِزَارِي
أَيَّ أَهْلِي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة، «لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَرْزَانًا» أي نساءنا.

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يُكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسُّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابس الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى

أن يكون مأموراً به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتركية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

^(١) وكذلك إخباره - سبحانه - بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أخوفكم محمدٌ بتسعة عشر، وأنتم الدُّهُمُ، أفيعجزُ كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يامعشر قريش، إذا كان يومُ القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة. فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة.

^(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]. أخبر الله - سبحانه - عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر - سبحانه - خمس حكم: فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم. وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به. وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع ، إن رجعا إلى شيء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقراً لليقين ومؤكداً له ، وناشئاً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به . لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ ، ظهرت فائدة ذكره . والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته . . .

قوله - تعالى - : ﴿كَلَّا وَالْقَمَرُ * وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٧] . أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ، ما هو معلوم بالمشاهدة .

وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته .

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه في سلطانه ، ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر .

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ، ولا تنتهي إلى مبادئها أوهامهم . فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ، ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت أجاثهم، ومدائنتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

وقد ذكر - سبحانه - ذلك في ثلاث آيات من كتابه. أحدها قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَانْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]. فلولما ما يحدثه الله - سبحانه - في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانها لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، مدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكناً إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الأحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطراباً واختلافاً، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس. فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق

بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائماً لا يفتر، مسيراً، مسخراً، مدبراً، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئاً فشيئاً، ثم عوده إليه كذلك. وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف. علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له. كما يشاء. وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون. وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي إلى ضده. وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل.

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه. كما يرى عباد الكواكب انتشارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره. كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد عبادته تسحقه وتمحقه. والريح تمرقه وتذروه وتنسفه في اليم. وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرؤوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل، التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام. وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يُرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ [الأنفال: ٤٢]. ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شيء ما خلا الله باطل
ولو شاء - تعالى - لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغير في

الشمس. ولو شاء لغيرهما معاً، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة. ولكن يُرى عباده آياته في أنواع تصاريدها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

فصل

وأما إقسامه - سبحانه - بـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(١). فهو معاد جديد بداه وأعاده الذي يبدى ويعيد. فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار.

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كئيب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره. فيالها آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته. فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار. فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمورهم؟ والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه؟ وأي ثمار ونبات

(١) روى البخاري في صحيحه في باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن حذيفة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

وحیوان كان یوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحیوان والنبات؟ ولولا غروبها لم یكن للناس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجوم حواسهم. فلولاً جثوم هذا اللیل علیهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمین سكناً ولباساً، كما جعل النهار ضیاءً ومعاشاً.

ولولا اللیل وبرده لا حترقت أبدان النبات والحیوان من دوام شروق الشمس علیها، وكان یحرق ما علیها من نبات وحیوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمین أن جعلها سراجاً یطلع على العالم فی وقت حاجتهم إلیه، ویغیب فی وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغیبه لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونین متضافرین على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى یوم القيامة، واللیل سرمداً إلى یوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغیر ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حکمته - سبحانه - فی ارتفاع الشمس، وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما فی ذلك من مصالح الخلق. ففي الشتاء تغور الحرارة فی الشجر والنبات، فیتولد منها مواد الثمار، ویکثف الهواء، فینشأ منه السحاب، وینعقد فیحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحیوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف یخرم الهواء، فینضج الثمار، وتشتد الحبوب، ویجفف وجه الأرض، فیتهیأ العمل. وفي الخریف یصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ویمتد اللیل، وتستریح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بین الحملین؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغیبي.

والمقصود أن بحركة هذین النیرین تتم مصالح العالم، وبذلك یظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سیر الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها. والسنة القمرية مقدرة بسیر القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس فی العلم به، وقدر أحكم الحاكمین تنقلهما فی منازلهما، لما فی ذلك من تمام الحکمة ولطف التدبیر. فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب فی موضع واحد لا

تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله - سبحانه - طلوعها دولاً بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها. واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة.

فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح، ولو استويا دائماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان. فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر - سبحانه - هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال - تعالى -: ﴿وَأَيُّهُ لُحْمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِلنَّاسِ لِيْنٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين. وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره، وعلمه بالمغيبات.

فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي : القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته. فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف - سبحانه - الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان. فأبى الظالمون إلا كفورا ﴿واخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقُونَ ولا يملِكُونَ لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً﴾ [الفرقان: ٣].

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداة واتباع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين: (الأولى): ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود. (الثانية): ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿الَّذِينَ

يُقيمُونَ الصلاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ [الأنفال: ٣]. وقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].
 وقرن - سبحانه - بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه: فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب (اليمن) الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم وبقينهم وكلامهم. واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم، فالأول عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم. والله المستعان وعليه التكلان.

(١) فصل

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة؛ فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقر به منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة، تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

(٢) **والقصد:** أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة. ماهو إلا مراحل تطوى أسرع طيًّا إلى الجنة أو إلى النار، فمسرّع ومبطىء. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف البتة. وإنما يتخالفون في جهة المسير. وفي السرعة والبطء: ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لا بد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه، ويعددها للسير: فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة».

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه . فإن أجابه أخره ولا بد . فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ، نهض نهضة الغضبان الأسف على الانقطاع . ووثب وهجز واشتد سعيًا ليلحق الركب . وإن استمر مع داعي التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعي الهوى ، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا . وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض . فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله - سبحانه وتعالى - هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه ، وتخليصه . وإلا فهو في تأخر إلى الممات . راجع القهقري ، ناكص على عقبيه ، أو مول ظهره . ولا قوة إلا بالله . والمعصوم من عصمه الله .

^(١) **الدليل الثاني** قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧] فلا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر وجعلهم من المجرمين أو مجموعها . فإن كان كل واحد منها مستقلاً بذلك فالدلالة ظاهرة ، وإن كان مجموع الأمور الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم ، وإلا فكل واحد منها مقتض للعقوبة ، إذ لا يجوز أن يضم مالا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها .

ومن المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر معه ليس شرطاً في العقوبة على التكذيب بيوم الدين ، بل هو وحده كاف في العقوبة . فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك ، إذ لا يمكن قائلًا أن يقول : لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة ، فإذا كان كل واحد منها موجباً للإجرام - وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين - كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر .

وقد قال : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧-٤٨] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا

من الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَحُونَ ﴿٢٩﴾ [المطففين: ٢٩]. فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين.

^(١) ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ وَلَمْ نَكُ نَطْعَمِ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فذكروا الأصليين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات فهذان الأصلان هما ما هما، والله ولي التوفيق.

^(٢) قوله - تعالى - في تشبيه مَنْ أَعْرَضَ عَنْ كَلَامِهِ وَتَدَبَّرَهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥١] شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحُمُرٍ رأت الأسد أو الرُماة ففرّت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحُمُر، وهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عن ما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضاً وَخَضَّهَ عَلَى النَفُورِ، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد فكأنها تواصلت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور بآسسه وشدته.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢] فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو - سبحانه - يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها بأبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتهما، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد. **فأقسم** سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً.

واختلف في النفس المقسم بها ههنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة. فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً. ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته، واختاره الفراء. قال: ليس من نفس، برة ولا فاجرة، إلا وهي تلوم نفسها. إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت خيراً؟ وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني، أنها خاصة، قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وأن المؤمن - والله - لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة، لأنه يستقصيها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدماً، لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: أنها النفس الكافرة وحدها، قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا^(١): والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً. فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره. ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق؟» فحج آدم موسى فهو - سبحانه - يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]. وعلى جزائها كقوله: ﴿فَورَبِّكَ لَسَأَلَنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها كقوله: ﴿إِنْ سَعَيْكُمْ لَشِئْنٌ﴾ [الليل: ٤]. وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاققتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه. ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -.

بدونه البتة ، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

^(١) **قال** ابن عبد البر: هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له مما سبق في علم الله، وليس فيه حجة للجبرية وإن كان في بادئ الرأي يساعدهم، وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء، قال الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأنه صريح في إثبات القدر السابق وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى، وقد أطال الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبد البر: هذا مخصوص بآدم، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه، قال - تعالى -: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لومه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني، فإن الأمة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية.

^(٢) **قوله** - تعالى -: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]. وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسماً عليه معيناً. فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسماً بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

^(٣) **وقع** في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمِئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾

[القيامة: ١-٢] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأُمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبه والإجابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . . .

(١) أما اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والستردد، أو هي من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللوؤم». وقال مجاهد: «هي التي تُنذِم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة» وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر» وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته». وقال الحسن: «إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر لِيَمْضِي قُدْماً لا يعاتب نفسه». . . فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما من جعلها من التلوم فلكثر ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقليل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها

واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «الكَيْس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» دان نفسه : أي حاسبها .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا ، وحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توتنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» .

وذكر أيضاً عن الحسن قال : لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه : وماذا أردت تعملين؟ وماذا أردت تأكلين؟ وماذا أردت تشربين ، والفاجر يمضي قُدماً لا يحاسب نفسه» .

(١) فصل

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها - سبحانه - في قوله : ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة : ٢] . فاختلف فيها فقالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة ، أخذوا اللفظة من التلوم ، وهو التردد ، فهي كثيرة التقلب والتلون ، وهي من أعظم آيات الله ، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب ، وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام ، والعمر ألواناً متلونة ، فتذكر ، وتغفل ، وتقبل ، وتعرض ، وتلطف ، وتكشف ، وتنيب ، وتجفو ، وتحب ، وتبغض ، وتفرح ، وتحزن ، وترضى ، وتغضب ، وتطيع ، وتعصي ، وتتقي ، وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول .

وقالت طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا ، فقالت فرقة : هي نفس المؤمن ، وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصري : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول : ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى ، أو نحو هذا من الكلام .

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته. وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل أحد يلوم نفسه براً كان أو فاجراً فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته وإن كان محسناً على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لومة. لكن اللومة نوعان: لومة ملومة وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملأكته، ولومة غير ملومة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم. فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوم، فهي التي يلومها الله عز وجل^(١).

^(٢) ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانته وظنه: أن الله لا يجمع عظامه بعد مافرقها البلى. ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه. وعلى هذا فيكون - سبحانه - قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه. وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور. والمعنى: بل نجتمعها قادرين على تسوية بنانه. ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلَّت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرام، قيل: إنا

(١) تقدم البحث في سورة يوسف في الكلام على النفس الأمانة (ج). (٢) ٩٣ التبيان.

نجمع ونسوي أكثرها تفرقاً، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأني لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين. والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها. ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو اذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسبق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سبق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت. ويرجح القول الثاني - ولعله قول جمهور المفسرين، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره - وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد. وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها. ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

ثم أخبر - سبحانه - عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حياً، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا

يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه - سبحانه - على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعاداً لزمته مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدما قدما في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بها أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦] ويرجع هذا القول لفظة (بل) فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو يريد التكذيب به، ويرجحه أيضاً أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾. فأنكر - سبحانه - عليه حسابه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة. فالأول حسبان منه لا يحويه بعد موته، والثاني تكذيب منه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب بها وضح وبان دليل وقوعه وثبوته فهو يريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦]. فالأول إرادة التكذيب، والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به. وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بها أمامه. وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبيينة.

فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظاً وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار. ومن تدبر هذا وجده كثيراً في كلام الله تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظاً واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظاً ومعنى. والله أعلم.

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ الْمَفْرُ﴾ [القيامة: ٧-١٠] فبرق بصره أي يشخص بها يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحي، وجمع الشمس والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وآخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله. ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع الكاذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من منى يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق: إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة. فكيف (أنكر) هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع، والضم. وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين. وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها

همومها وغمومها، وإرادتها، واعتقاداتها. وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى، والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام وجوهم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة. وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان. فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق، ويقول الحاضرون: ﴿من راقٍ؟﴾ [القيامة: ٢٧]. أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي التمسوا له من يرقيه. والرقية آخر الطب.

وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقى: كرمى يرمى. وعى الثاني من رقى يرقى: كشقي يشقى. ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه (أحدها) أنه ليس كل ميت يقول حاضره. من يرقى بروحه وهذا إنما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر. (الثاني) أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله. (الثالث) أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه. (الرابع) أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد (من) نحو قوله: ﴿مَنْ ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية، فإنه يحسن فيه الأول. (الخامس) أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله - سبحانه - ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول، لأنه ليس الغرض متعلقًا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه

ويسمعونه . (السادس) أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال : من هو الراقى ، ومن الراقى ؟ ولا وجه للكلام غير ذلك ، كما يقال : من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث «من القائل كلمة كذا» . (السابع) أن كلمة من إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول : من الذي فعل كذا ، ومن ذا الذي قاله . فيعلم أن فاعلاً وقائلاً فعل وقال ، ولا يعلم تعيينه ، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقى بالروح إلى الله .

فإن قيل : بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما . قيل : هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن ، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع إلى تعيينه . ولا إلى العلم به . (الثامن) أن الآية إنما سيقّت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت ، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه ، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة . فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقاءه ، فطلبوا أسباباً خارجة عن المقدرو تستجلب بالرقى والدعوات ، فقالوا : من راق؟ أي من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك . والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء . (التاسع) أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد ، وهو أحد التقديرين في الآية ، أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال . فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجودالراقى ، كقوله : ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ [يس : ٧٨] أي لا أحد يحييها ، وقد صارت إلى هذه الحال . فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى ، وإن أريد بها الطلب استحال أيضاً أن يكون منه . وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار . وحينئذ فتقول في (الوجه العاشر) إنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد ، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقى لما بيناه . والله أعلم .

^(١) وفي الصحيحين من حديث أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتها وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتها وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيب لأهلك فزات طيباً على ما كانت، وما من يوم كان عيداً في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه، وتسفي عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم - تبارك وتعالى - شيئاً إلا أعطاهم، فيرجعوه إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً. وقال عبد بن حميد: أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر [إلى] خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» ثم تلا هذه الآية: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - رفعه [إلى] النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة إذا بلغ منهم النعيم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلّى لهم الربُّ - تبارك وتعالى - فنظروا إلى وجه الرحمن فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن». وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: حسنها الله - تعالى - بالنظر إليه - سبحانه - وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها - عز وجل -: قال أبو سليمان الداراني: لو لم يكن لأهل المحبة أو قال المعرفة إلا هذه الآية: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] لاكتفوا بها ^(٢).

(١) ٤٥٢ روضة المحبين.

(٢) ذكر المؤلف - رحمه الله - آثاراً كثيرة في هذا الكتاب وغيره اكتفينا بما ذكرناه اختصاراً (ج).

﴿ومن أسرار هذه السورة أنه - سبحانه - جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه. فلا أجمل لبواطنهم. ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه، وتحسينه، وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ [الإنسان: ١١].

ونظيره قوله: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا جمال الظاهر وزينته ثم قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ فهذا جمال الباطن. ونظيره قوله: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ [الصفات: ٦، ٧] فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ل يوسف ﴿اخرج عليهن فلما رأيته أكبرته وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمثني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ [يوسف: ٣٠-٣١]. فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهراً وباطناً، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعري وأنك لا تظلم فيها ولا تصحى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ، وهو حر الباطن، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [البقرة: ١٩٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن العنوي. فهذا زاد سفر الدنيا. وهذا زاد سفر الآخرة. ويلم به قوله هود: ﴿يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ [هود: ٥٢]. فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم. ويشبهه قوله: ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ [الطارق: ١٠] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج، وهو الناصر.

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ [القيامة: ٤] فأخبر أنه قادر عليه، ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأسكنناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب. فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

وأصرح من هذين الموضعين قوله - تعالى -: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك» ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لا بد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عامًّا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا. وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الأخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على ما لا يريده، وقد صرح - سبحانه - بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هذاه﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابس مطلقًا خطأ. والله أعلم.

ومن أسرارها أنها تضمنت التأي والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله - تعالى - هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿وكذلك أنزلناه قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يَقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿طه: ١١٣، ١١٤﴾. والثالث قوله: ﴿سَنُقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإثارة لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه وتولييه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبة العاجلة، والرب - سبحانه - وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعالجه بل يمهل، ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمى، ثم علقه، ثم خلقاً سوياً، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره. بل كن خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدرج وأناة ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل. وهذا أحد القولين، لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإن الله - سبحانه - أنكر على من حسب أنه يترك سدى: فلا يؤمر، ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب. ولم ينف - سبحانه - ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفى منكر على من حكم

به وظنه . ثم استدل - سبحانه - على فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طوراً بعد طور حتى بلغ نهايته، يأبى أن يتركه سدى، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العيب والنقص .

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى : ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٦] فجعل كمال ملكه، وكونه - سبحانه - الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه، مبطلاً لذلك الظن الباطل، والحكم للكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو منزّه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق : من اتخاذ الولد، والشريك، ونحو ذلك، مما ينكره - سبحانه - على من حسبه أشد الإنكار. فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس .

ولو كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك : ﴿ألم يك نُفُفَةً﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخره، مما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافراً بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال. كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه، فإنه آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهى، ولا ترفع إليه الأيدي . ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين .

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضياً لصفات كماله من علمه ، وسمعه وبصره ، وقدرته ، وإرادته ، ورحمته ، وفعله ما يشاء . واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي ، وقيامه بمصالحه . وحفظه له ، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم ، وإن أقر بذلك ألحد في أسماؤه ، وعطل حقائقها ، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها ، وبالله التوفيق .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القيامة
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الخامس والثلاثون أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه - سبحانه وتعالى - في كل من خانه في أمر من الأمور ، فإنه يفسده عليه . وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأي . وسمعت رجلاً يقول لشيخنا : إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو قال نسيه ، فقال الشيخ : هكذا من خان الله [تعالى] ورسوله في مسائل العلم .

السادس والثلاثون أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده ، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده ، وقد أشار الله - تعالى - إلى هذا في قوله - تعالى - : ﴿ وَجْزَاهُمْ بِمَ صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك نعمة الحرير وسعة الجنة . وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - في هذه الآية : جزاهم بما صبروا عن الشهوات

(٢) وقد تقدم الكلام على - قوله تعالى - : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٥ ، ٦] وعلى قوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٧ ، ١٨] فقالت فرقة : سلسبيلاً جملة مركبة من فعل وفاعل وسبيلاً منصوب على المفعول أي سل سبيلاً إليها ، وليس هذا بشيء ، وإنما السلسبيل كلمة مفردة وهي اسم للعين نفسها باعتبار صفتها .

ولقد شفى قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة ، فقال قتادة سلسلة فهم يصرفونها حيث شاءوا وهذا من الاشتقاق الأكبر . وقال مجاهد : سلسلة السيل حديدة

الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة جريتها. وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسيل صفة لما كان في غاية السلاسة فسميت العين بذلك. وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسيل أنه صفة للماء، وليس باسم للعين. واحتج على ذلك بحجتين:

إحدهما أن سلسيلاً مصروف ولو كان اسماً للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية.

الثانية أن ابن عباس قال: معناه أنها تنسل في حلوقهم انسلاً.

قلت: ولا حجة له في واحدة منهما، أما الصرف فلاقتضاء رءوس الآي له كنظائره؛ وأما قول ابن عباس فإنما يدل على أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلاطة والسهولة.

فقد تضمنت هذه النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر.

فإن قيل: فأين يشوي اللحم وليس في الجنة نار؟.

فقد أجاب عن هذا بعضهم بأنه يشوي بـ «كن». وأجاب آخرون بأنه يشوى خارج الجنة ثم يؤتى به إليهم.

والصواب أنه يشوى في الجنة بأسباب قدرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه كما قدر هناك أسباباً لإنضاج الثمر والطعام على أنه لا يمتنع أن يكون فيها نار تصلح لا تفسد شيئاً وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «مجامرهم الألوة» و(المجامر) جمع مجمر وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه (والألوة) العود المطري فأخبر أنهم يتجمرون به أي يتبخرون بإحراقه لتسطع لهم رائحته.

وقد أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالاً والظلال لا بد أن تفيء مما يقابلها فقال: ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾. وقال: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ وقال: ﴿وندخلهم ظللاً ظليلاً﴾ فالأطعمة والحلوى والتجمر تستدي

أسباباً تتم بها والله - سبحانه - خالق السبب والمسبب وهو رب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو.

وكذلك جعل لهم - سبحانه - أسباباً تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سبب إخراجه وذاك سبب إنضاجه.

وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحاً وجشاًءاً.

وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها ويجعل سبحانه أوراق الشجر ظلالها قرب الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم ما يخلقه في الدنيا والآخرة، والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله - سبحانه - على أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك على الإنكار والكفر، وذلك محض الجهل والظلم، وإلا فليست قدرته - سبحانه وتعالى - مقصورة عن أسباب آخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النشأة الأولى التي أنشأها الرب سبحانه - وتعالى - فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية لتي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب.

ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها.

ولعل إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهاراً في الجنة بأسباب آخر.

ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها أعجب من إنشائها هناك من أسباب آخر.

ولعل إخراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها على أنفسها القباب البيض والحمرة والصفرة أحكم بناء أعجب من إخراجها من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشئ منها.

ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أ حدود .

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلى التفكير فيها وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلمه ومشيتته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية .

ثم وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء على تلك ، شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد فبعداً لقوم لا يؤمنون .

(١) **قال تعالى:** ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧] وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي ، من حديث أبي سعيد الخدري قال : «أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرة زنجبيل ، فأطعم كل إنسان قطعة ، وأطعمني قطعة» .
الزنجبيل: حار في الثانية ، رطب في الأولى ، مسخن معين على هضم الطعام ملين للبطن تلييناً معتدلاً . نافع من سد الكبد العارض عن البرد والرطوبة ، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة : أكلا ، واكتحالا . معين على الجماع ، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة .

وبالجملة: فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج ، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل فضولاً لزجة لعابية ، ويقع في المعجونات التي تحلل البلغم وتذيبه ، والمزي منه : حار يابس يهيج الجماع ، ويزيد في المني ، ويسخن المعدة والكبد ، ويعين على الاستمرار ، وينشف البلغم الغالب على البدن ، ويزيد في الحفظ ويوافق برد الكبد والمعدة ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة ، ويطيب النكهة ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة .

(١) ذكر خدمهم وغلماهم

قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال - تعالى - : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾ [الإنسان: ١٩]. قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون. قال والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط: إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون: مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون: مقرطون بالخلة. وجمعها خلد وهي القرطة.

وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير مقرطون.

واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلا بد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنها أعجازهن رواكد الكشبان

وقال الأولون: الخلد هو البقاء قال ابن عباس غلمان لا يموتون، وقول ترجمان القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل. قالوا: لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين، وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة فمن قال مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنشور لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منشوراً فائدتان (إحداهما) الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثاني أن اللؤلؤ إذا كان منشوراً ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان

أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعاً في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء على قولين؟ فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدام أهل الجنة وولدانهم إذ الجنة لا أولاد فيها.

قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم بن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك ابن فضالة عن الحسن في قوله: ﴿وَلَدَانُ مُخْلَدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] قال لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها فوضعوا بهذا الموضع. ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين فجعلهم الله خدماً لأهل الجنة.

واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدام أهل الجنة» يعني الأطفال قال الدارقطني ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس وهذه الطرق ضعيفة. فيزيد: وإي وفضيل بن سليمان: متكلم فيه، وعبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف.

قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه وليس هو من لهوت. وأصحاب القول الأول لا يقولون إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها وإنما يقولون هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار» رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالخوارج العين خدماً لهم وغلماناً كما

قال تعالى: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدمين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم.

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وفيه يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون» والمكنون المستور المصون الذي لم تبذله الأيادي. وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم واعتبرتها بقوله: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ﴾ وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفاً علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدماً لأهلها والله أعلم.

^(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد «ملكاً كبيراً قال: عظيماً: وقال استئذان الملائكة عليهم لا تدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] يرسل إليهم ربهم الملائكة فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة.

وقال بعضهم الخدم ولا يدخل عليهم الملائكة إلا بإذن.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أنه ذكر مراكب أهل الجنة ثم تلا ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

وقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾. قال الملك الكبير أن رسول الله يأتيه بالتحفة واللفظ فلا يصل إليه حتى يستأذن له عليه فيقول للحاجب استأذن علي ولي الله، فإني لست أصل إليه، فيعلم ذلك الحاجب حاجباً آخر وحاجباً بعد حاجب، ومن داره إلى دار السلام باب يدخل منه على ربه إذا شاء بلا إذن، فالملك الكبير أن رسول رب العزة لا يدخل عليه إلا بإذن وهو يدخل على ربه بلا إذن.

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا صالح بن مالك حدثنا صالح المري حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك يرفعه: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم»...

(١) وقال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب «عاليهم» ورفعها على قراءتين.

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين.

واختلف المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك.

وكما قالوا هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا أفراد عال وجمع الثياب، لأن فاعلاً قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جبراني العشية رائح دعتهم دواع من هوى ومناوح

وقال تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجَرُونَ﴾.

ومن رفع خضراً أجراه صفة للثياب وهو الأقيس من وجوه: أحدها المطابقة بينهما في الجمع. الثاني موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١]. الثالث تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض.

وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضاً وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠] وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [الحاقة: ٧] فإذا

كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى . وفي استبرق قراءتان الرفع عطفًا على ثياب والجر عطفًا على سندس .
وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي ، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريباً فجعل البواطن بالشراب الطهور ، والسواعد بالأساور ، والأبدان بثياب الحرير .

(١) قاعدة

للعبء بين يدي الله موقفان : موقف بين يديه في الصلاة . وموقف بين يديه يوم لقائه ، فمن قام بحق الموقف الأول ، هون عليه الموقف الآخر ، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿ [الإنسان : ٢٦ - ٢٧] .

(٢) **قوله** تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان : ٢٨] قال ابن عباس : أي خلقهم ، وقال أبو عبيدة : الأسر . شدة الخلق يقال : فرس شديد الأسر . قال : وكل شيء شددته : من قتب أو غيره ، فهو مأسور . وقال المبرد : الأسر القوى كلها . وقال الليث : الأسر قوة المفاصل والأوصال . وشد الله أسر فلان ، أي قوى خلقه . وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر . وقال الحسن : شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض ، بالعروق والعصب

(٣) **وقال** في سورة الإنسان : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان : ٢٨] فهذه النشأة الأولى ثم قال : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٨] فهذه النشأة الأخرى . ونظير هذا ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴿ [النجم : ٤٥ - ٤٦] وهذا في القرآن كثير جداً ، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداها على الأخرى . وبالله التوفيق .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإنسان

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل^(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * والفارقات فرقأ * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع ﴿ [المرسلات: ١-٧] فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروایتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحات، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس. قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب، فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فأرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه. ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشيطان على الكفار.

فالإرسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف.

فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين. وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ وقوله: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ وقوله: ﴿يس

والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين ﴿١﴾ وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلى فلان عرف واحد، أي سابقون في قصده والتوجه إليه. جاز أن تكون المرسلات الرياح. ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات. وجاز أن تكون الملائكة. وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفاً عليهما. ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.

ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت، فعصفت. ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثر على أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه. قال الأعشى: تعصف بالدرع والحاسر * حكاه أبو إسحاق. وهو قول متكلف.

فإن المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه، لظهور شأنها، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتها.

وأما (الناشرات نشرًا) فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر.

ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ يعني أنها تنشر السحاب نشرًا، وهو ضد الطي. وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعبائهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس. وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها - وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحيتها بالإيمان.

وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي تحيها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازماً لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهم نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات . فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها .

لكن هنا أمراً ينبغي التفطن له ، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء ، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات ، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات .

وقد اختلف في الفارقات والأكثر على أنها الملائكة . ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء ، وهي الملائكة بالاتفاق .

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل ، فألقت الذكر على الرسل إعداراً وإنذاراً .

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها . وقال : هي تفرق السحاب ههنا وههنا ، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها .

ومن قال : الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل ف قوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من الثمامه إذا قيل : إنها الرياح .

ومن قال : هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر . وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول .

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من روح الله ، وقد جعله الله تعالى نشوراً .

وحياة القلوب والأرواح بالملائكة . فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو ، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء .

وتأمل كيف موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية ، وحال السعداء والأشقياء فيها ، وقررها بالحياة الأولى في قوله : ﴿ ألم نخلقكم من

ماء مهين ﴿ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك آيين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة.

ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل. بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعاً فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمله.

^(١) **قال** تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ وقال: ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتهم عن الهدى والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟!

ونظير هذا قوله: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريب﴾ لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً لا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود، ونظيره قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنها يتبعون أهواءهم﴾ وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز- وجل -: ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المرسلات

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) **فائدة:** في النوم فائدتان: إحداهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن فينضم الطعام. والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كَلَّت بالأعمال.

^(٢) **وضابط الانقطاع** أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]. فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبا: ٢٤، ٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعُ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٦]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

^(٣) **حمل** ابن عباس قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبا: ٢٤، ٢٥]. قال:

هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما . وكذلك قال مقاتل ومجاهد هو الذي انتهى برده . . .

^(١) **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبا: ٣١-٣٣]. فالكواعب جمع كاعب وهي الناهد . قال قتادة ومجاهد والمفسرون . قال الكلبي : هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت ، وأصل اللفظة من الاستدارة ، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلّية إلى أسفل ، ويسمين نواهد وكواعب .

^(٢) **وقال الإمام أحمد:** حدثنا هشيم أنبأنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبا: ٣٤] قال : هي المتابعة الممتلئة . قال : وربما سمعت العباس يقول اسقنا وادهق لنا .

^(٣) **الدليل على حشر الوحوش وجوه (أحدها) قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] . (الثاني) قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] . (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجبىء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها . وهو متفق على صحته . (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال : «يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟» قال : قلت : لا . قال : «لكن الله يدري وسيقضي بينهما» رواه أحمد في مسنده . (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] . وأن الله - تعالى - يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كوني تراباً . فتكون تراباً فعندها يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النبأ

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(١) قوله - تعالى - : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدْبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥] فهذه خمسة أمور. وهي صفات الملائكة.

فأقسم - سبحانه - بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لآعين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحداً، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس : هل النازعات متعد أو لازم ؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعدياً ، وهذا قول علي ، ومسروق ، ومقاتل ، وأبي صالح ، وعطية عن ابن عباس . وقال ابن مسعود : هي أنفوس الكفار ، وهو قول قتادة ، والسدي ، وعطاء عن ابن عباس . وعلى هذا فهو فعل لازم ، وغرقاً على هذا معناه : نزعا شديداً أبلغ ما يكون وأشدّه .

وفي هذا القول ضعف من وجوه :

أحدها : أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة ، فهي السابحات والمدبرات ، والنازعات .

الثاني : أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ، ولا في اللفظ ما يدل عليه .

الثالث : أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم ، والإغراق لا يختص بالكافر . وقال الحسن : النازعات هي النجوم ، تنزع من المشرق إلى المغرب . وغرقاً هو غروبها قال : تنزع من ههنا وتغرق ههنا . واختاره الأخفش وأبو عبيد .

وقال مجاهد : هي شدائد الموت وأهواله ، التي تنزع الأرواح نزعاً شديداً ، وقال عطاء ، وعكرمة : هي القسي ، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي ، فهو النازع .

قلت : النازعات اسم فاعل من نزع ، ويقال : نزع كذا . إذا اجتذبه بقوة ، ونزع عنه إذا خلاه وتركه ، بعد ملابسته له ، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه . وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه ، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة ، لأن هذه القوة فيها أكمل ، وموضع الآية فيها أعظم . فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه ، والنفوس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة ، والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق . فالنزع حركة شديدة ، سواء كانت من ملك ، أو نفس إنسانية ، أو نجم ، والنفوس تنزع إلى أوطانها ، وإلى مألوفها ، وعند الموت تنزع إلى ربها ، والمنايا تنزع النفوس . والقسي تنزع بالسهم ، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان ، وتنزع ما وكلت بنزعه ، والخيول تنزع في أعتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها .

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك. ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

فأقسام بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قوهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق عمرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء. فالسابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطيء عنه ولا تتأخر. فالمدبرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. (والناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة. واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين. (والناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

وقيل: (السابحات) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

قلت: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]. وقال: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. وقال: ﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ [التكوير: ١٦] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. ويدل عليه ذكره السابقات بعدها

والمدبرات بالفاء، وذكره الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعَتْ ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله.

قال مسروق، ومقاتل، والكلبي: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤] هي الملائكة قال مجاهد وأبوروق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الفراء، والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذ كانت الشياطين تسترق السمع. وهذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء. وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعون من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه، وعزلهم عن سماعه.

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعاً بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت ﴿السَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته. وأما ﴿الْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة، قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿الْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾. قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكلهم الله بأمر عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار

والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب، انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكًا، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، ونماذجها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ - قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك. ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو، لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبحن. كما نقول قام فذهب، أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب ولو قلت: قام وذهب لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

واعترض عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية، لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

قلت: الملائكة داخلون في السابقات قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن الفاء دالة على التعقيب، وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ. بخلاف الأقسام الثلاثة. والله أعلم.

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن. أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه

وإن لم يذكر لفظاً، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً. فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة مابعده عليه فتأمل.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف. فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه - سبحانه - بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمل.

(١) إن الملائكة موكلّة بالعالم العلوي والسفلي، تدبره بأمر الله - عز وجل - كما قال الله - تعالى -: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ أُمْرًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا * فَالْعَاصِفَاتِ غَضَفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥]. وقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غُرُقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمْرًا﴾ **وقد** وكل الله - سبحانه - بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحركها، ووكّل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها. قال الله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]. وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه). ووكّل بالقطر [ملائكة، وبالسحاب] ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت [به].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاحٍ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَتَبَعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا، فَنَظَرَ فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمَسْحَاةٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ فَقَالَ فُلَانٌ. الْاسْمُ الَّذِي سَمِعَهُ فِي السَّحَابَةِ: فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ فِي هَذِهِ السَّحَابَةِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَمَا تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَثُلُثٌ أَنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِي، وَثُلُثٌ أَرُدُّهُ فِيهَا».

وَوَكَّلَ اللَّهُ - سبحانه - بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال: بَلْ أَسْتَأْذِنُ لَكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. ووَكَّلَ بِالرَّحْمِ مَلَكًا يقول: يا رب نطفة؟ يا رب علقة؟ يا رب مضغة؟ يا رب ذكرٌ أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟. ووَكَّلَ بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقباتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلهن اثنتان يحفظونه من أمر الله، ووَكَّلَ بالموت ملائكة، ووَكَّلَ بمسألة الموتى ملائكة في القبور. ووَكَّلَ بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة يثبتونه ويؤزونه إلى الطاعات أزا، ووَكَّلَ بالنار ملائكة يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها، ويقومون بأمرها، ووَكَّلَ بالجنة ملائكة يبنونها ويفرشوها، ويصنعون أرائكها وسررها وصحافها ونهارقها وزرايبها. فأمر العالم العلوي والسفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم - تبارك وتعالى - وأمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. و﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزًا فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به.

وكذلك البحار قد وُكِّلَتْ بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وُكِّلَتْ بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عُرف [ذلك عرف] أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعًا وقدرًا، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

(١) **عذاب القبر حق**، وقد قيل: ولا بد من انقطاعه، لأنه من عذاب الدنيا، والدنيا وما فيها فإن منقطع، فلا بد أن يلحقهم الفناء والبلاء، ولا يعرف مقدار مدة ذلك. يجوز أن يحشر الله العباد يوم القيامة عراة في وقت خروجهم من قبورهم يوم البعث، ثم يكسوا الله المؤمن حلل الجنان ويجعل على الكافر والعصاة سراويل القطران. والتعبد في الآخرة بترك التكشف زائل.

الحشر هل هو في أرض من أراضي الجنة، أو في أرض من أراضي الدنيا، أو في موضع لا من الجنة ولا من النار، فقد قيل أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة، فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]. والساهرة هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميّز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار مادون السور مما يلي النار من أرض جهنم وموضع الحساب يصير من جهنم.

(٢) **كثير** من الناس يطلب من صاحبه بعد نياله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعاملها بها قبل الرياسة فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل صاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط، فإن للرياسة سكرة: كسكرة الخمر أو أشد. ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير.

ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله - تعالى - أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً وعرفاً، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رءوس العشائر والقبائل.

وتأمل امثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى *

وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿[النازعات: ١٨، ١٩]﴾. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر. وقال - تعالى - : ﴿إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾ [النازعات: ١٨] ولم يقل : إلى أن أزكيك . فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والتمام . ثم قال : ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩] . أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك . وقال : إلى ربك ، استدعاء لإيانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعاً وكبيراً .

(١) ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد ، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد ﷺ ، إذ من المحال أن يكون موسى نبياً ومحمد ليس نبياً مع أن ما ثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه . وقرر - سبحانه - تكليمه لموسى بندائه له بنفسه . فقال : ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ [النازعات: ١٦] . فأثبت المستلزم للكلام والتكليم . وفي موضع آخر أثبت النجاء والدعاء . والنجاء نوع من التكليم ، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس .

ثم أمره أن يخاطبه بالين خطاب فيقول له : ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه : (أحدها) إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام وهو ألطف . ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [النازعات: ٢٧] ولم يقل : كلوا .

(الثاني) قوله : ﴿إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾ والتزكي : النماء ، والطهارة ، والبركة ، والزيادة . فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل . (الثالث) قوله : ﴿تَزْكَى﴾ ولم يقل : أزكيك ، فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك .

(الرابع) قوله : ﴿وَأَهْدِيكَ﴾ أي أكون دليلاً لك . وهادياً بين يديك . فنسب الهداية إليه ، والتزكي إلى المخاطب . أي أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت كما تقول للرجل : هل لك أن أدلك على كثر تأخذ منه ماشئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك .

(الخامس) قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول مادل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنيئاً، وصغيراً وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

(السادس) قوله: ﴿فَتَخْشَى﴾ أي إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته. لأن من عرف الله خافه. ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته. وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

(السابع) أن في قوله: ﴿هَلْ لَّكَ﴾ فائدة لطيفة. وهي أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك، لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي. فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد. وادعى أنه رب العالمين: هذا. وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخدعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذته نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين.

ثم أقام - سبحانه - حجته على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر، وأعظم وأعلى وأرفع، وهو خلق السماء وبنائها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها، وخلق الأرض ومدّها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم. فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتك خلقاً جديداً؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق

الرسول كدلالة هذا الدليل المذكور. وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجاً إلى جواب. والله أعلم.

(١) فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً أو بصرًا أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً، بل عظماً واحداً من أصغر عظامها، بل عرقاً من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك.

بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء! فكيف صنعه في ملكوت السموات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقاً، وأتقن صنعاً، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات. قال الله - تعالى - : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ﴾ إلى قوله : ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات. وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن : فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخباراً عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه - سبحانه - بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتمائم أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

(١) **من** تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيدته ومحاربتة أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. واللّوامة في قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]. وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبته وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله! علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم، قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك».

(٢) **وقد** اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه - سبحانه - ولا يوصل إليه إلا بعد إِمَاتَتِهَا وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعاً لهم منقادة لأوامرهم. قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن

ظفر بنفسه أفلح وأنجح ، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك . قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٣٧-٤١] .

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا ، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى . والقلب بين الداعيين ، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة . وهذا موضع المحنة والابتلاء ، وقد وصف - سبحانه - النفس في القرآن بثلاث صفات : المطمئنة ، والأمارة بالسوء ، واللؤامة .

فاختلف الناس : هل النفس واحدة ، وهذه أوصاف لها . أم للعبد ثلاث أنفس ؟ نفس مطمئنة ، ونفس لؤامة ، ونفس أمارة .

فالأول قول الفقهاء والمتكلمين . وجهور المفسرين ، وقول محققي الصوفية ، والثاني قول كثير من أهل التصوف .

والتحقيق : أنه لا نزاع بين الفريقين ؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها ، وثلاث باعتبار صفاتها . فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة ، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة ، وما أظنهم يقولون : إن لكل أحد ثلاث أنفس : كل نفس قائمة بذاتها ، مساوية للأخرى في الحد والحقيقة ، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس ، كل واحدة مستقلة بنفسها .

وحيث ذكر - سبحانه - النفس ، وأضافها إلى صاحبها ؛ فإنما ذكرها بلفظ الأفراد ، وهكذا في سائر الأحاديث ، ولم يجيء في موضع واحد «نفوسك» و«نفوسه» ولا «أنفسك» و«أنفسه» وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير : ٧] . أو عند إضافتها إلى الجمع ؛ كقوله ﷺ : «إنها أنفسنا بيد الله» . ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد .

^(١) وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء ، وفعله هوى يَهْوَى هَوًى ، مثل عَمِيَ يَعْمَى عَمًى . وأما هوى يَهْوَى بالفتح فهو السقوط ، ومصدره الهُوِيُّ ، ويقال :

الهُوى أيضاً على نفس المحبوب قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ويقال: هذا هوى فلان وفلانة هواه أي مهويته ومحبوته، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ويقال: إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه. وقد يستعمل في الحب المدوح استعمالاً مقيّداً. ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». وفي الصحيحين عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة - رضي الله عنها -: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]. قلت: يارسول الله ما أرى ربك إلا يسارع هواك...

(١) الخامس والأربعون: أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده للعدو، واستأسر له، وأشتمته به وساء صديقه ووليّه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباعاً الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّب به في قلبه كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عذاباً فصارت في المشيب عذاباً

فلو تأملت [حال] كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبابه أعزه الله - تعالى - في حال كهولته. وقيل للمهلب بن أبي صفرة. بَمَ نَلَتْ مَا نَلْتَ؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدنيا

ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - الجنة نهايةً من خالف هواه، والنار نهايةً من أتبع هواه.

(١) **فأما** مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقاً غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعتها، قال الله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]. وقال - تعالى - : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربّه عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

(٢) **كتاب** لعسر الولادة: قال الخلال: حدثني عبد الله بن أحمد قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس - رضي الله عنه - : « لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلى عشية أو ضحاها ». **قال** الخلال: أنبأنا أبو بكر المروزي: أن أبا عبد الله جاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، تكتب لامرأة قد عسرت عليها ولادتها منذ يومين، فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. ورأيتك يكتب لغير واحد.

ويذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: مرّ عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم على بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله! ادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها، قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها. فاكتبه لها. وكما تقدم من الرقى، فإن كتابته نافعة، ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

كتاب آخر لذلك : يكتب في إناء نظيف : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق : ١-٤] وتشرب
منه الحامل ، ويرش على بطنها .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النازعات
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى﴾ [عبس: ٨، ١٠]. يقال: لهى عن الشيء يلهى: كعشي يَعْشى إذا غفل، ولها به يلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: «فلها رسول الله ﷺ بشيء كان في يديه» أي اشتغل به، ومنه الحديث الآخر: «إذا استأثر الله بشيء فاله عنه». وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: آله عنه. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد لها عن حديثه، وقال عمر - رضي الله عنه - لرجل بعثه بهال إلى أبي عبيدة، ثم قال للرسول: «تله عنه»، ثم انظر ماذا يصنع به» ومنه قول كعب بن زهير:

وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك؛ إني عنك مشغول
أي لا أشغلك عن شأنك وأمرك، وفي المسند «سألت ربي أن لا يعذب اللاهين من أمتي» وهم البله الغافلون الذين لم يتعمدوا الذنوب، وقيل: هم الأطفال الذين لم يقرئوا ذنباً.

(٢) وإذا تأملت ما دعا الله - سبحانه - في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به - سبحانه وتعالى - وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه. فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته. ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله - سبحانه - في كتابه ليستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب - سبحانه - إلى التفكير، فيه والنظر في غير موضع من كتابه: كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: هـ] وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴿الْحَجَّ: ٥﴾. وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكْ نَظْفَةٍ مِّنْ مَّنِي يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ نفسه وخلقها من أعظم الدلائل على خالقه وفطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنفسي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ: النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع - سبحانه - بين الذكر والأنثى ، وألقى المحبة بينهما ، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه . وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد ، جعل لهما قراراً مكيناً ، لا يناله هواء يفسده ، ولا برد يجمده ، ولا عارض يصل إليه ، ولا آفة تتسلط عليه .

ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء ، تضرب إلى سواد ، ثم جعلها مضغة لحم ، مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ، ثم جعلها عظاماً مجردة لا كسوة عليها ، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها .

(وانظر) كيف قسّم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك . ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال ، وكيف كساها لحماً ركبه عليها ، وجعله وعاء لها ، وغشاء وحافظاً ، وجعلها حاملة له مقيمة له ، فاللحم قائم بها . وهي محفوظة به ، وكيف صورها فأحسن صورها ، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ .

^(١) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٢٤-٣١] . فجعل - سبحانه - نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجهِ هو منها بعد موته ، استدلالاً بالنظير على النظير .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة عبس
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قرأ قارىء:** ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١-٣]. وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل. فقال له قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس؟! فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن السكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأحوال، وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتشرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت. ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه، كيف يشاء، تكذيباً لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم. فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين (٢).

(٣) **الدليل على حشر الوحوش وجوه:** (أحدها) قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني) قوله - تعالى -: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ

(١) ١٨٢ بدائع ج-٣.

(٢) ساق المؤلف - رحمه الله - هذه القصة في كتابه مفتاح دار السعادة ١٦٣/٢ قريباً من هذا السياق.

(٣) ١٨٣ بدائع ج-٣.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وإنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وهو متفق على صحته. (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ، رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر! أتدري فيما ينتطحان؟! قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما» رواه أحمد في مسنده. (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله - تعالى - يجمع الوحوش، ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا؛ فعندها يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

^(١) قوله سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ * الْجَوَارِ الْكُنُسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥-١٨]. أقسم - سبحانه - بالنجوم في أحوالها الثلاثة. من طلوعها، وجريانها، وغروبها. هذا قول علي، وابن عباس، وعامة المفسرين. وهو الصواب.

والخنس جمع خانس. والخنس الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة فانخنست^(٢). والخنس جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي في بيته. ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الأطباء، إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري جمع جارية، كغاشية وغواش. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس - على هذا القول - تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها، وفيه

(١) ٧٢ التبيان.

(٢) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه فذهب فاغتسل. ثم جاء، فقال له: «أين كنت يا أبا هريرة؟ فقال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال: سبحانه الله، إن المؤمن لا ينجس».

قول آخر، وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، وهي السيارة، وهذا قول الفراء. وفيه قول ثالث، وهو أن خنوسها وكنوسها واختفاءها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب أقسم - سبحانه - بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس، فذكر - سبحانه - جريانها وغروبها صريحاً، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها، وغروبها وجريانها، واختفاؤها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه: (أحدها) أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة. (الثاني) اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان. (الثالث) أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً، بل لاتزال ظاهرة في الفلوات. (الرابع) إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء^(١) لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جليلة يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر. (الخامس) أن كنوسها في أكتنها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم. (السادس) أنه لو كان جمعاً للظبي لقال الخُنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمَر، ولو أريد به

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضي الله عنها.

جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضاً، كحمرء وحر، فلما جاء جمعه على فعل - بالتشديد - استحال أن يكون جمعاً لواحد من الظباء والبقرة؛ وتعين أن يكون جمعاً لخنس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها. (السابع) أنه ليس بالبين إقسام الرب - تعالى - بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه.

كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر.

وإذا أراد - سبحانه - أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿فلا أقسم بما تُبصرون وما لا تُبصرون﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿الذكر والأنثى﴾ في قراءة رسول الله، ﷺ، ونحو ذلك. (الثامن) أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش. (التاسع) أنه لو أراد ذلك - سبحانه - لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ [الشورى: ٣٢]. وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها. (العاشر) أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه - وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن. والله أعلم^(١).

(١) تعرض المؤلف لهذا البحث في مفتاح دار السعادة، ص ١٩٠ ج ٢.

فصل

واختلف في عسعة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثر أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر. هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله - سبحانه وتعالى - بإقبال الليل وإقبال النهار. فقلوه: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] مقابل ليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ ﴿اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢، ١] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله. **ومن** رجح أنه إدباره احتج بقوله - تعالى -: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرُ * وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعة الليل، وتنفس الصبح.

قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار. فإنه عقيبه من غير فصل. فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمناً طويلاً. فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه. وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلمتا تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول. والله أعلم.

فصل

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو ههنا جبريل قطعاً. لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به. وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد، ﷺ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله. فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل

واحد من الرسلين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك. فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله.

وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا، ﷺ، وأن كلاً منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغاً، وقول الله الذي تكلم به حقاً. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسلين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد، ﷺ، سمعه من جبريل^(١).

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علواً وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريماً ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لثيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنوا منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر،

(١) تقدم في سورة الحاقة بحث قريب من هذا، (ج).

كما قال تعالى: ﴿وإن تظاهروا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظماً ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

^(١) وقد أثنى الله - سبحانه - على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجل الصفات فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقرول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين﴾ [التكوين: ١٥-٢١]. فهذا جبريل، فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه - سبحانه -، وأنه مطاع في السموات. وأنه أمين على الوحي.

فمن كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه. قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

ومن قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم. فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن

أبي صالح : أمينٌ على أن يدخل سبعين سُرَادِقًا من نور بغير إذن .
ووصفه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه ، وإلقاؤه إلى الرسل ما أُمِرَ به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان . وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله .
ونظير الجمع له بين المكانة والأمانة : قول العزيز ليوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤] والجمع بين القوة والأمانة : نظير قول ابنة شعيب في موسى عليه السلام : ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ . . .
(١) وقوله : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ ﴾ [التكوين : ٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفي قوله : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ إشارة ، إلى علو منزلة جبريل ، إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه .
وفي قوله : ﴿ مُطَاعٌ ثُمَّ ﴾ [التكوين : ٢١] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا نذبه لهم لنصر صاحبه وخليفه محمد ﷺ . وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعاً في الأرض ، كما أن جبريل مطاع في السماء ، وأن كلا من الرسل مطاع في محله وقومه . وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع .
وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمّله ، وأدائه له على وجهه .
ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوين : ٢٢] . وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بألسنتهم خلافة ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين .
ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل . وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج ، يرى بالعيان ، ويدركه بالبصر ، لا كما يقول المتفلسفة ، ومن قلدهم : إنه العقل الفعال ، وأنه ليس مما يدرك بالبصر ، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان ، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع الملل .

ولهذا كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى . فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها . ومن أنكرها كفر قطعاً . وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق .

وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره . وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك^(١) فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى . وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه . فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة .

ثم نزه رسوله كليهما - أحدهما بطريق النطق ، والثاني بطريق اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل ، والتبديل ، والتغيير ، الذي يوجب التهمة ، فقال : ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ [التكوين: ٢٤] . فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين : أدائها من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان . والقراءتان كالأيتين ، فتضمنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل . فإن الضنين هو البخل ، يقال ضننت به أضن ، بوزن بخلت به أبخل ومعناه ؛ ومنه قول جميل بن معمر :

أجود بمضنون التلاد وإنني بسرّك عمن سألني لضنين

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ليس بخيلاً بما أنزل الله . وقال مجاهد : لا يضمن عليهم بما يعلم .

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي . وقال الفراء ، يقول تعالى : يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه ، فلا يضمن به عليكم ، وهذا معنى حسن جداً ، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس ، ولا سيما عمن لا يعرف قدره ، ويذمه ويذم من هو عنده ، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله .

(١) في كتاب الرد على بشر المريسي الجهمي . وهو من أنفس ما كتب في بيان عقيدة أهل السنة من السلف . وفي الرد على الجهمية وغيرهم من أهل العقائد الزائغة الضالة .

وقال أبو علي الفارسي : المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ، ولا يكتمه كما يكتّم الكاهن ما عنده ، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً . وفيه معنى آخر ، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض ، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به ، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب . فإن كذبهم أضعاف صدقهم ، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه ، بل هو خائف من ظهور كذبه ، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به ، مقيماً عليه ، مبدئاً له في كل مجمع ، ومعيداً منادياً به على صدقه ، مجلباً به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه .

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالطاء ، فمعناه المتهم ، يقال : ظننت زيداً بمعنى اتهمته ، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك ، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين ، ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

أما وكتاب الله لا عن شناعة هجرت ، ولكن المحب ظنين

والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص ؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة . ثم قال : ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [التكوير: ٢٤] . ثم قال : (وما هو) أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل .

واختار أبو عبيدة قراءة الطاء لمعنيين : أحدهما : أن الكفار لم يخلوه . وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل . الثاني : أنه قال : ﴿على الغيب﴾ ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

قلت : ويرجح أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي ، من الأمانة ، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين . ويرجح أيضاً أنه - سبحانه - نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب . فإن ذلك لو كان كذباً ، فإما أن يكون منه ، أو ممن علمه ، وإن كان منه ، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم . وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم ، ضد الأمين . وإن كان عن غير تعمد فهو المجنون . فنفى - سبحانه - عن رسوله ذلك كله ،

وزكى سند القرآن أعظم تركية . فلهذا قال - سبحانه - : ﴿وما هو بقول شيطانٍ رَّجيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] . ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى : ﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] . فنفى فعله وابتغاء منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يباري فيه ولا يشك ، بل علماً ضرورياً ، كسائر الضروريات - منافاة أحدهما للآخر . ومضادته له . كمنافاة أحد الضدين لصاحبه ، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل آيين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر .

ولهذا وبخ - سبحانه - من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين . فقال : ﴿أين تذهبون﴾ [التكوير: ٢٦] . قال أبو إسحاق : فأى طريق تسلكون آيين من هذه الطريقة التي بينت لكم ؟ .

قلت : هذا من أحسن اللازم وأبينه ، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له : إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى : ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ [المرسلات: ٥٠] . وقال : ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجنات: ٦] . فالأمر منحصر في الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فإذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول؟ ، وأين المذهب؟ .

ونظير هذا قوله : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض ، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم .

ونظيره قوله - تعالى - : ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمرٍ مريجٍ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس ، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون ، بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم ، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود .

ونظيره قوله - تعالى - : ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ [القصص: ٥٠] . وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله - عز وجل - :

﴿فَذَلِّكُمْ الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلال فأنِّي تُصرَّفون﴾ [يونس: ٣٢].

فصل

ثم أخبر - تعالى - عن القرآن بأنه ذكر للعالمين . وفي موضع آخر تذكرة للمتقين . وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه ، وفي موضع آخر ذكر مطلق . وفي موضع آخر ذكر مبارك . وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر .

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر . فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم . ويذكرهم بالمبدأ والمعاد . ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وحقوقه على عباده . ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه . ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالهم وآفاتهم ، وما تكمل به . ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيده ، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم . ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه ، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً . ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها . ويذكرهم بأسه وشدة بطشه ، وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله . ويذكرهم بثوابه وعقابه .

ولهذا يأمر - سبحانه - عباده أن يذكروا ما في كتابه ، كما قال : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكم بقوة واذكروا ما فيه لعلَّكم تتَّقون﴾ [الأعراف: ١٧١] . وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه ، ثم لقومه ، ثم لجميع العالمين . وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره .

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر . فهو ذكر وفيه الذكر ، كما أنه هدى وفيه الهدى ، وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة .

وقوله سبحانه : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٨] يدل من العالمين . وهو يدل بعض من كل . وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البذل في قوة ذكر عاملين مقصودين ، فإن جهة كونه ذكراً للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل

الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحيية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولا بد من هذا فتأمله.

وقوله: ﴿لَمِنْ شَاءِ مِنْكُمْ﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكويد: ٢٩] رد على القدريية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالايتان مبطلتان لقول الطائفتين. فإن قال الجبري: هو سبحانه لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ مختلفة، فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب أن هذا من تحريف الطائفتين. أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل. فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟ سوى الله - سبحانه - في فطر الناس أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدري فتحريفه أشد، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله، وهذا باطل قطعاً، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله:

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿أفلم يأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ [الرعد: ٣١]. ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألينة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله - سبحانه وتعالى -، فما لم يشأ لم يكن ألينة، كما أن ما شاء كان ولا بد.

ولكن ههنا أمراً يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله - سبحانه - تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله. فإنه - سبحانه - قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٩]. وقوله: ﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان لإثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: والاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق، والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رب العالمين﴾. ينتظم ذلك كله، ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكوير

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) إذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله . إذا نام العبد المؤمن بات في شعاره (٢) ملك ، فملك المؤمن من يرد عليه ، ويحارب ، ويدافع عنه ، ويعلمه ، ويثبته ، ويشجعه . فلا يليق به أن ينسى جواره ، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده . فإنه ضيفه وجاره . وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيثار وموجباته . فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم ؟

وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه (٣) وقال : « لا جزاك الله خيراً » كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان . قال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - : « إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرمهم » . ومن الأمم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره .

وقد نبه - سبحانه - على هذا المعنى بقوله : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم . والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم . وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان .

(٤) من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه . كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة . بل التفاوت الذي بين النعيمين :

(٣) أي دعا الملك على العبد .

(١) ١٤٦ الجواب الكافي .

(٤) ١٠١ الجواب الكافي .

(٢) الشعار ما يلي الجسم من الثياب .

كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأي عذاب أشد من الخوف والهلم والحزن وضيق الصدرو إعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟ بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده. وألم الحجاب عن الله. وألم الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم الحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم. بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها. فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر. . .

(١) **فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنها هوي الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ**

عسى أن يكون رَدْف لكم بعض الذي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿النمل: ٧١، ٧٢﴾.

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حَسِيٍّ فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلوزال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيدة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تُربِّي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

قال ابن عباس: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وأن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره. فما حصل للعبد مكروه قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مُصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) الوجه الثلاثون أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول - سبحانه - : ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾. وقال: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾. وقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: ١٩]. حتى أن الله - سبحانه - ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى. فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته - تعالى - وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قال - تعالى - : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي بايعوهم كيلاً أو وزناً. وأما قوله : ﴿اكتالوا على الناس﴾ [المطففين: ٢] فإنما دخلت (على) لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري، ودخلت التاء في اكتالوا، لأن افتعل في هذا الباب كله للأخذ، لأنها زيادة على الحروف الأصلية تؤذن بمعنى زائد على معنى الكلمة، لأن الأخذ للشيء: كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه، والاحتمال إلى رحله مالا يدخل فعل المعطى والمبايع.

ولهذا قال - سبحانه - : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من السيئات، لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة شهوة ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي. وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أن الاكتساب يستدعي العمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله.

وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهمم بالحسنة ونحو ذلك؛ فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه، ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح : «إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها». وأما حديث الوسطة وعدمها فضعيف، لأن الخير أيضاً بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

(٢) قال - تعالى - : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. قال أبو عبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرون على الميت، فيذهب به. ومن هذا حديث اسيفع جهينة، وقول عمر: فأصبح قدرين

به أي غلب عليه وأحاط به الرين . وقال أبو معاذ النحوي : الرين أن يسود القلب من الذنوب . والطبع : أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين . والأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب .

وقال الفراء : كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . وقال أبو إسحاق : ران غطى يقال : ران على قلبه الذنب يرين ريناً أي غشيه ، قال : والرین كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين . قلت : أخطأ أبو إسحاق فالغين أطف شيء وأرقه . قال : رسول الله ، ﷺ ، « وإنه ليغان على قلبي ، وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكفها . وقال مجاهد : هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب . وقال مقاتل : غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة . وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ، ﷺ ، قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي ذكر الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » [المطففين : ١٤] . قال الترمذي : هذا حديث صحيح . وقال عبد الله بن مسعود كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله . فأخبر - سبحانه - أن ذنوبهم التي اكتسبوها أو جبت لهم رينا على قلوبهم ، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم ، فهو خالق السبب ومسببه ، لكن السبب باختيار العبد ، والمسبب خارج عن قدرته واختياره .

(١) ... **المكاشفة** الصحيحة علوم يحدثها الرب - سبحانه وتعالى - في قلب العبد ، ويطلعها بها على أمور تخفى على غيره . وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ، ويواربها عنه بالغين الذي يغشى قلبه . وهو أرق الحجب ، أو بالغيم . وهو أغلظ منه ، أو بالران ، وهو أشدها .

فالأول: يقع للأنبياء - عليهم السلام - . كما قال النبي ، ﷺ ، : «إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة» .

والثاني: يكون للمؤمنين . والثالث : لمن غلبت عليه الشقوة . قال الله - تعالى - : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] . قال ابن عباس وغيره : هو الذنب بعد الذنب يُغَطِّي القلب ، حتى يصير كالرمان عليه .
والحجب عشرة: حجاب التعطيل ، ونفي حقائق الأسماء والصفات . وهو أغلظها . فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق .

الثاني: حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله .
الثالث: حجاب البدعة القولية : كحجاب أهل الأهواء ، والمقالات الفاسدة على اختلافها .

الرابع: حجاب البدعة العملية . كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم .

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة ، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد ، والفخر والخيلاء ونحوها .

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة ، مع كثرة عباداتهم ، وزهاداتهم واجتهاداتهم . فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك . فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة . فأهل الكبائر الظاهرة : أدنى إلى السلامة منهم . وقلوبهم خير من قلوبهم .

السابع: حجاب أهل الصغائر .

الثامن: حجاب أهل الفضلات ، والتوسع في المباحات .

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته .

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله - سبحانه وتعالى - تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقتلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخَلَصَ العمل إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلى الله - سبحانه - أثنابه عليه مزيداً في إيمانه وبقينه، ومعرفته وعقله. وَجَمَلَ به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سبىء الأخلاق والأعمال. وأقام الله - سبحانه - من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه. ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص...

قوله - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الاستدلال بها أنه - سبحانه وتعالى - جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلولا يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضاً محجوبين عنه. وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله - عز وجل -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

يومئذٍ لمحجوبون ﴿المطففين: ١٥﴾ فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة. وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال. حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ماتقول في قول الله - عز وجل -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع فقلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عز وجل. ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضاً.

وقال أبوزرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الله بن: الحكم هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبد الله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾. ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل.

(^١) **وذكر** جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعة في أناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس. فقال: يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء، فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهى؟ وما قول الله لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]؟ قال: أما عليون فالسما السابعة فيها أرواح المؤمنين، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فأوحى الله: إليه إني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بين جناحيه فخرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في

السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما سدرة المنتهى، فإنها سدرة على رءوس حملة العرش، ينتهى إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى.

(١) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَّيْنِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢١]. فأخبر - تعالى - أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقة. وخص - تعالى - كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبين وسادات المؤمنين. ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنوياً بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهاراً له وإظهاراً بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنوياً باسم المكتوب له وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله - سبحانه وتعالى - وملائكته على عبده.

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان وأبو عوانة الإسفراييني في صحيحيهما من حديث المنهال عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله، ﷺ، إلى جنازة، فجلس رسول الله، ﷺ، على القبر، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر - ثلاث مرات - ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة: كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم حنوط وكفن، فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيء السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين. . الحديث.

(٢) ذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى، قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله -

عز وجل - لا يعدوها فيقول: ربي! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب، قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨، ٢١]. وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق. وقد أخبر الله - سبحانه - أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

(١) الأصل الثاني كمال النعيم في الدار الآخرة أيضاً به سبحانه: برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بال مخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي، ﷺ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في صحيحهما: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ» ولهذا قال - تعالى - في حق الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أوليائه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه . . .

(٢) الوجه الرابع: أن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صُهيْب، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يَرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كَمَوْهَ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يَبَيِّضْ وَجُوهَنَا، وَيَثْقِلْ مَوَازِينَنَا، وَيَدْخُلَنَا الْجَنَّةَ، وَيُجْرِنَا مِنْ

(١) ٥٩ طريق المخرجتين.

(٢) ١٣٢ إغاثة ج١.

النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه».

وفي حديث آخر: «فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه» فيبين عليه الصلاة والسلام أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والخور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال - سبحانه وتعالى - في حق الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر - سبحانه - هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]. ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]. وتأمل كيف قابل - سبحانه - ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]. فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]. فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه

وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتلان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عموماً.

^(١) **ومن أعظم الضر:** حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

^(٢) **... وإضعاف المعاصي للإيمان** أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد - كما جاء في الحديث - «إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي قال الله - تعالى -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]». فالقبائح تسود القلب. وتطفيء نوره. والإيمان هو نور في القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً.

فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفيء نور القلب. وقد أخبر الله - عز وجل - أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]. وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. فجعل ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فالمعاصي للإيمان: كالمرض والحمى للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت.

فايمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة - وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان - هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده.

ويحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

(١) ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح:

أحدها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله - عز وجل - وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمته عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وأطلق شناقها، وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعداً لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وجبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلا بد أن تضعفها قطعاً، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

(٢) فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: فإما أجنبي، فتكسب مودته ومحبة. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض، فتطفئ بلطفك جمرته.

وتستكفي شره . ويكون احتمالك لمضض لطفك به ، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به .

الثالث: مراقبة الحق سبحانه . وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل . ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه . وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه ، وعون عليه . فمراقبة الحق سبحانه وتعالى : توجب إصلاح النفس ، واللفظ بالخلق .

(١) وقوله: ﴿ رَحِيقٌ مَخْتومٌ ﴾ [المطففين: ٢٥] . يقول : الخمر ختم بالمسك . وقال علقمة عن ابن مسعود : ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : خلطه وليس بخاتم ثم يختم . قلت : يريد والله أعلم أن آخره مسك يخالطه فهو من الخاتمة ليس من الخاتم . وقال زيد بن معاوية : سألت علقمة عن قوله تعالى : ﴿ خِتامه مسك ﴾ فقرأتها (خَاتمَه مسك) فقال لي : ليست خاتمته ولكن اقرأه ﴿ خِتامه مسك ﴾ قال : علقمة : ختامه خلطه ألم تر أن المرأة من نسائك تقول للطيب أن خلطه من مسك لكذا وكذا . وذكر سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق : الرحيق الخمر المختوم ، يجدون عاقبتها طعم المسك .

وبهذا الإسناد عن مسروق عن عبد الله في قوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً . وكذلك قال ابن عباس يشرب منها المقربون صرفاً ، وتمزج لمن دونهم . وقال مجاهد : ختامه مسك يقول طينة . وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير . ولفظ الآية أوضح منه ، وكأنه والله أعلم يريد ما يبقى في أسفل الإناء من الدردي .

وذكر الحاكم من حديث آدم حدثنا شيبان عن جابر عن ابن سابط عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذوروح إلا وجد ريح طيبها . قال آدم وحدثنا أبو شيبه عن عطاء قال : التسنيم اسم العين التي يمزج بها الخمر .

(٢) قال تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين: ٢٦] . وبين

«المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق، وبينهما وبين «الحسد» أيضاً جمع وفرق.

فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهاداً وحرصاً. والحسد: يدل على مهانة الحاسد

وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، كما قيل:

إذا أعجبتك خلال امرئ فكُنه. يَكُنْ منك ما يعجبك

فليس على الجود والمكرما ت إذا جئتها حاجب يحجبك

و«الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله.

(١) والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من

غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر

القدر. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وأصلها من

الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلباً ورغبة فينافس فيه كل من النفسين

الأخرى. وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله، صلى الله

عليه وآله وسلم، يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل

يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه. وهي نوع من المسابقة. وقد قال

تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر - رضي الله عنهما -

فلم يظفر بسبقه أبداً. فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك

إلى شيء أبداً. وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان

كعبدین بین یدی سیدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه،

فسيدهما يعجبه ذلك منها ويحثهما عليه. وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة وضیعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها

ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها

حتى يساويها في العدم. كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون

سواء﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لو يردُّوكُم من بعد

إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴿البقرة: ١٠٩﴾.

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل. والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة. فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا. فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه. وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي، ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق». فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المطففين

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ومن ذلك إقسامه ﴿بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا انسق﴾ [الانشقاق: ١٦-١٨]. فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل.

(أحدها) الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع. قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق: الحمرة في السماء. وأصل موضوع الحرف لركة الشيء. ومنه شيء شفق لا تماسك له لركته، ومنه الشفقة وهو الرقة. وأشفق عليه إذا رق له. وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها. ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًا لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول ليله، ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق. ولهذا صح عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: الشفق: الحمرة. والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار. وقال مجاهد: هو النهار كله. وهذا ضعيف جداً. وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق، وظن أنه النهار. وهذا ليس بلازم.

(الثاني) قسمه بالليل وما وسق، أي وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح

الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية. والليل آية، وما حواه آية، والهلل آية، وتزايد كل ليلة آية، واتساقه - وهو امتلاؤه نوراً - آية، ثم أخذه في النقص آية.

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله. ولهذا شرع - عند إقبال الليل وإدبار النهار - ذكر الرب - تعالى - بصلاة المغرب. وفي الحديث: «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعائك وحضور صلواتك: اغفر لي»^(١). كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار. ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ﴾ [المدر: ٣٣، ٣٤]. وهو يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب - تبارك وتعالى - يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء. فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره - شرع - سبحانه - في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحدهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخلقية كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركن وما بعده مستأنف.

وقرىء (ولتركن) بضم الباء للجمع، ويفتحها. فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي لتركن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي، ﷺ، خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، لكنها للغيبة، أي لتركن السماء طبقاً عن طبق. ومن

ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا . فمن جعل الكناية للسماء قال : المعنى لتركبن السماء حالاً بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى ، من الانشقاق ، والانفطار والطبي ، وكونها كالمهل مرة ، وكالدهان مرة ، ومورانها وتفتحها ، وغير ذلك من حالاتها ، وهذا قول عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه . ودل على السماء ذكر الشفق والقمر . وعلى هذ فيكون قسماً على المعاد وتغيير العالم .

ومن قال الخطاب للنبي ، ﷺ ، فله ثلاثة معان : لتركبن سماء بعد سماء ، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله . هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي ، قالوا : والسماء طبق ، ولهذا يقال للسموات السبع : الطباق .

والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة ، ومنزلة بعد منزلة ، ورتبة بعد رتبة ، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله .

والمعنى الثالث لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ، ﷺ ، من الهجرة ، والجهاد ، ونصره على عدوه ، وإدالة العدو عليه تارة ، وغناه وفقره ، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه .

(١) قوله: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أي حالاً بعد حال ، فأول أطباقه كونه نُطفة ثم علقه ثم مضغة ثم جنيناً ثم مولوداً ثم رضيعاً ثم فطيماً ، ثم صحيحاً أو مريضاً ، غنياً أو فقيراً ، معافاً أو مبتلى ، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت ، ثم يبعث ، ثم يوقف بين يدي الله تعالى ، ثم يصير إلى الجنة أو النار ، فالمعنى - لتركبن : حالاً بعد حال ، ومنزلاً بعد منزل ، وأمرأ بعد أمر .

قال سعيد بن جبير وابن زيد : لتكونن في الآخرة بعد الأولى ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر ، وفقراء بعد الغنى ، وقال عطاء : شدة بعد شدة ، والطبق والطبقة : الحال ، ولهذا يقال : كان فلان على طبقات شتى ، قال عمرو بن العاص : لقد كنت على طبقات ثلاث : أي أحوال ثلاث .

قال ابن الأعرابي - السطوح : الحال على اختلافها ، وقد ذكرنا بعض أطباق الجنين في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولادته . ثم نذكر أطباقه بعد ولادته

إلى آخرها. فنقول: الجنين في الرحم بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالاً قوياً، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لثقلها وكما لها وانقطاع العروق الممسكة لها. فهكذا الجنين تهتك عنه تلك الأغشية وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم، وتنصب تلك الرطوبات المزلقة، فتعينه بإزلاقها وثقله، وانتهاك الحجب، وانفصال العروق على الخروج، فينفتح الرحم انفتاحاً عظيماً جداً، ولا بد من انفصال بعض المفاصل العظمية، ثم تلتئم في أسرع زمان، وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين، وقالوا: لا يتم ذلك إلا بعناية إلهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته، فتبارك الله أحسن الخالقين. . .

ومن قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال، من حين كونه نقطة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال. وقيل لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حياً، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر، وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة، لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله - سبحانه - بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبى، ﷺ، فإنه ذكر قبل الآية: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]. فذكر كونهم طبقاً بعد طبق. قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين. قالوا: لتركبن حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمرًا بعد أمر. قال سعيد بن جبير، وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن

أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى . وقال عطاء : شدة بعد شدة . وقال أبو عبيدة : لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل .

وَأَنْتَ إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله - سبحانه - للعالم ، وتصريفه لها كيف أراد ، ونقله إياه من حال إلى حال ، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له . ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولا حي ، ولا مريد ، ولا حكيم ، ولا عليم . وكلاهما في الامتناع سواء .

فَالْمَقْسَمُ به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ، وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله ، وعلى المعاد . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق : ٢٠] إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لدلولها أتم استلزام .

وَأَنْكَرَ عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف عبارة : غاية الحق بغاية البيان والفصاحة . ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق : ٢٢] ولا يصدقون بالجن جحوداً وعناداً : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ﴾ [الانشقاق : ٢٣] بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه ، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه ، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(١) [الانشقاق : ٢٥] .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانشقاق
والحمد لله رب العالمين

يأتي تفسير قول الله - تعالى - : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مبسوطاً في سورة التين (ج) .



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) ومن ذلك اقسامه سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] التي تنزلها الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكروي، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب. فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم رباً بائناً قادراً، فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له.

فبروج السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته - سبحانه - فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، وهو المقسم به وعليه. كما أن القرآن يقسم به وعليه. ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثاً. وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها - سبحانه - على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وماعده من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟
قيل : هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها. ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونبيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهد.

وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أوليائه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضاً فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهد، وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] كما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنوع والاختلاف من آياته - سبحانه - كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره، ولا يكون الخالق - تبارك وتعالى - شاهداً على عباده، مطلعاً عليهم رقيباً؟!!

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضاً فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحوش من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضاً فكلامه مشهود، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم

آياته وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل. وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] الذين فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود، شاهدين ما يجري على عباد الله - تعالى - وأوليائه عياناً، ولا تأخذهم بهم رافة ولا رحمة، ولا يعيرون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض. وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطة نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].
وكذلك أهل الإشراف ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.
وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.
وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديسهم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود. وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

ثم أخبر - سبحانه - أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلى الكرم والجود، يقتلون أوليائه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

انظروا إلى كرم الرب - تعالى - يدعوهم إلى التوبة، وقد فتنوا أوليائه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر من حرق النار من آمن بالله وحده، وعبدته وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.

(١) ويفرح - سبحانه وتعالى - بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملاً - سبحانه وتعالى - سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلى هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أوليائه، وأحرقوهم بالنار، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلى كرمه كيف عذبوا أوليائه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته - سبحانه وتعالى - فإن نعمته على عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات.

وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعاً: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله» فهذه محبة تنشأ من مطالعة المن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظراً، ازداد فيها اعتباراً وعجزاً عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه، والله - سبحانه وتعالى - دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسساء والصفات، الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقاً ومحبة وظماً. فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدّها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه - سبحانه وتعالى - ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه - سبحانه وتعالى - وهو الذي لا يحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

^(١) ثم ذكر - سبحانه - جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبدئ المعيد. ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو - سبحانه - الموصوف بشدة البطش، أو مع ذلك هو الغفور الودود، المتوّد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه. وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب.

والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه واداً لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع. والآخر باللزم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه،

وقال شعيب عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه . وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب - تعالى - يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحب لو كان منه ما كان .

(١) «الودود» من أسماء الرب تعالى . وفيه قولان :

أحدهما: أنه المودود . قال البخاري رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب» .

والثاني: أنه الوادُّ لعباده . أي المحب لهم . وقرنه باسمه «الغفور» إعلماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويؤدّه . فحظ التائب : نيل المغفرة منه .

وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سر الاقتران . أي اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور» .

(٢) **ثم قال** ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [البروج: ١٥] فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه «بذو» صفاته القائمة به . كقوله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨] ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ويقال : ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك . فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال : ذو العرش، وذو الأرض .

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها . وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء .

والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله . فكيف يكون الرب - تبارك وتعالى - مجيداً . وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد .

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل - عليه السلام -: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد. وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد».

فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني؛ ذو الجلال والإكرام. **ومن** قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه - سبحانه - وإذا كان عرشه مجيداً

فهو - سبحانه - أحق بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها على أحد الوجهين، إما على الجوار، وإما أن يكون صفة لربك. وهذا من قلة بضاعة هذا القائل. فإن الله - سبحانه - وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة. فوصفه - سبحانه - بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمتة وحسنه، وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه. والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس، فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المؤلف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

وقوله: ﴿فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] دليل على أمور:

(أحدها) أنه - سبحانه - يفعل بإرادته ومشئته.

(الثاني) أنه لم يزل كذلك، لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا

الكمال في وقت من الأوقات . وقد قال - تعالى - : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ [النحل : ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن .

(الثالث) أنه إذا أراد شيئاً فعله ، فإن «ما» موصولة عامة ، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله . وهذا في إرادته المتعلقة بفعله . وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر . فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراد ، حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً ، وهذه هي النكته التي خفيت على القدرية والجبرية ، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها ، فإن هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً ، وليستا متلازمتين ، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس ، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده ، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله ، وقد يريد فعله ، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل ، فلا يوجد الفعل .

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ ، حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة «قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك : أن لا تشرك بي شيئاً» ولم يقع هذا المراد ، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوقيفه له .

(الرابع) أن فعله - سبحانه - وإرادته متلازمان . فما أراد أن يفعله فعله ، وما فعله فقد أراد . بخلاف المخلوق ، فإنه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريد . فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده .

(الخامس) إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه ، وهذا هو المعقول في الفطر ، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة ، فشأنه - تعالى - أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد .

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله . فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا . وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يري نفسه لعباده ، وأن يتجلى لهم كيف شاء ، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم ، وغير ذلك مما

يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله ، فإنه فعال لما يريد . وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به . فإذا أخبر به وجب التصديق به ، وكان رده ردًّا لكمال الذي أخبر به عن نفسه . وهذا عين الباطل . وكذلك إذا أمكن إرادته - سبحانه - نحو ما شاء ، وإثبات ما شاء أمكن فعله ، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس .

وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظر . والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها ، مع محبته وإلهيته . وملكه السموات والأرض ، المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه . وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها . وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها . ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفردّه بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته . وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته ، فلا يستعصى عليه منها شيء . ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته . ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده محباً لهم .

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم . وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيبته وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين ، تكفي من فهمها . فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده .

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به ، وكذب رسله ، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم .

ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته ، وهو محيط بهم . ولا أسوأ حالاً ممن عادى من هو في قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار . فقال : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ

مُحِيطٌ ﴿[البروج: ١٩-٢٠] فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به، وآخذ بناصيته قادر عليه.

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام. كما أن المتكلم به له المجد كله. فهو المجيد، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قرآن مجيد، كريم. لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر.

وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به وقوله: ﴿**فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج: ٢٢] أكثر القراء على الجر، صفة للوح.

وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان.

فوصفه - سبحانه - بأنه محفوظ في قوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله - سبحانه - حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف. كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البروج

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) ومن ذلك إقسامه - سبحانه - : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] وقد فسر به بأنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوءه، والمراد به الجنس لانجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه - سبحانه - أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدال على وحدانيته، وسمى النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً.

قال الفراء: ما أتاك ليلاً فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهاراً. ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيراً، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيوماً بذكرها وأيدي الثريا جنح بالمغرب

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة، فارجعي بسلام

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب عليك سلام، هل لما فات مطلب؟

فصل

والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها. وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصىها، فأقسم - سبحانه - أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصى ما تكتسب من خير أو شر.

واختلف القراء في «لما» فشدها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا، وهي تكون بمعنى إلا في موضعين. **(أحدهما)** بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ﴾ [هود: ١١١].

(والثاني) في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة [وما] زائدة، وإن هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة. ومن قرأها مشددة كانت [إن] عنده نافية بمعنى [ما ولما] في معنى [إلا]. قال سيبويه، عن الخليل - في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت - قال المعنى: إلا فعلت.

ثم نبه - سبحانه - الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: هـ] أي فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتداء أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق. والدفق صب الماء، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب.

والمتدقق: المطاوع لفعل الفاعل. تقول. دفقته فأندفق، كما تقول: كسرتة فانكسر. والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

وقيل: هو على النسب؛ لا على الفعل، أي ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل. وقيل - وهو الصواب - إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت، وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها.

وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللاتقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمل. وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة - وإن لم يفعل ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟.

ونبه - سبحانه - بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من المائتين جميعاً.

وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره. وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراج اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

وقد دعا - سبحانه - الإنسان إلى أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على معاده وصدق ما أخبر به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * [الطارق: ٥-٩] فالدافق على بابه، ليس فاعلاً بمعنى مفعول كما يظنه بعضهم، بل هو بمنزلة: ماء جارٍ وواقف وساكن، ولا خلاف أن المراد بالصلب: صلب الرجل.

واختلف في الترائب ف قيل: المراد بها ترائبه أيضاً، وهي عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الشدوة. وقيل: المراد ترائب المرأة، والأول أظهر؛ لأنه سبحانه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب، فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين المختلفين كما قال في اللبن: يخرج ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]. وأيضاً فإنه - سبحانه - أخبر أنه خلقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل، كذلك قال أهل اللغة.

قال الجوهري: والنطفة: الماء الصافي قل أو كثر، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نُطْفٌ. وأيضاً فإن الذي يوصف بالدفق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته.

والذي أَوْجَبَ لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهل اللغة قالوا: الترائب مَوْضِعُ القلادة من الصَّدْر، قال الزجاج: أهل اللغة مُجْمِعُونَ على ذلك، وأنشدوا لامرئ القيس:

مُهْفَهْفَةٌ بَيَّضَاءُ غَيْرُ مَفَاضَةٍ * تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ

وهذا لا يدلّ على اختصاص الترائب بالمرأة، بل يُطْلَقُ على الرجل والمرأة، قال الجوهري: الترائب عِظَامُ الصدر ما بين الترقوة إلى الثنؤة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] الصحيح أن الضمير يرجع على الإنسان، أي إن الله على رَدِّهِ إليه لقادر يوم القيامة، وهو اليوم الي تَبْلَى فيه السرائر، ومن قال: «إن الضمير يرجع على الماء أي إن الله على رَجْعِهِ في الإحليل أو في الصدر أو حَبْسِهِ عن الخروج لقادر» فقد أَبْعَدَ، وإن كان الله سبحانه قادراً على ذلك، ولكن السياق يأباه، وطريقة القرآن - وهي الاستدلال بالمبدأ والنشأة الأولى على المعاد والرجوع إليه - وأيضاً فإنه قيده بالظرف، وهو ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]. والمقصود أنه - سبحانه - دعا الإنسان أن ينظر في مَبْدَأ خلقه ورزقه، فإن ذلك يدلُّه دلالة ظاهرة على مَعَادِهِ ورجوعه إلى ربه.

^(١) **وإذا تأملت ما دعا الله - سبحانه - في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به - سبحانه وتعالى - وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته.**

ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها. فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكير فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ

نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً^(١) [الحج: ٥].

^(٢) قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطلاق: ٥-٧].

قال الزجاج: قال أهل اللغة: التربة موضع القلادة من الصدر، والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب: معلق الحلي من الصدر، وهو قول جميع أهل اللغة. قال عطاء وابن عباس: يريد صلب الرجل، وترائب المرأة: وهو موضع قلاذتها، وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرى الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصليين: كالحیوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء. ولهذا قال - تعالى -: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١].

فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبتة، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبونا ولا بالمسيح، فإن الله - سبحانه - مزج تراب آدم بالماء حتى صار طيناً، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتى صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستتلة منه وجزأ من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.

^(٣) ثم ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنى الآية. وفيها قولان ضعيفان: أحدهما قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك: على رد الماء في الصلب. وفيه

(١) بحث المؤلف في عموم الحكم الكثيرة في مخلوقات الله والتفكر فيها بحثاً موسعاً يطلعك على أبواب من العلم فاطفر بها إن شئت (ج).

(٣) (٣) ٦٥ التبيان.

(٢) ١٦٦ تحفة المودود.

قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول لوجوه:

(أحدها) أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

(الثاني) أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

(الثالث) أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد. ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

(الرابع) أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وهو يوم القيامة، أي أن الله قادر على رجعه إليه حياً في ذلك اليوم.

(الخامس) أن الضمير في (رجعه) هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] وهذا للإنسان قطعاً لا للماء.

(السادس) أنه لا ذكر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه. فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه.

(السابع) أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدوراً للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجربه العادة. ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفياً أو إثباتاً، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكره، وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿أُخْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤] أي نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضاً فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني - وهو الأرجح - أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت، بعد ما فرقها البلى في التراب^(١).

(الثامن) أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه

(١) تقدم في سورة القيامة مبسوطاً (ج).

بما أخبر به ، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقتها له ، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه ، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء .

(التاسع) أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه ، ولا تلازم بينهما ، حتى يجعل أحدهما دليلاً على إمكان الآخر ، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثاني ، والنشأة الأولى والنشأة الثانية . فإنه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر . فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر .

(العاشر) أنه سبحانه نبه بقوله : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق : ٤] على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصىه ، فلا يضيع منه شيء .

ثم نبه بقوله : ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق : ٨] على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصى عليه . فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته ، فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه ، ونبه على هذا بقوله : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٩] أي تختبر . وقال مقاتل : تظهر وتبدو ، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه ، وما خفي منه . والسرائر جمع سريرة ، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله . فالإيمان من السرائر ، وشرائعه من السرائر . فتختبر ذلك اليوم ، حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤديها من مضيعها . وما كان لله مما لم يكن له .

قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه ، وشيناً فيها . والمعنى تختبر السرائر بإظهارها . وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب ، والحمد والذم .

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة ، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً ، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياءاً ، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته ، لا اعتبار بصورته ، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً . وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا

إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والجشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم أخبر - سبحانه - عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله. لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّاءُ يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

ثم أقسم - سبحانه - بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. فأقسم بالسما ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحاق: الرجوع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام.

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل. ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، على مرور الأزمان. ترجعه رجعاً، أي تعطيه مرة بعد مرة. والخير كله من قبل السماء يجيء. ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجوع به، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقها. فأقسم - سبحانه - بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

وأقسم على كون القرآن حقاً وصدقاً فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِهَزَلٍ﴾

[الطارق: ١٣، ١٤] كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد، ومنه فصل الخطاب.

وأيضاً فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال. فكون القرآن فصلاً يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقاً ليس بالباطل، وجداً ليس بالهزل. **ولما** كان الهزل هو الذي لا حقيقة له - وهو الباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده - سبحانه - استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال - تعالى - : ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذ أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسناً لا قبح فيه، فيعطيه ويغافيه وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة. ثم قال : ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمَلُهُمْ رُويَداً﴾ [الطارق: ٨] أي أنظرهم قليلاً، ولا تستعجل لهم، والرب تعالى هو الذي يمهلهم.

وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم. أو على معنى انتظر بهم قليلاً. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو رويداً زيدا، أي خله وأمهله، وارفق به.

الثاني: أن يكون مصدراً مضافاً إلى المفعول، نحو رويد زيد، أي إمهال زيد، نحو ضرب الرقاب.

الثالث: أن يكون نعتاً منصوباً، نحو قولك: ساروا رويداً. تقول العرب: ضعه رويداً، أي وضعاً رويداً. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع «فخرج رويداً، وأجاف الباب رويداً».

ويجوز في هذا الوجه وجهان: أحدهما أن يكون حالاً. والثاني أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، فإن أظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني. ورويدا في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطارق

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الهداية لها أربع مراتب وهي مذكورة في القرآن .

المرتبة الأولى: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله - تعالى - : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣] .

فذكر أموراً أربعة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فسوى خلقه، وأتقنه، وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها . والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها على رسوله، وقد تقدم ذلك . وقال - تعالى - حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى : ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها .

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام . قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فأثروا الضلالة والعمى . وقال تعالى : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية . وهي هدى التوفيق والإلهام . قال الله - تعالى - : ﴿وَالله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم . قال - تعالى - : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان

ونفي هداية التوفيق والالإهام . وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة : «من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له» . وقال - تعالى - : ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل : ٣٧] أي من يضلله الله لا يهتدي أبداً .

وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية فشرط لا موجب ، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة ، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل .

المرتبة الرابعة : الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار . قال - تعالى - : ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] . وأما قول أهل الجنة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم .

ولو قيل : إن كلا الأمرين مراد لهم ، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ ، وقد ضرب الله - تعالى - لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقاً لحاله : فقال - تعالى - : ﴿قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٧١] .

(١) والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره . فالمهتدي هو العامل بالحق المرید له ، وهي أعظم نعمة لله على العبد . ولهذا أمرنا - سبحانه - أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس ، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة ، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق ، فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله .

ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه ، وأن كل ما يعلم أنه

حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أرادته لعجز عن كثير منه ، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل .

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه ، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق ، فيتوب إلى الله - تعالى - منه ، ويستغفره ، ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه ، فإنه ابن وقته ، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال ، هل هو صواب أم خطأ؟
وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق .

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراباً لها ، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد ، وهي إنا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن سأل الله أن يهديننا ، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب ، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسميها ، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى : ثبتنا على الهداية ، وأدملها لنا . ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد لها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له ، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة ، لاسيما والله - تعالى - خالق أفعال القلوب والجوارح ، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة ، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له ، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه ، بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه . ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع . وصول أثر الهداية إليه ، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاماً ، فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه ، وهي أعظم حاجة للعبد .

وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب ، فإن فطر السموات والأرض توصل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها .

فذكر كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق، له فذكر علمه - سبحانه - بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه. وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئاً من ماله.

والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده ويعفو عنه ويرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك، وذكر ربوبيته - تعالى - لجبريل وميكائيل وإسرافيل. **وهذا** والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله - تعالى - على أيديهم أسباب حياة العباد. **أما** جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء. **وأما** إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته، فإذا هم قيام لرب العالمين.

(١) الباب الرابع عشر

في الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به، ويقدره عليه الضلال.

وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال. **وقد** اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه - سبحانه - يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله - سبحانه - وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه. ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتمام، وهي هداية التوفيق ومشية الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

(فصل)

فأما المرتبة الأولى فقد قال - سبحانه - : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣] فذكر - سبحانه - أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، قال عطاء: خلق فسوى، أحسن ما خلقه.

وشاهده قوله - تعالى - : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد. والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

قال الكلبي: خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل: خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستوياً، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال - تعالى - : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاطُتٍ﴾ [الملك: ٣] وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك ؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية ، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها .

وتمام هذا يأتي أن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ :
«الشر ليس إليك» . والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه - سبحانه - في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له .

(١) لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين : نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها ، واضمحلالها ونقصها وخستها ، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنقص والأنكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع ، مع ما يعقب من الحسرة والأسف . فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها ، وهم في حال الظفر بها ، وغم وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني : النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد ، ودوامها وبقائها ، وشرف مافيه من الخيرات والمسرات ، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا ، فهي كما قال الله - سبحانه - : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٧] ؛ فهي خيرات كاملة دائمة . وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة .

فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضي العقل إثارة ، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه ، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل ، واللذة الغائبة المنتظرة ، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل ، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل ، فإذا أثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له ، وإما لعدم رغبته في الأفضل .

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة ، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها ، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى ، وإما أن لا يصدق ، فإن لم يصدق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً ،

وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فيإثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وما أكثر مايكون منها! ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجنًا لا جنة فزهدوا فيها حقيقة الزهد... .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعلى
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **تأمل** الحكمة العجيبة في الجبال، الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، الله أمرك بكذا وكذا؟ قال: «اللهم نعم».

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلًا لشراب الناس إلى حين نفاذه، وجعل فيها ليزوب أولاً فأولاً، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والرُّبَا، ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة، وساح دفعه: فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه، فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه، ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعازل التي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرجية وغيرها.

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ماتحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلاماً فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري هي السفن، والأعلام: الجبال. واحدها علم قالت الخنساء:

وأن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فسمى الجبل علمًا من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضاً ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم، لا يحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها أنها تكون حصوناً من الأعداء، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصنون بالقللاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها ما ذكره الله - تعالى - في كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً، تثبتها، ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة.

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها، والانتفاع بها وستررت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعباداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات.

فله كم به من ذنب مغفور، وعشرة مقالة وزلة مغفوة عنها، وحاجة مقضية وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة محوكة.

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق، وقوفاً لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته، شعثاً غبراً حاسرين عن رءوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنونهم ثم يباهي بهم الملائكة، فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته، وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبلاً هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوى إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها.

كما اختص من الرجال من خصه بكرامته ، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه ، فأحبه وحبه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ، ووضع له القبول في الأرض بينهم .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وإنما لتعلم أن لها موعداً ، ويوماً تنسف فيها نسفاً ، وتصير كالعهن من

هوله وعظمه ، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له .

وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن

معهها ، أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ما أسمعها فتقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رققتها وخشيتها وتدكدكها من

جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباربها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت

ولتصدعت من خشية الله .

فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها

ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تحشع ولا تنيب ، فليس بمستنكر على الله

عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجه

ومواعظة ، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من

خشيته فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى

ويعلم .

فصل

ولما اقتضت حكمته - تبارك وتعالى - أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ما خلق له، وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها.

وجعلها - سبحانه - كفاتاً للأحياء ماداموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتاً لهم تضمهم على ظهرها أحياءاً وفي بطنها أمواتاً، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحن وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول: رب هذا ما استودعني، وتخرج كنوزها بإذنه - تعالى - ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيتها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

فصل

ولما كانت الرياح تجول فيها، وتدخل في تجاويفها، وتحدث فيها الأبخرة، وتحقق الرياح، ويتعذر عليها المنفذ أذن الله - سبحانه - لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم. كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعبتكم، وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم، وقال: لئن عادت لأساكنكم فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(١) قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ [الفجر: ١-٥] قيل جوابه: ﴿إِنْ رَبَّكَ لَبِاْلِرَّصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني قوله: ﴿إِنْ رَبَّكَ لَبِاْلِرَّصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحددًا: ﴿إِنْ رَبَّكَ لَبِاْلِرَّصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وخضوع لعظمته.

وذلك ضد ما وصف به عادًا وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتواً وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيء».

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب - عز وجل - به.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت

صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، ومارئي الشيطان في ليلة أدر ولا أحقر ولا أغبط منه فيها. وذلك الفجر: فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر» رواه أبو داود بإسناد صحيح. وهو آخر أيام العشر. وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل - عليه السلام -: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر - سبحانه - من جملة هذه الأقسام ﴿الشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال: فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع. وهو الأصل، فإن الله وتر، يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وترًا. كما قال النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت». وأما

الزمان : فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وروى مجاهد عن ابن عباس : الوتر آدم ، وشفع بزوجه حواء . وقال في رواية أخرى : الشفع آدم وحواء ، والوتر الله وحده . وعنه رواية ثالثة ، الشفع يوم النحر ، والوتر اليوم الثالث . وقال عمران بن حصين ، وقاتدة : الشفع والوتر هي الصلاة ، وروى فيه حديثاً مرفوعاً . وقال عطية العوفي ، الشفع الخلق ، قال الله - تعالى - : ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨] والوتر هو الله ، وهذا قول الحكم ، قال : كل شيء شفع والله وتر . وقال أبو صالح : خلق الله من كل شيء زوجين اثنين ، والله وتر واحد . وهذا قول مجاهد ، ومسروق . وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر ، وقال ابن زيد : الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر ، وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال أخرى ، هذه أصولها ، ومدارها كلها على قولين :

أحدهما : أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات .

والثاني : أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق ، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق ، فهو نظير ماتقدم في قوله : ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] . نظير ماذكر في قوله : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] . وماذكر في قوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ **وقال** ههنا : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وفي سورة المدثر : أقسم بالليل إذا أدبر . وفي سورة التكويد : أقسم بالليل إذا عسعس ، وقد فسر بأقبل ، وفسر بأدبر . فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة ، وهي حالة إقباله ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة إدباره ، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه .

وعرف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه ، ونكر الليالي العشر ، لأنها إنما تعرف بالعلم . وأيضاً فإن التنكير تعظيم لها . فإن التنكير يكون للتعظيم .

وفي تعريف الفجر مايدل على شهرته ، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله . فلما تضمن هذا القسم ماجاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه ، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ» [الفجر: ٥] فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل، لثلاث يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمرود.

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين. ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب. ونكره إما للتعظيم، وإما لأن يسيراً من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات. ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم.

وأخبر أن توسعته على من وسع عليه - وإن كان إكراماً له في الدنيا - فليس ذلك إكراماً على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، من أهل كرامته ومحبه. **وأن تقيره على من قتر عليه لا يدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع ابتلاءً وامتحاناً، ويفتر ابتلاءً وامتحاناً فيبتلى بالنعم، كما يبتلى بالمصائب.** **وهو - سبحانه - يبتلى عبده بنعمة تجلب له نقمة، وبنعمة تجلب له نقمة أخرى، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى، وبنقمة تجلب له نقمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.**

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله. وهم هؤلاء الأمم الثلاث: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمرود، اغتروا بجنانهم وغيوتهم وزرورهم وبساتينهم. وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا. وهذا شأنه دائماً مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لا بد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر - سبحانه - حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمساكين. فلا يكرم هذا، ولا يحض على طعام هذا. ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله، وحبه له. وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمساكين.

(١) من علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه؛ زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله؛ زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره؛ نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه؛ زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقي بها أقوام. وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال. قال - تعالى - عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوى منه - سبحانه - فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال - تعالى -: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا...﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكراماً مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(١) .. إذا أعطاك (٢) ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي. ولكنه ابتلاء مني: وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه

(١) ٨٠ مدارج جا.

(٢) الضمير يعود إلى الله - سبحانه وتعالى - والبحث تجده في تفسير سورة الفاتحة بكامله وكذلك يوجد في سورة المائدة بحث نفيس حول هذا (ج).

عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله - سبحانه - على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه - سبحانه - يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَرِّر على المؤمن لا لإهانته، إنها يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبة وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره.

قيل: هو من مجاز الحذف، تقديره: وجاء أمر ربك. وهذا باطل من وجوه. **أحدها:** إنه إضمار ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم. وادعاء جذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويترك كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار وإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز. **الثالث:** إنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولاً على المتكلم بلا علم وإخباراً عنه بإرادة ما لم يقدّر به دليل على إرادته وذلك كذب عليه. **الرابع:** أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ فعطف مجيء الملك على مجيئه - سبحانه - يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه - سبحانه - حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب - سبحانه - أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾

فعطف مجيء الملك على مجيئه - سبحانه - يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه - سبحانه - حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب - سبحانه - أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك. وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات ربك، فقسّم ونوّع، ومع هذا التقسم يمتنع أن يكون القسمان واحداً فتأمل. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل هذا اللفظ على مجازه وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

الخامس: أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلاماً ريكيكاً، فادعى صدق ما يكون النطق به مشتركاً باطلاً، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجناً.

السادس: إن اطراد نسبة المجيء والإتيان إليه - سبحانه - دليل الحقيقة، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة اطراد فكيف كان هذا المطرد مجازاً.

السابع: أنه لو كان المجيء والإتيان مستحيلاً عليه، لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهكذا هو عندكم سواء، فمتى عهدتم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه ونسبتها إليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره، وهل في ذلك شيء من الكمال البتة. فإن قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ و﴿أَتَى﴾ و﴿يَأْتِي﴾ عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب، والله - سبحانه - لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله ﷺ لا بقرينة ولا مطلقة فضلاً عن تطرد نسبتها إليه، وقد اطراد نسبه المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقاً من غير قرينة تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه.

الثامن: أن المجاز لو كان ثابتاً فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاق من اتفاقهم حجة. فأما النقل والاتفاق: فهو من جانب الحقيقة فلا ريب. وأما العقل: فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهم قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي

لأجلها ادعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجاز من أكثر من ثلاثمائة وجه .

وقد ذكرناها فيما تقدم فسلم لهم النقل ، واتفق السلف ، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره ، فإن من لا يفعل شيئاً ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجهاد .

التاسع: أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه ، فإنهم إذ قدروا «وجاء أمر ربك» «ويأتي أمره» «ويجيء أمره» «وينزل أمره» فأمره هو كلامه ، وهو حقيقة ، فكيف تجيء الصفة ، وتأتي ، وتنزل دون موصوفها ، وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سمواته على عرشه .

ولما تفتن بعضهم لذلك قال أمره بمعنى مأموره ، فالخلق والرزق بمعنى المرزوق فركب مجازاً على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئاً ، فإن مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره وليس له عندهم أمر يقوم به فلا كلام يقوم به ، وإنما ذلك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الانفعال بمشيئته تشبيهاً بمن يقول : كن فيكون الشيء عقيب تكوينه ، فركبوا مجازاً ، على مجاز ولم يصنعوا شيئاً ، فإن هذا المأمور الذي يأتي إن كان ملكاً فهو داخل في قوله : ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وإن كان شيئاً غير الملك فهو آية من آياته فيكون داخلًا في قوله : ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ .

العاشر: أن ما ادعوه من الحذف والإضمار : إما أن يكون في اللفظ ما يقتضيه ويدل عليه أو لا ، فإن كان الثاني لم يجز ادعائوه وإن كان الأول كان كالملفوظ به وعلى التقديرين فلا يكون مجازاً ، فإن المدلول عليه يمتنع تقديره .

^(١) **وأما** المسألة العشرون : وهي هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران ؟ فاختلف الناس في ذلك (فمن قائل) : إن مسألهما واحد ، وهم الجمهور ومن قائل : إنها متغايران .

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول : النفس تطلق على أمور :

أحدها: الروح). قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبو خراش:

نجا سالماً والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومثزر
أي بجفن سيف ومثزر.

والنفس: الدم يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «مالا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه».

والنفس: الجسد قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم ادخلوا أبناءهم تأمور نفس المنذر

والتأمور: الدم. والنفس: العين يقال: أصابت فلاناً نفس أي عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله - تعالى -: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَادِلٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقوله - تعالى -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها كقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله - تعالى -: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله - تعالى - إلى رسوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال - تعالى -: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] وقال - تعالى -: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مَنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونها لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردًا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا

خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا

كليًا، فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفارق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلزم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم

إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الطبابة نفوسنا وليست على غير الطبابة تسيل

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه: كما يقال: خرجت روحه، وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي

الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا أو قهراً، فالله - سبحانه - هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته. كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من

شدة عذابه ووثاقه.

(١) ... **جعل** الله - سبحانه - الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل

الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ دليل على أنها

لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عبادته، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم هَبْ لي نفساً مطمئنة إليك».

^(١) **فالنفس** إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتأقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧].

قال ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] يقول: المصدقة. وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله». وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله. والمصدقة بما قال». وقال مجاهد: «هي المنية المخبئة التي أيقنت أن الله ربه، وضربت جأشاً لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه».

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربه وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه. فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره. واطمأنت إلى لقائه ووعدده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته. واطمأنت إلى الرضى به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسبه وضمانه. فاطمأنت بأنه وحده ربه وإلهها ومعبودها ومليكه ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادتة إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر- سبحانه - أنها أمارة بالسوء، ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادت وادأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها. فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله، والعدل والعلم طاريء عليها بإلهام ربه وفطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدًا بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن أمارة لا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله - سبحانه - بها خيراً جعل فيها ما تزكوه وتصلح : من الإرادات والتصورات وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم . وسبب الظلم : إما جهل ، وإما حاجة . وهي في الأصل جاهلة . والحاجة لازمة لها ، فلذلك كان أمرها بالسوء لازماً لها إن لم تدرکها رحمة الله وفضله .

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك . . .
قال عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - : « إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين . وأرسل إليه بتحفة من الجنة . فيقال : أخرجني أيتها النفس المطمئنة ، أخرجني إلى روح وريحان . ورب عنك راض » .

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف .
أحدها : أنه عند الموت . وهو الأشهر . قال الحسن : إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها . ورضيت عن الله ، فيرضى الله عنها .
وقال آخرون : إنما يقال لها ذلك عند البعث . هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة .

وقال آخرون : الكلمة الأولى - وهي : ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧] - تقال لها عند الموت . والكلمة الثانية - وهي : « فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » - تقال لها يوم القيامة .

قال أبو صالح : « ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » هذا عند خروجها من الدنيا . فإذا كان يوم القيامة قيل لها : « فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي » .

والصواب : أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ، ويوم القيامة . فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا . وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى ، إن كانت مطمئنة إلى الله ، وفي جنته . كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة . فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك . وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة . فأول ذلك عند الموت . وتماه ونهايته : يوم القيامة ، فلا اختلاف في الحقيقة .

(١)... وأما الرضى عنه : فهو رضى العبد بما يفعله به ، ويعطيه إياه . ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء . كقوله تعالى : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته . كقوله تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ **والرضى به** : أصل الرضى عنه ، والرضى عنه : ثمرة الرضى به .

وسر المسألة : أن الرضى به متعلق بأسمائه وصفاته . والرضى عنه : متعلق بثوابه جزائه . وأيضا : فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضى بالله رباً . ولم يعلقه بمن رضى عنه ، كما قال ﷺ : «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً» فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه . وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها وعليها . **وأیضا** : فالرضى به رباً يتضمن توحيد عبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجاءه ومحبه ، والصبر له وبه . والشكر على نعمه : يتضمن رؤية كل مأمنه نعمة وإحساناً ، وإن ساء عبده .

فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» . والرضى بمحمد رسولاً . يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله» . والرضى بالإسلام ديناً : يتضمن التزام عبوديته ، وطاعته وطاعة رسوله . فجمعت هذه الثلاثة الدين كله . **وأیضا** : فالرضى به رباً يتضمن اتخاذه معبوداً دون ماسواه . واتخاذه ولياً ومعبوداً ، وإبطال عبادة كل ماسواه .

وقد قال تعالى لرسوله : ﴿أَفْغِرْ لَللَّهِ أَتْبَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال : ﴿أَغِرْ لَللَّهِ أَتُخِذْ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٣] وقال : ﴿قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ أَتْبَغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضى به رباً .

وأیضا : فإنه جعل حقيقة الرضى به رباً : أن يسخط عبادة مادونه . فمتى سخط العبد عباده ماسوى الله من الآلهة الباطلة ، حباً وخوفاً ، ورجاء وتعظيماً ، وإجلالاً - فقد تحقق بالرضى به رباً ، الذي هو قطب رحى الإسلام .

وإنما كان قطب رحي الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله - عز وجل - في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحي تدور عليه...

^(١) **الناس** في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وقالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

^(٢) **والمقصود** التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأماره، وماتشترك فيه النفوس الثلاثة، وما يميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيه على ما وراءه، وهي نفس واحدة تكون أماره تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأماره، وأما المطمئنة فهي أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهي التي يقال لها: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

والله - سبحانه - وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ولا يجعلنا من ﴿الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو

حسبنا ونعم الوكيل. هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفجر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) وأما سورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] فذكر فيها جواب القسم . وهو قوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة . قال ابن عباس ، في رواية مقسم : منتصباً على قدميه . وهذا قول أبي صالح ، والضحاك ، وإبراهيم ، وعكرمة ، وعبد الله بن شداد .

قال المنذر : سمعت أبا طالب يقول : الكبد الاستواء والاستقامة . وفسر بالنصب . هذا قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ورواية عن علي ، وعن ابن عباس . قال الحسن : لم يخلق الله خلقاً يكابد يكابد ما يكابد ابن آدم . وقال سعيد بن أبي الحسن (٢) : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال قتادة : يكابد أمر الدنيا والآخرة ، فلا تلقاه إلا في مشقة .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : يعني حمله وولادته ، ورضاعه ، وفصاله ، ونبت أسنانه وحياته ، ومعاشه ، ومماته . كل ذلك شدة . قال مجاهد : حملته أمه كرها ، ووضعته كرهاً ، معيشته في شدة . فهو يكابد ذلك .

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهي معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته . والكبد شدة الأمر .

ومنه تكبد اللبن ، إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق في شدة . بكونه في الرحم ، ثم في القمط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، ومكابدة المعيشة ، والأمر والنهي ، ثم مكابدة الموت

(١) ٢٢ التبيان .

(٢) كذا في الأصل . وفي تفسير ابن كثير : وروى من طريق أبي مودود ، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال : يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة .

ومابعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولاراحة له إلا في الجنة.

وفسير الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد، إذ قمنا وقام الخصوم في كبد؟^(١)
أي في شدة وعناء. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.

قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر. قال وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب. وقال مجاهد: هو الشرج، يعني موضع البول والغائط. إذا خرج الأذى تقبضاً.

والمقصود أنه - سبحانه - أقسم في سورة البلد على حال الإنسان وأقسم - سبحانه - بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى.

ثم أقسم بالوالد وما ولد. وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين. وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان. فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم. وقوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن. فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد. بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر، ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان. والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما ينقض أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه

(١) هو من قصيدة يرثي بها أخاه أربد. أولها.

ما إن تعدى المنون من أحد لا والد مشفق، ولا ولد

الحلال، فإذا كان فيه الحرام، فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمينه أمراً آخر. وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبدته، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبية إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني. وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيداً. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد. وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه. فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

ثم أنكر - سبحانه - على الإنسان ظنه وحسابه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] ويقول: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧] فيحصى عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه.

ثم أنكر - سبحانه - على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾ [البلد: ٦] وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه. إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضع مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل تقريباً به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحته بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧] وأتى ههنا بلم، الدالة على

المضي، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي. أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

(١) وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠] فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات. وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وتدل عليه الآية الأخرى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الأنبياء: ٣] والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً، وذكر اللسان والشفيتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده.

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصها - سبحانه وتعالى - بالذكر في السؤال عنها. فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها.

قال ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد، والله - تعالى - أعطى العبد السمع لسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته، فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

(٢) ثم ذكر برهاناً مقدرًا أنه - سبحانه - أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما. فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهي من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدي الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى،

لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعهاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعدده. **وهذه** أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه. والرسل بعثوا مذكّرين بها في الفطر والعقول، مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له - سبحانه - بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابراً رحيماً في نفسه، معيماً لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعاً عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوباً عنه.

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة، وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرّون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهاكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم: (أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة). قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان. وبالله التوفيق.

وأيضاً فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديداً وتحويلاً لترتب الجزاء عليهما، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ

إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿[العلق: ٩-١٤]﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدًا في القرآن.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليها من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرًا أمكن مجازاته، وإذا كان عالمًا أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرًا لم يمكن مجازاته. وإذا كان قادرًا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل؛ والرب - تعالى - موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله - تعالى - والإحسان إلى خلقه.

وقال: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] وهو فعل ماضٍ، ولم يكرر معه «لا» إما استعمالاً لأداة «لا» كاستعمال «ما». وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء. نحو فلا سلم ولا عاش. ونحو ذلك. وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها. فأغنى ذلك عن تكريرها. فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾ [البلد: ١٣] فالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر. لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] على حد قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَيْه * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [الفارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيماً لشأن العقبة وتفخيماً لأمرها. وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر. فإن قوله: ﴿فَكَ رَقَبَةً * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٣-١٧] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة واقتحامه بفعل هذه الأمور. فمن فعلها فقد اقتحم العقبة. وبدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] وهذا عطف على

قوله: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً. وأيضاً فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقة. وأيضاً فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر ومافسره.

ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض مافسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿اقتحم﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما بعده دون ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿العقبة﴾ طابقه ﴿فَكُ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَامٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه الله - تعالى - لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة والله شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان.

وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس. قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار. وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم. **وقال** مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم. وهذا لعله قول الكلبي. وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة. قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف «إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا يقتحمها إلا المخفون» أو نحو هذا. وأن الله سمى الإيمان به، وفعل ما أمر، وترك ما نهى: عقبة. فكثيراً ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضرع لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة، وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار. فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البلد
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل^(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ١-٨] قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسَّاءِ وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل: إن: مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله - تعالى - فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعة الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث، وكان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح، قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنها قديمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما.

وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع

الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفاً لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكرى، يقتضي تخصيصاً. فلم يجدوا بُدّاً أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعلم إذاً، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلاً، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد.

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها. فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبداع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبداعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها.

وذكر لفظ التسوية، كما ذكره في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧٢] إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿فَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] أي تعمل بطاعة الله تعالى،

فتصير زاكياً، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: (زكاها). ف قيل: هو الله. أي أفلحت نفس زكاها الله عز وجل، وخابت نفس دساها. وقيل: إن الضمير يعود على فاعل (أفلح)، وهو «مَنْ» سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله - سبحانه - لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دساها.

والأولون يقولون: «من» وإن كان لفظها مذكراً فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح. وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] فأفرد الضمير؛ والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: مارواه أهل السنن من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «رَبِّ اعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا، أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا» فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله - تعالى - هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكي، والعبد هو المزكى.

والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاع. قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى؟﴾ [النازعات: ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكى.

قالوا: وهذا هو الحق فإنه لا يفلح إلا من زكَّاه الله - تعالى - وقالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء والكلبي: «قد أفلح من زكى الله - تعالى - نفسه» وقال ابن زيد: «قد أفلح من زكى الله نفسه» واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضاً قوله في أول السورة: ﴿فَالْتَمَسَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضاً فإنه - سبحانه وتعالى - أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على «من» أي: أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها، وضالة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله - سبحانه - لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع «من» على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ «من» كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس. فإذا وقع الاشتباه لم يكن بد من ذكر ما يزيله.

قالوا: و«من» موصلة بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزاً، لعود الضمير المؤنث على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو - سبحانه - قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى: بـ «من» التي هي بمعنى الذي. وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] الضمير مرفوع في ﴿زَكَّاهَا﴾ عائد على ﴿من﴾ وكذلك هو في ﴿دَسَّاهَا﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه. وقد خاب من دساها؛ هذا القول هو الصحيح. وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ

عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢-٤﴾ [البقرة: ٢-٤].

وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] ونظائره.

قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نهاها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبداً خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكان المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الرى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

وكانت اللثام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام^(١) لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

وبوأت بيتك في معلم رحيب المباحات والمسرح

كفيت العفاة طلاب القرى ونبح الكلاب لمستنبح

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ دَسَّاهَا﴾

[الشمس: ١٠]: فقال دسي معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون.

وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله - سبحانه - قال ابن عباس في

(١) البفاع المكان المرتفع. والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة الجمع أولاج، والهضم - بكسر الصاد - المطمئن من الأرض.

رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل.

قالوا: سعدت نفس، وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيق له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿فألهما فجورها وتقواها﴾. قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة^(١) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله، ﷺ، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها».

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي، ﷺ، كان إذا قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها»^(٢).

قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له - سبحانه - فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً.

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزاً في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكراً، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير، وإن كان لفظ من مفرداً، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ

(١) كذا هنا. وفي تفسير ابن كثير قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره. ثم قال ابن كثير: تفرد به.

(٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم.

من، والضمير المرفوع في ﴿زَكَّاهَا﴾ يستحقه لفظاً ومعنى. فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقتزمان في القرآن. كقوله: ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الذثر: ٥٤-٥٦]. وقوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإن العبد إذا زكَّى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانتة، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبته.

^(١) **فإن الله - سبحانه -** هياً الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة: كالنار في الزناد. فألهمه ومكنه، وعرفه وأرشده. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهلها بها لكماله إلى الفعل. قال الله - تعالى -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقَوَّاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٧-١٠] فعبّر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام: ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً. ثم خص بالفلاح من زكّاها فتنّاها وعَلّاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأوليائه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دسّاها، فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) ومن عقوباتها (٢) أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسّها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقّره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يُدْثُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به. قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق. فالطاعة والبر يكبر النفس ويعزّها ويعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أدل شيء وأحقّره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو. فما صغّر النفس مثل معصية الله، وما كبرّها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

فصل (٣)

ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه. والإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم كما قاله طائفة من المفسرين إذ لا يقال لمن بينّ لغيره شيئاً وعلمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة، بل الصواب ما قاله ابن زيد وقال: جعل فيها فجورها وتقواها وعليه حديث

عمران بن حصين أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أريت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قُضيَ عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «بل شيء قُضيَ عليهم ومضى»، قال: فقيم العمل؟ قال: «من خلقه الله لاحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها».

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعملها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهاماً، وبالله التوفيق.

^(١) **وذكر في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة.**

فقال شيخنا: هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما. فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الأرض

والعلو. وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء - وذنوبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً.

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاخترأوا عليه العمى والضلالة، كما قال - تعالى - في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿وَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود في ذلك الهدى والبصرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] ولهذا أمكن عاداً المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عياناً. وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى

بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشمس
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ اللَّيْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل^(١)

ومن ذلك قسمه - سبحانه وتعالى - : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ١-٣] وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى . فهو - سبحانه - يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد شيء .

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة . ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الشمس: ٣، ٤] وأقسم به وقت سريانه كما تقدم . وأقسم به وقت إدباره . وأقسم به إذا عسعس . فقليل معناه أدبر، فيكون مطابقاً لقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقيل : معناه أقبل ، فيكون كقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١، ٢] فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار . وعلى الأول يكون القسم واقعاً على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبهِ ، وكلاهما من آيات ربوبيته .

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك من آيات ربوبيته . فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية . فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإنثاه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها .

وأقسم - سبحانه - بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه - سبحانه - لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء.

فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحد. وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيثار والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بهاله، ولسانه وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدى، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل. فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى،

فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. فأخبر أنه يسير على المتقي ما لا يسير على غيره. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]. وهذا أيضًا يسير عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بازالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، والفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]. فضمن لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل - سبحانه - التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسن، وفسرت بلا إله إلا الله. وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف أي: الحالة والخلقة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء. فمن فسرهما بلا إله إلا الله فقد فسرهما بمفرد يأتي بكل جمع. فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب

هذه الكلمة. فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.
ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.
ولا يكون مصدقاً بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله، ﷺ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله، ﷺ.

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على السنة رسله. وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو تفصيل لا إله إلا الله.

فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنی بالجنة فسرّها بأعلى أنواع الجزاء وكماله. ومن فسرّها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء. فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنی إلى التصديق بالإيمان وجزائه. والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنی، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن

النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها. ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى. وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء. وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه، وأعدّها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحذور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحذور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر. فانتظم ذلك الدين كله.

وأكمل الناس من كملت له هذه القوى^(١) الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها. فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفائه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى.

قال ابن عباس: ﴿فَسَيُسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٧] أي نهيته لعمل الخير، تيسر

(١) في الأصل المطبوع: التقوى والصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام عليه ولعله تصحيف. المراجع.

عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى. وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير، ويسر على قلبه، ويديه ولسانه، وجوارحه. فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذلة له منقاد، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهياً لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذلاً، وتقاد له علماً وعملاً. فإذا خالته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدن

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿فَسُنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠] قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيراً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى. والخير يؤدي إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى يقول: سنيهؤه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان، إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشروع كلها وأسبابها!!

فسبحان من تعرف إلى خصائص عبادته بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين. **وقد** تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي، ﷺ، من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال.

ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ، أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد عَلِمَ مقعده من الجنة والنار» قيل: يارسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله - سبحانه - الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي، ﷺ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب - تعالى - : «أن العبد ميسر لما خلق

له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الأشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقاً، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي، ﷺ، على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه. وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها. **وفيه** إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له. وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له.

فتأمل قوله، ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟ وهذا الذي أرشد إليه النبي، ﷺ، هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك.

فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله. وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجاهل، ولم يمكنه طرد ذلك أبداً، وإن أتى به في أمر معين. فهل يمكنه أن يطرد ذلك من مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه. وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي، ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته.

وهل هذا إلا محض الظلم والجهل ، والإنسان ظلوم جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه . فهذا الذي أرشد إليه النبي ، ﷺ ، وتلا عنده هاتين الآيتين ، موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء ، وركب عليه فطر الخلائق ، حتى الحيوان البهيم ، وأرسل به جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه .

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع ، وتعطلت مصالح العالم ، وفسد أمر الدنيا والدين . وإنما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع ، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه . وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه ، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله - سبحانه - ذلك عنهم في غير موضع من كتابه .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨-١٤٩] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٠] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : ٤٧] .

فإن قيل : فالإعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، هي من اليسرى ، بل هي أصل اليسرى ، من يسرها للعبد أولاً ؟ وكذلك أضدادها ؟

قيل : الله - سبحانه - هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين : أهل سعادة ، فيسرهم لليسرى ، وأهل شقاوة ، فيسرهم للعسرى . واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها ، لا يصلحون لسواها ، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها ، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع

عقوبته في موضع لا تصلح له . كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ، ولا يليق بهما . بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك . ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء .

(١) الباب السابع في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة

لا يقتضى ترك الأعمال، بل يقتضى الاجتهاد والحرص

يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال ، وأن ما قضاه الرب - سبحانه - وقدره لا بد من وقوعه ؛ فتوسط العمل لفائدة فيه ، قد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبي ، ﷺ ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى .

ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ، ﷺ ، ومعه مخرصة فنكس فجعل ينكت بمخرصته ، ثم قال : « مامنكم من أحد مامن نفس منقوسة ، إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » فقال رجل : يا رسول الله ! أفلا نتكل على كتابنا ونندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل : ٥-١٠] وفي بعض طرق البخاري : أفلا نتكل على كتابنا ونندع العمل ، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟

وعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراق بن مالك بن جعثم فقال : يا رسول الله بيننا وبيننا كأننا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ، أفما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام

وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر» رواه مسلم.
وعن عمران بن حصين قال: قيل: يارسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل
الناس فقال: «نعم»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «كل ميسر لما خلق
له». متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري: «كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له».

ورواه الإمام أحمد أطول من هذا فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عروة بن
ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نعيم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على
عمران بن حصين يوماً من الأيام فقال: إن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى إلى
النبي، ﷺ، فقال: يارسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه،
شيء قُضيَ عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به
نبيهم واتخذت عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قُضيَ عليهم» قال: فلم يعملون إذا
يارسول الله؟ قال: «من كان الله - عز وجل - خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه
لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله» ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا﴾.

وقال المحاملي: ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت
أبا سفيان يحدث عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنه قال: نزل ﴿فمنهم
شقي وسعيد﴾ فقال عمر: يانبي الله علام نعمل: على أمر قد فرغ منه، أو لم
يفرغ منه؟ قال: «لا، على أمر قد فرغ منه، قد جرت به الأقلام، ولكن كل
ميسر» ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ
بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠] فاتفقت هذه
الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه،
بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد
اجتهاداً مني الآن؛ وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة
علومهم فإن النبي، ﷺ، أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليفة بالأسباب،
فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه، وممكن منه، وهيء له، فإذا أتى

بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب ، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه .

وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه . وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطىء . وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع . وإذا قدر الشيع والرى فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس .

وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطل العمل اتكالا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ما قدر له .

وقد فطر الله - سبحانه - عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية ، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات ، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الآخروية في معادهم ، فإنه - سبحانه - رب الدنيا والآخرة ، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد ، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيا له يسر له .

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها من القيام بها منه أسباب معاشه ومصالح دنياه ، وقد فقه هذا كل الفقه من قال : ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن .

فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضى به إلى رياض مونة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضى إليه .

لهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره ، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها ، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه ، وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها

لتوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها، فالمؤمن من أشد فرحاً بذلك من كون أمره مجعولاً إليه كما قال بعض السلف: والله ما أحب أن يجعل أمري إليّ، إنه إذا كان بيد الله خيراً من أن يكون بيدي، فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصاد عنها، وهذا موضع مزية قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم؛ فالنبي، ﷺ، أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بأثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والنبي، ﷺ، شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» وإن العاجز من لم يتسع للأمرين وبالله التوفيق.

(١) فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟ فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يشفى من جهله؟.

قيل: نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم.

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع.

ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشیئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام.

وإذا أعطيت اسم الملك حقه - ولن تستطيع - علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضى ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع.

فالملك الحق يقتضى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة. **كما** تستلزم حياة الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

فصل

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢، ١٣] قيل: معناه، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحاً. فليس هو معنى الآية.

وقيل، المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: علينا

للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وفي الحجر في قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد. **والهدى** هو: الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله.

فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات. ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه. فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً. وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده. فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات. وهو الوصول إلى الله - سبحانه - وأقرب الطريق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق. فلا يعدل عنه إلى غيره. فاقبَس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم. وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع. وتحلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها. فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر.

فالأول: يوقع في الشرك والرياء.

والثاني: يوقع في المعصية والبطالة.

والثالث: يوقع في البدعة ومفارقة السنة. فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق

الثلاثة. ولما أقام - سبحانه - الدليل، وأثار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه. كما قال: ﴿وَسُيِّجْنَهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧-١٨] فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته. ونبه بقوله: ﴿تَجْزَى﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله، ﷺ، على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها.

وهذا يدل على أن الصديق - رضي الله عنه - أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن علياً - رضي الله عنه - تربى في بيت النبي، ﷺ. فلرسول الله، ﷺ، عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومنهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم. **ولهذا** كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته. فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصد الطرق إليه، وأقربها وأقومها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الليل
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) ومن ذلك إقسامه - سبحانه - : ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١، ٢] على إنعامه على رسوله، ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضور الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضاً فإن فالتق ظلمة الليل عن ضوء النهار، وهو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة. فهذان للحسن، وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغنى، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق - سبحانه - أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقى إليها هي خير له مما قبلها، كما أن

الدار الآخرة خير له مما قبلها. ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجاهل، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!! فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وهو - سبحانه - يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه - تبارك وتعالى - يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

(١)... **ومنهم** من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة. فاتكّلوا عليه: كاتكّل بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته. وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه. فإنه، ﷺ، يرضى بما يرضى به ربه - عز وجل - والله - تعالى - يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر. فحاشا لرسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه تبارك وتعالى. وكاتكّل بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل. فإن الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين. فإنه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان. ولو كان الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عموماً وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] فأخبر الله -

سبحانه - أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه . ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره . وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول : كرمه .

وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإنما غره به الغرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه .

وأتى - سبحانه - بلفظ الكريم ، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ، ولا إهمال حقه . فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه . واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥، ١٦] وقوله : ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم . ولو كانت جميع جهنم فهو - سبحانه - لم يقل لا يدخلها بل قال : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها . عدم دخولها فإن الصلي أخص من الدخول ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم . ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها ، فلا يكون مضمونا له أن بجنبتها . وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة : ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة . ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيراً قط .

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم : يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر . ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء . وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر . فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انظام ترك الكبائر إليها . فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر . فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها . هذا محال . على أنه لا يمتنع أن يكون صوم

يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومته . ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع . ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير . فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار . وتعاوناً على عموم التكفير . كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر . مع أنه سبحانه قد قال : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] فعلم أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما ، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل .

وكاتكال بعضهم على قوله ، ﷺ ، حاكياً عن ربه : « أنا عند حسن ظني عبدي ربي ، فليظن بي ما شاء » يعني ما كان في ظنه فأنا فاعله به ، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان ، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ، ولا يخلف وعده ، ويقبل توبته ، وأما المسيء المصّر على الكبائر والظلم والمخالفات ، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود في المشاهدة ، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به . ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً . فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته . وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له . كما قال الحسن البصري : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل . وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل .

فكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه ، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه ، متعرض للعتة ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه ، وهان نبيه عليه فارتكبه وأصر عليه .

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة . وعادى أوليائه ووالى أعداءه . وجحد صفات كماله ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله ، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر . وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب

(١) ثم - ذكر سبحانه - نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد الضلالة ، وإغنائه بعد الفقر . فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه ، فأواه ربه وهداه ، وأغناه . فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر . فنهاه أن يقهر اليتيم ، وأن ينهر السائل ، وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها ، فأوصاه - سبحانه - باليتامى والفقراء والمتعلمين . قال مجاهد ، ومقاتل : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت يتيمًا . وقال الفراء : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه . وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى ، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم . وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره ، وهو نهي لجميع المكلفين (٢) .

(٣) الرابع والأربعون : أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها .

وقد أخبر الله أنه قبل الوحي : لم يكن يدري ما الإيمان ، كما لم يكن يدري ما الكتاب . فقال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] . وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى : ٦-٨] وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى .

فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبا : ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ

(١) ٤٧ التبيان .

(٢) تقدم في سورة الحشر ما يتعلق بهذه السورة نقلاً عن عدة الصابرين عند قوله - تعالى - : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى

رسوله من أهل القرى ﴾ (ج) .

(٣) ١١٦ مختصر الصواعق ج١ .

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٨٩﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

(١) قال الله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٨] وفي الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلاً» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: - وهو الصحيح - أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه. وأغناه من المال.

(٢) **وأجمع** المفسرون أن العائل هو الفقير. يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

(٣) ... **الثناء على المنعم**، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

فالعام: وصفه بالجوّد والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني أشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر

اليتيم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صنّع إليه

معروف فليجزّ به. فإن لم يجد ما يجزي به فليُثن. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره.

وإن كتبه فقد كفره، ومن تحلّى بها لم يُعطَ كان كلابس ثوبي زور».

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها.

والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلّ بها لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس

لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة

عذاب».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. **قال** الزجاج: أي بَلِّغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. **وقال** الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

^(١٠) ﴿وَأُمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره. إذا سألك. فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه. وإما أن ترده ردّاً ليناً. قال الحسن: إما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

وقوله: ﴿وَأُمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ما أرسلت به. وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم. **وقال** مقاتل: أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا.

^(١١) **والفرق** بين التحدث بنعم الله والفخر بها إن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مشن عليه بإظهارها والتحدث بها شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب من دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير إن للشيطان مصالي وفخوخاً وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله والهون في غير ذات الله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الضحى
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشَّرْحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الموطن الخامس من مواطن الصلاة عليه ﷺ

الخطب كخطبة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، وغيرها

وقد اختلف في اشتراطها لصحة الخطبة. قال الشافعي وأحمد - رحمهما الله - في المشهور من مذهبهما: لا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه ﷺ. وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها. وهو وجه في مذهب أحمد.

واحتج لوجوبها في الخطبة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤] قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «رفع الله ذكره، فلا يذكر إلا ذِكرَ معه» وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعاً، بل هو ركنها الأعظم، وقد روى أبو داود، وأحمد، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» واليد الجذماء: المقطوعة. فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف.

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون عن هشيم عن جوير عن الضحاك: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتُ معي، ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك.

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد

أن محمداً رسول الله» فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد الإسلام في الخطبة، وهو أفضل كلماتها، وتجب الصلاة على النبي ﷺ، فيها. **والدليل** على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة ماوراه عبد الله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد حدثني عون بن أبي جحيفة كان أبي من شرط علي^(١) وكان تحت المنبر فحدثني: «أنه صعد المنبر - يعني علياً - رضي الله عنه - فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، والثاني عمر» وقال: ويجعل الله الخير حيث شاء. وقال محمد بن الحسن بن جعفر الأسدي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الحميري حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسي قال: سمعت أبي يذكر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله أنه كان يقول بعد مايفرغ من خطبة الصلاة، ويصلي على النبي ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينة في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا^(٢) وأزواجنا وقلوبنا وذرياتنا».

وروى الدارقطني من طريق ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحضرمي عن يحيى بن ذاخر المعافري قال: «ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة. فذكر حديثاً، وفيه: فقام عمرو بن العاص على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس، فأمرهم ونهاهم».

وفي الباب حديث ضبة بن محصن «أن أبا موسى كان إذا خطب: فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ودعا لعمر. فأنكر عليه ضبة الدعاء لعمر قبل الدعاء لأبي بكر - رضي الله عنهما - فرفع ذلك إلى عمر - رضي الله عنه فقال لضبة: أنت أوفق وأرشد». فهذا دليل على أن الصلاة على النبي ﷺ، في الخطب كان أمر مشهوراً معروفاً عند الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. **وأما** وجوبها فيعتمد دليلاً يجب المصير إلى مثله.

(١) الشرط جمع شرطة، وهو الجندي الذي يقوم بالحراسة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

(٢) في النسخة المطبوعة: «أبصارنا» وهو تصحيف ما ذكرناه. المراجع.

(١) ... وإذا عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الرادّ: وعليك السلام. بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به، وهو هو بعينه، فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالردّ منكراً لم يكن فيه إشعار بذلك، لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر، ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] فالعسر^(٢) وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين.

وفائدة ثانية وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم. فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختر للراد أكمل اللفظتين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيراً ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائدة ثالثة وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره، وقال: عليك سلام. لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل. فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبراً بطل معنى التحية، لأن معناها الدعاء والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعاراً بالدعاء للمخاطب وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشرح
والحمد لله رب العالمين

(١) ١٥٥ بدائع جـ ٢.

(٢) في الأصل المطبوع «فاليسر» والصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام عليه (ج).



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل

ومن ذلك إقسامه : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾
[التين : ١-٣] فأقسم - سبحانه - بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام ، والأمم الكثيرة .

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ، ومنبتتهما . وهو أرض بيته المقدس . فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً .

وقد قال جماعة من المفسرين : إنه - سبحانه - أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما . فإن التين فاكهة مخلصة من شواء التنغيص ، لا عجم له (٢) وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل في الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة : الحرارة ، والرطوبة ، وشكله من أحسن الأشكال ، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات . وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد في القوة ، ويوافق الباءة ، وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطباً ويابساً .

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر . فإن عوده يخرج ثمرًا ، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للأكليين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى ، وشجره باق على مر السنين المتطاولة ، وورقه لا يسقط ، وهذا الذي قالوه حق .

ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا . فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتتهما ، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم .

(١) ٢٨ التبيان . (٢) العَجْمُ محرَّكًا وكفْراب ، نوى كل شيء .

كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه ، وأرسله إلى فرعون وقومه .

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله ، سيد ولد آدم . وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل . فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى (جاء الله من طور سيناء ؛ وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران) فمجئته من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع . ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد ﷺ ، وعليهما بعدهما بمنزلة استعلانها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقاً للواقع ، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي .

(١) ... **الوجه** الثاني قال في التوراة في السفر الخامس : «أقبل الله من سيناء ، وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، ومعه ربوات الإظهار عن يمينه» وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة : نبوة موسى ، ونبوة عيسى ، ونبوة محمد ﷺ .

فمجئته من «سينا» وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، ونبأه عليه إخبار عن نبوته . وتجليه من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس ، «وساعير» قرية معروفة هناك إلى اليوم ، وهذه بشارة بنبوة المسيح . «وفاران» هي مكة ، وشبهه - سبحانه - نبوة موسى بمجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه ، ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق ، ووقع الأمر كما أخبر به سواء .

فإن الله - سبحانه - صدع نبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته ، وزاد الضياء ، والإشراق بنبوة المسيح ، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم .

وذكر هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين﴾ [التين: ١-٣].
فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها. ﴿والتين والزيتون﴾ والمراد بهما منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح. ﴿وطور سينين﴾ الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فهو مظهر نبوته. ﴿وهذا البلد الأمين﴾ مكة حرم الله وأمنه، التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم، فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قالت اليهود: «فار» هي أرض الشام، وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم. وعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في بركة فاران. هكذا نطقت التوراة. ولفظها «وأقام إسماعيل في بركة فاران، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم] ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل، وتضمنت انتشار أمته واتباعه حتى يملؤا السهل والجبل كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يبق بعد هذا شبهة أصلاً أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءاً ونوراً وملأ أتباعه السهل والجبل. ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادمو الرأي والفظانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند: ولفظ التوراة فيهم: إنهم لشعب عادم الرأي وليس فيهم فطنة.

ويقال هؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها، وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويكابر ويقول بل طلعت من المغرب.
وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٌ ﴿[التين: ٤] أي في أحسن صورة وشكل واعتدال: معتدل القامة، مستوى الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نقطة من ماء. **وذلك** من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب، ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: هي النار بعضها أسفل من بعض. وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار. **الثاني:** أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر فليس ذلك مختصاً بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله - سبحانه - لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا» [الحج: هـ] فجعلهم قسمين: قسماً متوفى قبل الكبر، وقسماً مردوداً إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو - سبحانه - قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون.

السادس: أن قول من فسر به بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم. ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس. فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم. وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة. وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه - سبحانه - ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده. فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده. فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحسن. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجرى عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا - وإن كان حقاً - فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة. فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأمهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه. وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له بقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه - سبحانه - ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله - تعالى -: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا ممكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنّة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعاً، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل، فإن المنّة التي تكدر النعمة هي منّة المخلوق على المخلوق، وأما منّة الخالق على المخلوق فيها تمام النعمة ولذتها وطبيعتها، فإنها منّة حقيقة.

قال تعالى: ﴿يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونَا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥] فتكون منّة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة. وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٧]. وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ

عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾ [القصص: ٥] الآية .

وفي الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال للأنصار: «ألم أجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ بِى؟ ألم أجِدْكُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِى؟» فجعلوا يقولون له: اللهُ ورسوله أَمِنَ . فهذا جواب العارفين بالله ورسوله . وهل المنة كل المنة إلا اللهُ المان بفضله الذى جميع الخلق فى منته؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهى منة يتأذى بها الممنون عليه .

وأما منة المنان بفضله التى ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة فهى منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها . وكيف يجوز أن يقال إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم . **قيل:** وهذا أيضًا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنًا له، ولا معاوضة عنه . وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ برحمته منه وفضل»^(١) فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده . وكما أنه - سبحانه - المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منه . فإن كان فى الدنيا باطل فهذا ليس منه فى شيء .

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا

(١) فى البخارى ومسلم .

وحدوه أن لا يعذبهم^(١) وقد أخبر عن نفسه أن حقاً عليه نصر المؤمنين .

قيل: لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقاً بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم، ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحده. فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب كلا، ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعد له، أو نعموا ففضله، فهو الكريم الواسع
وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧] أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

وأيضاً فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نقطة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقاً لك إليها فحكمة أحكم الحاكمين، تأبى ذلك، وتقضى خلافه. قال: منصور: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ عني به محمداً؟ فقال: معاذ الله، إنما عني به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبه أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبه إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقاً. قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَ﴾ فالأول بمعنى وأن ينسبك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته، جحوداً وعناداً، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى

(١) في حديث معاذ المتفق عليه وفيه: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً».

الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبقي . فيقال: كذبت به بكذا، وكذبت فيه، والأول أكثر استعمالاً ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [النساء: ٢٨] .

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأَي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذباً بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟

وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة [ما] مقام [من] وأمره سهل .

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقاً، وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى [فمن] يجعلك كاذباً بالدين، أو مكذباً به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبت له ليس معناه جعلته مكذباً أو مكذباً . وإنما معناه نسبته إلى الكذب . فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذباً بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به .

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذباً . والمعروف كذبه إذا جعله كاذباً لا مكذباً . ومثل فسقه إذا جعله فاسقاً، لا مفسقاً لغيره .

جواب هذا الإشكال : أن صدق وكذب - بالتشديد - يراد به معنيان : (أحدهما) النسبة . وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم (والثاني) الداعي والحامل على ذلك ، وهو يكون للفاعل . قال الكسائي : يقال ، ما صدق بكذا ، أو ما كذبك بكذا ، أي ما حملك على التصديق والتكذيب .

قلت وهو نظير ما أجرك على هذا ، أي ما حملك على الاجترأ عليه ، وما قدمك وما أخرك ، أي ما دعاك ، وحملك على التقديم والتأخير . وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق .

(١) ... ثم ختم السورة بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين : ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة ، من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره ، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه ، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ونقله في أطوار التخليق ، حالاً بعد حال ، إلى أكمل الأحوال . فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته ؟ فالله ما أخصر لفظ هذه السورة ، وأعظم شأنها ، وأتم معناها . والله أعلم .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التين
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **أول** سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم. فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علَّمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الفلق: ١-٥].
فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصاً وعموماً.
فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطور التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإنه الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليتها، والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا. فقال الذي علم بالقلم، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا. فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها. فإن الوجود له مراتب أربع:

أحدها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .
المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله الذي علم بالقلم، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصور.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه - سبحانه - هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم. وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد. وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل. وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.
والمقصود أنه - سبحانه - تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له.

(١) تنبيهه ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما - سبحانه - في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلق، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلق، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنها هو إلى العلق.

ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب

المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين، للباقيين اللاحقين، ولولا الكتابة لا نقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعترهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءًا حافظًا للعلم من الضياع: كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله - عز وجل - بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم.

والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله وإياه وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به. ومن هيا ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات. ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه. ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جمد، وضعته على القرطاس وهو جمد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجب من صورته، فتقضى به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك مالا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه - سبحانه - هو المعطي

لهذه المراتب. ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطى الوجود اللفظي.

فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليماً.

وذكر خلقين وتعليمين خلقاً عاماً، وخلقاً خاصاً، وتعليماً خاصاً، وتعليماً عاماً، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير، وكل كمال. **فله** كل كمال وصفاً، ومن كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعتة إلى ذلك، وهو الغني الحميد.

(١) **قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧] ولم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠] وهذا - والله أعلم - لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بداً من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ماوجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال. وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ومن فسرهما بشهادة أن لا إله إلا الله، فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى. ومن فسرهما بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية.

(٢) **قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا

كان هذا غنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و«المكر» الذي يخاف عليه منه: أن يُغَيَّبَ الله - سبحانه - عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]. وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحِوَالَةِ على المَلِءِ الْوَفَى الذي له الغنى التام كله بالذات، فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

(١) ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب عليه السلام، وقد قال له قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله - تعالى - وعلمه، أدباً مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفاً مع حد العبودية.

وكذلك قال إبراهيم عليه السلام، لقومه - وقد خوفوه بأهتهم - فقال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال - تعالى -: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) فائدة

ما الفائدة في إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها، فإن كانت الفائدة في النكرة فلم ذكرت المعرفة؟ وإن كانت في المعرفة فما بال ذكر النكرة؟!

قيل: هذا فيه نكتة بديعة، وهي أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر، ويكون الكلام في معرض أمر معين في الجنس مدحاً أو ذمّاً، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لا ختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلك المعين، فلما أريد الجنس أتى بالنكرة ووصفت إشعاراً بتعليق الحكم بالوصف، ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهاً على دخول ذلك المعين قطعاً.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فإن الآية كما قيل نزلت في أبي جهل ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به فقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ تعييناً ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ تعدية وتعميماً^(٢) ولذلك اشترط في النكرة في هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة وليتبين المراد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العلق
والحمد لله رب العالمين

(١) ٨ بدائع جـ ٢.

(٢) ما أثبتناه في المخطوطة وفي المطبوعة «لعدمه وتنبيهاً» (ج).



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **وسئل** ﷺ عن ليلة القدر، أي رمضان أو في غيره؟ قال: «بل في رمضان» فقيل: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قُبضوا رُفِعَتْ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة» فقيل: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول، أو في العشر الآخر» فقيل: في أي العشرين؟ قال: «ابتغوها في العشر الأواخر، لاتسألني عن شيء بعدها» فقال: أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب غضباً شديداً وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لاتسألن عن شيء بعدها» ذكره أحمد، والسائل أبو ذر.

وعند أبي داود أنه ﷺ سئل عن ليلة القدر فقال: «في كل رمضان».

وسئل عنها أيضاً فقال: «كم الليلة؟» فقال السائل: ثنتان وعشرون، فقال: «هي الليلة» ثم رجع فقال: «أو القابلة» يريد ثلاثاً وعشرين، ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ عبد الله بن أنيس: متى نلتمس هذه الليلة المباركة؟ فقال: «التمسوها هذه الليلة» وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين.

وسأله ﷺ عائشة - رضي الله عنها -: إن وافقتها فبِمَ أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني» حديث صحيح.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القدر

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص».

قال الله - تعالى - : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .

[البينة: ٥]. وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *
إِلَّا اللَّهُ الدِّينِ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

**وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ
دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].**

**وقال: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال
الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟
فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً. لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم
يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله،
والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا. وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى:
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه:
إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال
تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].**

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.

قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - : «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى : إلا ازدادت به خيراً، ودرجة ورفعة». وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمَنَاصِحَةُ وَلَاةِ الْأَمْرِ. وَلِزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيطُ مِنْ وِرَائِهِمْ» أي لا يبقى فيه غُلٌّ، ولا يحمل الغِلُّ مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غِلُّه. وتُنْقِيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودَغَلاً. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه : بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل : يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة. ويقاتل حمية : أي ذلك في سبيل الله؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأخبر عن أول ثلاثة تُسْعَرُ بهم النار: قاريء القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قاريء، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى : «أَنَا أَغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ بِهِ. وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ». ^(١) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فنفى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية.

ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عز وجل.

ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن

العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقرباً به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعاً.

ومن نكت المسألة أن يفرق بين الأفعال التي لا تقع إلا منوية عادة وبين الأفعال التي تقع منوية وغير منوية.

فالأولى كالوضوء المرتب عضواً بعد عضو، فإنه لا يكاد يتصور وقوعه من غير نية، فإن علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية، والعاقل المختار لا يفعل فعلاً إلا مسبقاً بتصوره وإرادته، وذلك حقيقة النية فليست النية أمراً خارجاً عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله.

وبهذا يعلم غلط من ظن أن للتلفظ مدخلاً في تحصيل النية. فإن القائل إذا قال: نويت صلاة الظهر أو نويت رفع الحدث. إما أن يكون مخبراً أو منشئاً. فإن كان مخبراً فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره وكلاهما عبث لا فائدة فيه، لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر ما لم يكن عارفاً به، وهذا محال في إخباره لنفسه.

وإن كان إخباراً لغيره بالنية فهو عبث محض، وهو غير مشروع ولا مفيد، وهو بمثابة إخباره له بسائر أفعاله من صومه وصلاته وحجه وزكاته، بل بمنزلة إخباره له عن إيمانه وحبه وبغضه، بل قد تكون في هذا الإخبار فائدة، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهما بالنية فعبث محض ولا يصح أن يكون ذلك إنشاء، فإن اللفظ لا ينشئ وجود النية وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب لا إنشاء اللفظ الدال عليها. فعلم بهذا أن التلفظ بها عبث محض فتأمل هذه النكتة البديعة...

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا. وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «اللهم اجعل عملي كله صالحاً . واجعله لوجهك خالصاً . ولا تجعل لأحد فيه شيئاً» وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمل به فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله - سبحانه - إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة : ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ، ويقول الله تعالى^(١) : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به ، وأنا منه بريء» وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور . والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شيء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يجب مخلوقاً كما يجب الله ، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآهتهم وقد جمعهم الجحيم : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] ومعلوم أنهم مأسوؤهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة ، وإنما سوؤهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البينة

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فائدة

إذا غضب مالا وبني به رباطاً أو مسجداً أو قنطرة فهل ينفعه ذلك أو يكون الثواب للمغضوب منه؟ قال ابن عقيل: لا ثواب على ذلك لواحد منهما: أما الغاصب فعليه العقوبة وجميع تصرفاته في مال الغير آثام متكررة. وأما صاحب المال فلا وجه لثوابه، لأن ذلك البناء لما يكن له فيه نية ولا حسبة وما لم يكن للمكلف فيه عمل ولا نية فلا يثاب عليه، وإنما يطالب غاصبه يوم القيامة فيأخذ من حسناته بقدر ماله.

قلت: في هذا نظر، لأن النفع الحاصل للناس متولد من: مال هذا، وعمل هذا. والغاصب وإن عوقب على ظلمه وتعديه واقتصر المظلوم من حسناته فما تولد من نفع الناس بعمله له، وغضب المال عليه وهو لو غضبه وفسق به لعوقب عقوبتين فإذا غضبه وتصدق به أو بني به رباطاً أو مسجداً أو فك به أسيراً فإنه قد عمل خيراً وشرّاً ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وأما ثواب صاحب المال فإنه وإن لم يقصد ذلك فهو متولد من مال اكتسبه فقد تولد من كسبه خير لم يقصده فيشبه ما يحصل له من الخير بولده البار وإن لم يقصد ذلك الخير.

وأيضاً فإن أخذ ماله مصيبة فإذا انفق في خير فقد تولد له من المصيبة خير والمصائب إذا ولدت خيراً لم يعدم صاحبها منه ثواباً، وكما أن الأعمال إذا ولدت خيراً أثيب عليه وإن لم يقصده، فالمصائب إذا ولدت خيراً لم يمنع أن يثاب عليه وإن لم يقصده، والله أعلم.

(١) **وسئل** ﷺ عن الخمر؛ فقال: «ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفأدة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» ذكره مسلم.

وسأله ﷺ أم سلمة فقالت: إني ألبس أوضاحاً من ذهب، أكنز هو؟ قال: «مابلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز» ذكره مالك.

وسئل ﷺ: في المال حق سوى الزكاة؟ قال: «نعم»، ثم قرأ: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ذكره الدارقطني.

وسأله ﷺ امرأة فقالت: إن لي حلياً، وإن زوجي خفيف ذات اليد، وإن لي ابن أخ، أفيجزئني عني أن أجعل زكاة الحلي فيهم؟ قال: «نعم». وذكر ابن ماجه أن أبا سيارة سأله فقال: إن لي نخلاً، فقال: «أد العشر» فقلت: يا رسول الله أحّمها لي، فحمها لي.

وسأله ﷺ العباس عن تعجيل زكاته قبل أن يحول الحول، فأذن له في ذلك، ذكره أحمد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزلزلة
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) **الله** - سبحانه وتعالى - أقسم بالخيّل في كتابه ، وذلك يدل على شرفها وفضلها عنده ، قال تعالى : ﴿وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات : ١-٣] أقسم - سبحانه - بالخيّل تعدو في سبيله . والضبح صوت في أجوافها عند جريها . فالموريات قدحاً . توري النار بحوافرها عندما تصكّ الحجارة . ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات : ٤] النقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها ، والضمير في [به] قيل : يعود على القدح ، وهو ضعيف ، فإن الغبار لا يثار بالقدح . **وقيل** عائد على المغار المدلول عليه بقوله : فالمغيرات أي : أثرن بالمغار غباراً لكثرة جولانها فيه . ويجوز أن يعود على المغار الذي هو مصدر أي الغبار بسبب الإغارة . ويجوز أن يعود على العدو المفهوم من لفظ العاديات . والضمير في [به] الثانية مثل الأولى .

وقيل عائد على النقع أي وسطن جمعاً ملتبسات بالنقع وعلى هذا فجمع هنا بجمع العدو ، وهذا قول ابن مسعود .

وقال علي : المراد بها إبل الحاج ، أقسم الله - سبحانه - بها لعدوها في الحج الذي هو في سبيله ، وجمع الذي وسطن به هو مزدلفة أخرت وقت الصبح . والقول الأول أرجح لوجه :

أحدها : أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل ، ولهذا قال أهل اللغة : الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت ، قال الله تعالى : ﴿وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا﴾ ويقال أيضاً : ضبح الثعلب .

الثاني : وصفها بأنها توري النار من الحجار عند عدوها ، وهذا مشهود في الخيل

لقرع سنا بكها من الحديد الصفا فيتولد قدح النار من بينهما، كما يتولد من الحديد والصوان عند القدح.

الثالث: أنه وصفها بالإغارة وهي وإن استعملت للابل كما كانت قريش تقول: «أشرق ثبير كيما نغير» لكن استعمالها في إغارة الغزو أكثر.

الرابع: أنه - سبحانه - وقت الإغارة بالصبح، والحاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما يكونون بموقف مزدلفة، وقريش إذ ذاك لم تكن تغير حتى تطلع الشمس فلم تكن تغير بالصبح قريش ولا غيرها من العرب. في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في الغزو لا يغير حتى يصبح، فإذا أصبح فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار.

الخامس: أنه - سبحانه - عطف توسط الجمع بالفاء التي هي للترتيب بعد الإغارة وهذا يقتضي أنها أغارت وقت الصبح فتوسط الجمع بعد الإغارة. ومن المعلوم أن إبل الحاج لها إغارتان. إغارة في أول الليل إلى جمع، وإغارة قبل طلوع الشمس منها إلى منى. والإغارة الأولى قبل الصبح ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وبين توسط جمع وهذا ظاهر.

السادس: أن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وما حوله كله صفا، وهو واد بين جبلين لا غبار به تثيره الابل، والله أعلم بمراده من كلامه.

ومن ذلك إقسامه - سبحانه - : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فَاَلْمُورِيَّاتِ قَدْحًا * فَاَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات : ١-٣].

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - : هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبد الله بن عباس : هي خليل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

قال أصحاب الإبل. السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما

أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعاً وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح
قالوا: فهي تعدو ضبحاً، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع - وهو الغبار - بعدوها، فيتوسط جمعاً، وهي المزدلفة.
قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى والعاديات ضابحة، فيكون ضبحاً مصدراً على الأول، وحالاً على الثاني.

قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو. وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ والإيراء لا يكون إلا للحافر، لصلابته. وأما الخف فيه لين واسترخاء. انتهى.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لاختلاف الإبل. قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في [به] عائد على المكان الذي تعدو فيه.

قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلاية المكان.

قالوا: وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسط جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص. فإن هذا

شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البيئات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار، لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء.

فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته. فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به تأثرهم.

كما ذكرهم - سبحانه - بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذناً أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت.

وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما نتكلم به. وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: قدحاً، يعني: فالمنجحات أمراً، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: ﴿فَأَثَرُنْ﴾ ﴿فَوَسْطُنْ﴾ وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم لأنه سبحانه قسم أفعالها إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإبراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

فصل

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودًا بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه، وكونه بخيلًا لحبه المال. والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنودًا، مثل كفر يكفر كفورًا، والأرض الكنود التي لاتنت شيئا، وامرأة كندی أي كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعًا لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -، وأصحابه - رحمهم الله تعالى - : هو الكفور، وقيل : هو البخيل الذي يمنع رفته، ويبيع عبده، ولا يعطي في النائة. وقال الحسن : هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

^(١) **ولو علم** هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها. وأنه أولى بكل ذم وظلم وأنها مأوى كل سوء. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : «كفور ججود لنعم الله». وقال أبو عبيدة : «هو قليل الخير والأرض «الكنود» التي لانت بها. وقيل : التي لاتنت شيئا من المنافع. وقال الفضل بن عباس : «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان» . . .

^(٢) **وأما قوله :** ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧] فقال ابن عباس : يريد أن ربه على ذلك لشهيد. وقيل : إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله.

ويؤيد هذا القول سياق الضمائر. فإن قوله : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودًا، ثم ثناه بكونه شهيدًا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلًا بهاله لحبه إياه.

ويؤيد قول ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه أتى بعلي . فقال : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ أي مطلع عالم به . كقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء . فقيل وإنه بذلك لشهيد . كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧] فلو أراد شهادة الإنسان لقال : وإنه على نفسه لشهيد . فإن كنوده المشهود به ، ونفسه هي المشهود عليها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين . والشديد البخيل من أجب حب المال ، فحب المال هو الذي حمله على البخل . هذا قول الأكثرين . وقال ابن قتيبة : بل المعنى : إنه لشديد الحب للخير ، فتكون اللام في قوله : ﴿ حَبُّ الْخَيْرِ ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ على حد تعلق قولك : إنه لزيد لضارب . ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز فإن قوله : ﴿ لِرَبِّهِ ﴾ معمول ﴿ لَكُنُودٌ ﴾ ، وقوله ﴿ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ معمول ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ .

ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور . فالحق جواز أن لزيد لضارب . فوصف - سبحانه - الإنسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن إلى خلقه ، بل بخيل بشكره ، بخيل بما له ، وهذا ضد المؤمن الكريم ، فإنه مخلص لربه ، محسن إلى خلقه . فالمؤمن له الإخلاص والإحسان ، والفاجر له الكفر والبخل .

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه . كقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : ٤-٧] فالرياء ضد الإخلاص . ومنع الماعون ضد الإحسان . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

فاختياله وفخره من كفره وكنوده ، وهذا ضد قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] وقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ

وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦] وكذلك ذكر الخلقين الذميين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٧] ونظيره ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٨].

ونظيره ماتقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعيده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف - سبحانه - الإنسان الذي هذا وصفه حين يبصر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع - سبحانه - بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً»^(١) فإن الإنسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر، ويوارى قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزاً على الأرض، وسره باديّاً على وجهه. كما قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

ومفعول العلم «إن» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام. وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيداناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العاديات *

والحمد لله رب العالمين

(١) رواه البخاري وغيره وذلك في غزوة الأحزاب، وهي الخندق حين شغل المشركون النبي ﷺ عن صلاة العصر.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورة القارة بعد سورة العاديات ولكن الشيخ علي الصالحى رحمه الله تعالى لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله تعالى حول سورة القارة لذا وجب التنبيه حتى لا يظن أحد أن هذا خطأ منا أو سهو وقعنا فيه (الناشر).



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله - تعالى - : ﴿أَهْلَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها، أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

فقوله - تعالى - : ﴿أَهْلَاكُم﴾ ؛ أي شغلكم على وجه لاتعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد، فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد، كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني آنفاً عن صلاتي»، كان صاحبه معذوراً، وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث: «فلها ﷺ عن الصبي» أي ذهل عنه، ويقال، لها بالشيء؛ أي اشتغل به، ولها عنه؛ إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

والتكاثر تفاعل من الكثرة: أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غير سوى طاعة الله ورسوله، وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر.

فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه.

والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعه وتوليدها.

والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن الشخير أنه «انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت» هـ.

(١) الوجه التاسع أنه - سبحانه - أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

فأخبر - سبحانه - أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره: إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال شغللك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به.

وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقر به إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت.

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً إذا عاين تكاثره هباءً منثوراً، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره

في دنياه ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فياله تكاثراً ما أقله وزرراً ما أجله، وغنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ * كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أولاً «رب» استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه - تبارك وتعالى - فقال: ﴿ارْجِعُونِ﴾.

ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لا سبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاتته، أخبر - سبحانه - أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقول بلسانه، وأنه لورد لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحده يأبى إجابته إلى ماسأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولوردد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى . . .

(١) وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: هـ] جوابه محذوف دل عليه ماتقدم، أي لما أهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وألهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرت لما ألهاه عن موجه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه

أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجه عنه من أندر شيء. وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت - رضي الله عنه - في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤، ٣].

قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

[النبأ: ٤، ٥]. وقيل ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر. هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زرّ عن علي - رضي الله عنه - قال: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَاقُمُ التَّكَاثُرَ﴾.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى

وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة

بالاخبار المؤكد: بواو القسم، ولام التأكيد، والنون الثقيلة، عن سؤال النعيم،

فكل أحد يُسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم

لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه.

كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس، عن: عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وفي ماذا عمل فيما علم».

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه» قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة يعني من النعم أن يقال له: ألم نصح جسمك، ونرويك من الماء البارد».

وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه - قال: لما نزلت ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: يارسول الله فأبي النعيم نُسأل عنه، وإنما هو الأسودان التمر والماء. قال: «أما أنه سيكون» قال: هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما هو الأسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا، قال: «إن ذلك سيكون» وقوله: «إن ذلك سيكون» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم. وأما أن يرجع إلى السؤال أي: أن السؤال يقع عن ذلك وإن كان تمرًا وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يُجاء

بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدي الله - تعالى - فيقول الله : أعطيتك ، وخولتك ، وأنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعني آتاك به فإذا عبيد لم يقدم خيراً ، فيمضى به إلى النار .

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وترتع ، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول له اليوم : أنساك كما نسيتني » قال : هذا حديث صحيح .

وقد زعم طائفة من المفسرين : أن هذا الخطاب خاص بالكفار ، وهم المسؤولون عن النعيم ، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر : لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتحاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك للكفار ثم قرأ : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ : ١٧] .

قال الواحدي والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم .

والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول ، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم . قال : وهذا معنى قول مقاتل ، وهو قول الحسن ، قال : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار .

قلت : ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار ، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له ، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك .

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית أو لبست فأبليت؟ الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً.

ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نُسألُ عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار؟ فالصحابه فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح. **والحديث الصحيح** في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوماً» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «وأين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق^(١) فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «أياك والحلوبة» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر وقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول

(١) العذق بالفتح النخلة بحملها، والعذق بالكسر الكباسة. مختار الصحاح.

من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحتها الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله، فإن قيل: فالمؤمنون لم يلهمهم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.

وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله - سبحانه - هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فالهواء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتئ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فيقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلًا له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلًا عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا.

وقد أقسم الرب - تبارك وتعالى - أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم ، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها .
وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ، فباطل قطعاً إما عليه وأما منه ، والأحاديث الصحيحة الصريحة تردّه ، وبالله التوفيق .
ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ، ولا يليق ذلك بها ، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم .

وتأمل ما في هذا العتاب الموجه لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ، بل ارقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات ، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود .

وتأمل تعليقه - سبحانه - الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها .
وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه ، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به ، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للتكاثر كما قيل :
ولست بالأكثر منهم حصيٌّ وإنما العزّة للتكاثر
فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره ، كما كانت الكثرة حاصلة للجماعة من الصحابة ولم تضرهم ، إذ لم يتكاثروا بها ، وكل من كثر إنساناً في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكائثرته عن مكائثره أهل الآخرة .

فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه ، وتكمل به ، وتزكو ، وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك ، وينافسها في هذه المكائثر ، ويسابقها إليها ، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد .
وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم ، فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان .

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفي، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن عملاً وأغزر علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كآثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج - رضي الله عنهم - في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر - رضي الله عنهما -، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

فصل

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر ونفيًا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكما لهم به.

فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا وأخبرهم - سبحانه - أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية، بعد رؤية وأنه - سبحانه - لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرًا وأشدّها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًا وبلغها رسوله عنه وحيا.

فصل

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر. فها هنا ثلاثة أمور: عبور

السييل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار. . . .
(١) الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان.
 وحق اليقين: فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلا،
 وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقيناً، ثم ذُقت منه.
فالأول: علم اليقين. والثاني: عين التقين. والثالث: حق اليقين.
فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أرلقت الجنة في الموقف للمتقين.
 وشاهدها الخلائق. وبرزت الجحيم للغاوين. وعانيتها الخلائق. فذلك: عين
 اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق
 اليقين^(١).

(٢) قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا
 أجبتكم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.
وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. قال محمد بن
 جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله - عز وجل - عن النعيم الذي كنتم فيه في
 الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيما أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟
وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».
والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن
 شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.
فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسباً على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه،
 كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
 مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.
وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٩] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم

(١) ٤٠٣ مدارج جـ ٢.

(٢) تقدم في سورة الحاقة بحث حول مراتب اليقين لمن أراه (ج).

القيامة من الأعمال : أمن الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبُّقُه ؟
قال قتادة «مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد» .
والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس ، وفساده بإهمالها والاسترسال معها .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكاثر
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] قال الشافعي - رضي الله عنه - لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفّتهم .
وبيان ذلك : أن المراتب أربع وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله .
إحداها معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه من لا يحسنه .
الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به ، وتعليمه ، فذكر - تعالى - المراتب الأربع في هذه السورة .

وأقسم - سبحانه - في هذه السورة بالعصر : أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم الذين عرفوا الحق ، وصدقوا به ، فهذه مرتبة .
وعملوا الصالحات ، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، فهذه مرتبة أخرى .
وتواصوا بالحق ، وصّى به بعضهم بعضاً : تعليماً وإرشاداً ، فهذه مرتبة ثالثة .
وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصّى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة .

وهذا نهاية الكمال ، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل .

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله

الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ماسواه، شافيًا من كل داء هاديًا إلى كل خير.
 (١) ... وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح.

وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين.
 كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

أقسام - سبحانه - أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّلَ قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكَمَّلَ غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما - كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإن الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته.

(٢) قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]. فأقسام - سبحانه وتعالى - بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرباحة والخسارة، على أن كل واحد في خسر، إلا من كَمَّلَ قُوَّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العلمية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كَمَّلَ غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكَمَّلَ نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكَمَّلَ غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي - رحمه الله - : «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر- سبحانه - أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه، واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء: حارث وهمام».

فالحارث الكاسب العامل، والهمّام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة. وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون مُتَصَوِّرًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وتطلبته، وأرادته ولا بد

(١) الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرتة أرجح من منفعة، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمانة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله - سبحانه - بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك.

(١) ومن ذلك إقسامه (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة. هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم. حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم. قال: ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ماتهما

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم - سبحانه - بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدلهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبة تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات ومادونها - آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحملها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها. ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد. **وأن** قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد. وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به.

وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا

بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ٣]. ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر.

ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين. فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان. وقد تكون فرضاً على الكفاية. وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمرؤا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء. وهو - سبحانه - إنما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر، وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: لقد فرطنا في قراريط كثيرة^(١) فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط.

ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى - سبحانه - من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر.

(١) رواه البخاري في باب فضل اتباع الجنائز. قال الحافظ: أي من عدم المواظبة على حضور الدفن. لأن ابن عمر كان يصلي على الميت ثم ينصرف.

فإن العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوع إلى المقدور، كالمصائب. ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشارك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجردة إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «مرها فلتصبر ولتحتصب»^(١).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [مود: ١١]. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾.

فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وماخفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموثق الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر

(١) ابنته هي زينب، بعثت إليه أن ابناً لها قبض، فائتتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى» - الحديث رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد.

عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف . والله المستعان .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العصر
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعيده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة مقصودهما.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الهمزة *
والحمد لله رب العالمين

(١) ٥٢ التبيان.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورنا الفيل وقريش بعد سورة الهمزة ولكن الشيخ علي الصالحى رحمه الله لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله حول هاتين السورتين لذا وجب التنبيه على ذلك (الناشر).



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فصل

فإذا قدر أن قومًا اضطروا إلى السكنى في بيت إنسان، لا يجدون سواه، أو النزول في خان مملوك، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو رحي للطحن، أو دلو لنزع الماء، أو قِدر، أو فأس، أو غير ذلك: وجب على صاحبه بذله بلا نزاع، لكن هل له أن يأخذ عليه أجرًا؟ فيه قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد.

ومن جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل.

قال شيخنا: والصحيح أنه يجب عليه بذل ذلك مجانًا، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧] قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: «هو إعارة القدر والدلو والفأس ونحوهما».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ - وذكر الخيل - قال: «هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، وأما الذي هي له ستر: فرجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها». وفي الصحيحين عنه أيضًا: «من حق الإبل: إعارة دلوها، وإطراق فحلها». وفي الصحيحين عنه: «أنه نهى عن عصب الفحل» أي عن أخذ الأجرة عليه، والناس يحتاجون إليه، فأوجب بذله مجانًا، ومنع من أخذ الأجرة عليه. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة في جداره».

ولو احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره، من غير ضرر لصاحب الأرض. فهل

يجبر على ذلك روايتان عن أحمد يجبر والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين

(١) الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فوجه الدلالة أنه - سبحانه - علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور، فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تفكيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة، والرب - تعالى - إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وقد اختلف السلف في معنى السهو عنها، فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرهما: هو تركها حتى يخرج وقتها، وروى في ذلك حديث مرفوع، قال محمد بن نصر المروزي: حدثنا سفيان بن أبي شيبة حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثنا عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبي ﷺ عن ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها».

وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي: يا أبتاه أرايت قول الله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذاك، ولكنه إضاعة الوقت.

وقال حيوة بن شريح: أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال: هو تاركها، ثم سألته عن ﴿الماعون﴾، قال: منع المال عن حقه.

إذا عرف هذا فالوعيد بالويل اطرء في القرآن للكفار كقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانُ

لَمْ يَسْمَعْهَا ﴿﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجنّة: ٧-٩].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ، وَهُمَا ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١١] فَعَلَقَ الْوَيْلَ بِالتَّطْفِيفِ وَالْهُمَزِ وَاللُّمَزِ. وَهَذَا لَا يَكْفُرُ بِهِ بِمَجْرَدِهِ.

فويل تارك الصلاة إما أَنْ يَكُونَ مُلْحَقًا بِوَيْلِ الْكَافِرِ أَوْ بِوَيْلِ الْفَسَّاقِ. فَالْحَاقَهُ بِوَيْلِ الْكَافِرِ أَوْلَى لَوْجْهِينِ:

أَحَدُهُمَا أَنَّهُ قَدْ صَحَّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ تَرَكُوهَا لَكَانُوا كَافِرًا وَلَكِنْ ضَيَعُوا وَقْتَهَا.

الثاني مَا سَنَذِّكُوهُ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى كُفْرِهِ.

^(١) **الدليل السادس:** قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] فَعَلَقَ إِخْوَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِفِعْلِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَكُونُوا إِخْوَةً، فَلَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ وَتَصَدَّقَ الْخَبَرُ وَالْانْقِيَادُ لِلْأَمْرِ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - لَهُ ضَدِّينَ: عَدَمَ التَّصَدِّيقِ، وَعَدَمَ الصَّلَاةِ. وَقَابَلَ التَّصَدِّيقَ بِالتَّكْذِيبِ، وَالصَّلَاةَ بِالتَّوَلَّى فَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣٢] فَكَمَا أَنَّ الْمَكْذِبَ كَافِرٌ، فَالْمُتَوَلِّيُ عَنِ الصَّلَاةِ كَافِرٌ، فَكَمَا يَزُولُ الْإِسْلَامُ بِالتَّكْذِيبِ، يَزُولُ بِالتَّوَلَّى عَنِ الصَّلَاةِ.

قال سعيد عن قتادة: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ لَا صَدَقَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَلَا صَلَّى لِلَّهِ، وَلَكِنْ كَذَّبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى * ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥] وَعِيدَ عَلَى إِثْرٍ وَعِيدَ.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابن جريج: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَقُولُ: هِيَ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ. **ووجه الاستدلال** بِالْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِالْخُسْرَانِ الْمَطْلُوقِ لِمَنْ أَهْلَاهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ عَنِ

الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار. فإن المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه فأخر أمره إلى الربح. يوضحه أنه - سبحانه وتعالى - أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

أحدها: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح. أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك عالم صالح.

الثالث: إتيانه - سبحانه - بالابتداء والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

الرابع: إدخال ضمير الفصل. بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين آخرين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤] وقوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] ونظائر ذلك.

الدليل التاسع: قوله - سبحانه - : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عمن إذا ذكروا بآيات الله لم يخرجوا سجدةً مسبحين بحمد ربهم.

ومن أعظم التذكير بآيات الله التذكير بآيات الصلاة، فمن ذكّر بها ولم يتذكر ولم يصل لم يؤمن بها؛ لأنه - سبحانه - خص المؤمنين بها بأنهم أهل السجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه: فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] إلا من التزم إقامتها.

(١).... **فَالْمُؤْمِن** له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الاحسان.

(٢) **الدليل العاشر**: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُوا وَامْتَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ جُحْرُمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦، ٤٩] ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه - سبحانه تعالى - إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد.

على أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصراراً مستمراً من يصدق بأن الله أمر بها أصلاً، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصداقاً تصديقاً جازماً أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها: هذا من المستحيل قطعاً، فلا يحافظ على تركها مصداق بفرضها أبداً، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها فليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها.

وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد والجنة والنار وأن الله فرض عليه الصلاة وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو يحافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أحمل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية.

ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيماناً لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم

مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي يعتقدون أنك صادق ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق، قال - تعالى -: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الماعون
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

^(١) قال أبو نعيم الفضل : حدثنا أبو جعفر هو الرازي : حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر : ١] قال : الخير الكثير .

وقال أنس بن مالك : نهر في الجنة . وقالت عائشة : هو نهر في الجنة ، ليس يدخل أحد إصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر . وهذا معناه والله أعلم : أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل أصبعيه في أذنيه .

وفي جامع الترمذي من حديث الحريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة : بحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قره عن عبد الله بن سمرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يسقيه الله - عز وجل - من الخمر في الآخرة فليتركه في الدنيا ، ومن سره أن يكسيه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا ، وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً » .

وذكر الأعمش عن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله قال : « إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك » وهذا موقوف صحيح .

وذكر ابن مردويه في مسنده حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحرث بن عبيد حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه

الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة، ثم تصدع بعد أنهاراً».

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيدة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الحريري عن معاوية بن قره عن أنس بن مالك قال: «أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخلود في الأرض؟ لا والله أنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها للؤلؤ والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر، قال: قلت ما الأذفر: قال: الذي لا خلط له. ورواه ابن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا مهدي بن حكيم حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الحريري عن معاوية بن قره عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فذكره هكذا رواه مرفوعاً.

وقال أبو خيثمة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فقال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقاً، وإذا حافته قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ». وذكر سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن مسروق في قوله تعالى: ﴿نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] قال: من أصلها إلى فروعها أو كلمة نحوها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة».

وقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أنزل الله من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم، فذلك قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل جبريل فرفع من الأرض

القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة، فرفع ذلك كله إلى السماء، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد حرم أهلها خيري الدنيا والآخرة» ورواه أحمد بن عدي في ترجمة مسلمة هذا مع أحاديث غيره، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة، وبالجمللة فهو من الضعفاء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك، وقال أبوحاتم: لا تشتغل به.

(١) وسئل ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، هو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيوراً أعناقها كأعناق الجزر» قيل: يا رسول الله إنها لنأمة، قال: «آكلها أنعم منها».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكوثر
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣] لأن للرعد صوت عظيم من جرم عظيم والمسيح لا محالة أعظم فاستحقاقه للتسبيح من حيث يستحقه العظيما من خلقه لا من حيث كان يعلم، ولا تقل العقل في هذا الموضع، فإذا تأملت ما ذكرناه استبان لك قصور من قال: إن مامع الفعل في هذا كله سوى الأول في تأويل المصدر، وأنه لم يقدر المعنى حق قدره فلا لصناعة النحو وفق ولا لفهم التفسير رزق، وأنه تابع الحز وأخطأ المفصل وحام، ولكن ما ورد المنهل. وأما قوله - عز وجل -: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فما على بابها لأنها واقعة على معبوده ﷺ، على الإطلاق لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] أي لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو ﷺ، كان عارفاً به دونهم وهم جاهلون به، هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود، لأن العبادة متعلقة به، وليس هذا بشيء إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده - تعالى - فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ، حسداً له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصاً على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ [ما] لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك: وجه رابع، وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [يونس: ٣١] ﴿وَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فكذلك ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٥] فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الأفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا من كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَهْدِيكُمْ﴾ [يونس: ٣١] ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك، وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة مستحقاً لها فأتى بها الدالة على هذا المعنى، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي، الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظة [من] لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفاً لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد تعريفاً محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله، فإنه بديع جداً، وهذا معنى قول محققي النحاة: إن ما تأتي لصفات من يعلم ونظيره ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بها دون، من وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية. وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر:

فائدة ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة، وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة رابعة: وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراد النفي هنا بـ[لا] دون [لن].

ثم فائدة سادسة : وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات ، فينفي عبادة ماسوى الله : ويثبت عبادته ، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد . وكذلك الإثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله ، فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض ، وماسر ذلك .

وفائدة سابعة : وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم ، ثم نفي عبادتهم عن معبوده .

وفائدة ثامنة : وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ [التحريم : ٧] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة : ٦] ولم يجىء : يا أيها الكافرون إلا في هذا الموضع ، فما وجه هذا الاختصاص ؟

وفائدة تاسعة : وهي هل في قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم ، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده ، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور .

وفائدة عاشرة : وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص ، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة .

وفائدة حادية عشرة : وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار :

أحدهما : براءته من معبودهم ، وبراءتهم من معبوده ، وهذا لازم أبداً .

الثاني : إخباره بأن له دينه ولهم دينهم ! فهل هذا متاركة وسكوت عنهم ، فيدخله النسخ بالسيف ، أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة ؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة ، فقد ذكرنا منها مسألة واحدة ، وهي وقوع [ما] فيها بدل [من] فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ ، فما كان من صواب فمناه وحده لا شريك له ، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريثان منه .

فأما المسألة الثانية : وهي فائدة تكرار الأفعال ، فقليل فيه وجوه :

أحدها: أن قوله : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تُعْبُدُونَ﴾ نفي للحال والمستقبل ، وقوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مقابله أي : لا تفعلون ذلك .

وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي : لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي ، فقال : ما عبدتم ، فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم .

وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ مقابله أي : لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبدته أنا دائماً . وعلى هذا فلا تكرار أصلاً وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها ، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره ، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها .

وأما المسألة الثالثة وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم ، ففي ذلك سر وهو الإشارة والإيحاء إلى عصمة الله له عن الزيف والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره ، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام لا يرضى به بدلاً ، ولا يبغي عنه حولاً بخلاف الكافرين ، فإنهم يعبدون أهواءهم ، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم ، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبوداً وغداً غيره فقال : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تُعْبُدُونَ﴾ يعني الآن ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أنا الآن أيضاً . ثم قال : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون .

وأشبهت ما هنا رائحة الشرط ، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي ، وهو مستقبل في المعنى كما يحىء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول : مهما عبدتم من شيء فلا أعبدته أنا .

فإن قيل : وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل ، ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها . قلنا : لم نقل إنها شرط نفسها ، ولكن فيها رائحة منه ، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين ، وإيهامها في العبودات وعمومها ،

وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط بادياً على صفحاته .

فإذا قلت لرجل ما تخالفه في كل مايفعل : أنا لا أفعل ماتفعل . ألسنت ترى معنى الشرط قائماً في كلامك وقصدك ، وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإنني لا أفعله .

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى : ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩] كيف تجدد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد [من] بلفظ الماضي والمراد به المستقبل ، وأن المعنى من كان من المهد صبيّاً فكيف نكلّمه ، وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعرّبين أنه كان هنا^(١) بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه ، بل ألقوه عطلاً من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته ، فقالوا : كان زائدة ، والوجه ما أخبرتك فخذ عفوّاً ، لك غنمه ، وعلى سواك غرمة . هل على^(٢) من في الآية قد عمل فيها الفعل ، وليس لها جواب ، ومعني الشرطية قائم فيها ، فكذلك في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة : كالزجاج وغيره .

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ بخلاف قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لبعد [ما] فيها عن معنى الشرط تنبيهاً من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه ، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين .

وأما المسألة الرابعة : وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل ، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى ، فذلك والله أعلم لحكمة بديعة . وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت ، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت ، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني ، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني ، فكأنه قال : عبادة

(١) في الأصل المطبوع «نبياً» والصواب ما ذكرناه (ج) .

(٢) في المخطوطة : هذا مع أن في الآية ولعل الصواب هذا على أن (من) في الآية (ج) .

غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاً، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي .
وأما في حقهم، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي
 إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم،
 وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لما عبدتم
 غيره فليستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد
 معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾
 [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون
 عن معبودهم: إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون
 معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف، لأن من عبد غير الله
 لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجدد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبد
 المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى
 غيره، ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه عبده وأشرك به غيره، فليس عابداً لله
 ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي
 الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل
 أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

وأما المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة [لا] دون
 [لن]، فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ[لا] أبلغ منه بـ[لن] وأنها أدل على
 دوام النفي وطوله من [لن] وإنما للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد،
 وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن [لن] إنما تنفي المستقبل ولا تنفي
 الحال المستمر النفي في الاستقبال. وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد نجده في غير
 هذا التعليق، فالإتيان بـ[لا] متعين هنا، والله أعلم.

وأما المسألة السادسة: وهي اشتغال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو
 خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها
 براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين،

ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة محضة ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إثبات أن له معبوداً يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات. وطابقت قول إمام الحنفاء ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. وطابقت قول الفئة الموحدية ﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦].

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ، يقرنها بسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لانجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفواً أحد، فيكون له نظير. ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصنا له، فكان ﷺ، يفتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب. وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا تخريج جواب.

المسألة السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم اتباعها ببراءتهم من معبوده فتأمل.

وأما المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ دون يا أيها الذين كفروا فسرّه والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفاً ثابتاً له لازماً لا يفارقه فهو حقيقي أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضاً بريئاً من الله، فحقيق

بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائماً أبداً، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح .

وأما المسألة التاسعة : وهي ماهي الفائدة في قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦] وهل أفاد هذا معنى زائداً على ماتقدم .

فيقال في ذلك من الحكمة والله أعلم : إن النفي الأول أفاد البراءة، وإنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضاً لا يكونون عابدين لمعبوده .

وأفاد آخر السورة إثبات ماتضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً، فقال له : لا تدخل في حدي ولا أدخل في حدك، لك أرضك، ولي أرضي .

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نخضع به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تحتصون به، لا نشركم به .

فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه .

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت لقلوب رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة، فهي خود تزف إلى ضرير مقعد، فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهى لها، ونسأله إتمام نعمته .

وأما المسألة العاشرة : وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم

الدون الذي لا أردى منه ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاء ، فرضى مقاسمه بالسم ، فإنه يقول له : لا تشاركني في قسمي ، ولا أشاركك في قسمك ، لك قسمك ، ولي قسمي ، فتقديم ذكر قسمه ههنا أحسن وأبلغ ، كأنه يقول . هذا هو قسمك الذي أثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم .

فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح مآرضيه لنفسه من الحسن والبيان مالا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه ، والحاكم في هذا هو الذوق ، والفظن يكتفي بأدنى إشارة ، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان . ووجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ ، من دينهم ومعبودهم ، هذا هو لبها ومغزاها .

وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها ، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى أي : لا أشارككم في دينكم ، ولا أوافقكم عليه ، بل هو دين تختصون أنتم به ، لا أشرككم فيه أبدًا ، فطابق آخر السورة أولها فتأمل .
وأما المسألة الحادية عشرة : وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه ، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص .
فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة .

وقد غلط في السورة خلائق ، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف ؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم .

وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم ، وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها ، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه .

وهذه السورة أخلصت التوحيد ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم .
ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم ، ثم رأوا أن هذا

الاقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخ. وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشدّه عليه وعلى أصحابه أشداء على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبّحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد. **وقد** سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم.

فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركونا في ديننا الحق.

فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص، أفترى إذا جاهدوا بالسيف كما جاهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لكم دينكم ولي دين. بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسل ﷺ، أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يتقضى هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه. والله يعلم أني لو وجدت في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها.

وعسى الله المان بفضلله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب . وقد كتبت علي مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس ، والله المرجو إتمام نعمته .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكافرون
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) «فوالله إني لأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة» وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.

وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم غفر لي». **وصح عنه ﷺ،** أنه قال: «لن يُنَجِّيَ أحداً منكم عمَلُهُ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل».

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

(٢) **وقد قال عمر بن الخطاب للصحابه:** ماتقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ماتقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ماتعلم، وهذا من أدق الفهم والطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه - سبحانه - لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو - سبحانه - من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهراً مطهراً من كل ذنب، فيقدم عليه مسروراً راضياً مرضياً عنه، ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] وهو ﷺ، كان يسبح بحمده دائماً، فعلم أن المأمور به من

ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضاً أنه - سبحانه - شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمه الحج وقيام الليل، وكان النبي ﷺ، إذا سَلَّمَ من الصلاة استغفر ثلاثاً، وشرع للمتوضيء بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين» فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النصر
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) قال الله - تعالى - : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ١-٥] .

فسماها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك . وقال - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴿ [التحریم : ١١] فسماها امرأته . والصحابة - رضي الله عنهم - غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك ، وهم ينسبون إلى آبائهم انتساباً لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام ، وقد أسلم الجُم الغفير في عهد النبي ﷺ ، فلم يأمر أحداً منهم أن يجدد عقده على امرأته ، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم . وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لأبائهم ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام (٢) .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المسد

والحمد لله رب العالمين

(١) ٣٠٨ أحكام أهل الذمة ج ١ .

(٢) تقدم في سورة الأحزاب عند ذكر زوجات النبي ﷺ ماله علاقة بهذا لمن أراده (ج) انظر في هذا الكتاب ج ٤ ص ٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) فائدة جلية

مايجري صفة أو خبراً على الرب تبارك - وتعالى - أقسام :

أحدها: مايرجع إلى نفس الذات : كقولك : ذات ، وموجود ، وشيء .

الثاني: مايرجع إلى صفات معنوية : كالعليم ، والقدير ، والسميع .

الثالث: مايرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرازق .

الرابع: مايرجع إلى التنزيه المحض ، ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض : كالقدوس ، السلام .

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس ، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة ، لا تختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد ، العظيم الصمد . فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا ، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ، فمنه : استمجد المرخ والغفار ، وأمجد الناقة علفاً . ومنه ﴿ذُو(٢) الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترباً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه ، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه ، كما تقول : اغفر لي ، وارحمي ، إنك أنت الغفور الرحيم . ولا يحسن أنك أنت السميع البصير ، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه . ومنه الحديث الذي في

(١) ١٥٩ بدائع ج١ .

(٢) في المطبوعة «رب» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف المراجع .

المسند والترمذي «أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلال والإِكْرام» ومنه «اللهم أني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإِكْرام» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسئول وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلى المقصود، وهو وصفه - تعالى - بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

وكذلك الصمد قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن يربوع وبالسيد الصمد
والعرب تسمى أشرافها بالصمد، لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعها، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمل أنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه - تعالى - إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن

لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتاً كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لتفرد به كماله وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه - تعالى - أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمرید والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنی ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه: كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد. كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤده، والشریف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤده، وهو الله سبحانه. هذه صفته لا تنبغي إلا

له، ليس له كفواً أحد، وليس كمثله شيء، سبحانه الله الواحد القهار، هذا لفظه. وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم دون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علماً بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

(^١) وهو سبحانه قد وصف نفسه بأنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] بعد وصفه نفسه بأنه الصمد. والصمد السيد الذي كمل في سؤده. ولهذا كانت العرب تسمي أشرفها بهذا الاسم لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به. قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد
فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرغبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه. ولهذا قال جمهور السلف، منهم ابن عباس: الصمد الذي كمل سؤده. وهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحليم الذي كمل حلمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإن ما لم يكن أحد كفواً له لما كان صمداً كاملاً في صمدانيته، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر، ولا يقوم به فعل، ولا يفعل شيئاً ألبتة، ولا له حياة ولا إرادة، ولا كلام ولا وجه، ولا يد، ولا هو فوق عرشه ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فاعل لما يريد، ولا يُرى، ولا يمكن أن يُرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه لكان العدم المحض كفواً له فإن هذه الصفة منطبقة على المعدم. فلو كان مايقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمداً وكان العدم كفواً له...

(^٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] هو سلب عن المخلوق

مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفؤاً لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله - سبحانه - في شيء من صفاته وخصائصه، أما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هونٌ له ولا كُفُو، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يُعدَّ هذا مدحاً، ولا ثناء عليه، ولا كمالاً له، بخلاف ما إذا قيل: لا تُجعل للملك ندّاً ولا كفؤاً، ولا شبيهاً من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يُساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

^(١) **ونظير** هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: قل هو الله أحد. كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة (قل) تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيز من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه، بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

^(٢) **ولما** كان القرآن شطرين: شطراً في الدنيا، وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها، من أفعال المكلفين وغيرها. وشطراً في الآخرة، وما يقع فيها، وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها: كانت تعدل نصف القرآن.

فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحاً. والله أعلم.

ولهذا كان ﷺ، يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، لأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، وكان يفتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

فصل

وكان ﷺ، يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في الصحيحين من حديث عائشة - رضي الله عنها - وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عنه ﷺ، أنه قال: «إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن» قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح. وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبد الواحد بن زياد، وغلط فيه، انتهى.

وأما ابن حزم ومن تابعه: فإنهم يوجبون هذه الضجعة. ويبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعها بهذا الحديث. وهذا مما تفرد به عن الأمة. ورأيت مجلداً لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب، وقد ذكر عبد الرزاق في المصنف عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين «أن موسى ورافع بن خديج وأنس بن مالك رضي الله عنهم كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك» وذكر عن معمر عن أيوب عن نافع: أن ابن عمر كان لا يفعله ويقول: كفى بالتسليم.

وقد اختلف الفقهاء أي الصلاتين أكد: سنة الفجر، أو الوتر، على قولين: ولا يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر. فقد اختلفوا أيضاً في وجوب سنة الفجر.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمة. ولذلك كان النبي ﷺ، يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي

الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى.

فَسُورَةٌ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى: من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة لجميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفاء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يباين معتقده جميع فرق الضلال والشرك. ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلّصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي. ولما كان العلم قبل العمل، وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه، ومنزله منازل: كانت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي التواتر. و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه «إِذَا زُلْزِلَتْ» تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن^(١) ورواه الحاكم في المستدرک، وقال: صحيح الإسناد.

(١) رواه الترمذي من حديث أنس في فضل إذا زلزلت - من رواية الحسن بن سلم بن صالح العجلي عن ثابت عن أنس - ثم قال: هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم. وروى حديث ابن عباس في فضل سورة الإخلاص وإذا زلزلت، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث بيان بن المغيرة العتري عن عطاء عن ابن عباس اهـ. والحسن بن سلم قال عنه الحافظ

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يبدله العلم على بطلانه وضرره، لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه. فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجيء مثله في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإخلاص
والحمد لله رب العالمين

= في التهذيب: شيخ مجهول، له حديث واحد في فضل إذا زلزلت. أخرجه الترمذي واستغربه. وكذا فعل الحاكم أبو أحمد. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الاثبات. وقال عن بيان: قال الدوري عن ابن معين: ليس حديثه بشيء. وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث يروى المناكير.

سُورَةُ الْفَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل^(١)

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٦] وقوله : ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨] . وقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] ، ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعبد من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري له، فدل على أن فعله مقدور له - سبحانه - إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه، وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة، وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية ردًا على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله، وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابتا كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق .

(٢) ... وبالجملته فالكلمة الجامعة لهذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه حيث يقول : «والشر ليس إليك» فالشر لا يضاف إلى من الخير بيديه، وإنما ينسب إلى المخلوق : كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فأمره أن يستعبد به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعبد منه وينجي منه .

وإذا أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من

ذكره والثناء عليه ، وجوارحه من شكره وطاعته فلم يرد من نفسه ذلك ونسي ربه ، لم يرد الله - سبحانه - أن يعيده من ذلك الشر ، ونسيه كما نسيه ، وقطع الإمداد الواصل إليه منه ، كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوى التي تناله من عباده . قال تعالى : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] ، فإذا أمسك العبد عما ينال ربه منه ، أمسك الرب عما ينال العبد من توفيقه

وقد صرح - سبحانه - بهذا المعنى بعينه في قوله - تعالى - : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] . أي نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ، وقال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ فعدم إرادته تطهيرهم وتخليته بينهم وبين نفوسهم أوجب لهم من الشر ما أوجبه .

فالذي إلى الرب ويبيده ومنه هو الخير ، والشركان منهم مصدره ، وإليهم كان منتهاه . فمنهم ابتدئت أسبابه بخذلان الله - تعالى - لهم تارة ، وبعاقبته لهم به تارة ، وإليهم انتهت غايته ووقوعه .

فتأمل هذا الموضع كما ينبغي ، فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس ، ولم يهتدوا إلى الجمع بين : الملك ، والحمد ، والعدل ، والحكمة .

(١) روى مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ألم تر^(٢) آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : أعوذ برب الفلق ، وأعوذ برب الناس» .

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة : «أن رسول الله ﷺ قال له : «ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قلت : بلى . قال : «قل : أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس» . وفي الترمذي : حدثنا قتيبة ، نا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال : «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة» . قال : هذا حديث غريب .

(١) ١٩٨ بدائع ج-٢ .

(٢) قال النووي في شرح مسلم ضبط نر بالنون المفتوحة وبالياء المضمومة وكلاهما صحيح .

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل» قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: «قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تسمي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضاً من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ما سواهما، قال: وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب».

وفي الصحيحين عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ«قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً» ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يده من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به».

قلت: هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده رجاء بركتها»، وكذلك: قال معمر عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها، فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه». ذكره البخاري أيضاً، وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك.

وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا^(١) ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرأها على رقيته أن يكون مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على

(١) كيف والنبي ﷺ سيد المتوكلين، وقال - عليه السلام -: «يدخل الجنة سبعون ألفاً وهم قوم لا يرقون ولا يسترقون ولا يكونون ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون». وقد يقال: فعل ذلك لبيان الجواز تأمل.

بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيقته، والله أعلم.

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتها وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنها أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصاً في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس.

فنقول والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: وهي أصول الاستعاذة. أحدها: نفس الاستعاذة. والثانية: المستعاذ به. والثالثة: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة. والفصل الثاني في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

الفصل الأول

اعلم أن لفظ: عاذ، وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً، كما يسمى ملجأ ووزراً.

وفي الحديث: أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك». فمعنى أعوذ التجيء وأعتصم وأتحرز.

وفي أصله قولان: أحدهما أنه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عُوذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذاً، فكذلك العائد قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة. فإن العرب تقول: للحم إذا لصق بالعظم فلم

يتخلص منه عوذ لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائد، قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيز مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به، ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً.

وقصده به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائد قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقى بنفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعين لم تخلق له شهوة أصلاً فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائد، وأصله عاوذ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف، وقالوا في المصدر: عياذاً بالله، وأصله عواذاً كلواذ، فقلبوها الواو ياء لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها، إلا أنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيز. وأصله مستعوذ: كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها^(١)، قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياء على أصل الباب.

(١) لعل صواب العبارة فكسر ما قبل الواو فقلبت إلخ أو نحو ذلك.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: فاستعذ بالله. ولم تدخل في الماضي والمضارع بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعذت بالله دون أستعيز وإستعذت.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيز بالله، أي أطلب العياد به، كما إذا قلت: أستخير الله. أي: أطلب خيرته وأستغفره أي أطلب مغفرته وأستقيله أي أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذاناً لطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور: أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيز هارباً ملتجئاً معتصماً بالله أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمل.

وهذا بخلاف ما إذا قيل استغفر الله فقال: استغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله فإذا قال: أستغفر الله كان ممثلاً لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيز بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه. فالأول مخبر عن حاله وعايذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني؛ فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امثال هذا الأمر: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - وأعوذ بكلمات الله التامات - وأعوذ بعزة الله وقدرته». دون أستعيز؛ بل الذي علمه الله إياه أن يقول: ﴿أعوذ برب الفلق﴾ ﴿أعوذ برب الناس﴾ دون أستعيز؛ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

فإن قلت: فكيف جاء امثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد لله، وقل: سبحان الله؛ فإن امثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ. فقال البخاري في صحيحه: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، ثَنَا سَفْيَان، عَنْ عَاصِمٍ، وَعَبْدَةَ عَنْ زُرَّارٍ^(١)، قَالَ: «سَأَلْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوَّذَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قِيلَ لِي: فَقُلْتُ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

ثم حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، ثَنَا سَفْيَان، ثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ، زُرَّابْنُ حَبِيشٍ، وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ عَنْ زُرَّارٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: أَبَا الْمُنْذَرِ: إِنْ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ قِيلَ لِي فَقُلْتُ قُلْ فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

قلت: مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي. وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله.

وقد قال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «قِيلَ لِي فَقُلْتُ»، أي: أُنِي لَسْتُ مُبْتَدِئًا، بَلْ أَنَا مُبْلَغٌ، أَقُولُ كَمَا يُقَالُ لِي: وَأُبْلَغُ كَلَامَ رَبِّي كَمَا أُنْزِلُهُ إِلَيَّ. فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي. وهذا النظم كلامه ابتداءً هو به.

ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له، قل: قال: هو قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

(١) هو ابن حبش الآتي بعد.

الفصل الثاني

في المستعاذ به، وهو الله وحده: رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيزين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر - تعالى - في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه: فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً، أي طغياناً وإثماً وشرّاً يقولون سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاضم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات». وهو ﷺ لا يستعيز بمخلوق أبداً.

ونظير ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك».

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته». وقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيز إلا بالله أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله - سبحانه - يدعى بأسمائه الحسنی فيُسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلها»، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه فتبين المناسبة المذكورة فنقول.

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدّهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره وذلك الغير. إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى^(١)، وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيها.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموماً. الثاني: شر الغاسق إذا وقب.

الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم عن هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرز منها

قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها. وقبل الكلام في ذلك لابد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

(١) جمع حمة كثة وهو السم أو الإبرة التي يضرب بها الزنبر والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام. ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيق شهوي لكنه مسموم إذا تناوله الأكل لذ لا كله وطاب له مساعه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته!!

فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل.

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل

شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولا بد. وأما كون مسبباتها شروراً فلائها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات.

ولو تفتن العاقل اللبيب لهذا حق التفتن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فلو تيقظ حق التيقظ، لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاتته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه. فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: عذاب القبر، وعذاب النار. فهذان أعظم المؤلمات. وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال. وهذان سبب العذاب المؤلم فالفتنة سبب العذاب. وذكر الفتنة خصوصاً وعموماً. وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت، ففتنة الحياة قد يترأخى عنها العذاب مدة.

وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعاتت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من أكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير.

وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل،

والجبن والبخل، وضلع الدين^(١) وغلبة الرجال». فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان.

فالههم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها. والفرق بينهما أن الههم توقع الشر في المستقبل. والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزناً، وإن تعلق بالمستقبل سمي همّاً.

والعجز والكسل قرينان؛ وهما من أسباب الألم لأنها يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنها عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه دونها أيضاً، فهذا الخلقان من أعظم أسباب الآلام **وضلع الدين** وقهر الرجال قرينان؛ وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها. أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال. وأيضاً فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ «من المأثم والمغرم»، فإنهما يسببان الألم العاجل. **ومن** ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك». فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

(١) ضلع الدين: ثقله.

فصل

والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما موجود يطلب رفعه، والثاني معدوم يطلب بقاءه على العدم، وأن لا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله - تعالى - حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: ﴿وَتَوْفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعها بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعده على السنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا فقلوه ﷺ في تشهد الخطبة: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم، لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد. وأما قوله: من «سيئات أعمالنا» ففيه قولان: أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود، فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً لكنه دفع المسبب، والأول دفع

السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منها عوفي من الشر بحذافيره، ويطرح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

فصل

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهى، وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور.

شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره تارة أخرى.

وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم».

فذكر مصدري الشر وهما: النفس، والشيطان. وذكر مورديه ونهايته، وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

فصل

فإذا عرف هذا فلتتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين :
الشر الأول العام في قوله : ﴿مَنْ شَرٌّ مَّا خَلَقَ﴾ وما ههنا موصولة ليس إلا ،
والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب - تعالى - الذي هو فعله
وتكوينه ، فإنه لا شر فيه بوجه ما .

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك
وتعالى ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه
كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما .

وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً ، ولو فعل الشر - سبحانه -
لاشتق له منه اسم ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ، ولعاد إليه منه حكم - تعالى
وتقدس عن ذلك - . وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم
هو خير محض ، إذ هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم ،
فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا في فعله القائم به تعالى .

ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة ، فإنه خالق الخير والشر .
ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال :

أحدهما : أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً ،
يكون وصفاً له ولا فعلاً من أفعاله .

الثاني : أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب
وتكوينه به ، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه ، فله وجهان هو من أحدهما
خير ، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق - سبحانه وتعالى - خلقاً وتكويناً ومشية
لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها .

وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مباديء معرفتها فضلاً عن حقيقتها ، فيكفيهم
الإيمان المجمل بأن الله - سبحانه - هو الغني الحميد ، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته
المنافية لغناه أو لنقصه ، وعيبه المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد

فعلاً. وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شراً هو أمر إضافي وهو نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبه ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، وكتاب الفتح القدسي، وغيرهما. وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة. أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم يقتل من يصلو عليهم في دمائهم وحرمااتهم، وجلد من يصلو عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصلو عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصلو على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل، فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وإنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته ورحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه؛ وكلاهما مقتضى عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابيه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها. كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُحْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الفلم: ٣٥]. وقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَنَّا هُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. [ص: ٢٨].

فإنكر - سبحانه - على من ظن هذا الظن، ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته، وعزته وإلهيته: لا إله إلا هو تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة^(١) الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام.

كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أمواهم وحریمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفع وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله.

هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقبححت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بإعدائه الصادين عن سبيله، الساعين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه، ويبغضون

(١) معطوف على مجرور [على] وهو استقباح اهـ.

ما يحبه، وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكَ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعتابا وجلالة وتهديداً، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا، فأبى ذلك، فطرده، ولعنه، وعاداه من أجل إباته عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطرده إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدواً لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، فليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها فيقولون: نعم إنه لا مثل له. فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق فيخرون له سجداً.

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة! ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق! فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه، إن أوليائه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فصل

إذا عرف هذا عرف معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «ليبك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك»، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال : والشر لا يتقرب به إليك . وقول من قال : والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه، وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر.

بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته - تبارك وتعالى - عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقوله : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

وتارة يحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن : ﴿وَأَنَا لَا نَذَرُ أَشْرًا أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه - سبحانه - والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

ومثله قوله الخضر في السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومثله قوله : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]،
فحذف الفاعل المزين.

ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية^(١)، وبيننا هناك السر في مجيء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٠١]، والفرق بين الموضعين وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيهِ واقعاً في سياق الذم أو منقساً، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وبالجمله فالذي يضاف إلى الله - تعالى - كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

فصل

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من: حيوان، أو غيره، إنسياً، أو جنياً، أو هامة، أو دابة، أو رجلاً، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» ههنا عموم، قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه.

(١) ذكرنا في المقدمة أن جنس هذه الإحالة تنطبق على مفتاح دار السعادة حيث ذكر هذا المبحث فيه بتفصيل

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله . فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك .
وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه». رواه مسلم .

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد». وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذراً وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذراً في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

فصل

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب، فهذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين إنه الليل . قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق الظلمة يقال: غسق الليل وأغسق إذا ظلم . ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] .
وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس . وقال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار . وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: أنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد . وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧] . وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا* إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [البناء: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرهما . وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده .

ولا تنافي بين القولين، فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح، والنور، ومن شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت : أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال : «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه .

وقيل هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد بصحته، فإن الله - تعالى - قال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضاً غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق، وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره .

ونظيره هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوى، وقد سئل عنه؟ فقال : «هو مسجدي هذا»، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك .

ونظير أيضاً قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين - رضي الله عنهم أجمعين - : «اللهم هؤلاء أهل بيتي» فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ : أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته .

ونظير هذا قوله : «ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يفتن له فيتصدق عليه»، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له .

ونظير هذا قوله: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب» فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى، ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك. فكَذلك: قوله في القمر: هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمر إذا خسف واسود، وقوله: وقب أي دخل في الخسوف أو غاب خاسفاً.

قيل: هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفاً، والنبى ﷺ لما أشار إلى القمر وقال هذا الغاسق إذا وقب لم يكن خاسفاً إذ ذاك، وإنما كان هو مستنير ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «هذا هو الغاسق» ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه، فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبس.

وأيضاً فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه. وأيضاً فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وقبت العين إذا غارت. وركية وقبا: غار مأوها. فدخل في أعماق التراب.

ومنه الوقب: للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوباً إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها، قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

فصل

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «فاكتفوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء». وفي حديث آخر: «فإن الله يبعث من خلقه ما يشاء»، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة على أهل الظلمة. وروي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

وسأل النبي ﷺ كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار» فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن.

فصل

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب، أو كن، أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها. ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

كَفَرُوا أُولَآئِهِمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] فالإيمان كله نور ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرُونَ عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا نظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

فصل

واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلماً قفل بمعنى مفعول: كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

والله - عز وجل - فلق الإصباح، وفلق الحب والنوى، وفلق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلماً وفاقاً. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه، وكما أن في خلقه فلماً وفاقاً، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه الفرقان، ونصره فرقاناً لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلماً، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرُونَ قدره: وأنه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فصل

الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر والنفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو: أن بنات لبيد بن أعصم سحرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا

بسديد، فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح .
والجواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم .

ففي الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : « أن النبي ﷺ طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال : « أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه »، فقالت عائشة : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ قال : الآخر مطبوب، قال : من طبه، قال : لبيد بن الأعصم، قال : فيماذا ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع ذكر، قال : فأين هو ؟ قال : في ذروان بثر في بني زريق »، قالت عائشة رضي الله عنها : فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال : « والله لكأن ماءها نقاعة الحنا، ولكأن نخلها رءوس الشياطين »، قال : فقلت له : يا رسول الله هلا أخرجته ؟ قال : « أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شراً » فأمر بها فدفنت .

قال البخاري : وقال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاقة . ويقال إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان . قلت : هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجها بكماء بمعافة الله له وشفائه إياه .

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال : أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال ياعائشة : « أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب، قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف لليهود، وكان منافقاً، قال : وفيه قال ؟

في مشط ومشاقة، قال: وأين قال؟ في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أي تنشرت، قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً. ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب: هل يستخرج السحر.

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويؤخذ عن امرأته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به إنها يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه، ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي، وقول عائشة: هلا استخرجته أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجيء إليه لينظر إليها، ثم ينصرف إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم. وهذا الحديث: ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته.

وقد اعتاض على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب. وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار: ﴿إِنْ تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾

[الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين؟ وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط.

وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاهم اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت هاتان السورتان فيه.

قال البغوي: وقيل كانت مغروزة بالدبر، فأنزل الله - عز وجل - هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست (*) آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان.

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء

(*) في الأصل المطبوع: خمس آية وسورة الناس ستة آيات. والصواب ما أثبتناه. المراجع.

فقد أغمى عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه^(١) وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء فابتلوا من أعظم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس يبدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد أشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أريقك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أريقك». فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكى فدل على أن هذا التعوذ مزيل لشكايته ﷺ وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

قالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله - تعالى - عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾، فقليل: المراد به من له سحر، وهي الرثة، أي: أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مُرضٍ وهو في غاية، البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿بَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرثة، وأي مناسبة لذكر الرثة في هذا الموضع؟ ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]. أفتراه ما علم أنه له سحراً، وأنه بشر، ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى، وقال: نعم أنا

(١) في الحديث أنه ﷺ سقط من فرس فجحش شقه أي انخدش جلده اهـ. نهاية.

بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم، لما قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]. ولم ينكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم: ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي: عالم بالسحر، وهذا جيد، إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحره غيره: كالمطبوب والمضروب والمقتول (وبابه) وأما من علم السحر فإنه يقال له: ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحر غيره، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفرعون قذفه بكونه مسحوراً، وقومه قذفوه بكونه ساحراً، فالصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور: مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]، مثلك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء ومهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه - سبحانه - كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلل بهم من بعدهم من أمهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيتهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه.

فصل

وقد دلّ قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل، ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وحلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً، وغير ذلك من الآثار الموجودة تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضاً: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غير إحساسه حتى صار

يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حياً، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً والبغيض إليه محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات.

وقد قال - تعالى - عن سحرة فرعون: **إِنَّهُمْ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ** ﴿[الأعراف: ١١٦]﴾، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصر والبساط ينجر، ولا ترى الجار له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانتة بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيتها مثل الزئبق وغيره حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة.

فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيلاً، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحراً، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: **﴿فَإِذَا جَآءَهُمْ وَعَصِيهِمْ فَيَخِيلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ سَحَرَهُمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى﴾** ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون، لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى. وأيضاً: لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء، لكان طريق إبطائها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتاج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها

حذاق الصنّاع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضاً فإنه لا يقال في ذلك: إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها. وبالجملّة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

فصل

الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤدي المحسود فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذ بیده ولا لسانه فإن الله - تعالى - قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهمة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعد بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ وفيها «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجرد ما إذ لو نظر إليه نظر ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئاً، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه

مقتلاً وربما صرعه وأمراضه والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر. **وهذه** العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع.

وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبي ﷺ في الأبر وذي الطفيتين منها وقال: «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل»، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية وأنسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فالله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه يقول طيبه لا أعلم داءه ما هو، فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها، وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى، وهل الأنفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وإن ثم عالماً آخر تجري عليه أحكام آخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي اتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام على عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أهر وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقت الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات كيف ذهبت كلها مع الروح وبقي الهيكل سواء هو والتراب، وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر، فرب رجل عظيم الهيولا كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك، وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل وماذاك إلا للطفة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً.

فصل

والعائنين والحاسدين يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائنين تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته. والحاسدين يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضاً. ويفترقان في أن العائنين قد يصيب من لا يحسده من جهاد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين. وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾. [القلم: ٥١]، إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته.

وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينتان فيعينها، ثم يقول لخدمته: خذ المكنل والدرهم واثنائنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما

تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره، فعصم الله رسوله، وحفظه، وأنزل عليه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾. هذا قول طائفة:

وقالت طائفة أخرى: منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدثون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلاً اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره. حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك. قال عبدالرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق» «ونهى عن الوشم».

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاع: «أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله: إن ابني جعفر تصيبهم العين أفنسترقى لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظر يكاد يزلقه، لولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال: إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق. وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان». فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها:

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي، حدثني أبي: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا شيء في الهام، والعين حق». وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يقول لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا». وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وهذا حديث صحيح.

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا - والله أعلم - إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه^(١) وطبعها ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا - والله أعلم - قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرى كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

(١) في نسخة أخرى: هو من نفس الحاسد وطبعها. المراجع.

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنها يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس التي تقرن بها الأفعال والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر، فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبتهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٠٢] والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في^(١) موضع غير هذا إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وإنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾

(١) الجار والمجرور خبر قوله: والكلام على أسرار هذه الآية اهـ.

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما؛ ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبد من دون الله حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب «السحر والسر المكتوم» من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ؛ ولهذا سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق وذراً وبراً».

والمقصود أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر. لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به، ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانتة بالشياطين.

فصل

وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمها كما سيأتي بيانها، والحسد يعمها أيضاً، فكل الشيطانين حاسد موسوس. فلاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها. شرّاً عاماً وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان. ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهي نوعان أيضاً، لأنها من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشیطان، ويعبده، وهو الساحر، وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشیطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصده به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق. والساحر وإن لم يسم هذه عبادة للشیطان فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقيل الأرض بالجهة، كما أقبلها بالنعيم، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله، فليسمه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشیطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يجب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً ما، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود أن هذا عبادة منه للشیطان، وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أُعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَابْنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء وأشباهم عباد الجن والشیاطين، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده.

فصل

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدُ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيجسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضاً لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمنى الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: أحدها هذه.

الثانية: تمنى استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسي، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث حسد الغبطة وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على ملكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها،

ويعلمها الناس» فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمصارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيز بولي النعم وموليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويحير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فلا تستبطيء نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء. وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠] وقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

فصل

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب .

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه .

والسميع هنا المراد به سميع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده». وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنِّي رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه، ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن: كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم في [الأعراف، وحم السجدة] وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسونه، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في [سورة حم المؤمن] فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء أفعال معانية ترى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم^(١).

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك،

(١) سيأتي لهذا البحث زيادة تحت عنوان: قاعدة نافعة. (ج).

احفظ الله تجده تجاهك» فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولن يحذر؟!

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل : الصبر عليه ، والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيرهِ وبغيهِ ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولورأى المبغى عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ ﴾ [الحج : ٦٥] .

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بُغِيَ عليه وهو صابر .

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سنة الله : أنه لو بُغِيَ جبل على جبل جعل الباغي منها دكاً .

السبب الرابع : التوكل على الله ﴿فمن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ ، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حسبه أي كافيهِ ، ومن كان الله كافيهِ وواقية فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى ، لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وأضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشقى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] ولم يقل نوته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه - سبحانه - كاف عبده ، المتوكل عليه ، وحسبه ، وواقية ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك ، وكفاه ، ونصره . وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة

العبد إليه في: ﴿كتاب الفتح القدسي﴾ وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبيننا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإيَّاه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبث، فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر، حتى يهلك أحدهما فإذا جذب روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله.

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ماتأكله أكل بعضها بعضاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعد صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قياً، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا **بالسبب السادس** وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه

والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيتها، تدب فيها ديب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه، وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبه المحسن إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه.

هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب، لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته، بل إذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها، ونزل بها ما لك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور؟! قال - تعالى - حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه عليه السلام: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها ، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره .
وفي الدعاء المشهور : « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » . فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .

ولقي بعض السلف رجل ، فأغلظ له ، ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك . فدخل ، فسجد لله ، وتضرع إليه وتاب ، وأتاب إلى ربه ، ثم خرج إليه ، فقال له : ما صنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها ، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها وبإصلاحها ، وبالتوبة منها ، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد ، فما أسعده من عبد ! وما أبركها من نازلة نزلت به ! وما أحسن أثرها عليه ! ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا ، لا معرفة به ، ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيراً عجبياً في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به ، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق ، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة .

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه ، وصدقته عليه من الله جنة راقية وحصن حصين . وبالجمله فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها .

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا ينسى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحيث يبرد أنينه، وتنطفئ ناره، لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرّاً وبعياً وحسداً ازدادت إليه إحساناً وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ (١) أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» (٢) كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه.

أحدها عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع استطاعاه لهم بإضافتهم إليه، فقال: ﴿اغْفِرْ لِقَوْمِي﴾ كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به. هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي.

(١) هذه الجملة ليست في بعض الأصول ولعل حذفها هو الصواب فإن المعروف أن نبينا ﷺ هو الذي ضربه قومه إلى آخره اهـ. وكذا في المخطوطة.

(٢) متفق عليه. المراجع.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطييه إليها وينعمها به . اعلم أن لك ذنباً بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ، ويغفرها لك ، ويهبها لك . ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله .

فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ، ليعاملك الله هذه المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك ، يفعل الله معك في ذنبك وإساءتك جزاء وفاقاً ، فانتهم بعد ذلك أواعف وأحسن أو أترك ، فكما تدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره ، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه . هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم ، وهم يسيئون إليه ، فقال : « لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك »^(١) .

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلهم معه على خصمه ، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسيء إليه ، وجد قلبه ودعاه وهمته مع المحسن على المسيء ، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرياً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً .

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين . إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبده ، وينقاد ، له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه . وأما أن يفتت كبده ، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه ، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه .

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله هو الموفق المعين ، بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه .

(١) أخرجه مسلم . المراجع .

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجله وآجله، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولا بد.

وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الأمنين.

قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه

غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره ولا يستغيث بسواه ولا يرجو إلا إياه.

ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سلط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرّم خيره، هذه سنة الله في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فصل

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه. ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد.

وقد افترق العالم في هذ المقام أربع فرق:

فرقة أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما البتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام. وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إنها يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن

سينا وأتباعه على هذا القول حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبتته الله تعالى من صفاتها وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لا يعيدهم منه ولا يجرهم إلا الله، فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل أو معه باطل وحق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفلق
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

وأما سورة الناس: فقد تضمنت أيضاً: استعاذة، ومستعاضاً به، ومستعاذ منه، فلا استعاذة تقدمت. وأما المستعاذ به فهو الله: ﴿رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلاهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم. فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتديريهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتديره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه

شريكاً في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه .

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة .

وإذا كان وحده هو ربنا وملكننا وإلهنا، فلا مفرع لنا في الشدائد سواء، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه : إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبدك الحق، فهو ملك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه .

أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك .

وهو الإله الحق : إله الناس الذي لا إله لهم سواه .

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيتهم، وحسبهم، وناصرهم، ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكة وإلهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضرراً وأبلغهم كيداً .

ثم إنه - سبحانه - كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمهر موقعه، فيقول : رب الناس، وملكهم، وإلههم، تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة .

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة .

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخر الإلهية لخصوصها لأنه -

سبحانه - إنما هو إله مَنْ عبده ووحده واتخذهُ دون غيره إلهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق، واتخذ إلهاً غيره.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبداع نظام وأحسن سياق: رب الناس، ملك الناس، إله الناس. وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنی.

وأما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنی فإن الرب هو: القادر، الخالق، الباريء، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنی.

وأما الملك فهو الأمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معني الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنی: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكيم، العدل الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنی، ولهذا كان القول الصحيح: إن الله أصله الإله،

كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنی والصفات العلی.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنی.

فكان المستعید بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه وإن باديهِ^(١) إلى الخافي يسير.

فصل

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل. فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

فصل

إذا عرف هذا فالوسواس فعال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي لا يحس، فيحترز منه. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس: إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقى إليه. وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقليل وسوسة الحلي، لأنه صوت مجاور للأذن: كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له. ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس،

ويؤكدده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه: كالدوران، والغليان، والنزوان وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وككبك الشيء، لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك ككبك الشيء، إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًا بعد كب كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ **ومثله** رضره إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله ذرذره إذا ذره شيئاً بعد شيء، ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله مططم الكلام إذا مطه شيئاً بعد شيء، ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه، وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر فإذا قلت: ذر الشيء، وصر الباب، وكف الثوب، ورض الحب لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف: ذرذر، وصرصر، ورضرض ونحوه، فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية، في الحذو بالألفاظ حذو المعاني وقد تقدّم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوّت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك: ثج الماء إذا صب، فإن تكرر ذلك قبل ثجثج، والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس^(١).

(١) ما يلي هذا بحث لغوي مطول اختصرناه (ج).

فصل

وأما الخناس: فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى. ومنه قول أبي هريرة: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه». **وحقيقة** اللفظ اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل، وتخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى. وكذلك قال - علي رضي الله عنه -: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

وقالت طائفة الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة، قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والخناس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير.

فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوسوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به، انخنس، وانقبض: كما ينخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضاً تجمع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء. وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً. قال قتادة: الخناس له خرطوم: كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

ويقال: رأسه كرأس الحية، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمينه ويحدته، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه، وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعه التي يقمع بها: كما يقمع الفساد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فذكر الله يقمع الشيطان ويؤله ويؤذيه: كالسياط والمقامع التي تؤذي من

يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيراً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد، وليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعل الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

فصل

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس. **وقد** جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يارسول الله! فقال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» - أو قال - شيئاً.

وفي الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قُضي أقبل،

فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثاً صلي أم أربعاً؟ فإذا لم يدر أثلاثاً صلي أم أربعاً سجد سجدتي السهو».

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته».

وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «يارسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يجر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿إِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾. [الكهف: ٦٣].

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة وزينها له، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهى وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ أَزَاكُ﴾

[مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بالطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا^(١) برضاه أن يصير قواداً الكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة وصار قواداً لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، ولهذا وصفه بها لتكون الاستعادة من شرها، أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً. فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبني البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبني بيوتهم بغير أمرهم، ويدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به. وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة. ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة.

كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام: ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنى فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله اهـ.

عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه». رواه البخاري.

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيص له ما يبطل أثره ويرده على حافرتة.

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم. وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم. ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالع في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة. ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله فهو ساعٍ بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. ويكفي من شره أنه تصدَّى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعته إليه. وتصدى لذكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً.

وتفلت على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة، فجعل

النبي ﷺ يقول: «ألعنك بلعنة الله».

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ . فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعازته .

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبته معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى .

المرتبة الثانية من الشر وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعائه، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى .

المرتبة الثالثة : من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع، من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] . هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به .

وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات .

وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتبعية لعورتهم وقصد لفضيحتهم، والله

سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كرائم الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى .

المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلك صاحبها كما قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض» وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتوا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى .

المرتبة الخامسة وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى .

المرتبة السادسة وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي: من الله وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه، وأرضائها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم .

ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في

الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر بقلوبهم ، والله يمن بفضلته على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينسى فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلا الموت . ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال ، فإنه طلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

فصل

وتأمل السر في قوله تعالى : ﴿يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس : ٥] ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له ، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفوق على الجنود ، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿وَلَيَبْتَليَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

فالشیطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب فهو موسوس في الصدر ووسوته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالى : ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه : ١٢٠] . ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه .

فصل

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]. اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور بم يتعلق. فقال الفراء، وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنى يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان، إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجن كما يوسوس للإنسي.

وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم. ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصباً. والبصريون يقدرونه حالاً أي كائنين من الجنة والناس وهذا القول ضعيف جداً لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجن يوسوس في صدور الجن ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري منه مجراه من الإنسي، فأى دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً فإنه قال: الذي يوسوس في صدور الناس، فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنى الكلام على قوله يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح.

الثالث أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلاً واشتقاقاً ولا استعمالاً ولفظهما يأبى ذلك. فإن الجن إنما سموا جناً من الاجتنان وهو الاستتار فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جناً لذلك من قولهم جنة الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض قال:

ولا تَبْكُ ميتاً بعد ميتٍ أجنه علي وعباس وآل أبي بكر
يريد النبي ﷺ ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ
فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [القصص: ٢٩]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح
خصمه، ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه الجنة بالضم لما يقي الإنسان
من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط
وهو عقد^(١) تقاليب الكلمة إلى معنى واحد.

والإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس.

ومنه قوله: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها. ومنه
﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]. أي أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي
إنساناً لأنه يونس أي يرى بالعين، والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس
وهو بعيد، والأصل عدم القلب، والثاني: وهو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة
المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث
وهمام وهما أصدق الأسماء، كما قال النبي ﷺ لأن كل أحد له هم وإرادة، وهي
مبدأ، وحرث وعمل هو منتهى، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا
الظاهر والباطن، وهو حقيقة النوس، وأصل ناس نوس تحركت الواو وقبلها فتحة
فصارت ألفاً، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس، وأما قول بعضهم
أنه من النسيان وسمي الإنسان إنساناً لنسيانه.

وكذلك الناس سموا ناساً لنسيانهم فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان
الذي مادته [ن س ي] إلى الناس الذي مادته [ن وس] وكذلك أين هو من
الإنس الذي مادته [ا ن س و]. كذلك أين هو من الإنس الذي مادته ا ن س و.

وأما إنسان فهو فعلا ن من [أ ن س] والألف والنون في آخره زائدتان لا يجوز
فيه غير هذا البتة إذ ليس في كلامهم أنس حتى يكون إنساناً إفعالاً منه، ولا يجوز
أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم انفعّل، فيتعين أنه

(١) معناه رجوع تقاليب الكلمة أي تصرفاتها إلى معنى واحد.

فعلان من الإنس ولو كان مشتقاً من نسي لكان نسياناً لا إنساناً .
فإن قلت: فهلا جعلته إفعلاً وأصله إنسيان كليلة إصحيان ثم حذفت الياء تخفيفاً فصار إنساناً .

قلت: يأبى ذلك عدم إفعال في كلامهم ، وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له وذلك كله فاسد .

على أن الناس قد قيل إن أصله الأناس فحذفت الهمزة فقليل الناس . واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلين

ولا ريب أن أناساً فعال ولا يجوز فيه غير ذلك البتة ، فإن كان أصل ناس أناساً فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق ويكون وزن ناس على هذا القول عال لأن المحذوف فاؤه ، وعلى القول الأول يكون وزنه فعل لأنه من النوس .

وعلى القول الضعيف يكون وزنه فلع لأنه من نسي فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناساً ووزنه فلعاً .

والمقصود أن الناس اسم لبني آدم فلا يدخل الجن في مساهم فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بياناً لقوله : ﴿ فِي صُذُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس : ٥] . وهذا واضح لا خفاء فيه .

فإن قيل : لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ ﴾ [الجن : ٦] . فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس .

قلت: هذا هو الذي غر من قال : إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية .

وجواب ذلك : أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً .

وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب .

وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنّي أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان.

وكذلك الإنس والجن فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهو كثير في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال الجن والإنس وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس، لأنه قابل بين الجنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

فالصواب القول الثاني وهو أن قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس. وأنهم نوعان إنس، وجن، فالجنّي يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجنّي لا يحتاج إلى تلك الوسوسة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، على أن الجنّي قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي. كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم». فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحى إلى الإنسي باطله ويوحى الإنس إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبتها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، والجن.

وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمل، فإنه بديع جداً.

فهذا ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط فما ذلك على الله بعزیز والحمد لله رب العالمين ونختتم الكلام على السورتين بذكر.

قاعدة نافعة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه.

وذلك عشرة أسباب. أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ﴾. [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدم أن السمع المراد به وهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حم) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه

عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصي عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدّم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في (حم المؤمن). ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١) ذهب عنه ما يجد».

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «ماتعوذ المتعوذون بمثلها». وقد تقدّم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة. وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان». وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

(١) في نسخة بحذف الرجيم والعمل على الرواية.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة ففي الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان».

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى ^(١) الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان».

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: من قرأ: حم المؤمن إلى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح». وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة. ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك». فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عز وجل، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن

(١) في نسخة ابن مسعود.

زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد أن يبطيء بها فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب ، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلاً وقعدوا على الشرف فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إليّ فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيده فأيكّم يرضى أن يكون عبده كذلك ، وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت ، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي ﷺ : وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جئاء جهنم ، فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام ، قال : وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سهاكم المسلمون المؤمنين عباد الله . قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخاري الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث .

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة : قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس والخناس ، الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمّع

وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوسوس التي هي مباديء الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن الغضب جرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض».

وفي أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء». فما أطفأ العبد جرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غص بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»، أو كما قال ﷺ. فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها	فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً	لقلبك يوماً أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر	عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه	فمن المطالب والقتيل القاتل
---------------------------	----------------------------

ولي من أبيات :

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهداً
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض
ومفنياً نفسه في إثر أقبحهم
وواهباً عمره في مثل ذا سفهاً
وبائعاً طيب عيش ماله خطر
غبت والله غنياً فاحشاً فلو اسـ
ووارداً صفو عيش كله كدر
وحاطب الليل في الظلماء منتصباً
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت
ما في الديار وقد سارت ركائب من
فأفرش الخد ذياك التراب وقل
ما ربع مية محفوفاً يطوف به
ولا الخدود إن آدمين من ضرج^(١)
منازلاً كان يهواها ويألفها
فكلما جليت تلك الربوع له
أحيا له الشوق تذكّار العهود بها
هذا وكم منزل في الأرض يألفه
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن

أنت القاتل بها ترمي فلا تصب
توقه إنه يرتد بالعطب
فهل سمعت ببراء جاء من عطب
وصفا للطخ جمال فيه مستلب
لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
بطيف عيش من الآلام منتهب
ترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تحب
أمامك الورد صفواً ليس بالكذب
لكل داهية تدن من العطب
وضاع وقتك بين اللهو واللعب
والضي في الأفق الشرقي لم يغب
عن أفقه ظلمات الليل والسحب
ورسل ربك قد وافتك في الطلب
تهواه للصب من سكنى ولا أرب
ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
غيلان أشهى له من ربعك الحرب
أشهى إلى ناظري من خدك الترب
أيام كان منال الوصل عن كذب
يهوي إليها هوى الماء في صلب
فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
وما له في سواها الدهر من رغب
بشته بعض شأن الحب فاغترب

(١) في القاموس تخرج لخد أحمار فالضرج الاحمرار.

وأسر في غمرات الليل مهتدياً بنفحة الطيب لا بالنار والخطب
وعاد كل أخي جبن ومعجزة وحارب النفس لأتليقك^(١) في الحرب
وخذ لنفسك نوراً تستضيء به يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه إلا بنور ينجي العبد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان فإمسك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرّتها كلمة واحدة وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم». وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الطحابة: «طوبى له فقال النبي ﷺ: فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه».

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتهما لا يملأن ولا يسمآن بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفتر من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عزيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية جلبها الشعب وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها فمن بقي شر بطنه فقد بقي شراً عظيماً والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

ولهذا جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم. وقال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن». ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة

(١) في النهاية الحرب بالتحريك نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له فاطعني جارب النفس لثلا تسلب الفضيلة أو رأس مالك وهو العمر.

عن ذكر الله عز وجل وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد. فإن النفس إذا شبت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت عن عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول فضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه للشر.

أحدها من مخالطته كالغذاء لا يستغني عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه

بكلامه وفرحه به ، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأنقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرهما على الأرض .

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثقیل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله فالتفت إليّ وقال : مجالسة الثقیل حمى الربع ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا على العبد أن يتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرة الله ، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافتها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة ، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ، إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين . وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين .

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا : أنت من المفتين . وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين . وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا : أنت من الملبسين . وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين ، فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا

تبالي بدمهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال .

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر:

وقد زادني حباً لنفسي أني بغيض إليّ كل امرئ غير طائل^(١)

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة ، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان ، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء فعند الممات يحمد القوم التقى ، وفي الصباح يحمد القوم السري والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الناس

والحمد لله رب العالمين

(١) معناه: غير كريم .

كلمة لا بد منها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي بلغ البلاغ المبين، وأرشد السائرين، وأنار السبيل، وأوضح المحجة وأقام الحجة، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾. [الإسراء: ٨٤]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

وقال أيضاً ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه...»^(٢).

وغير خافٍ ما لابن القيم رحمه الله من جهود مباركة، ووقفات سديدة رشيدة، وغوص في بحور الأحاديث والآيات، ينتقي درر المعاني وجواهر الدلالات، ولما كان هذا الكنز الدفين حول تفسير كلام رب العالمين مبثوثاً في بطون كتب هذا الإمام الرباني والعلامة السلفي، وكان من العسير على طالب

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم (١٦٣١) وأبوداود في كتاب الوصية، باب فيما جاء في الصدقة عن الميت رقم (٢٨٨٠). والترمذي في كتاب الأحكام، باب في الوقف رقم (١٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ثواب معلم الناس الخير رقم (٢٤٢). وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٧٤).

العلم الوقوف عليها كلها أو أكثرها والاسترشاد بها، وظلت هذه الفوائد والأبحاث والفرائد رديحاً من الزمن لا يطلع عليها كثير من الناس، فقد قيض الله عز وجل لانجاز هذا العمل، وإخراج هذه المكنونات وجمع شتاتها ولم شعثها وتأليف مبعثرها في سلك واحد، وانتظامها في عقد بديع طريف فريد، ألا وهو الشيخ الفاضل علي الحمد المحمد الصالحى - غفر الله له ورحمه رحمة واسعة - فقد عكف الشيخ على مؤلفات ابن القيم أكثر من خمس عشرة سنة يقرأ وينقب ويلتقط ويجمع كل شاردة وواردة، ويرتب ويضع كل بحث في موضعه من السورة على حسب ترتيب المصحف فكان هذا المجموع الذي بين يديك - أيها القاريء الكريم - كما تراه في ثوب قشيب وحلة زاهية.

ومما ينبغي التنبيه عليه ولفت النظر إليه أن أكثر حواشي الكتاب من التعليقات والتخریجات ليست من صنع الشيخ - رحمه الله - بل هو أخذها ممن حققوا وعلقوا على كتب ابن القيم من الطبقات التي أشار إليها الشيخ في المقدمة، فإذا كان للشيخ - رحمه الله - تعليق أو حاشية كتب في نهايتها (ج) دلالة عليه. ومما ينبغي أن يشار إليه أيضاً أن الشيخ - رحمه الله - وقد كان كبير سنه وأدركته الشيخوخة فكان كلما وقف على بحث أو فائدة أو نادرة صورها من هنا ومن هناك وكان في بعض الأحيان يختلط عليه الأمر فينسى أن يعزو بعض ما نقله إلى مصدره، فقد تجد أيها القاريء الكريم نقلاً ثم لا تجد عزوه في الحاشية، فهذا إما نسيان من الشيخ أو خطأ غير مقصود.

وممن شارك معنا في إنجاز هذا العمل الأخ أبو عبد الرحمن عزت الروبي والأخ أبو عبد الله فكري محمود حفظهما الله وكان الشيخ علي بين الحين والآخر يتابع معنا حتى أخرجنا الجزئين الأول والثاني إلى حيز الوجود وانشرح صدر الشيخ وقرت عينه برؤية ثمرة جهوده، ولكن المرض ظل يعاود الشيخ بين الفينة والأخرى فأسند الشيخ إليّ عمل فهرس الكتاب: الأجزاء الأربعة المتبقية وعندما انتهينا من الجزئين الثالث والرابع وراجعهما الشيخ ووقع على الموافقة بالطباعة ولما كان

الجزءان في المطبعة أوشكا على الانتهاء كان الشيخ يعاني من آلام المرض وسكرات الموت وغربت شمس حياته في يوم الأربعاء الموافق ١٤١٥/٥/٢١هـ وانتهينا من الجزئين الخامس والسادس بعد وفاة الشيخ وقد أصبح رهين اللحد عند رب رحيم فعسى أن يكون هذا العمل له نوراً وبرهاناً وفوزاً وفلاحاً في يوم يجزي الله الصادقين بصدقهم ، سائلين الله - عز وجل - للشيخين الفاضلين ابن القيم وعلي الصالحى أن يتغمدهما بوافر رحمته وعميم كرمه وجوده وإحسانه وأن يحشرنا وإياهما في زمرة رسوله الأمين محمد بن عبد الله ﷺ كما نسأله سبحانه أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بالعلم النافع وأن يختم لنا ولكم بخاتمة الخير والسعادة ويوفقنا إلى محبته ومرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبها

صبري بن سلامة شاهين

مكتبة دار السلام بالرياض

في اليوم الثاني من شهر رجب ١٤١٥هـ

فهرس المجلد السادس

فهرس سورة المجادلة

رقم	الموضوع	الصحيفة
٣	بحث في حكم الرسول ﷺ في الظهار وبيان ما أنزل فيه ومعنى العود الموجب للكفارة .	
٣	بحث حول قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ .	
٤	بحث حول السمع وما يراد منه كما ورد في القرآن الكريم .	
٧	بحث حول قوله تعالى : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ .	
٨	بحث حول قوله تعالى : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتب الذين من قبلهم ﴾ .	
١٠	بحث حول قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ .	
١٠	بحث في معية الله سبحانه للخلق : معية العلم والإحاطة ، ومعية القرب .	
١٢	بحث في معنى الحزن الذي ورد عنه النهي والتفي في القرآن .	
١٢	بحث في قوله تعالى : ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ﴾ .	
١٣	بحث في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ﴾ .	
١٣	بحث في أن أفضل الأعمال : الإيمان بالله .	
١٣	بحث في أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة .	
١٤	بحث في أن أهل العلم يجعلهم الله أئمة يهدون بأمره .	
١٥	بحث في أنه لا ينال أحد شرفاً في الدنيا والآخرة إلا بالعلم .	
١٦	للعلم ست مراتب من حققها فقد فاز .	
١٨	بحث حول قوله تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ .	

فهرس سورة الحشر

١٩	فصل في أن بني النضير نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ .	
٢٠	بحث في أن سورة الحشر هي سورة بني النضير .	
٢١	اليهود معروفون بعداوتهم للأنبياء والرسل وخاصة رسول الله ﷺ .	
٢١	بحث حول قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ .	

- ٢٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ .
- ٢٣ بحث في أن الله عز وجل نصب رسوله محمداً منصب المبلغ المبين عنه .
- ٢٤ بحث في أن البيان من النبي ﷺ أقسام .
- ٢٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول﴾ .
- ٢٦ بحث في أن الله سبحانه جمع لرسوله محمد ﷺ بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر .
- ٢٧ بحث في أن الله سبحانه أغنى الفقراء برسوله محمد فما نالت أمته الغنى إلا به ﷺ .
- ٢٨ عود على قوله تعالى : ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ .
- ٢٩ بحث في أن إيثار المحبوب نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة وإيثار حب وإرادة .
- ٢٩ الفرق بين الإيثار والأثرة .
- ٣٠ بحث في قوله تعالى : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .
- ٣١ بحث في تقسيم الأخلاق إلى ثلاثة أقسام .
- ٣٢ عود على قوله تعالى : ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾ .
- ٣٤ فصل في أن الجود عشرة مراتب والكلام حولها .
- ٣٧ فصل في أن الإيثار تخصيص واختيار والأثرة تحسن طوعاً وتصح كرها .
- ٣٧ فصل في هل يجوز الإيثار بالقربات والطاعة أم لا ؟
- ٣٨ رد الرافضة للنصوص الصحيحة الصريحة المحكمة .
- ٣٩ الأسباب التي تحقق أثر الذنوب .
- ٣٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ .
- ٤٠ فصل في أن من عقوبات المعاصي أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته .
- ٤١ بحث حول قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ .
- ٤١ بحث حول قوله تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ .
- ٤٣ بحث حول صفتي الجبار والمتكبر .

فهرس سورة الممتحنة

- ٤٤ بحث في أن الكافر مفتون بالمؤمن كما أن المؤمن مفتون بالكافر .
- ٤٤ بحث حول قوله تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم﴾ .
- ٤٧ بحث حول قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ .

- ٤٨ اختلاف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلى أزواجهن .
 ٤٩ بحث في أن ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم .
 ٥٠ هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن وأنا ولي أم لا ؟

فهرس سورة الصف

- ٥٢ بحث حول معنى إزاغة القلوب .
 ٥٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ .
 ٥٤ بحث في بيان اسم النبي ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل .
 ٥٤ بحث في الشرائع الثلاث : شريعة عدل وشريعة فضل وشريعة جمعت هذا وهذا .
 ٥٥ ظهور موسى في مظهر الجلال وعيسى في مظهر الجمال ومحمد في مظهر الكمال .
 ٥٧ بحث حول قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ .
 ٥٧ فصل في أنه لو لم يظهر رسول الله محمد ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء .
 ٦٠ بحث حول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ .
 ٦١ بحث في أن كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها .

فهرس سورة الجمعة

- ٦٢ بحث في تمييز الأيام بعضها من بعض .
 ٦٣ فصل في هديه ﷺ في تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه ببعض العبادات .
 ٦٥ بحث في أن تزكية النفوس جعله الله على أيدي رسله الكلام ﷺ .
 ٦٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾ .
 ٦٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .
 ٦٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ .

فهرس سورة المنافقون

- ٦٨ بحث عن طبقة الزنادقة من هم ؟ وما حكمهم ؟
 ٧٠ بحث حول قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ .
 ٧١ بحث حول قوله تعالى : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ .
 ٧١ بحث عن العزة ولئن تكون ؟

- ٧٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

فهرس سورة التغابن

- ٧٣ بحث في الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان :
٧٣ بحث حول قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ .
٧٤ بحث حول قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ .
٧٥ بحث حول قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ .

فهرس سورة الطلاق

- ٧٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .
٧٦ بحث في معنى التوكل والاستعانة .
٧٧ جعل الله لكل عمل جزاء وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده .
٨٠ فصل في الفرق بين التوكل والعجز .
٨١ فصل في عدة الأيسة والتي لم تحض .
٨٧ فصل في أن عدة الوفاة تجب بالموت سواء داخل بها أو لم يدخل اتفاقاً .
٨٨ فصل في عدة الطلاق .
٩١ بحث حول قوله تعالى : ﴿أَسْكَنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ .
٩٢ بحث في جواز إجارة الظئر .
٩٣ فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها .
٩٥ بحث في أن طلب العلم والبحث عنه من عمل القلب والجوارح وهو من أهم الأعمال .
٩٥ بحث حول قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ .

فهرس سورة التحريم

- ٩٧ بحث في حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه فيمن حرم أمته أو زوجته أو متاعه
٩٨ بحث حول قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ .
٩٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
١٠٠ بحث في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم .

- ١٠١ فصل في حقوق الأولاد والعدل بينهم في العطاء والمنع
- ١٠٣ بحث في أن الطفل يحتاج إلى الرعاية والعناية بأمر تنشئته وتربيته .
- ١٠٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ .
- ١٠٧ بحث حول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ .
- ١٠٩ بحث عن المقصود من خيانة امرأة نوح وامرأة لوط .
- ١١٠ تفسير قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحَ وَامْرَأَةٌ لُوطُ ﴾ الآيات .
- ١١١ بحث عن المثليين اللذين للمؤمنين : امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

فهرس سورة الملك

- ١١٣ بحث حول معنى البركة وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ ﴾ .
- ١١٦ بحث حول قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .
- ١١٦ بحث حول وصف أهل النار بالجهل وأنه سبحانه سد عليهم طرق العلم .
- ١١٧ حسن التوحيد وقبح الشرك مستقر في الفطر معلوم بالعقول ولو لم يكن كذلك فلا وثوق بشيء من قضايا العقل .
- ١١٨ الأدلة على قبح الشرك والكفر .
- ١١٩ اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان سواء أطاع أم عصى .
- ١١٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .
- ١٢٠ بحث في أن الله نبه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق العقول فاستيقظت لتنبهه العقول الحية
- ١٢٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ .
- ١٢٣ بحث في قوله تعالى : ﴿ أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرِكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ .
- ١٢٤ بحث في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ .
- ### فهرس سورة القلم
- ١٢٥ بحث حول قوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .
- ١٢٦ بحث في أن الحرف الذي به تكون المخلوقات شأنه أعلى وأجل .
- ١٢٦ بحث في الأقلام وأقسامها ورتبها وتفاوتها .

- ١٣١ بحث في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِمُجْنُونٌ ﴾ .
- ١٣٤ عود على قوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ الآيات .
- ١٣٥ بحث في أن الخير بمجموعه ثمرة شجرة العلم والشر بمجموعه ثمرة شجرة الجهل .
- ١٣٦ بحث في أن العقل عقلان : عقل غريزة وعقل مكتسب .
- ١٣٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .
- ١٣٧ بحث حول قوله تعالى : ﴿ بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ ﴾ .
- ١٣٨ بحث في أن المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم .
- ١٣٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرَمَنَهَا مَصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ .
- ١٣٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .
- ١٣٩ أنكر سبحانه على من يسوي بين المختلفين كما في قوله : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ .
- ١٤٢ بحث حول قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ .
- ١٤٣ الإجابة عن سؤال كيف يمتحن البعض في الآخرة وهي ليست دار تكليف؟! .
- ١٤٤ بحث حول قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .
- ١٤٤ بحث حول قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ .
- ١٤٥ بحث حول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ .
- ١٤٥ العلاج النبوي من العين .
- ١٤٦ الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود وهي عشرة .
- ١٤٩ بحث في أن الله أخبر عن القرآن بأنه ذكر للعالمين وتذكرة للمتقين .

فهرس سورة الحاقة

- ١٥٠ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .
- ١٥٠ بحث في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ .
- ١٥١ بحث في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .
- ١٥٥ مناظرة بين العلامة ابن القيم - رحمه الله - وبين بعض اليهود .
- ١٥٧ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ الآيات .
- ١٥٩ القول بأن الله لو شاء لأنساك القرآن وقطع عنك الوحي أقوى من عشر وجوه .
- ١٦٢ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ .
- ١٦٣ بحث في مراتب اليقين الثلاث : حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين .
- ١٦٤ بحث في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

- ١٦٥ بحث في الفائدة من دخول الباء في قوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ وعدم دخولها في قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

فهرس سورة المعارج

- ١٦٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ الآيات .
- ١٦٧ بحث في قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الآيات .
- ١٦٧ بحث في الأدب وبيان أنه الدين كله .
- ١٦٩ بحث في قوله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ .
- ١٧٠ بحث في أن الله نبه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهيّن ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره .
- ١٧١ بحث في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ .
- ١٧٢ فصل في أن الله أخبر عن قدرته على تبديلهم بخير منهم تارة وتبديل أمثالهم .
- ١٧٥ فصل في قيام حجة الله على العباد وقطع عنهم المعذرة فقال سبحانه : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ .
- ١٧٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ .
- ١٧٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ .

فهرس سورة نوح

- ١٧٧ بحث في أن أعظم الظلم والجهل أن تطلب من الناس توفيرك وقلبك خال من توفير الله وتعظيمه
- ١٧٩ بحث في أن الخوف مستلزم للرجاء وكذلك الرجاء مستلزم للخوف .
- ١٨٠ بحث في قوله تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ .
- ١٨١ بحث في قوله تعالى : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ﴾ .
- ١٨٢ بحث في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وذاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ .
- ١٨٣ بحث في بعض الأصنام التي كانت تعبد من دون الله .

فهرس سورة الجن

- ١٨٦ بحث في قوله تعالى : ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ .
- ١٨٧ هل يدخل مؤمنو الجن الجنة ويدخل المسيء منهم النار أم لا ؟
- ١٩٠ بحث عن الطبقة الثامنة عشرة : طبقة الجن وأن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر .
- ١٩٣ هل الجن مكلفون بشرائع الأنبياء أم لا ؟
- ١٩٤ مذاهب الناس في أحكام الجن في الدنيا والصواب في ذلك .
- ١٩٧ الأدلة على تكليف الجن بالأوامر والنواهي .
- ٢٠١ عود على إثبات أن مؤمني الجن في الجنة .

فهرس سورة المزمل

- ٢٠٥ بحث عن قوله تعالى : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾ .
- ٢٠٦ بحث عن ناشئة الليل وبيان المقصود بذلك .
- ٢٠٧ بحث عن قوله تعالى : ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ .
- ٢٠٧ ذكر المشرق والمغرب بلفظ الأفراد في سورة المزمل .
- ٢٠٨ بحث في قوله تعالى : ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ .

فهرس سورة المدثر

- ٢٠٩ فصل في ترتيب الدعوة وبيان مراتبها .
- ٢٠٩ بحث في ترتيب سياق هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين .
- ٢٠٩ فصل في مبعثه ﷺ وأول ما نزل عليه .
- ٢١٠ بحث في بيان أن أكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد .
- ٢١١ سئل ﷺ متى وجبت لك النبوة ؟
- ٢١٢ كمل الله سبحانه لرسوله ﷺ من مراتب الوحي مراتب عديدة
- ٢١٣ بحث في قوله تعالى : ﴿وثيابك فطهر﴾ .
- ٢١٤ بحث في طهارة القلب وأدرانه وأنجاسه .
- ٢١٧ بحث في إخباره سبحانه بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر .

- ٢١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾.
- ٢١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿كلا والقمر والليل إذ أدبر﴾ الآيات.
- ٢٢١ بحث في إقسام الله سبحانه بـ ﴿والليل إذ أدبر﴾.
- ٢٢٤ فصل في إقسامه سبحانه بـ ﴿القمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر﴾.
- ٢٢٤ بحث في أن الله سبحانه صرف الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها.
- ٢٢٦ فصل في أن لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر وعليه فيه نهي.
- ٢٢٦ بحث في بيان أن إضاعة الوقت يدعو إلى درك النقيصة
- ٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾.
- ٢٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة﴾.

فهرس سورة القيامة

- ٢٢٩ بحث في قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾.
- ٢٣١ بحث في كلام الناس حول الأنفس الثلاث: مطمئنة ولوامة وأمارة.
- ٢٣٣ بحث في بيان المقصود من النفس اللوامة.
- ٢٣٤ بحث في إنكار الرب سبحانه على الإنسان ظنه وحسابه أن الله لا يجمع عظامه.
- ٢٣٧ بحث في قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر﴾.
- ٢٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.
- ٢٤١ من أسرار هذه السورة أن جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن.
- ٢٤٢ ومن أسرارها أيضًا إثبات قدرة الرب سبحانه على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله.
- ٢٤٣ بحث في ذم الله سبحانه من يؤثر العاجلة على الآجلة.
- ٢٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ألم يك نطفة﴾.

فهرس سورة الإنسان

- ٢٤٦ بحث في أن من نصر فسد عقله ورأيه.
- ٢٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا﴾.
- ٢٤٧ بحث في أين يشوى اللحم في الجنة وليس فيها نار؟
- ٢٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلاً﴾.
- ٢٥٠ بحث في ذكر خدم أهل الجنة وعلماهم.

- ٢٥٢ بحث في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ .
- ٢٥٣ بحث في قوله تعالى : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سَنَدُسٌ وَخَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ .
- ٢٥٤ قاعدة : للعبد بين يدي الله موقفان : موقف في الصلاة وموقف يوم القيامة .
- ٢٥٤ بحث في قوله تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ .

فهرس سورة المرسلات

- ٢٥٥ بحث في قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا﴾ الآيات .
- ٢٥٧ بحث في أن موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية .
- ٢٥٨ بحث في قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .

فهرس سورة النبأ

- ٢٥٩ فائدتان للنوم .
- ٢٥٩ بحث حول قوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ .
- ٢٦٠ بحث في قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَاتِقًا وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ .
- ٢٦٠ معنى قوله تعالى : ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ .
- ٢٦٠ بحث في بيان الأدلة على حشر الوحوش

فهرس سورة النازعات

- ٢٦١ بحث في قوله تعالى : ﴿وَالْنَازِعَاتُ غُرَقًا وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ الآيات .
- ٢٦٢ اختلاف الناس في معنى النازعات
- ٢٦٣ بحث في قسم الرب سبحانه بطوائف الملائكة وأصنافهم
- ٢٦٤ بحث في قوله تعالى : ﴿فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾ .
- ٢٦٦ بحث في أن الملائكة موكلة بالعالم العلوي والسفلي
- ٢٦٧ بحث في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ .
- ٢٦٨ بحث في قوله تعالى : ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَذَكِّيَ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ .
- ٢٧١ بحث في قوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَاهَا﴾ .
- ٢٧٢ بحث في بيان اعتناء القرآن والسنة بذكر الشيطان وكيدته ومحاربتها أكثر من ذكر النفس
- ٢٧٢ بحث في إتفاق السالكين إلى الله على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الله
- ٢٧٣ بحث في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

فهرس سورة عبس

- ٢٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ .
- ٢٧٧ بحث في أن الله سبحانه دعا عباده إلى الفكر فيه وفي صفاته وقدرته وحكمته وآياته .
- ٢٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ .
- ٢٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ الآيات .

فهرس سورة التكوير

- ٢٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ﴾ .
- ٢٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ .
- ٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ الْجَوَارِ الْكُنَسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ .
- ٢٨٤ فصل في الاختلاف في عسعة الليل .
- ٢٨٤ فصل في المقصود بـ ﴿قَوْلَ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ من الرسول هنا؟
- ٢٨٦ بحث في الثناء على جبريل عليه السلام ووصفه بأجل الصفات .
- ٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ .
- ٢٨٧ بحث في تنزيه رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .
- ٢٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ .
- ٢٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ .
- ٢٩١ فصل في بيان أن القرآن ذكر للعالمين وتذكروا للمتقين .
- ٢٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ .
- ٢٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .
- ٢٩٢ بحث في الرد على الجبرية والقدرية .

فهرس سورة الانفطار

- ٢٩٥ بحث في أن العبد الموحد إذا أذنب دعا له الملك واستغفر له حملة العرش .
- ٢٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ .
- ٢٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ .
- ٢٩٧ بحث في أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها .

فهرس سورة المطففين

- ٢٩٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .
- ٢٩٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .
- ٣٠٠ بحث في بيان الحجب التي تحجب العبد عن ربه عز وجل .
- ٣٠١ بحث في بيان العناصر التي تنشأ هذه الحجب .
- ٣٠١ بحث في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .
- ٣٠٣ بحث في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ ﴾ الآيات .
- ٣٠٤ بحث في بيان أن أفضل النعيم النظر إلى وجه الرب عز وجل وسماع كلامه .
- ٣٠٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .
- ٣٠٦ بحث في إثبات أن المعاصي تضعف الإيمان كما أن الحسنات تزيد نور القلب .
- ٣٠٧ بحث في إثبات الفوائد من تجنب القبائح .
- ٣٠٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ رَحِيقٌ مَخْتُمٌ ﴾ .
- ٣٠٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .
- ٣٠٩ بحث بيان الفرق بين المنافسة والحسد .

فهرس سورة الانشقاق

- ٣١١ بحث في إقسامه تعالى : ﴿ بِالْشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَى ﴾ .
- ٣١٣ بحث في قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .
- ٣١٤ بحث في بيان أن الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فمعناه واحد .
- ٣١٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات .

فهرس سورة البروج

- ٣١٦ بحث في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .
- ٣١٧ بحث في تنويع الخليقة إلى شاهد ومشهود .
- ٣١٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ قَتْلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ ﴾ .
- ٣١٩ بحث في بيان أن الرب سبحانه يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه .

- ٣٢٠ بحث في بيان أن الله يجازي أوليائه المؤمنين بالحسنى ويعاقب أعداءه بشدة بطشه .
- ٣٢١ بحث في اسم الله تعالى الودود .
- ٣٢١ بحث في قوله تعالى : ﴿ذو العرش﴾ .
- ٣٢٢ بحث في قوله تعالى : ﴿فعال لما يريد﴾ .
- ٣٢٤ بحث في بيان أن هذه السورة اشتملت على التوحيد وأصول الدين .
- ٣٢٤ بحث في قوله تعالى : ﴿بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط﴾ .
- ٣٢٥ بحث في قوله تعالى : ﴿في لوح محفوظ﴾ .

فهرس سورة الطارق

- ٣٢٦ بحث في قوله تعالى : ﴿والسواء والطارق﴾ .
- ٣٢٦ فصل في بيان حال النفس الإنسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها .
- ٣٢٧ بحث في بيان دلالة القرآن على إثبات المعاد بما يراه الإنسان من مبدئه .
- ٣٢٨ بحث في قوله تعالى : ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ الآيات .
- ٣٢٨ تفسير معنى الترائب .
- ٣٣٠ بحث في قوله تعالى : ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ .
- ٣٣٠ عود على تفسير قوله : ﴿فلينظر الإنسان مما خلق﴾ .
- ٣٣٣ بحث في قسم الرب سبحانه بـ ﴿والسواء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع﴾ .
- ٣٣٣ بحث في قوله تعالى : ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ .

فهرس سورة الأعلى

- ٣٣٥ بحث في بيان مراتب الهداية .
- ٣٣٦ بحث في بيان ماهية الهداية .
- ٣٣٨ بحث في بيان مراتب الهدى والضلال المقدور للخلق وغير المقدور .
- ٣٣٩ بحث في قوله تعالى : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الآيات .
- ٣٤٠ بحث في بيان أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا .

- ٢٧٣ بحث في اختلاف الناس في معنى النفس
- ٢٧٤ بحث في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ .
- ٢٧٤ بحث في بيان أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه
- ٢٧٥ بحث في أن الله لم يجعل طريقاً للجنة غير مخالفة الهوى
- ٢٧٥ كتاب لعسر الولادة

فهرس سورة الغاشية

- ٣٤٢ بحث في بيان الحكمة من خلق الجبال ومنافعها .
- ٣٤٤ بحث في بيان أن الله عز وجل دعا عباده إلى النظر في خلق الإبل والسماء والجبال .
- ٣٤٦ فصل في بيان الحكمة أن جعل الله من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل .
- ٣٤٥ بحث في بيان سبب حدوث الزلازل .

فهرس سورة الفجر

- ٣٤٦ بحث في قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الآيات
- ٣٤٨ بحث في بيان المقصود بالوتر والشفع
- ٣٤٩ بحث في بيان تغاير صور الابتلاء بين نعمة ونقمة
- ٣٤٩ بحث في بيان علامات السعادة وعلامات الشقاء
- ٣٥٠ بحث في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ .
- ٣٥١ بحث في بيان مجيء الرب عز وجل
- ٣٥٣ بحث في بيان هل الروح والنفس شيء واحد أو شيان متغايران؟
- ٣٥٥ بحث في أن الله جعل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم
- ٣٥٦ بحث في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ .
- ٣٥٨ بحث في الرضا وبيان مرتبة ومنزلته من الدين .
- ٣٥٩ بحث في بيان أن الناس على جناح السفر إلى الله والدار الآخرة

فهرس سورة البلد

- ٣٦٠ بحث في قوله تعالى : ﴿لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ .
- ٣٦١ بحث في قوله تعالى : ﴿وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾
- ٣٦٢ بحث في قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾
- ٣٦٣ بحث في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ .

- ٣٦٣ بحث في بيان أن الله أحق بالرؤية وأولى من الإنسان الذي أمده بعينين يبصر بهما .
- ٣٦٤ بحث في بيان أصول الإيمان التي تقوم بها الحجة على العباد
- ٣٦٤ بحث في بيان أن الناس قسمان : ناج وهالك
- ٣٦٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ .
- ٣٦٥ بحث في قوله تعالى : ﴿ فك رقبة ﴾ .
- ٣٦٦ بحث في اختلاف الناس في معنى العقبة .

فهرس سورة الشمس

- ٣٦٨ بحث في قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحايا والقمر إذا تلاها ﴾ الآيات .
- ٣٦٩ بحث في القسم بالنفس وما سواها وألهمها فجورها وتقواها .
- ٣٧٠ بحث في تركية النفس
- ٣٧١ بحث في قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .
- ٣٧٢ بحث في قوله تعالى : ﴿ قد خاب من دساها ﴾ .
- ٣٧٥ بحث في بيان أن عقوبة المعصية أن تصغر النفس وتقمصها
- ٣٧٥ فصل في بيان أن الله سبحانه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه .
- ٣٧٦ الحكمة في ذكر قوم ثمود في هذه السورة دون غيرها من الأمم المكذبة .

فهرس سورة الليل

- ٣٧٩ بحث في قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يفشى والنهار إذا تجلى ﴾ .
- ٣٨٠ بحث في قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ الآيات
- ٣٨١ بحث في بيان ما ضمنه الله سبحانه لعبادة المتقين
- ٣٨٢ بحث في بيان قوى النفس الثلاث وأن بصلاحها تسعد ويفسدها تشقى .
- ٣٨٣ بحث في قوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾
- ٣٨٤ بحث في بيان أن التيسير للعسرى يكون بأمرين
- ٣٨٥ بحث في بيان فصل الخطاب في مسألة القدر
- ٣٨٧ الإجابة عن سؤال من يسر للعبد أسباب الخير والشر ؟
- ٣٨٨ بحث في بيان أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص
- ٣٩٠ بحث في بيان أن الله فطر العباد على الحرص على الأسباب التي فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة

- ٣٩١ الرد على سؤال : لم جعل الله هذا العبد لا يليق به إلا الكرامة وذاك العبد لا يليق به إلا الإهانة؟!
 ٣٩٢ بحث في قوله تعالى : ﴿إِن عَلَيْنَا لِلْهُدَى وَإِن لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾
 ٣٩٣ بحث في بيان حقيقة الهدى التام وما يتضمنه
 ٣٩٤ بحث في قوله تعالى : ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْأَتَقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾.

فهرس سورة الضحى

- ٣٩٥ بحث في قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾
 ٣٩٦ الرد على من فهم من قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أن رسول الله ﷺ لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته.
 ٣٩٧ الرد على من يغتر ببعض النوافل التي يفهم مغفرة الذنوب كصوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة وغيرها
 ٣٩٩ بحث في بيان أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض قاطبة
 ٤٠٠ بحث في قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.
 ٤٠٠ بحث في الثناء على المنعم.
 ٤٠١ بحث في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾.
 ٤٠١ الفرق بين التحدث بالنعمة والفخر بها.

فهرس سورة الشرح

- ٤٠٣ بحث في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾.
 ٤٠٤ الدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة
 ٤٠٥ الحكمة في ورود لفظ السلام معرّفًا بالآلف واللام.

فهرس سورة التين

- ٤٠٦ بحث في قوله تعالى : ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.
 ٤٠٨ بحث في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.
 ٤٠٩ ترجيح القول بأن أسفل سافلين أنه النار من وجوه
 ٤١١ بحث في قوله تعالى : ﴿غَيْرِ مَعْنُونٍ﴾.
 ٤١٣ بحث في قوله تعالى : ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ﴾.
 ٤١٥ بحث في قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾

فهرس سورة العلق

- ٤١٦ بحث في قوله تعالى : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ الآيات
 ٤١٧ بحث في بيان نعمة الله على الإنسان بالبيانين : النطقي والخطي
 ٤١٨ بحث في بيان أن الخلل الداخل على الإنسان في دينه ودينه منشأه النسيان
 ٤١٨ بحث في بيان نعم الله في التعليم بالقلم
 ٤١٩ بحث في قوله تعالى : ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾
 ٤٢٠ بحث في وجوب الحذر مهما بلغ العبد من الطاعة
 ٤٢١ بحث في قوله تعالى : ﴿لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة﴾

فهرس سورة القدر

- ٤٢٢ بحث في ليلة القدر هل هي في رمضان أم في غيره وهل هي باقية إلى يوم القيامة أم لا؟ وماذا يقال فيها؟

فهرس سورة البينة

- ٤٢٣ بحث في قوله تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾
 ٤٢٤ بحث في بيان إخلاص النية
 ٤٢٦ بحث في إخلاص العمل من الشرك والرياء

فهرس سورة الزلزلة

- ٤٢٧ إذا غُصِبَ مال واستعمل في طاعة هل ثواب العمل يعود على صاحب المال أم على الغاصب؟
 ٤٢٨ بحث في قوله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ .

فهرس سورة العاديات

- ٤٢٩ بحث في قوله تعالى : ﴿والعاديات ضبحا فالمريرات قدحا فالغيرات صبحا﴾ .
 ٤٣٤ بحث في قوله تعالى : ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ .
 ٤٣٤ بحث في قوله تعالى : ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ .
 ٤٣٥ بحث في قوله تعالى : ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ .

- ٤٣٥ بحث في ذم الله سبحانه للرياء ومنع الماعون
 ٤٣٦ بحث في الحكم فمن جمع الصدور والقبور في كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ .

فهرس سورة التكاثر

- ٤٣٧ بحث في قوله تعالى ﴿أهلأكم التكاثر﴾
 ٤٣٨ بحث في بيان أن التكاثر في جمع المال ألهى الناس عن الآخرة والاستعداد لها
 ٤٣٩ بحث في قوله تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾
 ٤٤٠ بحث في قوله تعالى ﴿لترون الجحيم ثم لترؤنها عين اليقين﴾
 ٤٤٢ الرد على من زعم أن هذا الخطاب خاص بالكفار فلا يتناول المسلمين
 ٤٤٥ بحث في بيان أن النفوس الشريفة العلوية تتكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به
 ٤٤٦ بحث في حسن موقع [كلا] التي تضمنت الردع والزجر عن التكاثر ونفيه وإبطاله
 ٤٤٦ فصل في أن الله سبحانه جعل أهل المقابر زائرين فقط غير مستوطنين
 ٤٤٧ بحث في قوله تعالى ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾

فهرس سورة العصر

- ٤٤٩ بحث في قوله تعالى ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ الآيات .
 ٤٥٠ بحث في بيان أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح
 ٤٥١ بحث في بيان درجات الاجتماع النافع وغيره
 ٤٥٢ بحث في بيان المقصود من العصر المقسم به
 ٤٥٢ الحكمة في تضييق الاستثناء وتخصيصه في قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾
 ٤٥٤ بحث في بيان أن الإنسان له حالتان حالة كمال له وحالة تكميل لغيره
 ٤٥٤ علاقة الصبر بالإيمان والتقوى

فهرس سورة الهمة

- ٤٥٦ بحث في قوله تعالى ﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده﴾

فهرس سورة الماعون

- ٤٥٧ هل تؤخذ الأجرة ممن سكن داراً مضطراً أو استعار ثوباً أو رchy أو دلوأ أو فأساً أم لا؟
- ٤٥٨ بحث في أن الله سبحانه علق حصول الرحمة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ
- ٤٥٩ هل تارك الصلاة يلحق بويل الكفار أم بويل الفساق
- ٤٦٠ بحث في إيضاح أن تارك الصلاة في خسران وتأکید ذلك
- ٤٦١ بحث في بيان أن المؤمن له الإخلاص والإحسان والفاجر له الكفر والبخل
- ٤٦١ الرد على من زعم أن الإیمان هو التصديق المجرد

فهرس سورة الكوثر

- ٤٦٣ بحث في قوله تعالى ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾
- ٤٦٥ سئل ﷺ عن الكوثر ماهو؟

فهرس سورة الكافرون

- ٤٦٦ بحث في دلالة [ما] في قوله تعالى ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾
- ٤٦٩ بحث في الفائدة من تكرار الأفعال ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾
- ٤٧١ بحث في بيان أن هذه السورة براءة من الشرك
- ٤٧٢ بحث في انتظام هذه السورة وسورة الإخلاص نوعي التوحيد
- ٤٧٣ بحث في قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ هل أفاد معنى زائداً على ماتقدم
- ٤٧٤ بحث في بيان أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص

فهرس سورة النصر

- ٤٧٧ بحث في قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾
 ٤٧٧ بحث في بيان الدلالة على أن هذه السورة إعلان على أجل رسول الله ﷺ

فهرس سورة المسد

- ٤٧٩ بحث في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ﴾

فهرس سورة الإخلاص

- ٤٨٠ بحث في بيان أن مايجري صفة أو خبراً عن الرب تبارك وتعالى أقسام
 ٤٨١ بحث في بيان أن صفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت
 ٤٨٢ بحث في بيان أن من أسبائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات
 ٤٨٣ بحث في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾
 ٤٨٤ بحث في بيان أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد لله سبحانه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده
 ٤٨٥ بحث في اضطجاع النبي ﷺ بعد سنة الفجر على شقه الأيمن وهل يجب ذلك أم لا؟
 ٤٨٥ بحث في اختلاف الفقهاء في أي الصلاتين أكد: سنة الفجر أو الوتر؟
 ٤٨٦ بحث في بيان أن هذه السورة متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة

فهرس سورة الفلق

- ٤٨٨ بحث في بيان أن المقصود من الإعاذة من الشيطان ليس إمامته ولا تعطيل آلات كيده
 ٤٨٩ بحث في بيان أفضل ما يتعوذ به المتعوذون
 ٤٩٠ بحث في بيان هل استرقى النبي ﷺ أم لا؟

- ٤٩١ الفصل الأول بحث في معنى لفظ عاذ وما تصرف منه
- ٤٩٥ الفصل الثاني في المستعاذ به وهو الله وحده : رب الفلق ورب الناس وملئك الناس وإله الناس
- ٤٩٦ الفصل الثالث في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين
- ٤٩٧ بحث في بيان أن المعاصي هي سبب زوال النعم وتغيير الله لا يقع إلا بعد أن يغير العباد
- ٤٩٨ الاستعاذة من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال هل واجبة في التشهد في الصلاة أم لا؟
- ٥٠٠ فصل في بيان الشر المستعاذ منه وأنه نوعان : موجود ومعدوم
- ٥٠١ فصل في بيان الشر ومصدره ومنتهاه
- ٥٠٢ فصل في بيان الشرور المستعاذ منها : الشر الأول العام في قوله ﴿من شر ما خلق﴾
- ٥٠٤ بحث في أن الله فطر عقول عباده على استقباح وضع العقوبة في موضع الرحمة
- ٥٠٦ فصل في الكلام على قوله ﷺ «لييك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك»
- ٥٠٧ فصل في قوله تعالى ﴿من شر ما خلق﴾ دلالة على العموم التقييدي الوصفي
- ٥٠٨ فصل في بيان الشر الثاني : شر الغاسق إذا وقب
- ٥١١ فصل في بيان السبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب
- ٥١١ فصل في بيان السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع
- ٥١٣ فصل في بيان أن الخلق كله فلق
- ٥١٣ فصل في بيان الشر الثالث شر النفاثات في العقد
- ٥١٤ بحث في بيان كيف سحر النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي عليه لعنة الله
- ٥١٩ فصل في قوله تعالى ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ يدل على تأثير السحر وأن له حقيقة
- ٥٢١ فصل في بيان الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد
- ٥٢٣ فصل في بيان أن العاين والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء
- ٥٢٧ فصل في قوله تعالى ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس

٥٢٨ بحث في اشتغال هذه السورة على الاستعاذة من الشرور الأربعة : من شر ما خلق
وشر الغاسق وشر الساحر وشر الحاسد

٥٢٩ فصل في تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿إذا حسد﴾

٥٣١ فصل في بيان الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود

٥٣٨ بحث في بيان أن تجريد التوحيد حصن الله الأعظم الذي يدخله يكون من
الآمنين

٥٣٩ فصل في بيان ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة

فهرس سورة الناس

٥٤١ بحث في بيان المستعاذ به أنه هو الله ﴿رب الناس . ملك الناس . إله الناس﴾

٥٤٣ بحث في بيان الحكمة من توسط صفة الملك بين صفتي الربوبية والإلهية

٥٤٤ فصل في بيان أن هذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب
الذنوب والمعاصي

٥٤٤ فصل في بيان أصل الوسوسة

٥٤٦ فصل في بيان معنى الخناس وحقيقة اللفظ

٥٤٧ فصل في قوله تعالى : ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾

٥٤٩ بحث في بيان أن أصل كل معصية وبلاء هو الوسوسة

٥٥١ بحث في بيان انحصار الشر في ستة أجناس وحرص الشيطان على وقوع العبد
في أية مرتبة من مراتبها

٥٥٣ بحث في بيان السر في قوله تعالى ﴿يوسوس في صدور الناس﴾ دون قول
قلوبهم .

٥٥٤ فصل في قوله تعالى ﴿من الجنة والناس﴾

٥٥٨ قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع شره وذلك بعشرة
أسباب

٥٦٤ بحث في بيان أن فضول الكلام والنظر هما أوسع مداخل الشيطان

٥٦٥ بحث في بيان أن فضول المخالطة هو الداء العضال الجالب لكل شر

بهذا ينتهي المجلد السادس والأخير

من كتاب الضوء المنير على التفسير

والحمد لله رب العالمين

نبذة مختصرة عن حياة الشيخ علي الحمد المحمد الصالحى (*) ١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ رحمه الله

أولاً: نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ أبو محمد علي الحمد المحمد الصالح العبد الله الصالحى .
ولد - رحمه الله - في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم سنة ١٣٣٣هـ من أسرة
أمية، وكان والده حمد محباً للعلم والعلماء، وكان يأمل في ابنه علي أن يكون من
العلماء، فحرص أبوه على ذلك، واجتهد، فكان يدفعه لحفظ القرآن ويشجعه
حتى أتمه في سن مبكر، كما كان يزج به في حلقات العلم والعلماء حتى حفظ كثيراً
من المتون والأشعار، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكر وقد لازم شيخه
عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ فيه وفور النجابة وتوقد الذكاء عهد
إليه تدريس النشأ، فأجاد وأفاد، ثم انتسب إلى المعهد العلمي بالرياض ثم
انتسب إلى كلية الشريعة ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، وكان في كل ذلك
مثال الجد والاجتهاد والحيوية والنشاط، فَدَرَسَ ودرَّس، وأجاد وأبدع وحسن
مدخله ومخرجه - رحمه الله - .

ثانياً: شيوخه:

لازم الشيخ علي - رحمه الله - كثيراً من العلماء وكان من أهم وأقرب شيوخه
إليه والذين أثروا في حياته العلمية هو فضيلة العلامة عبدالرحمن بن ناصر
السعدي وفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ
عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمهم الله
جميعاً - . وكذلك درس على يد سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه
الله تعالى وفضيلة الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله .

(*) هذه النبذة أفادنا بها أولاد الشيخ علي الصالحى - رحمه الله - وفضيلة الشيخ عبدالله المعتاز حفظه
الله وفضيلة الشيخ محمد العثمان القاضي . أمين المكتبة الصالحية بعنيزة . حفظه الله . ونشر في
جريدة الجزيرة عدد ٨٠٨٤ في ١٣/٦/١٤١٥هـ وفي جريدة المدينة العدد ١١٥٧٢ في
١٤١٥/٧/٤هـ .

ثالثا: تلاميذه:

قد أسند الشيخ السعدي إلى الشيخ علي تدرّيس صغار طلبة العلم وهو في سن مبكر. أما تلاميذه ومن تعلموا على يديه فهم جمع غفير ومن أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين - حفظه الله تعالى - .

وكذلك من أبرزهم: عبد الرحمن اليوسف الشبل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، وعبد العزيز الغرير، وعبد الله وعبد العزيز السليمان القاضي ومحمد عثمان القاضي ومحمد وصالح الونين وغيرهم.

رابعا: أعماله ومؤلفاته:

كان الشيخ علي - رحمه الله - من أهم المؤسسين لمكتبة عيزة العامرة بأمهات الكتب، وقد كان يعمل مديراً لمستودعات الكتب بدار الإفتاء في السبعينات الهجرية وأنشأ مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم مطابع المملكة، وكان لهذه المؤسسة - بعد فضل الله تعالى - الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وظل الشيخ علي - رحمه الله - في مجال طباعة الكتب ونشر العلم حتى أرهقته الشيخوخة فعاد إلى عيزة عام ١٣٩٠هـ وهناك لم يتوقف نشاطه من أجل خدمة العلم والعلماء، وكان يأتي إلى الرياض بين الحين والآخر من أجل متابعة ومراجعة كتاب «الضوء المنير على التفسير».

أما الكتب التي ألفها وجمعها وقام على تحقيقها فهي:

- ١ - كتاب الضوء المنير على التفسير.
- فقد قام فضيلة الشيخ علي - رحمه الله - بجمع كلام العلامة ابن القيم من خلال مؤلفاته حول التفسير قرابة خمسة عشر عاما حتى جمع هذا السفر الجليل، وهو يتكون من ستة أجزاء طبع عام ١٤١٥هـ.
- ٢ - كتاب التنبيهات حول المقام ومنى طبع ١٣٩٤هـ.
- ٣ - كتاب العطار والقاسم في الميزان طبع في ١٣٨٤هـ.
- ٤ - كتاب دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين طبع ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.
- أما الكتب التي طبعها على نفقته وحسابه الخاص فهي:
- ١ - كتاب تنبيه الغافلين طبع ١٤١١هـ.

- ٢ - كتاب مجموع ابن ربيع طبع ١٤١٤هـ.
- ٣ - الربع الأول من تفسير القرآن باللغة الإنجليزية.
- ٤ - تفسير معاني القرآن الكريم كاملاً باللغة الإنجليزية.
- ٥ - رسالة الحسن بن أيوب . تحت الطبع وغيرها كثير من رسائل أهل العلم .
وهذا بجوار المشاريع الخيرية داخل وخارج المملكة مما كان لها الفضل بعد الله - عز وجل - في تعليم وتفهم الكثيرين مبادئ الإسلام وأمور الدين .

خامساً: صفاته وأخلاقه:

كان - رحمه الله - جم الخلق، جواداً، يبذل المعروف، ويدعو إليه، ويكف عن الشر، ويحذر منه مع كونه جليداً صبوراً حازماً نشيطاً في زهد وإقبال على الآخرة، لا يخشى في الله لومة لائم، كان قوياً في الحق، لا يحابي أحداً، ولا يداهن، وكان تقياً محسناً صدوقاً، وبالجملة فقد خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال: هو موت العلماء والصالحين. وقال الشاعر:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أطرافها التلف
هذا مانحسبه عنه والله حسيبه .

سادساً: وفاته:

كان - رحمه الله - دائماً يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي، ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا وإما في عمل الآخرة.

أصيب - رحمه الله - بمرض تليف الرئة، واشتد عليه المرض، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتاب «الضوء المنير» في الأجزاء الأخيرة منه وفارق الدنيا في يوم الأربعاء ٢١ من شهر جمادى الأولى سنة ١٤١٥هـ بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدؤوب، وله من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً فرحمه الله رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، ونفع الله بعلومه وجهوده إلى يوم الدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.